



جامعة عدن
كلية الآداب
قسم التاريخ
شعبة التاريخ الإسلامي

الزيدية في اليمن

دراسة في أحوالهم السياسية والحضارية

(٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ - ١٤٥٤ م)

أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في فلسفة التاريخ الإسلامي

إعداد

محمد عبدالله سعيد سالم الميسري

إشراف

الأستاذ الدكتور / رعد زهراو الموسوي

١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أشهد أن هذه الرسالة قد أنجزت تحت إشرافي بكافة مراحلها وأرشحها
للمناقشة :

المشرف العلمي : الأستاذ الدكتور / رعد زهراو مطشر الموسوي .

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ / / ٢٠٠٧ م .

رئيس وأعضاء لجنة المناقشة :

التوقيع

الاسم

- ١ - أ . د . عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع .
- ٢ - أ . د . نزار عبد اللطيف الحديثي .
- ٣ - أ . د . رعد زهراو الموسوي .
- ٤ - أ . د . خليل هاشم عباس .
- ٥ - أ . مشارك . د . شائف عبده سعيد .

الإهداء

إلى روح من اهتز كياني يوم رحيله...

... أخي حكيم.

شكر وتقدير

عرفاناً بالجميل مني إلى كل من ساعدني في انجاز هذا العمل ، أتقدم هنا بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور / عبد الكريم يحيى راصع رئيس جامعة عدن (سابقاً) ووزير الصحة (حالياً) ، والأستاذ الدكتور / عبد الوهاب راوح رئيس جامعة عدن ، والأستاذ الدكتور / أحمد علي الهمداني ، نائب رئيس الجامعة لشؤون الدراسات العليا والبحث العلمي ، والأستاذ الدكتور / أحمد سعيد بن سرور مدير عام الدراسات العليا بالجامعة ، والأستاذ الدكتور / محمد عبد الله حسين الفقيريه عميد كلية التربية – زنجبار ، والأستاذ الدكتور / حسين باسلامة عميد كلية الآداب ، والأستاذ الدكتور / نصر سالم هادي رئيس قسم التاريخ في الكلية ، والأستاذ الدكتور / نزار عبد اللطيف الحديثي رئيس لجنة مساق الدكتوراه بجامعة عدن ، والأستاذ الدكتور / عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة صنعاء ، والأستاذ الدكتور / خليل هاشم عباس أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة صنعاء ، والأستاذ الدكتور / محمد صالح بلعفير أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة عدن ، والأستاذ الدكتور / شائف عبده سعيد أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة عدن .

أما العرفان الأكبر والشكر الأوفر ، فهو من نصيب أستاذي ومشرفي ، الأستاذ الدكتور / رعد زهراو مطشر الموسوي ، الذي كان له الفضل الأول في إخراج هذا العمل ، وفي تهيئته وتقويمه ، ولولاه وما بذل من الجهد والنصح والإرشاد لما تمكنت من انجاز ما تم لتجازه ، كما أشكر له حسن خلقه ، وطيب معاملته ، وتواضعه الجم ، فإله يجزيه عني خير الجزاء .

ولا يفوتني أيضاً أن أخص بالشكر أساتذة ومدرسي قسم التاريخ بكلية الآداب ، وموظفي دار الإمام زيد بن علي للمخطوطات بصنعاء ، وموظفي المكتبة الوطنية بـ عدن – ولاسيما الأخت مها من قسم اليمانيات – وموظفي مكتبة مسجد أبي ذر الغفاري ، والدكتور عادل عبد الجبار عبد الوهاب ، المصحح اللغوي لهذه الرسالة .

بيان الرموز والاختصارات .

ت	:	توفي
تح	:	تحقيق
ج	:	جزء
د . ت	:	بدون تاريخ الطبع
ط	:	طبعة
ق	:	ورقة
م	:	ميلادية
مج	:	مجلد
هـ	:	هجرية

الأكوع ، هجر : إسماعيل بن علي ، هجر العلم ومعاقله في اليمن .

الحجري ، مجموع : مجموع بلدان اليمن وقبائلها .

المقحفي ، معجم : معجم البلدان والقبائل اليمنية .

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ث	الإهداء .
ج	شكر وتقدير .
ح	بيان الرموز والاختصارات .
خ	فهرس المحتويات .
١	نطاق البحث و تحليل المصادر :
١٨	تمهيد : الزيدية في اليمن (٥٦٩ – ٦٢٦ هـ / ١١٧٤ – ١٢٣٩ م) .
٤٥	الفصل الأول : العلاقات الزيدية . الرسولية حتى مقتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م :
٤٦	أولاً : قيام الدولة الرسولية وموقف الأشراف الزيدية منها .
٥٧	ثانياً : عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين (٦٤٦ – ٦٥٦ هـ / ١٢٤٩ – ١٢٥٩ م) :
٥٧	١ . الأوضاع السياسية قبيل قيام الإمام المهدي .
٥٩	٢ . قيام الإمام المهدي أحمد بن الحسين .
٦٠	٣ . موقف الأشراف الحمزيين من إمامته .
٦٥	٤ . العلاقة مع الأشراف الحمزيين :
٦٨	أ – وقعة أرتل .
٦٩	ب – وقعة قارن .
٧٢	ج – استيلاء الإمام المهدي على صعدة .
٧٥	٥ . سيطرة الإمام المهدي على صنعاء .
٧٦	٦ . التحالف ضد الإمام المهدي .
٧٨	٧ . موقف الإمام المهدي من هذه الأطراف .

الصفحة	الموضوع
٨٠	٨. الصلح بين الإمام المهدي والملك المظفر .
٨٣	٩. أسباب الخلاف بين الإمام المهدي والأمير شمس الدين أحمد .
٨٣	أ – الأسباب السياسية .
٨٤	ب – الأسباب الإدارية والمالية .
٨٧	ج – الأسباب الاجتماعية .
٨٨	١٠. شراء براش من قبل الإمام .
٩١	١١. معركة السواد ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م .
٩٢	١٢. حملة الملك المظفر على اليمن الأعلى .
٩٣	١٣. سقوط صعدة بيد الرسوليين .
٩٥	١٤. معركة نقيل الحصبات .
٩٧	١٥. محاولة قتل الإمام المهدي .
١٠١	١٦. أسباب خروج الشيخ الرصاص على الإمام المهدي
١٠١	أ – الأسباب السياسية .
١٠٢	ب – الأسباب الإدارية والمالية .
١٠٣	ج – الأسباب الاجتماعية .
١٠٤	١٧. مقتل الإمام المهدي في شوابة .
١٠٧	الفصل الثاني : الإمامة الزيدية بعد مقتل الإمام المهدي :
١٠٨	أولاً : ضعف الإمامة الزيدية و تجدد الصراع مع الرسوليين :
١١٢	١. مقتل الأمير بكتمر القلاب .
١١٣	٢. موقعة نقيل العجلة .
١١٥	٣. حصار ثلا وتلمص .
١١٨	٤. الصلح بين الطرفين .
١٢٠	٥. انقسام الأشراف الحمزيين .

الصفحة	الموضوع
١٢١	٦ . قيام الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين .
١٢٧	٧ . معركة أفاق وأسر الإمام المهدي .
١٣٠	٨ . سياسة الملك المظفر في مواجهة الأشراف .
١٣٣	٩ . وفاة الأمير علم الدين الشعبي ونتائجها .
١٣٥	١٠ . عودة التحالف بين الأشراف الزيديين .
١٣٧	١١ . حملة الملك الأشرف على اليمن الأعلى .
١٤٠	١٢ . معركة مأجل الصعدي .
١٤٤	١٣ . علاقة الملك المؤيد بالأشراف الزيديين .
١٥٠	ثانياً : إحياء الإمامة الزيدية .
١٥٣	ثالثاً : تعارض الأئمة .
١٥٦	رابعاً : إعادة تكوين الدولة الزيدية .
١٥٨	خامساً : الأوضاع السياسية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين :
١٦٢	سادساً : عودة الضعف والانقسام إلى الدولة الزيدية .
١٧٣	سابعاً : سياسة الإمام المنصور مع القوى المتمردة .
١٧٦	ثامناً : العوامل التي ساعدت على بقاء الدولة الزيدية :
١٧٦	١ . الصفات الشخصية للإمام المنصور .
١٧٧	٢ . دور المماليك والعبيد .
١٧٨	٣ . ثبات موقف زوجة الإمام الناصر صلاح الدين .
١٧٩	الفصل الثالث : أسباب ضعف الإمامة الزيدية :
١٨٠	أولاً : الأسباب السياسية :
١٨٠	١ . تدخل المرأة والمماليك في الإمامة .
١٨٥	٢ . مفهوم الوراثة في الإمامة عند الزيدية .
١٩١	٣ . عدم التزام البعض بشروط وأصول الإمامة .
١٩٥	٤ . غياب نظم سياسية تنظم عملية انتقال الإمامة .
١٩٧	٥ . الخلافات مع القبائل .

الصفحة	الموضوع
١٩٩	٦ . جور العمال والولاية .
٢٠١	ثانياً : الأسباب الاقتصادية :
٢٠١	١ . قوة اقتصاد الدولة الرسولية .
٢٠٩	٢ . ضعف الموارد المالية في الدولة الزيدية .
٢١٢	٣ . الأعباء المالية على العامة في الدولة الزيدية .
٢١٨	٤ . الكوارث الطبيعية والأوبئة .
٢٢١	ثالثاً : الأسباب المذهبية :
٢٢١	١ . التكفير بالموالاة .
٢٢٤	٢ . الخلافات مع المذاهب الأخرى .
٢٢٥	أ - أهل السنة .
٢٣٥	ب - الباطنية .
٢٤٠	رابعاً : الأسباب الاجتماعية :
٢٤٠	١ . التحاسد بين الأشراف الزيديين .
٢٤٢	٢ . نظام الرهائن .
٢٤٧	٣ . تعالي الإشراف على بقية فئات المجتمع .
٢٥٠	الفصل الرابع : المظاهر الحضارية في الدولة الزيدية :
٢٥٢	أولاً : المظاهر السياسية والإدارية :
٢٥٢	١ . نظام الحكم (الإمامة) .
٢٥٣	٢ . الوزارة .
٢٥٦	٣ . صاحب الباب (الحاجب) .
٢٥٩	٤ . الحسبة .
٢٦٣	٥ . الولاية .
٢٦٩	٦ . الإقطاع .
٢٧١	٧ . القضاء .
٢٧٥	٨ . ديوان الإنشاء والبريد .

الصفحة	الموضوع
٢٧٧	٩ . ديوان الوقف والوصايا .
٢٧٨	١٠ . جمع الحقوق .
٢٨١	١١ . الجيش :
٢٨١	أ - الفرسان .
٢٨١	ب - الرماة .
٢٨١	ج - المشاة .
٢٨١	د - الحرس الخاص .
٢٨٢	هـ - الجواسيس والعيون .
٢٨٣	و - أصحاب الطبلخانة والأعلام .
٢٨٤	ز - المتطوعون .
٢٨٨	١٢ . الاستحكامات الدفاعية في الدولة الزيدية :
٢٨٨	أ - المداخل .
٢٩١	ب - الأبراج .
٢٩٢	ج - الأسور .
٢٩٣	د - المزاعل .
٢٩٣	هـ - السقاطات .
٢٩٤	و - الأحواض المائية .
٢٩٥	ز - الخنادق .
٢٩٦	ح - مخازن الحبوب والأسلحة .
٢٩٦	١٣ . أنواع الأسلحة .
٢٩٨	ثانياً : المظاهر الاقتصادية :
٢٩٨	١ . الموارد المالية :
٢٩٨	أ - الخراج .
٣٠١	ب - البر والنذور .
٣٠٣	ج - المعونة .

الصفحة	الموضوع
٣٠٤	د - المصادرات .
٣٠٥	هـ - الزكاة .
٣٠٧	و - الغنائم .
٣٠٨	ز - الجزية .
٣٠٩	ح - العقوبات المالية على القبائل .
٣١٠	٢ . النفقات :
٣١٠	أ - رواتب الجند .
٣١١	ب - تجهيز الحملات العسكرية .
٣١٢	ج - العطايا والهبات .
٣١٥	د - الصدقات .
٣١٦	هـ - شراء الحصون وعمارتها
٣١٧	و - بناء القصور والمساجد ونفقاتها .
٣١٩	٣ . الصناعة :
٣١٩	أ - صناعة البرود والملابس .
٣٢٠	ب - الصناعات الجلدية .
٣٢٠	ج - الصناعات المعدنية .
٣٢١	٤ . التجارة :
٣٢١	أ - التجارة الداخلية .
٣٢٤	ب - التجارة الخارجية .
٣٢٦	٥ . سك العملة .
٣٣٤	ثالثاً: المظاهر العمرانية والفنون الزخرفية .
٣٥٣	رابعاً: المظاهر العلمية والفكرية :
٣٥٣	١ . التدريس .
٣٦١	٢ . النشاط الأدبي : الشعر و النثر .
٣٦٧	٣ . التأليف .

الصفحة	الموضوع
٣٧٢	الخاتمة .
٣٧٦	الملاحق .
٤١٦	المصادر والمراجع .
٤٤٤	ملخص البحث باللغة الإنجليزية .

نطاق البحث وتحليل المصادر

أ) المقدمة :

إن الدارس للتاريخ الإسلامي لليمن عامة وتاريخ المناطق الشمالية والشمالية الشرقية خاصة ، يدرك الدور الكبير الذي قام به الزيدية في تلك المناطق منذ قيام دولتهم الأولى في سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٨ م على يد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، ونظراً لأهمية هذا الدور فقد حظيت الزيدية في اليمن بعدد كبير من الأبحاث والدراسات التي حاول كلٌ منها إلقاء الضوء على جانب من جوانبها ، ومع كثرة وأهمية هذه الأبحاث والدراسات ظل تاريخ الزيدية في اليمن يفتقر لمزيد من البحث والدراسة في كثير من مراحلها ، وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار الكم المهول من المخطوطات التي خلفها الأئمة وعلماء الزيدية ، والتي اشتملت على كثير من المواضيع الفقهية والأدبية والفكرية ، ناهيك عن كتب التاريخ والسير التي كان لها الأثر الأكبر في الحفاظ على تراث هذه الفرقة وتاريخها ، وما زالت مخطوطة لم تمتد لها يد التحقيق .

وبناءً على ما تقدم ، جاءت هذه الدراسة لتسهم بشكل أو بآخر في إغناء الدراسات حول تاريخ هذه المناطق ، وهي في الحقيقة تأتي استكمالاً لما كنا قد بدأناه في رسالة الماجستير التي تناولت التاريخ السياسي والحضاري للدولة الزيدية (٥٩٤ - ٦١٤ هـ / ١١٩٨ - ١٢١٨ م) ، ممثلة بالدولة التي أنشأها الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة .

إن أهمية هذا الموضوع تكمن في كونه يمثل دراسة لمرحلة تاريخية مهمة في تاريخ الدولة الزيدية في اليمن ، وهي مرحلة وإن سادها الاضطراب وعدم الاستقرار في معظم مظاهرها ، إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهلها . ومع أن الدراسات والأبحاث العلمية السابقة تناولت الحياة السياسية في الدولة الرسولية بما فيها العلاقات مع الأئمة الزيديين ، إلا أنها خصصت جل اهتمامها لدولة بني رسول ، وفي هذه الدراسة سوف نركز على الدولة الزيدية بشكل أخص ، لنلقي الضوء على التأثير الذي أحدثته قيام الدولة الرسولية على الدولة الزيدية ، وذلك لإخراج مواضيع التاريخ الإسلامي لليمن من العام إلى الخاص .

إن القيام بمثل هذه الدراسة يلقي الضوء من جانب آخر على تاريخ عدد غير قليل من الأئمة الزيديين الذين تزخر بهم هذه الفترة ، والذين حاول كل منهم قدر الإمكان النهوض بأعباء الإمامة الزيدية والرفع من شأنها ، ومهما تكن النتائج المترتبة على ذلك ، فإنها مثلت حلقة متصلة في تاريخ الزيدية في اليمن من الأهمية بمكان دراستها وتحليلها .

لقد قسمنا الدراسة على أربعة فصول ، مهدنا لها بمقدمة تاريخية موجزة لتاريخ الدولة الزيدية قبيل قيام دولة بني رسول وأبرز ما في ذلك عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة وصراعه السياسي مع الأيوبيين في اليمن ، وصراعه المذهبي مع الفرقة المطرفية ، مروراً بالأحداث التي أعقبت وفاته في سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م ، وأهمها الصراع على الحكم والإمامة بين الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن وآل الإمام المنصور بالله . و ختمناها بأهم ما ورد فيها ، والنتائج التي توصلت إليها .

وتناول الفصل الأول – الذي قسمناه إلى مبحثين – العلاقات الزيدية الرسولية حتى مقتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م ، بما في ذلك قيام الدولة الرسولية في سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، وموقف الأشراف الزيديين منها ، وعهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، ابتداءً من قيامه في سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م وموقف الأشراف الحمزيين من إمامته ، وصراعه مع هؤلاء الأشراف من جهة ، ومع الدولة الرسولية من جهة أخرى ، مع ذكر لأهم الأسباب السياسية والإدارية والمالية والاجتماعية التي أدت إلى خلاف هؤلاء الأشراف وغيرهم من الأطراف على الإمام المهدي ، وانتهاءً بمقتل هذا الإمام على أيديهم في معركة شوابة .

أما الفصل الثاني ، والذي جرى تقسيمه على ثمانية مباحث ، فيبحث في وضع الإمامة الزيدية في المدة التي تلت مقتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين . خصص الأول منها لحالة الضعف والانقسام التي انتابت الأشراف الزيديين بعد مقتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، وانفراط حلقات العقد الذي جمع بين الأشراف الحمزيين والملك المظفر ، ولا سيما بعد محاولات الأخير الحد من النفوذ الحمزي في مناطق اليمن الأعلى ، وتطويره في مناطق محددة ، تمهيداً للقضاء عليه نهائياً .

وكرس المبحث الثاني لمحاولات الإمام المهدي محمد بن الإمام المطهر بن يحيى المرتضى لإحياء الإمامة الزيدية ولاسيما بعد وفاة الملك المظفر ووصول الملك المؤيد إلى سدة الحكم في الدولة الرسولية ، إذ استغل هذا الإمام حداثة سن الملك المؤيد ومن بعده ولده المجاهد وقلة خبرتهما السياسية والعسكرية ليحرز العديد من الانتصارات التي أعادت للدولة الزيدية بعضاً من هيبتها .

وركز المبحث الثالث على مرحلة الضعف والانقسام التي عانت منها الدولة الزيدية بعد وفاة الإمام المهدي محمد ، ليس بسبب الدولة الرسولية – كما كان الحال من قبل – وإنما بسبب تعارض أربعة من الأئمة ، وإدعاء كلٍّ منهم أحقيته بالإمامة ، مع ما نتج عن ذلك من حروب وصراعات أضاعت الجهود التي بذلها الإمام المهدي محمد قبل ذلك .

وأولى المبحث الرابع عنايةً بدراسة الخطوات والجهود التي قام بها الإمام المهدي علي بن محمد من أجل إعادة تكوين الدولة الزيدية واستعادة أمجادها القديمة ، مستغلاً في ذلك حالة الملل والفتور التي أصابت الأشراف الزيديين بعد عقدين من الحروب المستمرة فيما بينهم البين ، وانشغال الملوك الرسوليين بترتيب أوضاعهم الداخلية .

وتناول المبحث الخامس من هذا الفصل الأوضاع السياسية والعسكرية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، وعلاقاته بالأشراف الزيديين من جهة وسلاطين بني حاتم الهمدانيين والملوك الرسوليين من جهة أخرى .

بينما درس المبحث السادس حالة الفوضى والاضطرابات التي أعقبت وفاة الإمام الناصر في سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م ، وما تلا ذلك من صراعات خاضها الإمام المنصور بالله علي بن صلاح مع مختلف الأطراف التي استغلت هذه الحالة كالأشراف المنشقين عن الدولة الزيدية و الرسوليين الراغبين في استعادة سيطرتهم على اليمن الأعلى والقبائل التي تضررت من السياسات التي انتهجها الإمام الناصر – في حياته – والباطنية التي تختلف مذهبياً مع الدولة الزيدية وعانت الأمرين منها بسبب هذا الاختلاف .

أما المبحث السابع فتطرق لسياسة الإمام المنصور بالله علي بن صلاح وتعامله مع هذه الأطراف التي تألب البعض منها لقتله والقضاء على إمامته ، بينما سعى البعض الآخر للقضاء نهائياً على الدولة الزيدية .

وأخيراً تناول المبحث الثامن العوامل التي ساعدت الإمام المنصور بالله علي على الصمود في وجه هذه التحديات الكبيرة ، والتي كان في مقدمتها الصفات القيادية فيه كالشجاعة والصبر والإقدام وغيرها من الصفات ، فضلاً عن مساعدة المماليك والعبيد له ، وجهود والدته وثبات موقفها في هذا الصراع .

وفي الفصل الثالث جرى بحث أسباب ضعف الإمامة الزيدية – في مدة موضوع البحث – والتي تم تقسيمها على ثلاثة مباحث :

خُصص الأول منها للأسباب السياسية التي نعتقد بأنها كانت وراء ضعف الإمامة وأهمها : تدخل المرأة والمماليك المباشر في شؤون الإمامة – ولاسيما بعد وفاة الإمام المنصور بالله علي بن صلاح – ووجود مفهوم الوراثة في الإمامة لدى بعض الأشراف الزيديين من آل الأئمة ، وعدم الالتزام من قبل البعض بشروط وأصول الإمامة الزيدية عند تنصيب الأئمة ، وغياب نظم سياسية تنظم عملية انتقال الإمامة من شخص إلى آخر ، والتمردات القبلية ، وجور الولاة وظلمهم للعامّة .

أما المبحث الثاني فتناول الأسباب الاقتصادية لهذا الضعف وأبرزها قوة اقتصاد الدولة الرسولية التي تمكنت من خلاله من امتلاك الحصون وإرسال الخزائن وتجهيز الحملات العسكرية على الدولة الزيدية وضم المنشقين عنها ، وشراء الولاءات من القبائل ، كما تناول هذا القسم الأعباء المالية المفروضة على العامة في الدولة الزيدية ، وضعف الموارد المالية لها ، وعجزها عن تغطية نفقاتها ، ناهيك عن الكوارث الطبيعية والأوبئة التي ضاعفت من الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتقها ، وأسهمت بشكل أو بآخر في إضعافها .

وفي المبحث الثالث تم دراسة الأسباب المذهبية التي أدت إلى ضعف الإمامة الزيدية – من وجهة نظرنا – وعلى رأسها مسألة التكفير بالموالاة لأصحاب المذهب الزيدي ، والخلافات مع أهل السنة التي وصلت إلى حد الصدام في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، والصراع مع الباطنية .

وتطرق المبحث الرابع للأسباب الاجتماعية ولعل منها التحاسد بين الأشراف على الحكم والإمامة مما دفعهم إلى الصراع عليهما ، ووجود نظام الرهائن لضمان الطاعة في الدولة الزيدية الذي عمق الشقّة بينها وبين القبائل ، وتعالى الأشراف الزيديين على بقية فئات المجتمع مما أدى إلى تعزّالهم عنها .

وكرس الفصل الرابع للمظاهر الحضارية في الدولة الزيدية ، والتي جرى دراستها على وفق أربعة مباحث :

- المبحث الأول : تناول المظاهر السياسية والإدارية في هذه الدولة كنظام الحكم (الإمامة) والوزارة والحسبة والحجّابة والولاية والإقطاع والقضاء والدواوين كديوان الوقف والإنشاء والبريد وجمع الحقوق والجيش ، فضلاً عن الاستحكامات الدفاعية وأنواع الأسلحة .
- المبحث الثاني : تناول المظاهر الاقتصادية كالموارد المالية من خراج وبر ونذر ومعونة ومصادرات وزكاة وغنائم وجزية وعقوبات على القبائل وغيرها من الموارد التي استعانت بها الدولة في سد نفقاتها وفي مقدمتها رواتب الجند وتجهيز الحملات العسكرية والهيّبات والصدقات وشراء الحصون وعمارته وبنائها القصور والمساجد وغيرها من النفقات . كما تناول هذا المبحث الصناعة والتجارة وسك العملة في الدولة الزيدية .
- المبحث الثالث : تناول المظاهر العمرانية والفنون الزخرفية وأهم العناصر المعمارية في هذه المظاهر .
- المبحث الرابع : تناول المظاهر العلمية والفكرية كالتدريس والنشاط الأدبي في مجال الشعر والنثر والتأليف .

ب (تحليل المصادر :

لاشك أن قيمة أي بحث تاريخي يعتمد بالدرجة الأولى على الموضوع الذي تم تناوله فيه والمنهج العلمي الذي أعتمد عليه في الدراسة ، وقبل هذا وذاك تكون المصادر التاريخية – المخطوطة والمطبوعة – هي المقياس الأبرز عند تقييم أي عمل ، فمن خلالها يستطيع الباحث استقاء المعلومات الأقرب إلى الصحة ويستطيع أيضاً بلورة أفكاره وتنظيمها ومقارنتها وتحليلها .

ويبدو أنه من حسن حظ الباحثين والمؤرخين المهتمين بدراسة الزيدية كدولة وفكر ومذهب ، أن تقوم في الآونة الأخيرة عملية إحياء – إن صح التعبير – لتراث هذه الفرقة وتاريخها من قبل بعض المهتمين بهذا الشأن . وبغض النظر عن الهدف الرئيس من هذه العملية ، إلا أن الاستفادة منها – تاريخياً – كانت كبيرة ، فقد قامت مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، ومركزها عمان ، بحركة تحقيق وطبع وإخراج لعشرات من المخطوطات الزيدية ذات المواضيع المختلفة ⁽¹⁾ ، فتأاحت للباحثين الإطلاع على العديد من المخطوطات التي كانت فيما مضى حبيسة الأدرج في المكتبات الخاصة وسهلت المهمة بالنسبة لمن وجد صعوبة في الإطلاع على المخطوطات المحفوظة في مكتبات الجامع الكبير بصنعاء ، وفي الاتجاه نفسه قامت هذه المؤسسة ممثلة بفرعها في صنعاء ، دار الإمام زيد بن علي الثقافية وعلى رأسها الأستاذ عبد السلام بن عباس الوجيه بتصوير المئات من المخطوطات ⁽²⁾ رقمياً ، مع العلم أن بعض هذه المخطوطات لا يوجد في مكتبات الجامع الكبير لكونه صُور من مكتبات بعض العلماء والفقهاء الزيدية ، الذين استأثروا بها خوفاً عليها من التلف نتيجة الاستخدام ، فكان التصوير الحل الأفضل للإطلاع عليها .

⁽¹⁾ للإطلاع على هذه المواضيع وغيرها مما هو تحت التحقيق والطبع ، انظر : ابن فند : محمد بن علي ، مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار ، ويسمى : اللواحق الندية بالحدائق الوردية (شرح بسامة السيد صارم الدين الوزير) ، تح : عبد السلام بن عباس الوجيه وخالد قاسم محمد المتوكل ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، ج ٣ : ١٤٩١ وما بعدها .

⁽²⁾ للإطلاع على أسماء هذه المخطوطات ، انظر فهرستها في دار الإمام زيد بن علي الثقافية ، ويمتلك الباحث نسخة منها .

أولاً: المصادر المخطوطة :

وهي في معظمها تتناول السير والتراجم ، بحكم العادة عند المؤرخين الزيديين في تدوين سير أئمتهم وترجمة لأبرز علمائهم وفقهائهم وأشرفهم ، وأهم هذه المخطوطات :

١ . " **سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين** " ، لمؤلفها السيد شرف الدين يحيى بن القاسم بن يحيى الحمزي المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وهي تحت التحقيق كما أخبرت من بعض القائمين على دار الإمام زيد بن علي ، وتقع في ما يقرب من مائة وثلاثين ورقة تتناول سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، ويعد هذا المصدر الحجر الأساس التي استندنا عليه حين تناولنا عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، لأن مؤلفه — آنذاك — شاهد حي على الأحداث ، ومساهم فيها ، ومن أقرب المقربين إلى الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، دلت على ذلك الألفاظ التي أشار إليها المؤلف بقوله : " فلما وصلنا إلى مدينة ثلا استقبلنا (الإمام) ... ولم ألبث أن خلا بي وأعلمني القصة وما قد عزم عليه وأبرمه من أخذ كوكبان " (١) ، وعلى الرغم من أنه من الأشراف الحمزيين فإنه كان يحظى بمنزلة كبيرة عند الإمام المهدي جعلته يؤكل إليه مهمة جمع سيرته .

ولذلك كانت الاستفادة من هذا المصدر كبيرة في كل ما يخص الإمام المهدي بما في ذلك علاقته بالأشراف الحمزيين وموقف هؤلاء الأشراف من إمامته والحروب التي خاضها معهم ومع غيرهم من الرسولين والسلطين الحاتمين ، والأسباب الموجبة للخلاف مع كل هؤلاء ، كما استندنا منه بشكل كبير في استنباط بعض أسباب ضعف الإمامة الزيدية ولاسيما ما يتعلق منها بالأسباب المذهبية وتكفيره لكل موال للرسولين من الأشراف الزيديين والقبائل ، وكذا موقفه من أهل السنة والباطنية ، فضلاً عن استخلاص بعض المعلومات المهمة في الجوانب الحضارية . إلا أنه يجب — في الأخير — التنويه على أمر مهم عند التعامل مع مثل هذه المصادر ، وهو الحذر عند الاستعانة بما ورد فيها

(١) السيد شرف الدين : يحيى بن القاسم بن يحيى ، سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٤) (سير وتراجم) ، ق ٤٦ أ .

من معلومات ، لما يشوبها من التحيز حيناً ، والمبالغات حيناً آخر شأنها شأن كتب السير عند المؤلفين .

٢ . " **مجموع كتب ورسائل الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة** " ، وهي عبارة عن مجموعة كتب ورسائل ، كتبها الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ، المتوفى في سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، إلى جهات داخلية وخارجية ، ولم يسعنا الحظ بمعرفة جامعها ، و تقع فيما يقرب من ثلاثمائة ورقة ، وتحتوي ردوداً على بعض من اعترض عليه في بعض المسائل — كالأخذ من الصدقات على سبيل التمثيل — وعهوداً لبعض ولاته وقضاته ، وجوابات على بعض العلماء والفقهاء من أهل السنة فيما يخص المسائل الخلافية بين المذهبين وعلى رأسها أثبات أو نفي الأسماء والصفات لله جل في علاه ، وقد استفدنا من هذا المصدر كثيراً فيما يتعلق بالعلاقة بين الأئمة الزيديين وأهل السنة ، وكذا ما يخص بعض المظاهر الحضارية في الدولة الزيدية كالولاية والقضاء والجيش والموارد المالية وأوجه نفقاتها ، وغيرها من المظاهر .

٣ . " **كاشفة الغمة عن حسن سيرة إمام الأئمة** " ، للهادي بن إبراهيم الوزير المتوفى في سنة ٨٢٢ هـ / ١٤٢٠ م ، وتقع في مائة وثلاثة وتسعين ورقة ، وألفت — بشكل خاص — للرد على الاعتراضات التي أثرت ضد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، وجملتها عشرون اعتراضاً ، نخص بالذكر منها الاعتراض على بعض المناصب الإدارية المستحدثة في الدولة الزيدية ، كالحجابة والحرس الإمامي الخاص ، والطبلخانة . ومع أن الجزء الأكبر من هذا المصدر قد خصص لذكر صفات الإمام الناصر ومناقبه وأقواله ومؤلفاته ، إلا أننا استفدنا منه كثيراً في ما يتعلق بالمظاهر الحضارية في الدولة الزيدية استناداً إلى الاعتراضات العشرين التي وردت فيه .

٤ . " **سيرة الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى** " ، المسماة : " **كنز الحكماء وروضة العلماء** " ، لولده الحسن بن أحمد بن يحيى المرتضى المتوفى في سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م وهي من المؤلفات المهمة ، وتقع في ما يقرب من مائة وثلاثين ورقة ، وقد كانت الاستفادة منها كبيرة ، ولاسيما أن مؤلفها من الملازمين للإمام المهدي ، ومن المعاصرين للأحداث التاريخية ، ولعل أهم

ما استفدناه منها – فضلاً عن أخبار الصراع بين الإمام المهدي والإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، وعلاقته الأول بالإمام الهادي علي بن المؤيد – بعض المعلومات التي نظن أنها أسهمت بشكل أو بآخر في إضعاف الإمامة الزيدية كموضوع الخلافات مع القبائل وأسبابها ، وأساليب التعامل معها .

٥ . " نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام في اليمن من الملوك

الكبار والدعاة الأخيار " (١) ، لعماد الدين إدريس بن الحسين بن عبد الله بن علي الأنف بن محمد بن حاتم القرشي المتوفى في سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧ م وهي أيضاً من المصادر المهمة التي لا غنى للباحث من الاستعانة بها عند الحديث عن العلاقات بين الأئمة الزيديين من جانب ، والملوك الرسوليّين والدعاة الإسماعيليين من جانب آخر ، ولاسيما أن مؤلفها أكبر مؤرخ إسماعيلي ، والداعي التاسع عشر للدعوة الإسماعيلية في اليمن ، وعلى ما خلفه من المؤلفات ، يعتمد أغلب المؤرخين والباحثين في دراساتهم وأبحاثهم عن هذه الدعوة ، فضلاً عن العلاقات السياسية التي كانت تربطه ببعض الملوك الرسوليّين والأشراف الزيديين .

٦ . " الترجمان المفتاح لثمرات كمائم البستان " ، لمؤلفها محمد بن أحمد بن

يحيى بن المظفر المتوفى في سنة ٩٢٦ هـ / ١٥١٩ م ، وهي شرح لبسامة (قصيدة) السيد صارم الدين الوزير التي تناول فيها أحوال الأئمة من آل البيت من نسل الإمام زيد بن علي بما فيهم الأئمة في اليمن ، ومع أنه يُعتقد أن ابن المظفر – كما هو الحال مع الشرفي – حاكي في هذا العمل ابن فند ، إلا أنه لا يمكن الجزم أيهما نقل من الآخر بحكم التقارب الزمني بينها ، وعلى أية حال ، و على الرغم من تكرار بعض المعلومات في هذين المصدرين بشكل يوحي بالنقل الحرفي ، فإن الفائدة التي وجدناها من استخدامهما معاً تكمن في إضافة بعض هذه المصادر لمعلومات لا توجد في غيرها ، نذكر منها على سبيل التمثيل ، تلك الرسالة التي بعث بها الإمام الناصر إلى القاضي

(١) ستكون الاستفادة من هذه المخطوطة أعم وأشمل ، لو تم تحقيقها وطبعها ، ولا سيما أنها لا توجد إلا خارج اليمن ، أو في بعض المكتبات الخاصة التي ليست في متناول الجميع .

عبد الله بن حسن الدواري بصعدة ، والتي استدللنا منها تعرض الدولة الزيدية
لأزمات اقتصادية حتى في أزهى عهدها .

٧ . " تاريخ السادات العلماء الكمل من بني الوزير " (الفضائل) ، لأحمد بن

عبد الله بن الوزير المتوفى في سنة ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م ، والمكونة من
مائة وثمان وخمسين ورقة ، وهي في حقيقة الأمر استكمالاً لما كان بدأه -
جده - السيد الهادي بن إبراهيم الوزير من تراجم آل الشريف محمد بن
المفضل العفيف الملقب بالوزير ، إلا أن أهم ما استفدناه من هذا المصدر ، ما
يتعلق بالمظاهر العمرانية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد ، فله
قصب السبق في ذكر أهم الانجازات العمرانية التي شهدتها الدولة الزيدية في
عهد الإمام الناصر ، كما أنه ينفرد بذكر بعض المعلومات النادرة عن هذا
الإمام وغيره من الأئمة .

٨ . " اللآلئ المضيئة في أخبار أئمة الزيدية " ، لأحمد بن محمد بن صلاح

الشرفي المتوفى في سنة ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م ، وهي ثلاثة أجزاء ، يعد
الثالث منها استكمالاً لما بدأه ابن فند وابن المظفر في كتابيهما ، إلا أن ما
يميز الشرفي عنهما تفرد به بالعديد من التفاصيل المهمة التي أغفلها ، واستقائه
لمعلوماته من مصادرها الأصلية كالسير التي فقد بعضها ، ولذلك كانت
الاستفادة - فيما يخص بحثنا - من الجزء الثاني كبيرة ، مقارنة بما وجدناه
عند ابن فند وابن المظفر ، وستكون الاستفادة أعظم - مستقبلاً - فيما لو
جرى تحقيق أجزاء هذه المخطوطة كاملة .

٩ . " تنمة الإفادة في تاريخ الأئمة السادة " ، ليحيى بن علي بن محمد

الحبسي المتوفى في سنة ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م ، وهي تعد استكمالاً لتراجم
الأئمة الزيديين التي ابتدأها الإمام الناطق بالحق يحيى بن الحسين المتوفى في
سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م ، في مخطوطته الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ،
وعلى الرغم من الاختصار في معلوماتها ، فإنها تختص بذكر بعض
المعلومات عن الأئمة الذين شملتهم دراستنا دون سواها من المصادر .

ثانياً : المصادر المطبوعة :

- ١ . " مجموع رسائل الإمام المهدي أحمد بن الحسين " ، للإمام المهدي أحمد بن الحسين المتوفى في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م ، وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل التي جمعت ، والتي كان الإمام المهدي وجهها إلى العامة وإلى المعترضين على إمامته من الأشراف الحمزيين ومن حالفهم ، ورد فيها على المآخذ التي أدعوها عليه ، وأبرزها رسالته الشهيرة " حليفة القرآن " التي سميت كذلك لكثرة ما استشهد به فيها من الآيات القرآنية ، وقد كان لهذه الرسائل فائدة كبيرة لما احتوت عليه من المعلومات التي لم ترد حتى في السيرة ، فكان هذا الكتاب الجزء المكمل لها .
- ٢ . " السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن " ، للأمير بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل الياضي الهمداني ، المتوفى بعد سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م ، وهو من أوائل وأهم المصادر التي أرخت لبيدات الدولة الرسولية ، ومعها أرخت للأئمة الزيديين الذين عاصروها ، صحيح أن ابن حاتم أرخ كتابه من سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م أي منذ خضوع اليمن للفتح الأيوبي ، إلا أنه يعد أوسع مصدر لتاريخ الدولة الرسولية خلال عهدي الملكين المنصور نور الدين عمر بن علي ، وابنه المظفر يوسف بن عمر ، ونعم إن بعض المؤرخين قد ضمنوا مصنفاتهم فصولاً عن هؤلاء الملوك ، ولكن لا شيء يوازي ما ورد في " السمط " عن العهدين الأيوبي والرسولي في الحقبين المشار إليهما آنفاً . وقد ساعدنا هذا الأمر في تغطية النقص الحاد الذي وجدناه في المعلومات فيما يتعلق بالعلاقات الزيدية - الرسولية بعد وفاة الإمام المهدي أحمد بن الحسين حتى قيام الإمام المهدي محمد بن المطهر ، كما مثل لنا هذا المصدر عامل توازن ومقارنة حتى لا ننجر وراء كل ما ذكرته المصادر الزيدية المنحازة أصلاً للأئمة الزيديين وتكمن أهمية هذا المصدر في كون مؤلفه من المعاصرين للأحداث التاريخية ، بوصفه أميراً من أمراء الدولة الرسولية ، وليس ناقلاً لها ، وهذا يضيف نوعاً من المصداقية على المعلومات التي وردت فيه .

٣. " **كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار** " ، لعماد الدين إدريس بن علي بن عبد الله الحمزي ، الذي عاش في الفترة من سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م إلى سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م ، وهو عبارة عن كتاب شامل للتاريخ الإسلامي ، وقد قام عبد المحسن مدعج المدعج بتحقيق الجزء الخاص باليمن (الجزء الرابع) وسماه تاريخ اليمن وربطه بعنوان الكتاب الأم : **" تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار "** . وكتابه هذا هو ثاني المصادر المهمة التي وصلتنا عن العلاقات الزيدية - الرسولية حتى عهد الملك المؤيد داؤد بن يوسف . وتكمن أهمية هذا المصدر في كون مؤلفه أحد الشخصيات المشاركة في صناعة الأحداث ، فهو أحد قادة السلطان المؤيد ، وعلى الرغم من كونه زيدي المذهب فإنه حارب إلى جانب الدولة الرسولية ضد الأئمة الزيديين - كما فعل أبيه من قبل - وهذا يلقي الضوء على الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الزيدية بسبب استغلال الملوك الرسوليين للخلافات التي كانت تحدث بين الأشراف الزيديين وأئمتهم من حين إلى آخر .

٤. " **بهجة الزمن في تاريخ اليمن** " ، لتاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني المتوفى في سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م ، ويعد هذا الكتاب من المؤلفات ذات القيمة التاريخية لاحتوائه على أحداث سياسية ذات أهمية كبيرة ، ولمعاصرة مؤلفه لأحداث الدولة الرسولية التي كان يعمل بديوان الإنشاء فيها في عهد الملك المؤيد داؤد بن يوسف ، ولذلك كثيراً ما استقينا منه المعلومات عن العلاقات الزيدية - الرسولية عموماً ، وفي عهد الملك المؤيد خصوصاً ، ونعده مكملاً لما كان قد بدأ به الأمير عماد الدين إدريس بن علي بن عبد الله الحمزي في مؤلفه **" كنز الأخبار "** ، والذي توفي في سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م .

٥. " **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية** " لموفق الدين أبي الحسن علي بن الحسن الخزرجي المتوفى في سنة ٨٠٢ هـ / ١٤١٠ م وتكمن أهمية هذا الكتاب في كونه من أكثر المصادر تفصيلاً للأحداث التي تعرضت لها الدولة الرسولية بعد كتاب **" السمط الغالي الثمن "** لابن

حاتم ، ومع أن هذا الكتاب المكون من جزأين ركز جل اهتمامه على أحوال الدولة الرسولية وملوكها ، إلا أنه مثل لنا المصدر الذي اعتمدنا عليه في توضيح علاقة الأشراف الزيديين وأئمتهم بملوك الدولة الرسولية خلال المدة بين عهدي الملك المجاهد علي بن داؤد (٧٢١ - ٧٦٤ هـ / ١٣٢٢ - ١٣٦٣ م) ، والملك الأشرف إسماعيل بن عباس (٧٧٨ - ٨٠٢ هـ / ١٣٧٧ - ١٤٠٠ م) .

٦. " روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار في الحصون

والأمصار " لعماد الدين إدريس بن الحسين بن الأنف صاحب كتاب :
" **نزهة الأفكار** " ، ويعد هذا الكتاب الجزء الثاني - إن صح التعبير - المكمل لما جاء في " نزهة الأفكار " التي تتوقف الأحداث فيها عند نهاية عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، بينما يبدأ " روضة الأخبار " بسرد الأحداث التي تلت وفاة الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، ولذلك اعتمدنا على هذا الكتاب بشكل رئيس عند تناول الأحداث التي مرت بها الدولة الزيدية بعد وفاة الإمام المنصور ، ولاسيما أن مؤلفه من المعاصرين لتلك الأحداث ، كما أنه ينفرد بذكر بعض التفاصيل والمعلومات التي تغافل المؤلفين الزيديين عن تناولها أو تعمدوا ذلك لأسباب مذهبية ، ويعد هذا الكتاب المصدر الرئيس لكل راغب في دراسة العلاقات الزيدية - الطاهرية حتى سنة وفاة المؤلف .

٧. " قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون " ، وهو من أشهر مؤلفات أبو

الضياء وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن الديبع المتوفى في سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م ، و التي كتبت عن تاريخ اليمن في الحقبة الإسلامية ، ومع أن ابن الديبع يعد مؤرخ الدولة الطاهرية - إن صح التعبير - إلا أنه ينفرد بمعلومات قيمة عن الدولة الرسولية وصراعاتها مع الأئمة الزيديين ، وجاءت هذه المعلومات توضيحية أحياناً ، وتأكيديّة أحياناً أخرى ، لأن مؤلفها قد اعتمد في كتابه هذا على مؤلفات من سبقه من المؤرخين كابن حاتم والخزرجي وابن عبد المجيد .

٨. " **مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار** " لمحمد بن علي بن يونس الزحيف المعروف بابن فند المتوفى في سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م ، ويسمى : " **اللاواق الندية بالحدائق الوردية** " ، وهو أيضاً شرح لبسامة السيد صارم الدين الوزير ، ويتكون من ثلاثة أجزاء ، قام السيد عبد السلام بن عباس الوجيه والسيد خالد قاسم محمد المتوكل بتحقيقها ، وقامت مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية في عمان بطبعها ، ومع أن المعلومات التي فيها مختصرة بعض الشيء مقارنة بما وجدناه عند الشرفي إلا أن عملية تحقيقها وطبعها جعلت أمر الاستعانة بها سهلاً ومفيداً ، ولاسيما في الفصل الثاني والثالث من هذه الرسالة لما تحويها من معلومات تتعلق بالعلاقة مع أهل السنة والباطنية ، وبذكر بعض المظاهر الحضارية التي عرفتھا الدولة الزيدية .

٩. " **غاية الأمان في أخبار القطر اليماني** " ، ليحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي المتوفى في سنة ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م ، وهو من المصادر المهمة في تاريخ اليمن الإسلامي ، وعلى الرغم من ميله الجلي لأنمة المذهب الزيدي الذي ينتسب إليه ، فإن الباحث في تاريخ الدولة الزيدية في اليمن لن يجد مناصاً من الاستعانة به لما يحويه من معلومات تاريخية غاية في الأهمية عن هذه الدولة ، وإذا كنا قد وجدنا بعض المعلومات الموجودة عند ابن الحسين في العديد من المصادر الأخرى ، فإن هذا المصدر ، هو الوحيد - حسب علمنا - الذي يتناول بالتفصيل الأوضاع السياسية والعسكرية في عهدي الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي وولده الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، بما في ذلك التمردات القبليّة التي أعقبت وفاة الإمام الناصر ، والطريقة التي تعامل بها الإمام المنصور مع هذه التمردات ، والسبب يكمن - على ما يبدو - في فقدان المصادر الأصلية التي اعتمد عليها ابن الحسين في استقاء هذه المعلومات .

١٠. " **طبقات الزيدية الكبرى** " ، ويسمى : " **بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد** " (القسم الثالث) ، لإبراهيم بن القاسم بن الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم المتوفى في سنة ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م ، ويتكون هذا الكتاب

من ثلاثة أجزاء ، قام السيد عبد السلام بن عباس الوجيه بتحقيقها وقامت مؤسسة الإمام زيد بن علي بطبعها وإخراجها ، ويختص هذا القسم بمن روى عن الأئمة من آل البيت ممن عاش في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وصولاً إلى القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، ويزخر بتراجم العديد من الأئمة وعلماء وفقهاء وشيوخ الزيدية ، الذين كان لبعضهم دور بارز في مجرى الأحداث السياسية ، ويعد مصدر لا غنى عن الاستفادة منه والرجوع إليه عند الكتابة عن الزيدية ، ونتمنى أن يرى القسم الأول والثاني من هذا الكتاب النور قريباً لتعم الفائدة وتشمل العلماء والفقهاء والشيوخ المعترين عند الزيدية منذ عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين .

كذلك تمت الاستعانة في هذه الدراسة بعدد آخر من الكتب التي لا بد من الاستعانة بها في مثل هذه المواضيع ، **ككتب البلدانيات والأنساب** ، ويأتي في مقدمتها كتاب : **" صفة جزيرة العرب "** ، للعلامة الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، المتوفى بعد سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م ، والذي لا غنى للباحث في تاريخ اليمن عموماً من الاستفادة منه لما يحويه من معلومات جغرافية مهمة عن بلدان اليمن وقبائلها وجبالها ووديانها وسهولها وحصونها ، وكتاب : **" الإكبل "** ، للهمداني أيضاً ، والذي يتكون من عشرة أجزاء لم يبق منها سوى أربعة هي : الجزء الأول وهو في مبدأ الخليقة وأصول الأنساب ونسب مالك بن حمير ، والجزء الثاني في أنساب ولد الهميسع بن حمير بن سبأ ، والجزء الثامن في محافد اليمن ومساندها ودفاننها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات ، والجزء العاشر في أخبار اليمن وأنساب حمير ، إلا أننا في هذه الرسالة استعنا بثلاثة أجزاء فقط ، هي الأول والثاني والعاشر ، وفيهما معلومات تاريخية وجغرافية عن القبائل اليمنية وفروعها وأنسابها ومناطق تواجدها ، وكتاب : **" طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب "** لمؤلفه الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول ، المتوفى سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م ، الذي اعتمدت عليه في معرفة أنساب القبائل اليمنية وفروعها ومناطقها ولا سيما ما يتعلق بالأئمة والأشراف الزيديين .

وكتب اللغة والمعجمات ومنها ، كتاب : " ترتيب مختار الصحاح " ، لمحمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازي المتوفى بعد سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م ، ومعجم : " لسان العرب " ، لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور المتوفى في سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م ، وكتاب : " القاموس المحيط " ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الملقب بـ : " الفيروز آبادي " المتوفى في سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م .

وكتب الفرق ككتاب : " فرق الشيعة " لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي المتوفى في سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م ، وكتاب : " مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين " ، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى في سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م ، وكتاب : " الفرق بين الفرق " لعبد القاهر بن طاهر البغدادي المتوفى في سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م ، وكتاب : " الملل والنحل " لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى في سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م ، وكتاب : " الفصل في الملل والأهواء والنحل " لأبي محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى في سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، وكتاب : " الحور العين " لأبي سعيد نشوان بن سعيد الحميري المتوفى في سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م .

ومراجع حديثة أخرى كانت ذا أهمية في بحثنا واستفدنا منها كثيراً ككتاب : **" أعلام المؤلفين الزيدية " ، للسيد عبد السلام بن عباس الوجيه ، وكتاب : " الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي " ، للدكتور ربيع حامد خليفة ، وكتاب : " تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي " ، للقاضي أحمد بن محمد الشامي ، ولاسيما الجزء الثالث منه ، وكتاب : " تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً من خلال النقود العربية الإسلامية " ، للأستاذ فؤاد عبد الغني محمد الشميري ، وكتاب : " مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية العربية اليمنية " ، للدكتور مصطفى عبد الله شبحه ، وكتاب : " محاريب صنعاء " ، للأستاذ غيلان حمود غيلان ، وكتاب : " الاستحكامات الحربية بمدينة زبيد " ، للأستاذ عبد الله عبد السلام صالح الحداد ، وكتاب : " مجموع بلدان اليمن وقبائلها " ، للعلامة محمد بن أحمد الحجري ، وهو في مجلدين ، يحتوي كل مجلد على جزئين ، والذي يعد ذا قيمة جغرافية ، لما تضمنه من معلومات عن بلدان اليمن وقراها وحصونها**

وقبائلها ، وكتاب : **" معجم البلدان والقبائل اليمنية "** ، لمؤلفه إبراهيم بن أحمد المقفلي ، الذي استفدت منه في توضيح مواقع كثير من البلدان والقرى والحصون التي قد لا نجدتها في المراجع الأخرى ، و كتاب : **" هجر العلم ومعاقله في اليمن "** ، للعلامة القاضي إسماعيل بن علي الأكوغ وهو كتاب من أربعة أجزاء مرتب حسب الحروف الهجائية ، ويتناول أهم الهجر التي اشتهرت بالعلم في اليمن خلال الحقبة الإسلامية ، لكن أهم ما فيه هو ذكره لترجمة مختصرة عن الشخصيات البارزة من الأئمة والعلماء والمشائخ والأعيان الذين سكنوا هذه الهجر وانتسبوا إليها ، وكتاب : **" البلدان اليمنية عند ياقوت الحموي "** ، للقاضي إسماعيل الأكوغ أيضاً ، الذي أخذ على عاتقه توضيح البلدان اليمنية التي وردت في معجم ياقوت الحموي ، مع تصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها ؛ نظراً لبعده عن بلاد اليمن واعتماده في معلوماته على نقل الأخبار والرحالة ، وكتاب : **" المعجم الوسيط "** ، لإبراهيم مصطفى وآخرين ، وكتاب : **" الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار "** ، لحسن الباشا وكتاب : **" محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية "** ، لبطرس البستاني ، وكتاب : **" معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية "** ، لمصطفى عبد الكريم الخطيب، وكتاب : **" معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي "** ، لمحمد أحمد دهمان .

وختاماً ، فإن المتصفح لكتاب أبصر بمواضع الخلل من مُبتدئ تأليفه ، وما يقال عن هذه الدراسة سلباً أو إيجاباً ، فأنا قد بذلنا فيها الطاقة والوسع ، ورجونا من الله العون والسادد ، ولكل مجتهد نصيب مما أصاب أو أخطأ والله من وراء القصد .

تمهيد : الزيدية في اليمن (١٣٦٠ هـ / ١١٧٤ - ١٣٢٩ م)

إن الباحث في تاريخ اليمن الإسلامي عامة ، والدولة الزيدية في اليمن خاصة ، يدرك الدور الكبير الذي قام به الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (١) في إحياء هذه الدولة بعد ما يربو عن الربع قرن من الغياب عن مسرح الأحداث السياسية ، كانت بدايتها مع وفاة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٢) في سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م ، ولم تنته إلا بقيامه في سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م ، لذلك يعد هذا الإمام المؤسس الفعلي للدولة الزيدية الثانية في اليمن ، بعد الدولة الأولى التي أسسها الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (٣) في سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٨ م .

(١) هو أبو محمد عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن ابن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله . . . بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ولد في عيشان بظاهر همدان ، في الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م . كان فاضلاً ، ورعاً ، عالماً في الفقه ، واللغة ، أدبياً ، وشاعراً ، وخطيباً بليغاً ، له العديد من المؤلفات أهمها : (العقد الثمين) ، (المهدب) ، (الشافي) ، (مجموع رسائل) . انظر : المحلي : حسام الدين حميد بن أحمد ، الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية ، تح : المرتضى بن زيد الحسني ، مطبوعات مكتبة مركز بدر العلمي والثقافي ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، ج ٢ : ٢٤٧ . ابن فند ، مآثر الأبرار ، ج ٢ : ٧٩٩ . الميسري : محمد عبد الله ، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ودوره في إحياء الدولة الزيدية في اليمن ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٢٩ .

(٢) هو أبو الحسن أحمد بن سليمان بن محمد المطهر بن علي بن أحمد بن يحيى بن الحسين . . . بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ولد في سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م ، في منطقة حوث ، وقام بأمر الإمامة الزيدية في سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م ، وعمره لم يتجاوز اثنين وثلاثين سنة ، كانت له وقائع مشهورة مع السلطان حاتم بن أحمد الياحي الهمداني على صنعاء ونواحيها . انظر : المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ٢ : ٢١٩ . إبراهيم بن القاسم ، طبقات الزيدية الكبرى (القسم الثالث) ، ويسمى : " بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد " ، تح : عبد السلام بن عباس الوجيه ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م ، ج ١ : ١٣٢ المهرم : مصلح ضيف الله يحيى علي ، قيسات من سيرة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ، ص ٩ .

(٣) هو أبو محمد يحيى بن الحسين بن القاسم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ولد في سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م ، بجبل الرس من بلاد الحجاز على مقربة من المدينة المنورة نشأ في بيئة شيعية ، وعقدت له البيعة في سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٤ م وهو ابن خمس وثلاثين سنة . كان عالماً فقيهاً ، شاعراً فصيحاً ، توفي بمدينة صعدة في العشرين من شهر ذي الحجة من =

وقد اتسم عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بسمتين أساسيتين انعكستا بشكل واضح على الأوضاع الداخلية في الدولة الزيدية :

الأولى : الصراع السياسي مع الأيوبيين في اليمن .

والثانية : الصراع المذهبي مع المطرفية .

أولاً: الصراع السياسي مع الأيوبيين في اليمن :

بغض النظر عن الأسباب ^(١) التي دفعت الأيوبيين إلى فتح اليمن في سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ^(٢) ، فقد توجه الملك المعظم توران شاه من مصر بحراً على

= سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١ م ، وعمره ثلاث وخمسون سنة ، ترك العديد من المؤلفات التي بلغت أربعين ونيفاً . انظر : المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ٢ : ٢٥ . ولمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذا الإمام ، انظر : الكتب التالية : العلوي : علي بن محمد العباسي ، سيرة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، تح : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م . علي محمد زيد ، معتزلة اليمن دولة الهادي وفكره ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١ م . حسن خضير أحمد ، قيام الدولة الزيدية في اليمن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٦ م .

^(١) عن هذه الأسباب انظر : ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الشيباني ، الكامل في التاريخ ، تح : مكتب التراث ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ج ٧ : ٢٣٧ . ابن عبد المجيد : تاج الدين عبد الباقي ، بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تح : عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني ، دار الحكمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١٢٧ . ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ، البداية والنهاية في التاريخ ، دار النقوى ، شبرا الخيمة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، ج ١٢ : ٢٩١ . الخزرجي : موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن ، المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطوط مصور ، وزارة الإعلام والثقافة ، مشروع الكتاب ٦ / ١ ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ق ١٤٦ - ١٤٧ . ابن الديبع : أبو الضياء وجيه الدين عبد الرحمن بن علي ، بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد وبذيله كتاب : الفضل المزيد على بغية المستفيد ، تح : يوسف شلحد ، مركز الدراسات والبحوث ، صنعاء ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٣ م ، ص ٧٩ .

^(٢) ابن حاتم : بدر الدين محمد بن حاتم اليامي الهمداني ، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن ، تح : ركس سمث ، كمبردج ، ١٩٧٤ م ، ص ١٦ . ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات مكتبة المقدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ج ٤ : ٢٣٤ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان في أخبار القطر اليمني ، تح : سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ج ١ : ٣٢١ . جميل حرب محمود ، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، مطابع سحر ، جدة ، ط ١ ، ١٩٨٥ م ، ص ٩٩ . السروري : محمد عبده محمد ، =

رأس حملة عسكرية قدرها ثلاثة آلاف مقاتل^(١) ، حتى وصل إلى الأراضي المقدسة في الحجاز ، ومنها توجه جنوباً صوب اليمن ، وخلال مدة قصيرة استطاع أن يسيطر على معظم مناطق اليمن ، باستثناء المناطق الشمالية ، والشمالية الشرقية^(٢) .

ولم تمض مدة طويلة حتى مل الملك المعظم من الإقامة في اليمن ، فراسل أخاه الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي للسماح له بالعودة إلى الشام ، وبعد عدة مراسلات إذن له بذلك ، فعاد في سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م^(٣) ، وأتاب على اليمن عدداً من النواب^(٤) ، وكان هؤلاء النواب يرسلون إليه الخراج والأموال وهو في الشام ، إلى أن توفي في سنة ٥٧٦هـ / ١١٨١م ، بعدها بدأ كل نائب يستأثر بما يحصل عليه من الأموال ، بل إن بعضهم سك العملة باسمه ، وتلقب بالملك^(٥) .

فلما علم الملك الناصر صلاح الدين بفساد النواب في اليمن ، أرسل أخاه الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب على رأس حملة عسكرية ثانية إلى اليمن في سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٤م^(٦) ، تمكن من خلالها من إعادة اليمن مرة أخرى إلى السيطرة الأيوبية^(٧) .

= الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد الدويلات المستقلة من سنة (٤٢٩ - ٦٢٦ هـ / ١٠٣٧ - ١٢٢٨ م) ، ط ١ ، ١٩٩٧ م ، ص ٣٠٨ .

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٢١ .

(٢) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦ - ١٨ . الخزرجي ، المسجد ، ق ١٤٨ - ١٥٢ . ابن الديبع ، قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، المكتبة اليمنية ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٠ . الخزرجي ، المسجد ، ق ١٥٦ . علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية في مصر ، دار الفكر الحديث ، القاهرة ، ١٩٥٢ م ، ص ٢٣٥ .

(٤) من هؤلاء الولاة : عثمان الزنجيلي على عدن ، ياقوت التعزي على تعز وأعمالها ، مظفر الدين قايماز على ذي جبلة وأعمالها ، المبارك بن منقذ الكناني على زبيد وما يليها من التهانم . ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٠ - ٢١ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٣١ . بامخرمة : أبو محمد عبد الله الطيب ، تاريخ ثغر عدن ، تح : لوسكار لوفجرين ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦ م ، ج ٢ : ٦٩ .

(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٢ . ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ٨٢ .

(٦) الخزرجي ، المسجد ، ق ١٥٩ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٢٨ .

(٧) لظفر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٤ - ٢٩ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٢٧٥ - ٢٧٩ .

وخلال المدة التي كان الملك العزيز طغتكين بن أيوب يتوسع فيها في اليمن ويأخذها بلداً ، بلداً ، بدأ احتساب عبد الله بن حمزة في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٨ م^(١) ، أو ما يعرف في المصادر التاريخية بالدعوة الأولى ، وعمره حينذاك اثنان وعشرون عاماً^(٢) .

وعلى الرغم من خروجه بوصفه محتسب الزيدية في ذلك الحين ، فإن هذا الخروج لم يرتق إلى حد الوقوف وجهاً لوجه ، نتيجة لعدم تكافؤ القوى بين الطرفين : الأيوبي ، والزيدي ، فظل خلال تلك المدة – أي مدة احتسابه – التي دامت عشرة أعوام ، ينتقل من منطقته إلى أخرى ، تجنباً لمواجهة حاسمة مع الأيوبيين غير مضمونة النتائج ، ويعتمد في حربه معهم على أسلوب الكر و الفر ، ولاسيما بعد هزيمته في موقعتي شوخطين^(٣) في سنة ٥٨٥ هـ / ١١٩٠ م^(٤) ، وعجيب^(٥) في سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩٢ م^(٦) .

(١) الشرفي : أحمد بن محمد بن صلاح ، اللآلئ المضيئة في أخبار أئمة الزيدية ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٤) (تاريخ) ، ج ٢ : ٢٤١ . الوجه ، عبد السلام بن عباس ، أعلام المؤلفين الزيدية ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، ص ٥٧٨ .

(٢) مع أن الإمام عبد الله بن حمزة كان صغيراً في ذلك الحين ، إلا أنه كان مستوفياً لشروط الحسبة عند الزيدية ، التي يمكن إجمالها في أن يكون المحتسب : عاقلاً ، حراً ، ورعاً ، عادلاً ، حسن الرأي ، معيناً من قبل الإمام في حال وجوده . انظر : النونو : يحيى بن الحسين ، نظام الحسبة عند الزيدية ، مركز عبادي ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٣) شوخطين أو شوخطان : مدينة بالقرب من صنعاء . الأكوخ : إسماعيل بن علي ، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١٧٠ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٣٣٤ .

(٥) عجيب : بلدة عامرة من همدان ، ثم من بكيل ، شمال صنعاء ، على مقربة من ريدة البون . المقحفي : إبراهيم بن أحمد ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٤٣٩ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٣٣٨ .

ومع ذلك فإن الأمور لم تظل على هذه الحالة مدة طويلة ، إذ توفي الملك العزيز طغتكين بن أيوب في سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م^(١) ، وبوفاة هذا الملك بدأت مرحلة جديدة في حياة عبد الله بن حمزة ، تمثلت في انتقاله من مرحلة الاحتساب إلى مرحلة الإمامة بعد استيفائه لشروطها عند الزيدية ، فكانت بيعته للإمامة ، أو ما تسميه المصادر التاريخية بالدعوة العامة في الثالث عشر من شهر ربيع الأول من سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٨م^(٢) .

ويظهر أن الأوضاع السياسية كانت مهياً لإعلان عبد الله بن حمزة إمامته ، فأحسن استغلالها ، فقد خلف الملك العزيز على رأس الدولة الأيوبية في اليمن ابنه الملك المعز إسماعيل بن طغتكين ابن أيوب^(٣) ، الذي وصف بأنه كان سيئ السيرة ، كثير الشك في من حوله ، سفاكاً للدماء ، بدون وجه حق ، فضلاً عن عدم امتلاكه لمؤهلات سياسية كافية ، مما أدى إلى نشنت الأنصار من حوله .

ومما لاشك فيه أن هذه السياسة التي انتهجها الملك المعز مع أصحابه كانت من أهم العوامل المباشرة التي أسهمت بشكل كبير في إظهار الإمام عبد الله بن حمزة^(٤) على

(١) ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩ م ، ج ٢ : ٥٢٤ . العامري : يحيى بن أبي بكر محمد ، غربال الزمان في وفيات الأعيان ، صححه وعلق عليه : محمد ناجي زغبى العمر ، دار الخير ، دمشق ، ١٩٨٥ م ، ص ٤٧٨ .

(٢) المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ٢ : ٢٨٦ . المؤيدي : مجد الدين بن محمد بن منصور ، التحف شرح الزلف ، مكتبة بدر ، صنعاء ، ط ٣ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص ٢٤١ .

(٣) القلقشندي : أحمد بن علي بن أحمد ، صبح الأعشى في صناعة الإنشأ ، شرحه وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ م ، ج ٥ : ٢٨ . الكبسي : محمد بن إسماعيل ، اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٨٤ م ، ص ٦١ . محمد عبد العال أحمد ، الأيوبيون في اليمن مع مدخل في تاريخ اليمن الإسلامي إلى عصرهم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٤) العسيري : محمد بن علي ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩ - ٦٢٦هـ) ، دار المدني ، جدة ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٥٩ . الحداد : محمد يحيى ، التاريخ العام لليمن (اليمن في موكب الإسلام) ، دار التنوير ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦ م ، ج ٣ : ٣٠ . ويؤكد ذلك أيضاً ما جاء على لسان القرظلي والي المهجم في عهد الملك المعز ، حين قال لبعض أصحاب الإمام : " لولا ما من الله به من قيام الإمام ... في دولة إسماعيل لهلك أكثرهم ، فأوى طريدهم ، وأمن خائفهم ، وركب راجلهم ، فإله يجزيه خيراً وما بقينا إلا في خدمته وعند أمره " . انظر : ابن دعثم : أبو فراس بن دعثم الصنعاني ، السيرة المنصورية سيرة الإمام المنصور =

المسرح السياسي في اليمن ، كقوة لا يستهان بها ، ويتضح ذلك جلياً من خلال انضمام عدد كبير من الأمراء ، والقادة الأيوبيين – الذين ملوا السياسة الهوجاء للمعز ، وخافوا على أنفسهم من عبثه واستهتاره ^(١) – إلى الإمام عبد الله بن حمزة ، الذي أكرمهم ، واحتضنهم ، وسخرهم في حروبه ضد بقية الأيوبيين ، فاستطاع من خلال ذلك إحداث صدع في الدولة الأيوبية ، تمكن على إثره من توسيع الدولة الزيدية بشكل غير مسبق ، حتى وصلت إلى صنعاء في سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م ^(٢).

وبالنظر إلى سوء سيرة الملك المعز إسماعيل وظلمه لأمرائه ومماليكه ، فقد أقدم مجموعة منهم على قتله في سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م ^(٣) ، وعندئذٍ تسلم الأتابك ^(٤) سنقر زمام الدولة الأيوبية في اليمن بوصفه وصياً على الملك الناصر أيوب بن طغتكين – الذي كان صغيراً على الحكم – وزوج أمه ^(٥) ، وأبرز القادة العسكريين

= بالله عبد الله بن حمزة (٥٩٣ – ٦١٤ هـ) ، تح : عبد الغني محمود عبد العاطي ، دار الفكر

المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، مج ١ : ج ٢ : ٩٤ .

^(١) مع تحفظنا على الروايات التي تذكر أن الملك المعز إسماعيل كان مولعاً بأكل لحوم البشر ، وأنه قتل رهائن كانوا عنده من أهل ميين ونواحيها فأكل بعضهم ، إلا أننا نوردتها كما جاءت في المصادر التاريخية . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٧٩ . الخزرجي ، العسجد ، ق ١٧٣ . ابن الديبع ، قرة العيون ، ص ٢٨٥ .

^(٢) المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ٢ : ٢٩٢ . ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٢ .

^(٣) ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تح : جمال الدين الشيال ، دار العلم ، القاهرة ، د . ت ، ج ٢ : ٤٦٣ . ابن الوردي : زين الدين عمر ، تنمة المختصر من أخبار البشر المعروف بـ : تاريخ ابن الوردي ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، د . ت ، ج ٢ : ١٧١ . الملك الأشرف : أبو العباس إسماعيل بن العباس ، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تح : شاکر محمود عبد المنعم ، دار التراث الإسلامي ، بيروت ، دار البيان ، بغداد ، ١٩٧٠ م ، ج ١ : ٢٧٣ – ٢٧٤ .

^(٤) الأتابك : كلمة تركية مكونة من مقطعين ، أتا : وتعني أب ، وبك : وتعني الأمير ، فيصبح معناها مُربي الأمير وقد تطلق هذه الكلمة أيضاً على أمراء الجيش ، فيقال أتاك العسكر . ضومط : أنطوان خليل ، الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري (١٢٩٠ – ١٤٢٢ م) ، دار الحدائث ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٨١ . دهمان : محمد أحمد ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ١١ . الخطيب : مصطفى عبد الكريم ، معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٦ م ، ص ١٧ .

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٨٤ .

في ذلك الحين وهو الأمر الذي مثل تحولاً في مسار العلاقة بين الإمام عبد الله بن حمزة و الأيوبيين في اليمن .

فبعد أن استطاع هذا الإمام استقطاب العديد من الأمراء والقادة (١) العسكريين في الدولة الأيوبية بسبب خوفهم من بطش الملك المعز ، وتمكن من خلالهم من تحقيق العديد من الانتصارات التي لم يكن ليحققها بدونهم ، زال هذا الخوف بمقتل الملك المعز على يد مماليكه ؛ ولهذا قرر العديد من هؤلاء الأمراء والقادة العودة إلى صفوف الدولة الأيوبية ، لتعود الحرب سجالاً بين الإمام والأيوبيين ، مرة ينتصر عليهم ، ومرة ينتصرون عليه ، وتارة يتصالحون فيها ، وأخرى ينقضون هذا الصلح (٢) .

وعموماً فإن ميزان القوى في تلك المدة كانت لصالح الأيوبيين الذين عادت لهم هيبتهم وقوتهم بتولي الأتابك سنقر زمام الأمور ، فهو قائد عسكري عرف بالشجاعة ، والحزم ، واستطاع خلال مدة وصيائه على الملك الناصر أن يقضي على المماليك المتمردين على الدولة الأيوبية (٣) ، وأن يحافظ على كيانها في اليمن ، وأن يضع حداً لطموح الإمام عبد الله بن حمزة الراغب في تحقيق المزيد من الانتصارات على الأيوبيين .

وفي سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١٢م توفي الأتابك سنقر (٤) ، وعندئذ استقل الملك الناصر بالملك — على الرغم من صغر سنه البالغ ثلاثة عشر عاماً — وأقام الأتابك غازي بن جبريل أستاذاً داره (٥) ، وصاحب بابيه (٦) ، ليبدأ فصل جديد من فصول

(١) منهم على سبيل التمثيل : الأتابك سنقر ، الأمير ورد سار ، الشهاب الجزري .

(٢) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ١٤٦ وما بعدها .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٠٤ .

(٤) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٢٨٩ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٩٥ .

(٥) الأستاذ دار : من أكبر موظفي البلاط السلطاني ، وهو المسؤول عن بيوت السلطان كلها ، من المطابخ إلى الشراب خاناه ، وكذلك الحاشية ، والغلمان ، وله الحديث المطلق ، والتصرف التام في استدعاء ما يحتاج إليه بيت السلطان من النفقات ، والكسوات ، وغيرها ، كل ذلك بعد موافقة السلطان . انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ : ٢١ .

(٦) صاحب الباب : هو من يقف بباب السلطان ، يبلغه أخبار الرعية ، ويأخذ لهم الإن من بالدخول . الباشا : حسن ، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٥١ .

العلاقة بين الإمام عبداً لله بن حمزة والأيوبيين ، ظهرت ملامحها مع سياسة الفتك ، والقتل بالسم (١) التي انتهجها الملك الناصر وأتباعه الجديد ضد القادة والأمراء دون سبب يذكر ، ولمجرد الشك والظن وسوء الفهم أحياناً ، فراح ضحية هذه السياسة أبرز هؤلاء القادة والأمراء ابتداءً من الأمير الشهاب الجزري الذي سلمه الملك الناصر إلى الأمير ورد سار وهو يعلم أنه سوف يقتله (٢) ، ومروراً بالقائد البارز في الجيش الأيوبي بكتمر السيفي الذي تم الاتفاق بين الملك الناصر والأمير ورد سار على قتله (٣) — ولولا معرفته بهذا الاتفاق لقتل — وأخيراً تجرع الأمير ورد سار كأس المنية التي سقاها للآخرين ، بعد أن دس الملك الناصر له السم فتوفي على إثره في حصن السمدان (٤) في سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٤ م (٥) .

وفي مستهل شهر محرم من سنة ٦١١ هـ / ١٢١٥ م ، خرج الملك الناصر من صنعاء لحرب الإمام عبد الله بن حمزة (٦) ، إلا أن المصادر التاريخية (٧) تذكر أن الأتابك غازي بن جبريل سقاها السم في منطقة الجراف (٨) خفية ، ليموت بعدها متأثراً به في صنعاء . وبعد وفاته بمدة قصيرة قُتل الأتابك غازي من قبل بعض المماليك انتقاماً منه على ما فعله بالملك الناصر ، وكان ذلك بتحريض من أم الناصر (٩) .

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٤٨ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٩٥ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٤٩ .

(٤) السمدان : حصن في بلد الرجعية في بلاد المعافر ، إلى الغرب من تربة ذبحان بمسافة (١٥ كيلومتراً) . الحجري : محمد بن أحمد ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، نح : إسماعيل بن علي الأكوخ ، دار الحكمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م ، مج : ٢ : ج ٣ : ٤٣١ . المقففي ، معجم ، ص ٣٣١ .

(٥) الخزرجي ، المسجد ، ق ١٧٩ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٢٨٩ .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٥٢ .

(٧) انظر على سبيل التمثيل ، ابن حاتم ، السمط ، ص ١٥٢ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٩٨ .

(٨) الجراف : قرية ملاصقة لصنعاء من ناحية الشمال . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ١ : ١٨٢ . المقففي ، معجم ، ص ١٣٠ .

(٩) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٢٩٠ .

وبوفاة الملك الناصر ومقتل الأتابك غازي بن جبريل لم يبق من بني أيوب في اليمن إلا أم الملك الناصر ، والخواتين ^(١) من بنات الملك المعز إسماعيل وغيرهن ، وعندئذ قامت أم الملك الناصر بإدارة شؤون الحكم لمدة ستة أشهر ، ثم انتقلت مقاليد الحكم إلى الملك المعظم تقي الدين شاهنشاه ^(٢) ، والملاحظ أنه انتهج سياسة سيئة ، فملاً البلاد ظلاماً ، وجوراً ، وأغفل أمور دولته ، وانغمس في المذاذات والشهوات ، مما أدى إلى تصدع الوجود الأيوبي في اليمن ^(٣) .

أما الإمام عبد الله بن حمزة فضل يراقب الأحداث لحظة بلحظة ، وحين رآها مناسبة له قرر التحرك جنوباً صوب المناطق الخاضعة للدولة الأيوبية ، فتوسعت الدولة الزيدية توسعاً لم تشهده من قبل ؛ نظراً لحالة التشرذم والضعف التي عانى منها الأيوبيون خلال عهد الملك الناصر ، ومن جاء بعده ، فضم إلى دولته صنعاء ، ودمار ^(٤) ، ووصلت غزوات أمرائه إلى المهجم ^(٥) في تهامة ، وإلى لحج وأبين في أقصى الجنوب ^(٦) .

كذلك قام هذا الإمام بمراسلة العديد من الأمراء والقادة الأيوبيين المتمردين على الملك المعظم تقي الدين شاهنشاه في محاولة منه لضمهم إلى صفه ^(٧) .

^(١) الختون : كلمة تركية تعني المرأة الشريفة ، ولقد لقب بها العرب نساء الملوك . إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، المكتبة الإسلامية ، تركيا ، د . ت ، ج ١ : ٢١٣ . لويس معلوف ، المنجد في اللغة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط ١٨ ، د . ت ، ص ١٦٩ .

^(٢) تختلف الروايات التاريخية حول كيفية قدوم الملك المعظم إلى اليمن ووصوله إلى الحكم ، لكن الشيء المسلم به ، أنه وبعد وصوله إلى اليمن من الحجاز ، وتؤكد الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول - والي حرض والهلية في عهد الملك الناصر - من انتسابه إلى بني أيوب ، تسلم مقاليد الملك على رغبة بنات الملك المعز إسماعيل ، بل وتزوج واحدة منهن وتدعى (زينب) ، كما تزوج من أم الملك الناصر . انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ : ١٣٨ . ابن حاتم ، السمط ، ص ١٥٨ - ١٥٩ . القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ : ٢٩ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٢ .

^(٣) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٢٩١ . محمد عبدالعال ، الأيوبيون في اليمن ، ص ٣٤٠ .

^(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٥٥ . يحيى بن الحسين ، غلية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٠ .

^(٥) المهجم : مدينة خربة في وادي سررد بتهامة . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ٤ : ٧٢٥ . المقحفي ، معجم ، ص ٦٨٠ .

^(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٣ .

^(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦٣ .

ومهما يكن من شيء ، فإن الأمور لم تسر كما أراد لها الإمام عبد الله بن حمزة أن تكون ، فقد كان يود لو تستمر هذه الأوضاع التي تمر بها الدولة الأيوبية لمدة أطول ، حتى يتمكن من تحقيق المزيد من التوسعات ، فجاءت الأخبار إلى اليمن في شهر ذي الحجة من سنة ٦١١ هـ / ١٢١٥ م ^(١) بقدم الملك المسعود ابن الملك الكامل من مصر إلى الحجاز قاصداً اليمن ، أرسله والده إليها بعدما بلغه من التدهور والانهيار الذي حل بالدولة الأيوبية هناك ، وكان يومئذ صغيراً في السن وصاحب الوصاية عليه الأتابك جمال الدين بن فليت ^(٢) .

وفي شهر محرم من سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٦ م ، وصل الملك المسعود إلى اليمن ^(٣) ، وبدأ بإعادة الاستقرار إلى المناطق التابعة للدولة الأيوبية ^(٤) ، واستعادة المناطق التي سيطر عليها الإمام عبد الله بن حمزة في المدة الماضية ، وفي مقدمتها صنعاء ودمار ^(٥) ، وبالتالي حال دون تحقيق الإمام عبد الله بن حمزة لأحلامه وآماله . وبعودة السيطرة الأيوبية على صنعاء ودمار ، عادت العلاقة بين الإمام عبد الله بن حمزة والأيوبيين في اليمن إلى سيرتها الأولى ، فبقي الإمام يسيطر على المناطق التقليدية للزيدية في الظاهر ^(٦) ، والجوف ، وصعدة ، ونجران ، وظلت تهامة ، وصنعاء ودمار ، وتعز ، والمناطق الجنوبية ، والجنوبية الشرقية ، بأيدي الأيوبيين .

^(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦٥ . يحيى بن الحسين ، غلية الأماني ، ج ١ : ٤٠٣ .

^(٢) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٣٧ . ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ٨٧ . ابن الأنف : عماد الدين إدريس ، نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام في اليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار ، مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، برقم (١٢٥٣) (تاريخ) ، ق ٥٢ أ .
^(٣) الجندي : أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف ، السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ، ج ٢ : ٥٣٨ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٣٧ .

^(٤) تجسد هذا الاستقرار بالقبض على الملك المعظم سليمان شاهنشاه في حصن تعز وإرساله مقيداً إلى مصر . انظر : الخزرجي ، العسجد ، ق ١٨١ . المقرئزي : تقي الدين أحمد بن عبد القادر ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، صححه ووضع حواشيه : محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٦ م ، ج ١ : ١٨١ .

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦٨ . يحيى بن الحسين ، غلية الأماني ، ج ١ : ٤٠٤ .

^(٦) الظاهر : كلمة تطلق على كل ما ارتفع من البلدان ، والمقصود هنا ظاهر بلاد همدان . الهمداني : الحسن بن أحمد ، الإكليل من أخبار اليمن وأنسب حمير ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، مكتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ج ١٠ : ١٢٩ .

كما حرص الجانبان كلما سنحت الفرصة على عقد الصلح والهدنة . وكان آخره الصلح الذي تم بين الإمام والأتابك جمال الدين بن فليت وتضمن على : أن يطلق ابن فليت الرهائن التي قبضها من القبائل ، مقابل أن يسلم الإمام عشرين حصاناً وعشرين جملًا وحددت مدته بثلاثة عشر شهراً^(١) ، لكنه لم يستمر طويلاً بعد أن نشب قتال بين الطرفين بسبب قيام بعض من أصحاب الإمام بقطع الطريق المار بالقرب من جبل كئن^(٢) على الأيوبيين ، ليعود الصراع مرة أخرى بين الإمام والأيوبيين ، الذي لم يحرز أي من الطرفين انتصاراً حاسماً فيه .

وبوفاة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة في الثاني عشر من شهر المحرم في سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م^(٣) انتهت مرحلة صراعه مع الأيوبيين في اليمن .

ثانياً : الصراع المذهبي مع المطرفية :

كان أول ظهور فعلي للمطرفية في اليمن إثر مناظرة وقعت بين عالمين من علماء الزيدية وهما : علي بن شهر ، وعلي بن محفوظ وكان الخلاف حول وجود الأعراض ، إذ قال علي بن شهر : إن الله تعالى اخترع الأعراض في الأجسام اختراعاً ، وأنها لا تحصل بطبائعها ، في حين قال علي بن محفوظ بحدوث العالم ، وإن الله تعالى خلق الأصول الأربعة وهي : الماء ، والنار ، والهواء ، والثرى ، وأن هذه الأصول هي التي تدبر العالم بتفاعلها مع بعضها البعض ، فتؤثر في غيرها ، وتحدث التغيير أي الإحالة ، وتغير نفسها بنفسها أي بالاستحالة^(٤) .

وعلى هذا الأساس افرقت الزيدية إلى فرقتين : فرقة تابعت علي بن شهر فيما قال من اختراع الله تعالى للأعراض فسموا بـ : (المخترعة) ، وفرقة تابعت علي

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦٩ . ابن الأثف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٣ أ .

(٢) كئن : من حصون خولان العالية وسنحان . المقحفي ، معجم ، ص ٥٦٢ .

(٣) المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ٢ : ٣٢٢ . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٦٠٩ . الأكوغ : إسماعيل بن علي ، هجر العلم ومعاقله في اليمن ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ، ج ٣ : ١٢٩٥ .

(٤) المحلي : سليمان بن محمد ، البرهان الرائق المخلص من ورط المضائق ، مخطوط ، مكتبة الأوقاف بالجامع الكبير ، صنعاء ، برقم (٧٦٣) ، ق ٦٣ . أيمن فؤاد سيد ، تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٤٢ .

بن محفوظ في قوله بحدوث العالم ، وبالإحالة والاستحالة وسموا – لاحقاً –
ب : (المطرفيه) نسبة إلى مطرف بن شهاب ^(١) الذي تبنى أفكار علي بن محفوظ
بعد وفاته ، وأهتم بتدريسها ، حتى إننا نستطيع القول : إن مذهب المطرفية لم يكن
ناضجاً يوماً إلا على يد مطرف بن شهاب ، فهو الذي بلور أفكارها ، وكرس نفسه
لنشر معتقداتها ، وحمل على عاتقه الدفاع عنها ^(٢) .

وإمعاناً في الفرقة والانقسام ، أتخذ المطرفيون لهم (هجراً) خاصة للتفريق
بينهم وبين بقية الطوائف ، ولأسيما المخترعة ، فكانت أو تلك الهجر في (سناع)
بالقرب من صنعاء ، وبنوا فيها مسجداً ، ومدرسة ، وجعلوا قواعد دينهم وأساسه أن
العالم يحيل ويستحيل ^(٣) .

وعلى ما يبدو أن المطرفية قد وصلت في عهد الإمام عبد الله بن حمزة إلى
مرحلة لا يمكن التغافل عنها ، فحاول في بداية دولته أن يدمجهم فيها ، وأن يتجنب
الصدام معهم ، وذلك عن الطريق تأليف قلوبهم بالعطايا ، والهبات ، والولاية ^(٤) ،
ولكنهم وبسبب انقطاعهم في هجرهم لفترات زمنية طويلة ، وغيابهم عن الحياة العملية
اخفقوا في إدارة مناطقهم وتسببوا في الكثير من المشاكل فيها ، مما اضطر الإمام إلى
عزلهم والاستعاضة عنهم بغيرهم ممن هو مشهود له بالكفاءة ، وهو ما أغضب

^(١) هو مطرف بن شهاب بن عمرو بن عباد الشهلي ، من أعلام المائة الرابعة ، وأول المائة الخامسة
للهجرة ، وكان في بداية حياته مزارعاً ، فترك الزراعة وخرج لطلب العلم في صنعاء ، فأخذ العلم عن
شيوخ عدة منهم : علي بن شهر وعلي بن محفوظ وغيرهم ثم أسس هجرة (سناع) ، واعتزل بها ،
وبنى فيها مسجداً اسمه عربية ، وكان في الوقت نفسه مدرسة لتلقي علوم الدين والحديث إلى أن هدمه
الإمام عبد الله بن حمزة . انظر : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ١١٢٥ . الأكوع ، هجر ،
ج ١ : ١٦٥ – ١٦٦ ، ج ٢ : ٩٥٤ .

^(٢) ابن الوزير : زيد بن علي وآخرون ، حوار عن المطرفية الفكر والمأساة ، كتاب المسار ، العدد الأول ،
مركز التراث والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، ص ٥٣ . علي محمد زيد ،
تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري ، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية ،
صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٧ م ، ص ٦٩ .

^(٣) ابن الوزير ، حوار عن المطرفية ، ص ٥٣ . ناقلاً عن يحيى بن الحسين ، المستطاب ، ج ١ : ٧٧ .

^(٤) نذكر على سبيل التمثيل تولية الأمير محمد بن مفضل على وقش ، والأمير أبي الفتح العباسي على
مقري والهان وبلاد بكيل ، والسلطان محمد الشهلي على البلاد المتصلة بوقش من البيرويات وبلاد بني
مطر ، وبلاد بني شهاب ، والشيخ ناصر العرشي على مشارف بلاد خولان وغيرهم . انظر : ابن
دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٨٧ – ٨٨ .

المطرفيين وخاصة مع انقطاع مواردهم المالية التي كانت تعتمد على الزكاة وغيرها من تلك المناطق (١) .

وبدلاً من الألفة والتقارب الذي كان ينشده الإمام مع المطرفية تحول الأمر إلى فرقة وعداوة ، فأخذت المطرفية تشكك في إمامته — مع أنهم أول من بايعه — وتهاجمه عند عقد أي صلح مع الأيوبيين (٢) بحجة أنهم ظلمة ، ولا يجوز التصالح معهم فضلاً عن بعض المآخذ الأخرى التي كانت تعتقدها المطرفية ، وفي مقدمتها ، موالاته لبني حاتم الباطنيين وهم ممن لا يجوز موالاتهم ، والزواج منهم ، والطول بينهم (٣) ، الأمر الذي دفع بالإمام جدياً للتصدي لهم ومحاولة التخلص منهم .

ويبدو أن المطرفيين أدركوا ما يجول في خاطر الإمام ، فأقاموا الأمير المنتصر بالله محمد بن المفضل العفيف محتسباً عليهم (٤) ، ليدافع عنهم ، ويظهر أن ذلك كان اختياراً موقفاً ؛ لأن الإمام كان يحمل لهذا الأمير الكثير من الإجلال والتقدير ؛ نظراً لموقفه من دعوة الإمام عبد الله بن حمزة ومؤازرته له في ذلك الحين ، مع أنه كان يستعد هو الآخر لإعلان إمامته (٥) ، ولذلك استمر الإمام يهادن المطرفية حتى

(١) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ١٦٩ .

(٢) انظر على سبيل التمثيل ذلك الصلح الذي عقده الإمام مع الأيوبيين في سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م ، والذي رد الإمام بموجبه حصن كوكبان للأيوبيين . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٤٩٣ .

(٣) تعود العلاقة بين الإمام عبد الله بن حمزة وسلطين بني حاتم إلى بدايات دعوته في سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م ، فقد قام هؤلاء السلطين — بسبب الخلاف الذي حدث بين السلطان علي بن حاتم والملك العزيز طغتكين — بمناصرته ، وتأييده ضد الأيوبيين ، لذلك كانت هذه العلاقة قوية بين الطرفين ، ولا سيما بين الإمام والسلطان علي بن حاتم الهمداني وأولاده من بعده ، وبناءً على هذه العلاقة تزوج الإمام من منعة بنت السلطان الفضل بن علي بن حاتم ، بل إن الإمام كان يسكن في حصن ذي مرمر معقل السلطين بني حاتم لمدة شهور ، وهو ما أثار حفيظة المطرفية عليه . انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٨٢ — ٨٤ ، مج ٢ : ج ٣ : ٥٠٣ . ابن حاتم ، السمط ، ص ٤١ — ٤٢ .

(٤) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ١٦٩ .

(٥) ابن الوزير : أحمد بن عبد الله ، تاريخ السادات العلماء الكمل من بني الوزير المسمى : " الفضائل " ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (١) (تراجم) ، ق ٢٠٠ . الأكوغ ، هجر ، ج ٤ : ٢٣٥٣ .

سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م ، وهي السنة التي توفي فيها هذا الأمير ^(١) ، وبوفاته انقطعت حلقة الاتصال والحوار بين الإمام والمطرفية ، وحل محلها السيف وحده ، وقد اقتصر الأمر أولاً على امتحان الناس في أقوال المطرفية ^(٢) ، ولاسيما قولهم بالإحالة الاستحالة فإن أقر بها الممتحن أمر الإمام بضرب عنقه ، وإن أنكرها خُلي سبيله .
وبدلاً من أن يحاول المطرفيون تغيير مواقفهم نتيجة لما حل ببعضهم نتيجة لهذا الامتحان ، أخذوا يصعدون الموقف مع الإمام ^(٣) ، ويؤلبون عليه القبائل ، ويدعون أنه ما فعل بأصحابهم ما فعله إلا لعجزه عن مناظرتهم ^(٤) ، وحصرهم له في كثير من نقاط الخلاف بين الطرفين ، وهكذا زادت الشقة بينهما إلى حد لم يترك للمصالحة سبيلاً .

أما موضوع المناظرة وما قيل عن تجمع ستمائة من علماء المطرفية في هجرة (وقش) ^(٥) ، يريدون مناظرة الإمام ^(٦) ، أو ما قيل عن تقبل الإمام لمثل هذا المناظرة ، فأمر لا نعتقد بجدوى الخوض فيه لأن الموضوع ببساطة أن الإمام عبد الله بن حمزة قرر في نفسه قراراً لا رجعة فيه مفاده التخلص من المطرفية ، إما بخضوعهم له دون قيد أو شرط ، أو بقتلهم وتشريدهم واستباحة حرمانهم ، وهو ما لا يتأتى إلا بمسوغ شرعي يجيز للإمام هذا الفعل ، ويبدو أن الإمام لم يبذل جهداً في الوصول لمثل هذه المبررات أو المسوغات ^(٧) ، والتي أوجزها في الآتي :

(١) ابن الوزير ، الفضائل ، ق ٢١٣ .

(٢) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٨٢٥ ، ٨٢٧ - ٨٣٨ .

(٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ٨٢٧ .

(٤) نفسه ، ص ٨٣٨ .

(٥) وقش : قرية عامرة من مخلاف بني قيس ، من أعمال بني مطر ، ثم من أعمال صنعاء ، كانت هجرة مشهورة زاخرة بالعلماء ، مقصودة لطلب العلم ، قيل أن يدمرها الإمام عبد الله بن حمزة ؛ لأنها من هجر المطرفية . المقحفي ، معجم ، ص ٧٤٩ . الأكوغ ، هجر ، ج ٤ : ٢٣٤٣ - ٢٣٤٧ .

(٦) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٨٩٨ .

(٧) أمر الإمام عبد الله بن حمزة الشريف جمال الدين حاتم بن جعفر الحمزي بجمع الآيات القرآنية التي تدل على عكس مع يزعم المطرفية ، وإضافة كل آية إلى ما هو من جنسها في كتاب اسماء : " المجموع من آيات القرآن الشريف المبطللة مذهب الطبيعية من أهل التطريف " . انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٨٢٥ .

١. إنكار المطرفية لنزول القرآن ؛ لأن القرآن حسب اعتقادهم عرض لله ولا يصح نزول العرض^(١) مع أن القرآن وآياته تدل على عكس ما يزعمون . قال تعالى: " شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ... " (٢) .

٢. اعتقادهم بالإحالة الاستحالة^(٣) ، وهو ما يتنافى مع عدد كبير من آيات القرآن الكريم منها على سبيل التمثيل لا الحصر قوله تعالى : " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ " (٤) .

٣. إنكارهم للنبوة^(٥) ؛ لأنهم قالوا أن التمييز بالعمل يشمل كل الناس^(٦) حتى الأنبياء ، فجعلوا النبوة تستحق بالأعمال الصالحة^(٧) ! وردوا الآيات القرآنية الدالة على أن النبوة منحة من الله ، يهبها لمن يشاء من عباده ، قال تعالى : " وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ " (٨) .

(١) عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، تح : عبد السلام بن عباس الوجيه ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م ، ج ١ : ٥٤ .
(٢) البقرة : الآية : ١٨٥ .

(٣) وجدنا أن هناك اختلافاً كبيراً بين ما نقوله المطرفية في هذا الأصل ، وبين ما يدعيه الآخرون عليها ، فبينما تؤكد المطرفية على أن الأجسام تضر وتنفع ، وتنسب إليها الأفعال ، ليس من حيث أنها مختارة لها ، وإنما بوصفها مجبورة ، أو مفطورة عليها من الله . يؤكد المعارضون لها أنها تقول بقدرة الأجسام على الضر والنفع من خلال طبيعتها ، التي تحيل وتستحيل بها ، وأنه لا تأثير لله تعالى في ذلك . انظر : أيمن فؤاد سيد ، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، المعهد الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٩٠ - ٩١ . علي محمد زيد ، تيارات معتزلة اليمن ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ . الحوثي ، بدر الدين بن أمير الدين ، المطرفية ، مركز العدل والتوحيد للدراسات والبحوث ، صعدة ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ، ص ٥ - ٦ .

(٤) الزمر : الآية : ٦٢ .

(٥) عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل ، ج ١ : ٥٣ - ٥٤ .

(٦) علي محمد زيد ، تيارات معتزلة اليمن ، ص ٨٨ .

(٧) عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل ، ج ١ : ٥٤ .

(٨) القصص : الآية : ٦٨ .

٤. قولهم أن الضر و المرض من الشيطان ، وليس من الله (١) ! وردوا آيات
محكمات من القرآن تدل على عكس ما يقولون ، قال تعالى : " ... وَ تَبْلُوكُمْ
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تُرْجَعُونَ " (٢) .

٥. نفهم أن تكون الأمطار بإرادة الله ومشيئته ، لأنها حادثة من طبائع الأجسام !!
أي أنها لا بد أن تكون إذا توافرت الأسباب لها (٣) مع أن الله تعالى يقول :
" أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ
نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ " (٤) .

وبناءً على ما تقدم من هذه المسوغات العقيدية في ظاهرها والسياسة في باطنها
أعلن الإمام حكمه النهائي بإعلان ردة المطرفية عن الإسلام بسبب اعتقاداتهم هذه ، مع
ما يعنيه هذا الإعلان من استباحة لدماء المطرفيين ، وأموالهم ، وأعراضهم ، بوصفهم
مرتدين تطبق عليهم أحكام الردة ، وجاء هذا الإعلان على شكل رسالة عامة وجهها
الإمام ، وهو ما زاد من مأساة المطرفيين و معاناتهم وأهم ما جاء في هذه الرسالة :
" إن الشيعة المطرفية أول من أجاب دعوتنا ، وأعطى بيعتنا ، وشهد في السر
والجهر بإمامتنا ، فإن كانوا صدقوا في الابتداء ، فقد كذبوا في الانتهاء ، وإن كذبوا
في الابتداء ، فما المانع أن يكونوا في كلتا الحالتين كاذبين سواء ؟ ... ثم إنني لما
قرأت كتاب الله تعالى متأملاً ، وجعلته لي شغلاً وجدتهم قد كذبوا منه وردوا
أربعمائة آية وسبعاً وثلاثين آية محكمة ، لا تحتمل التأويل . لو أن من تحت أديم
السماء كذبوا بآية واحدة منها لكانوا بحكم الله سبحانه من الكافرين ، ووجب جهادهم
على جميع المسلمين ، فكيف بمن كذب بمجموعها !! " (٥) .

وقبل أن نبين نتائج هذه الرسالة يتبادر إلى الأذهان سؤال مفاده ألم يكن الإمام عبد
الله بن حمزة على علم بهذه المعتقدات قبل أن يقرر التخلص من المطرفية ؟ وإذا كان

(١) عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل ، ج ١ : ٥٥ .

(٢) الأنبياء : الآية : ٣٥ .

(٣) عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل ، ج ١ : ٦٠ .

(٤) الواقعة : الآية : ٦٨ - ٧٠ .

(٥) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ٣ : ٨٦٣ - ٨٦٥ . وللإطلاع على الرسالة كاملة ،

انظر : المصدر نفسه والجزء ، ص ٨٦٣ - ٨٧١ .

يعلم — وهو مما لا شك فيه — لماذا لم يتخلص منهم قبل هذه المدة؟! ألا يدل مثل هذا الأمر على أن قراره هذا هو قرار سياسي محض لا علاقة له بالعتيدة وخاصة أنه موال لبني حاتم الباطنيين مع ما لديهم من معتقدات توجب الكفر والارتداد حسب مفهوم الإمام للعتيدة ، فلماذا لم يراع مثل هذا الأمر مع الباطنية كما راعاه مع المطرفية؟! أما فيما يخص نتائج هذه الرسالة على المطرفية وعلى غيرهم ، فقد كان لها تأثير كبير جعلت الناس ينفرون من المطرفية ، ويهجرونهم لعدة أسباب منها : أن البعض صدق فحوى رسالة الإمام التي أشارت إلى ارتداد المطرفية وكفرهم ، وعلى هذا الأساس بدأ يتعامل معهم على أنهم كفرة مرتدون ، لا يجوز الاختلاط بهم والتعايش معهم ، أما البعض الآخر وإن لم يصدق ما جاء في رسالة الإمام ، إلا أنه رأى أن ينأى بنفسه وأن لا يضعها موضع التساؤل والاثهام ، فنشمله هذه الفتوى التي استباحت فيها الدماء والأموال والأعراض ، لمجرد التعامل مع المطرفية والتعايش بينهم ، حتى آل الأمر ببعض الناس إلى الاستخفاف بالمطرفية ، وإذا أراد الرجل المبالغة في سب صاحبه قال له : " يامطرفي " ^(١) وهذا يدل بشكل أو بآخر على أن الانتساب إلى المطرفية أصبح في ذلك الحين جناية ينقادفها الناس فيما بينهم للتأكيد على نفيها عن أنفسهم .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بالمطرفية ، بل ازداد سوءاً ، عندما طردهم أهل المغرب ^(٢) من بلادهم ، حتى لا يدخلوا باحتضانهم للمطرفية في أحكام تلك الفتوى التي أطلقها الإمام ، ثم تدهورت الأمور أكثر فأصبح لزاماً على كل من ينتسب إلى المطرفية أن يضع زناراً ^(٣) مثل اليهود ليكون علامة له ، وأن يأخذ الإذن عند الدخول إلى أي منطقة أو سوق حتى لا يقتل ^(٤) .

^(١) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٨٨٧ .

^(٢) المغرب : بلدة من خولان بن عامر ثم من ناجية ساقين . المقحفي ، معجم ، ص ٦٤٤ .

^(٣) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٨٩٨ . والزنار هي خصلة زائدة من الشعر ، يضعها اليهود المتدينون في اليمن وغيرها على جانبي الرأس ، للتمييز بينهم وبين غيرهم . وفي أمر الأمير يحيى بن حمزة للمطرفيين بوضع الزنار كناية على أن المطرفية خارجة عن ملة الإسلام ، مثلهم مثل اليهود في ذلك .

^(٤) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٨٨٧ .

وأخيراً وبعد العديد من المضايقات التي تعرض لها المطرفية ، اختتم الإمام مواجهته معها باقتحام هجر المطرفيين وتدميرها ، ابتداءً بهجرة (قاعة)^(١) في سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م^(٢) ، ومروراً بـ : (وقش) ، و (سناع) ، و (الجبج)^(٣) ، وغيرها من الهجر ، فتم قتل الرجال ، وسبي النساء والصبيان ، وصودرت الدور والأماكن ، وأحرقت الكتب ، وهدمت المساجد بدعوى أنها مساجد ضرارية ، إلى أن انتهى أمر المطرفية في سنة ٦١١ هـ / ١٢١٥ م^(٤) .

أما عن الخسائر البشرية التي لحقت بالمطرفية بسبب هذه الفتوى ، فتقدر — حسب رأي بعض المؤرخين — بمائة ألف قتيل أو يزيدون^(٥) وهو بلا شك عدد كبير جداً بالنسبة لعدد سكان اليمن الأعلى في ذلك الحين ، ويبدو أن هؤلاء المؤرخين استنقوا معلوماتهم هذه من بعض المصادر التاريخية التي تشير إلى وجود مقبرة عظيمة وجدت بالقرب من قرى بني الفليحي^(٦) — وهم من أنصار المطرفية — قتلهم الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة — أخو الإمام — خلال حربه على المطرفية^(٧) .

وبعد وفاة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ظهرت أول بوادر انقسام بين الأشراف الزيديين ، ذلك الانقسام الذي بدأ مذهبياً بالاختلاف حول تكفير الفرقة

(١) قاعة : حصن وبلدة غربي عمران بمسافة (١٢ كيلو متراً) ، ومنها تشرع طريق عمران — حجة .

المقحفى ، معجم ، ص ٥١١ . الأكوغ ، هجر ، ج ٤ : ٢٣٠٣ .

(٢) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٩٦٢ .

(٣) الجبج : اسم مشترك بين عدد من الأماكن ، منها : قرية عامرة بالسكان في عزلة الجبل ، غربي أنس بمسافة (ميلين) ، وبلدة في عنس ، وبلدة في خولان الطيال ، وقرية من عزلة المنار وأعمال بعدان . المقحفى ، معجم ، ص ١١٩ . والمقصود من النص قرية عامرة في العبيدين في الضاحية الجنوبية لمدينة صعدة ، وتبعد عنها بنحو (ثلاثة كيلومترات) . الأكوغ ، هجر ، ج ١ : ٣٠٢ .

(٤) علي محمد زيد ، تيارات معتزلة اليمن ، ص ١٩١ .

(٥) ابن الأنف : عماد الدين إدريس ، روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار والحصون والأمصار ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، منشورات الهيئة العامة اليمنية للكتاب ، صنعاء ، ١٩٩٥ م ، ص ٢٠ ، (مقدمة المحقق) . الشماحي : عبد الله عبد الوهاب المجاهد ، اليمن الإنسان والحضارة ، دار الهدى للطباعة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٢ م ، ص ١٣٩ .

(٦) بنو الفليحي : قرية من بلاد ثلا من عزلة المصانع الخارجية . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ :

٦٣٩ . المقحفى ، معجم ، ص ٥٠٣ .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٩٨ .

المطرفية^(١) وما حل بها نتيجة لذلك ، وتعمق سياسياً بالاختلاف حول الإمامة وعدم الالتزام من قبل البعض بشروطها وأصولها . وهو انقسام كانت له آثاره العميقة في تاريخ الدولة الزيدية في اليمن — كما سنرى لاحقاً — بل إننا نعدده من أبرز العوامل والأسباب التي أسهمت في ضعف الدولة الزيدية في اليمن — آنذاك — فالإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن^(٢) كان بإجماع المصادر الزيدية أهلاً للإمامة^(٣) بعد الإمام عبد الله بن حمزة ، ومستحقاً لها ، نظراً لتوافر شروطها فيه ، بل إن بعض هذه المصادر تنسب إلى الإمام عبد الله بن حمزة كلاماً فيه تزكية لهذا الإمام ، من ذلك قوله : " مع الداعي — أي الإمام المعتضد بالله — علم أربعة أئمة " ^(٤) ، ومنها قوله : " مع الداعي علوم لا يحتاج إليها إلا إمام " ^(٥) ، فكان من المتوقع أن يتولى هذا الداعي مقاليد الإمامة الزيدية بعد وفاة الإمام عبد الله بن حمزة ، ولاسيما مع مبايعة شيعة صعدة وعلمائها له ^(٦) ، ومع كل ما سبق عاداه شيعة الظاهر ، ولم يقولوا بإمامته ، وفيهم من أعلام الفكر الزيدي من يشار إليه بالبنان ، كالفقيه حسام الدين

^(١) لازال النقاش إلى اليوم محتتماً حول مسألة تكفير الإمام عبد الله بن حمزة للمطرفية ، إذ انقسم الأشراف الزيديون وغيرهم حول هذا الموضوع على ثلاثة أقسام :

الأول : يوافق الإمام عبد الله بن حمزة في تكفيره للمطرفية وبالتالي في ما فعله بها .

الثاني : وإن كان يرى خطأ المطرفية في بعض الاعتقادات ولكنه لا يرى تكفيرها .

الثالث : يرى أنها منبر للفكر الاجتماعي سبق عصره ، وراح ضحية الانغلاق الفكري الذي ساد اليمن في تلك الفترة . انظر : علي محمد زيد ، تيارات معتزلة اليمن ، ص ٦٩ وما بعدها . الحوثي ، المطرفية ، ص ٥ وما بعدها . ابن الوزير وآخرون ، حوار عن المطرفية ، العدد كاملاً .

^(٢) هو الإمام يحيى بن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى بن الحسن بن عبد الله ... بن أحمد بن يحيى بن الحسين ... بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . كان يلقب بـ : (الداعي) له العديد من المؤلفات أهمها : (المقنع في أصول الفقه) ، (البلغة في الفرائض) . انظر : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٣ : ١٢٤٩ — ١٢٥١ . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٤١ — ٨٤٧ . الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٤٦ — ١١٤٧ .

^(٣) انظر على سبيل التمثيل : يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) (تاريخ) ، ق ١٤٩ . غياة الأمان ، ج ١ : ٤٠٧ .

^(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٤١ .

^(٥) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٣ : ١٢٥١ .

^(٦) يحيى بن الحسين ، غياة الأمان ، ج ١ : ٤٠٧ .

حميد بن أحمد المحلي^(١) ، والفقيه أبي الفتح الصنعاني^(٢) ، و الشيخ عمران بن ناصر الشنوي^(٣) ، وهو ما يثير علامة استفهام كبيرة حول هذا الموقف .

والذي نرى في هذا السياق ، أن الإمام المعتضد بالله كان مستحقاً للإمامة ، وأنها سلبت منه ، لأنه من آل الهادي ، وليس من الأشراف الحمزيين ، فلو كان منهم لاختلف الأمر كثيراً ، إذ لا يخفي على كثير من المؤرخين والباحثين حالة العداء التاريخية بين الأشراف من الفرع الهادي ، ونظائرهم من الفرع الحمزي ، بسبب انتقال الإمامة الزيدية من الفرع الهادي – بعد وفاة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان – إلى الفرع الحمزي ، مع تولي الإمام عبد الله بن حمزة لها . وهذا ما يعلل المحاولات المستميتة التي قام بها بعض الأمراء والأشراف الهادييين لاستعادة هذه

(١) هو حميد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الوهاب ... بن يزيد بن يعيش المحلي الوداعي ، الصنعاني ، الهمداني ، أحد كبار علماء الزيدية في وقته ، كان من أعيان شيعة الإمام عبد الله بن حمزة على الرغم من صغر سنه – آنذاك – ثم جد في نصرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين – كما سيأتي – له الكثير من المصنفات لكن أهمها : الحدائق الوردية في ذكر مناقب أئمة الزيدية ، توفي في سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م في موقعة نقيل الحصبات . نظر : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٤٢١ – ٤٢٤ . القاسمي : عبد الله بن الحسن بن يحيى ، الجواهر المضيئة في تراجم رجال الحديث الزيدية ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٥) (تراجم) ، ق ١٦ أ – ١٦ ب .

(٢) هو محمد بن علي بن أحمد بن أسعد المعروف بابن يعيش النحوي الصنعاني ، أحد تلامذة الإمام عبد الله ابن حمزة ، له تصانيف كثيرة منها : (التهذيب) ، (الياقوتة) ، (البيان في إعراب القرآن) . توفي سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م . انظر : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ١٠٣٢ – ١٠٣٣ .

(٣) هو عمران بن الحسن بن ناصر بن يعقوب بن عامر بن نجم بن محمد ... العذري الشنوي ، أحد علماء الزيدية في زمانه ، عاصر الإمام عبد الله بن حمزة ، وامتد عمره إلى زمن الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، توفي بعد سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م . نظر : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ٨٣٣ – ٨٣٩ . الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٣٦ – ٧٣٧ .

الإمامة ^(١) . بل إن الأمر وصل ببعضهم إلى حد التحالف مع الأيوبيين لتحقيق هذا الهدف ^(٢) .

وبناءً على ما تقدم ، قرر الأشراف الحمزيون ، ومن ورائهم شيعة الظاهر وعلمائها ، إقامة الأمير الناصر لدين الله عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة محتسباً للزيدية ^(٣) بعد وفاة والده ، وهو في مقتبل العشرين من عمره ، وقد استمد هذا الأمير قوة ونفوذاً من أنصار والده ، الذين رأوا فيه امتداداً له ، فساقتهم العواطف والمصالح إلى الإخلال بشروط الإمامة عند الزيدية والمساهمة في ضعفها .

ومما يؤسف له ندرة المعلومات التاريخية في المصادر الزيدية أو غيرها عن العلاقة بين الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن ، والأمير عز الدين محمد ، فكل ما تذكره المصادر لا يتعدى الأسطر . وقد اتسمت العلاقة بين الطرفين بطابع المراسلات ^(٤) حيناً ، وطابع حربي (عسكري) ^(٥) حيناً آخر ، فحاول الإمام يحيى بن المحسن من خلال مراسلاته إظهار أحقيته بالإمامة ، وتمسكه بها ، وأن الأمير عز الدين ومن خلفه شيعة الظاهر وعلمائها سلبوه هذا الحق ، والحق أنه انتصر في هذا الجانب ؛ نظراً لقوة حجته فيه وبرهانه ، فليس هناك من أحد يشكك في أحقيته بالإمامة وأن علماء الظاهر وشيعته ظلموه ، وانكروا حقه ، بل إن بعض المصادر الزيدية ، عندما تذكر بعض هؤلاء العلماء وبعد الإطراء عليهم ، تختتم ترجمتها لهم بذكر عثرتهم وزلتهم في موضوع إنكار إمامة الإمام يحيى بن المحسن ، وتعد ذلك خطأ ، وأن البعض من هؤلاء العلماء كفر عنه لاحقاً ^(٦) .

^(١) انظر في هذا السياق محاولة الأمير يحيى بن الإمام أحمد بن سليمان التي قام بها في سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ، والتي انتهت بمقتله في السنة نفسها . ابن حاتم ، السمط ، ص ٦٧ - ٦٨ . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٣٩ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٤٨ - ٣٥٠ .

^(٢) انظر على سبيل التمثيل : تحالف الشريف سليمان بن محمد بن القاضي من آل الهادي ، وكذا الشريف علي بن يحيى بن الحسين مع الأيوبيين ، ضد الإمام . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٤٠٥ - ٤٠٦ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٥٣ .

^(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٤١ ، ٨٥٧ .

^(٤) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٥٨ .

^(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٧ - ٤٠٩ .

^(٦) القاسمي ، الجواهر المضيئة ، ق ١٦ ب .

في حين أخذ الجانب الآخر — كما أسلفنا — طابعاً حربياً لم تكن موازين القوى فيه — آنذاك — في صالح الإمام يحيى بن المحسن ، ولذلك وصفته بعض المصادر بأنه قليل الحظ ^(١) ، ليس في العلم ونحوه وإنما في القوة العسكرية ، التي كان يستطيع من خلالها استرجاع حقه في الإمامة ، وفي المقابل حصل الأمير عز الدين على هذه القوة — كما أشرنا — من أنصار والده الذين رأوا فيه امتداداً له ، فأزروه ، واعتبروا أنه سيكمل ما بدأه والده في مقارعة الأيوبيين ، والحفاظ على كيان الدولة الزيدية .

وعموماً تتحصر العلاقة الحربية بين الطرفين في أن الإمام يحيى بن المحسن دعا إلى الإمامة بعد وفاة الإمام عبد الله بن حمزة ، وأنه أجابه علماء صعدة وخلق كثير فيها ؛ إلا أنه تخوف من الأشراف الحمزيين ، فخرج إلى بلاد خولان ^(٢) بعد أن عجز الأشراف من آل الهادي عن إعنته ^(٣) ، وهو ما عبر عنه شعراً حين قال :

يا شيعة الهادي إلى الحق هل لكم	إذا سأل الله العباد جواباً
رجوتكم أن تنصروا وتعاضدوا	ونصركم لي غيبة وسباب
أيعجزكم حمل المواضي لنصرتي	فأثقل من سيف عصاً وجراباً ^(٤) .

بعدها أراد الإمام يحيى بن المحسن أن يخلف الحمزيين على الظاهر ، نظراً لتمكنهم من صعدة ، ولكنه هزم ومن معه من قبيل جابر بن مقبل ، مولى بني حمزة فيها ^(٥) ، فعاد إلى الأهنوم ^(٦) وأقام فيها ، ولما بلغ الأشراف الحمزيين استقراره هناك حاربوا أهل درب الظاهر ، وكان منهم جماعة من بني الهادي مائلين إلى الإمام يحيى

^(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٤٢ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٥٨ .

^(٢) خولان : تنسب إلى عمرو بن الحاف بن قضاة ، وتنقسم إلى قسمين : خولان العالية ، وخولان صعدة وهم من نسب واحد وإنما ذلك للفرق بين البلاد ، وليس للفرق بين النسب . انظر الهمداني ، الإكليل ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، ج ١ : ١٣٠ . ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله ، الأئمة على قبائل الرواة ، تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١١٧ .

^(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٧ .

^(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٥٢ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٥٩ .

^(٥) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٤٩ .

^(٦) الأهنوم : بطن من همدان ، من ولد الأهنوم بن شاذ — وعند الحجري بن الحارث — بن حنيق بن عبد الله ... بن جشم بن حاشد ، وديارها إلى الشمال من حجة في نواحي شهارة . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ١ : ٩٥ . المقحفي ، معجم ، ص ٦٠ .

فأخرجوهم عنه قصراً ، وقتلوا منهم الأمير علي بن يحيى بن الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان ، وأحرقوا الدرب وأصلحوا دوائر صعدة وأسوارها (١) .
وفي سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٩ م (٢) ، كانت آخر الهزائم التي مُني بها الإمام يحيى من الأشراف الحمزيين ، بعد خروجه من الأهنوم على رأس ستمائة مقاتل ، جُلهم من خولان ، فروا من ميدان المعركة ، بعد قدوم الأمير عز الدين محمد إليهم .
وبإحكام قبضة الأشراف الحمزيين على الظاهر ، وصعدة ، وبلاد الشرف (٣) ، وظليمة (٤) ، لم يبق للإمام يحيى بن المحسن إلا أن يبقى ساكناً أحياناً ، ومطارداً أحياناً أخرى في بلاد خولان وغيرها ، وذلك ما يفسر غياب أخباره وانقطاعها في المصادر التاريخية إلى أن توفي في سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م (٥) في هجرة ساقين (٦) .
ومع أننا غير ملمين إماماً كاملاً بالحالة السياسية التي كانت في ذلك الحين ، إلا أننا نستطيع الجزم بأن الإمام يحيى بن المحسن لم يتخل عن حقه في الإمامة ويؤثر السكون ، إلا بعد أن وصلت الأوضاع إلى حد لا يمكن الاستمرار معها ، ولاسيما مع قوة المعارض ، وتخاذه الأنصار .

يقول الإمام يحيى في بعض قصائده لبعض الأمراء القاسميين :

أترضى بهدم البيت يا نسل قاسم	وكشف حريم جدهن محمد
وقتل أمير من بني الحسن الرضى	إمام الهدى جد له ليس يجحد
و إتهاب أموال وغصب صوافي	على ذمم والله في ذاك يشهد (٧)

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٨ .

(٢) المصدر نفسه والجزء ، ص ٤٠٩ .

(٣) الشرف : جبل واسع في الشمال الغربي من حجة ، ويشكل أحد قضاواتها ، يتبعه من العزل : كحلان الشرف ، وخيران ، والمحابشة ، وأسلم ، والقل ، والشاهل ، وأفلح ، والمفتاح . المقحفى ، معجم ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) ظليمة : ناحية من قضاء شهارة في الشمال الغربي من حجة ، منها : مدينة حبور ، ولذلك يقال لها : ظليمة حبور . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ٣ : ٥٦٨ . المقحفى ، معجم ، ص ٤٢٦ .

(٥) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٥٦ . الجرافي : عبد الله بن عبد الكريم ، المقطف من تاريخ اليمن ، منشورات العصر الحديث ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ١٨٥ .

(٦) ساقين : مدينة من بلاد بني بحر من قضاء خولان في بلاد صعدة إلى جهة الغرب . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٥٦ . المقحفى ، معجم ، ص ٣٠٨ .

(٧) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٥٤ .

وفي قصيدة أخرى :

وما بالننا يا آل يحيى وقاسم
وما كان (غربان) ^(١) بدار مذلة
نهان ونرمى بالهفات ونهضم
ولا دربنا ^(٢) حتى يهد ويهدم ^(٣)

أما فيما يتعلق بالأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة ، فإنه — وبعد أن حسم صراعه مع الإمام يحيى بن المحسن ، و بسط نفوذه على كل المناطق التي كانت تحت يد والده — أثر مهادنة الأيوبيين نظراً لقوتهم ^(٤) .

وفي سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٣ م سافر الملك المسعود الأيوبي إلى مصر لرؤية والده الملك الكامل ^(٥) ، واستخلف على اليمن الأمير الحسام لؤلؤ ^(٦) ، فحدث بعد خروجه إلى مصر قيام حركة مرغم الصوفي ^(٧) في بلاد سحمر ^(٨) ، تلك الحركة التي زعزعت الاستقرار في الدولة الأيوبية ، ولاسيما مع هزيمة الجيش المرسل بقيادة الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول ^(٩) للقضاء عليها ، ومحاصرته في دروان ^(١٠) .

^(١) غُرْبَان : بلدة من حاشد ، ينتهي نسب سكانها إلى الأمير ذي الشرفين محمد بن جعفر بن الإمام القاسم العياني . المقحفى ، معجم ، ص ٤٨٦ .

^(٢) المقصود هنا هو درب الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين في صعدة .

^(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٥٤ .

^(٤) الحمزي : عماد الدين إدريس بن علي ، كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار ، تح : عبد المحسن مدعج المدعج ، مؤسسة الشراع العربي ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٩٢ م ، ص ٩٤ .

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٧٦ .

^(٦) المصدر نفسه والصفحة .

^(٧) كان في بداية حياته حائكاً في بلاد عنس ، ثم قام بدعوته في الحقل من بلاد يريم ، وزعم أنه داع إلى إمام حق ، وأنه منصور حمير الذي يخرج كنوزهم ، ويناصر المهدي الذي يخرج في آخر الزمان ، ويبدو أنه كان يتكلم في بعض الغيبيات ، و لذلك صدقه الناس ، والتفوا حوله في تلك المناطق . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ١٧٦ — ١٧٧ . الجندي ، السلوك ، ج ٢ : ٥٣٩ — ٥٤٠ . الخزرجي ، العسجد ، ق ١٨٤ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤١١ .

^(٨) سَحْمَر : جبل وبلدة في بلاد يريم . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٤١٧ .

^(٩) عن هذا الأمير ، انظر فيما سيأتي ، ص ٥٢ .

^(١٠) دروان : حصن مظل على منكب من بلاد يريم . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ٢ : ٣٣٠ .

ونظراً لضعف الحسام لؤلؤ في إدارة شؤون الدولة وهزيمة الأيوبيين في سحمر وامتتاع أهل الشوافي ^(١) عن أداء الحقوق الواجبة للأيوبيين ^(٢) ، وتمرد بعض القبائل ، رأى الأمير عز الدين أن الفرصة أصبحت مواتية للسير إلى صنعاء والاستيلاء عليها ، وكان ذلك في سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م ^(٣) ولم يكن عنده شك في دخولها ، وكان يقول لكل من يصادفه في طريقه : " تقدموا معنا للغنائم " ^(٤) وكان ينشد بيتين لوالده من جملة قصيدة وهما :

لا تحسبوا أن صنعاء جُلْ مأربتي ولا تعز فلا أشجيت حسادي
وأذكر إذا شئت تشجيني وتطربني كر الجياد على أبواب بغداد ^(٥)

وعلى الرغم من القوة العسكرية التي كانت مع الأمير عز الدين والتي قدرت بسبعمئة فارس وألفي راجل ^(٦) ، فإن هذا القوة لم تكن مؤهلة لدخول صنعاء والاستيلاء عليها ، لا من حيث العدد وإنما لقلّة التنظيم والتدريب . ولذلك كثير ما تؤكد على الفرق بين المقاتلين الأكراد والمماليك من جهة والمقاتلين من القبائل اليمنية من جهة أخرى ، لا من حيث الشجاعة ، وإنما من حيث الانضباط والالتزام و الخبرة ، باعتبار أن العسكرية هي حرفتهم ومهنتهم التي يسترزقون منها ، إذ تذكر المصادر التاريخية أن الأمير عز الدين وبعد نهوضه قاصداً صنعاء وقف مع الأشراف الزيديين برأس نقيل عصر ^(٧) فأقبل إليه الأيوبيون من نهج دروان ، بعد أن فكوا الحصار عن أصحابهم ، واتخذوا تشكيلاً عسكرياً دون صنعاء ، ميمنة وميسرة وقلباً ، وتركوا

^(١) الشوافي : مخلاف عظيم في الشمال الغربي من مدينة إبّ ، ينسب إلى الشوافي بن معد كرب ، وهو من أعمال مدينة إب في الوقت الحاضر ، وينقسم إلى أربع عزل . المقحفي ، معجم ، ص ٣٧٦ .

^(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٧٨ .

^(٣) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ٩٥ .

^(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٨٥ .

^(٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

^(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانسي ، ج ١ : ٤١٥ . وعند ابن فسد ، أربعمائة فارس ، وأربعة آلاف راجل . مآثر ، ج ٢ : ٨٥٨ - ٨٥٩ .

^(٧) عصر : قرية وجبل غربي صنعاء بمسافة (أربعة كيلومترات) وقد أصبحت اليوم مع التوسع العمراني جزءاً من صنعاء . المقحفي ، معجم ، ص ٤٥٥ . الهمذاني : حسين بن فيض الله ، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (٢٦٨ - ٦٢٦ هـ) ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٢٩٣ .

الرجال بين أيدي الخيل^(١) ، واتخذ الأمير عز الدين لنفسه أيضاً ، تشكيلاً على نفس التعبئة ، فعمه الأمير عماد الدين في الميسرة ، وأخوه شمس الدين أحمد في الميمنة ، وهو في القلب ثم تقابل الفريقان على هذه الحالة وانتظر كل منهما الآخر حتى يدنو منه ليقع القتال ، فلم يدن طرف من الآخر^(٢) وبقوا على هذه الحالة إلى أن قرب الليل فخاف أصحاب الأمير عز الدين فوات وقت الصلاة^(٣) ، فاستأذنه أصحابه بالانصراف إلى المحطة بريعان^(٤) لأدائها ، فلما أذن للناس انصرفوا من غير تعبئة ودخل بعضهم في بعض ، واختل تنظيمهم^(٥) وهو ما استغله الأيوبيون أصحاب الخبرة والانضباط بقيادة الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ، فزحفوا زحفاً حثيثاً على تعبئتهم نحو الأشراف حتى دنوا منهم وحين رآهم الأمير عز الدين صاح في أصحابه بالرجوع^(٦) ولكن بعد فوات الأوان فلم يجبه أحد ، ودارت رحى القتال بين الطرفين ، وكان من المتوقع أن ينتصر الأيوبيون فيه – نظراً لصبرهم وتنظيمهم – فقتل من الإشراف الزيديين أربعون رجلاً^(٧) – وفي بعض المصادر ألف رجل^(٨) – وفر الباقون إلى ريعان ، ومنها كل إلى منطقته وبلده ، وأصيب الأمير عز الدين بنشاب في عينه اعتراضه اعتراضاً ولم يذهب بصره^(٩) ، وجرح من الأشراف الحمزيين الأمير شمس الدين أحمد وبعض من آل الإمام عبد الله بن حمزة ، وغيرهم^(١٠) .

(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٥٩ .

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٣) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٥٢ . الجنداري : أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ، الجامع الوجيز بذكر وفيات العلماء ذوي التبريز من هجرة النبي إلى سنة ١٣٠٥ هـ ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٢) (تاريخ وتراجم) ، ق ٧٧ ب .

(٤) ريعان : قرية من همدان إلى الشمال الغربي من صنعاء ، بمسافة (٢٠ كيلومتراً) . المقحفى ، معجم ، ص ٢٩١ .

(٥) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٥٩ . الجنداري ، الجامع الوجيز ، ق ٧٧ ب .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤١٦ .

(٧) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٦٠ .

(٨) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٨٣ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤١٥ .

(٩) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٦٠ . وفي بعض المصادر وأعوور منها . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ١٨٣ .

(١٠) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٦٠ .

وفي شهر رمضان من سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦م ، ابتداء المرض بالأمير
عزالدين وهو بحوث^(١) ، ولم يزل به إلى أن توفي في السابع من ذي الحجة من السنة
نفسها^(٢).

^(١) حوث : بلدة مشهورة إلى اليوم في بلاد حاشد . المقحفي ، معجم ، ص ٢٠٨ .

^(٢) ابن المظفر : محمد بن أحمد بن يحيى ، الترجمان المفتاح لثمرات كرائم البستان ، مخطوط مصور ،
دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (١) (تاريخ) ، ق ١٣٩ . الحبسي : يحيى بن علي بن
محمد ، تنمة الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم
(١) (مجاميع) ، ق ٤٤ .

ملخص الرسالة

تناولت هذه الرسالة دراسة تاريخ الدولة الزيدية في اليمن خلال الفترة ما بين عامي (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ - ١٤٥٤ م) ، وشمل البحث الجوانب السياسية والحضارية لها .

ولأنني كنت قد بدأت مشواري مع الدولة الزيدية في رسالة الماجستير ، وتحديداً خلال عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (٥٨٣ - ٦١٤ هـ / ١١٨٨ - ١٢١٨ م) ، استهوتني فكرة مواصلة هذا المشوار ليشمل الفترة التي تلت هذا العهد ولاسيما أنه لم يكتب فيها أحد . وكان أكثر ما لفت نظري لهذا الأمر ، ذلك الصراع الذي خاضه أبناء هذا الإمام مع الإمام المهدي أحمد بن الحسين من أجل الحفاظ على السلطة بين أيديهم ، وكأنهم نسوا أو تناسوا أن الإمامة الزيدية نظام يقوم على مبدأ العقد والاختيار ، وليس على الوراثة ، وأن لها شروط وأصول لا بد من توافرها في الشخص الطالب لها ، حتى آل الأمر بهم إلى اغتياله في معركة شولة في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م .

ونظراً لوجود الملك المظفر يوسف بن عمر على رأس الدولة الرسولية ، عانى الأشراف الزيديين كثيراً من حنكته السياسية وحسن تدييره ، وقوة دولته الاقتصادية والعسكرية ، فلم تقم لهم قائمة خلال عهده ، بل أن أبنائه من بعده (الأشراف والمؤيد) استمدوا الكثير من القوة من ذلك العهد .

وبين عهدي القوة الرسولية ، ممثلة بالملك المظفر ، والقوة الزيدية ممثلة بالإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، تقلبت الأوضاع بالجانبين ، فما أن مات الملك المظفر حتى أثرت وفاته على الدولة الرسولية التي بدأت تفقد سيطرتها على مناطق اليمن الأعلى شيئاً ، فشيئاً ، حتى صنعاء رمز القوة والسيادة . ومع أنه من المفترض أن يستغل الأشراف الزيديين هذا الأمر لصالحهم ، ليعيدوا الأمجاد لدولتهم المنهارة ، إلا أنهم باستثناء عهد الإمام المهدي محمد بن المطهر (٧٠١ - ٧٢٨ هـ / ١٣٠٢ - ١٣٢٨ م) ، دخلوا في صراعات فيما بينهم من أجل الاستحواذ على الإمامة ، ولولا ما كانت تعانيه الدولة الرسولية من اضطرابات وقلقل - هي الأخرى - في اليمن الأسفل ، لثم القضاء على الدولة الزيدية آنذاك .

وفي سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م أدراك الأشراف الزيديين بأنه لا يمكنهم المضي في هذا الطريق حتى النهاية لأن في ذلك هلاكهم جميعاً ، وقرروا إقامة الإمام المهدي علي بن محمد الذي كان له الفضل في ما وصلت إليه الدولة الزيدية من تطور لاحقاً ، بعد أن مهد الطريق لولده الإمام الناصر صلاح الدين ، لتشهد الدولة الزيدية في عهد الأخير تطوراً في مختلف المجالات السياسية والحضارية ، المدنية والعسكرية ، حتى إنه يعد من الأئمة الزيديين القلائل الذين شكلوا تهديداً حقيقياً على الدولة الرسولية بعد أن وصل بجيوشه إلى أسوار مدينة زبيد ، وهو الأمر الذي لم يألفه الرسوليون قبل ذلك .

إذاً فقد كانت النهضة الحضارية التي حدثت في عهد الإمام الناصر صلاح الدين (٧٧٣ – ٧٩٣ هـ / ١٣٧٢ – ١٣٩١ م) مرتبطة بفترة الاستقرار التي أوجدها والده الإمام المهدي خلال عهده ، وبقوة شخصية الإمام الناصر الذي قهر الخصوم والأعداء وأخضع القبائل ، ولم تكن وليدة الصدفة ، كما ساعدت الإمكانيات المادية التي توافرت خلال هذه المدة في هذه النهضة .

ولأنه لا بد من تحليل مراحل الضعف والانقسام والصراع التي عانت منها الإمامة والدولة الزيدية معاً ، استنتج الباحث – مجتهداً – بعض الأسباب السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية لهذا الأمر .

الفصل الأول

**العلاقات الزيدية .الرسولية حتى مقتل الإمام
المهدي أحمد بن الحسين ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م**

أولاً : قيام الدولة الرسولية وموقف الأشراف الزيدية منها :

اقترن ظهور بني رسول^(١) في اليمن بالحملة الأيوبية الأولى على اليمن ، التي كانت بقيادة الملك المعظم توران شاه ، إذ تذكر المصادر التاريخية أن شمس الدين علي بن رسول كان هو وأبناؤه الأربعة : بدر الدين الحسن بن علي ، وشرف الدين موسى بن علي ، وفخر الدين أبو بكر بن علي ، ونور الدين عمر بن علي ضمن هذه الحملة^(٢) ، ويبدو أنه لم يكن لهم دور رئيس فيها — إن صحت المعلومة — وهذا ما يعلل ندرة أخبارهم في هذه المصادر خلال تلك المدة^(٣) . إلا أن أول ظهور واضح

(١) ينسب بني رسول إلى محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحى بن رستم الغساني المجكي التركماني الذي يعود نسبه إلى جبلة بن الأيهم الغساني الأردني ، والأزد من القبائل اليمنية التي هاجرت من جنوب الجزيرة العربية قبل حادثة سيل العرم إلى بلاد الشام ، مع أن بعض المصادر والمراجع التاريخية تشكك في هذا النسب . أما عن تسميتهم ببني رسول فيعود إلى أن جددهم محمد بن هارون كان مقرباً من الخليفة العباسي المستنجد بالله (٥٦٦ — ٥٧٥ هـ / ١١٧١ — ١١٨٠ م) فجعله رسوله إلى مصر والشام ولذلك أطلق عليه اسم رسول الخليفة فطغى هذا اللقب على اسمه الحقيقي ، ثم انتقل فيما بعد إلى مصر واستقر بها حتى قامت الدولة الأيوبية فيها . انظر : الملك الأشرف : عمر بن علي بن رسول ، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تح : ك . و . سترسين ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٣١ ، ١٠٠ . الخزرجي : موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، عني بتصحيحه : محمد بسيوني عسل ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م ، ج ١ : ٢٦ — ٢٧ . السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، الضوء اللامع وأهل القرن التاسع ، دار الجبل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، مج ١ : ج ٢ : ٢٩٩ . العرشى : حسين بن أحمد ، بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام ، عني بنشره : الأب أنستاس ماري الكرمللي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٣٩ م ، ص ٤٤ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (٦٢٨ — ٩٢٣ هـ / ١٢١٣ — ١٥١٧ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨٠ م ، ص ٤٦ — ٥٢ .

(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٨ . مع أنه يذكر في المسجد أنهم جاؤوا ضمن حملة الملك العزيز طغتكين بن أيوب إلى اليمن في سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م . انظر : المسجد ، ق ١٩١ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٠٠ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٢٩ .

(٣) يؤكد العسيري أن الأمير شمس الدين علي بن رسول وابنه الحسن — وكان يومها صغيراً في السن — هما فقط من جاء مع الحملة الأولى التي كانت بقيادة الملك المعظم توران شاه . أما بقية أبناء الأمير شمس الدين علي فالأرجح أنهم ولدوا في اليمن هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار المدة الزمنية بين حملة الملك المعظم وامتداد تاريخ بني رسول من أبناء الأمير شمس الدين علي في اليمن . انظر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ، ص ١٧٥ . كما يستبعد محمد عبد العال أحمد هذا الأمر أيضاً =

لهذه الأسرة في اليمن كان في عهد الملك العزيز طغتكين بن أيوب ، الذي عيّن شمس الدين علي بن رسول أميراً على الجيش ^(١) في سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م ، ثم جعله والياً على حيس ^(٢) وأعمالها .

ومع مرور الزمن ، ونظراً لمكانة والدهم في الدولة الأيوبية بدأ أبناء الأمير شمس الدين رحلتهم نحو السلطة والنفوذ ، ولا سيما مع ما يتمتعون به من الصفات الحميدة كالشجاعة والإقدام والقيادة وحسن السياسة ^(٣) . والحق أن البداية الحقيقية لهذه الأسرة جاءت بعد مقتل الملك المعز إسماعيل بن طغتكين في سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م ، وتسلم الأتابك سنقر زمام الحكم كوصي للملك الناصر أيوب بن طغتكين ، إذ قام هذا الأتابك - نظيراً لخدماتهم في الدولة الأيوبية - بتعيينهم على بعض المناطق ، فولّى الأمير بدر الدين الحسن بن علي ^(٤) ريمة ^(٥) ، وأقطع الأمير فخر الدين أبا بكر بن علي منطقة وصاب ^(٦) .

= إلا إذا كانوا جنوداً عاديين لا شأن لهم في حملة الملك المعظم . انظر : بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٦٤ - ٦٥ .

^(١) الخزرجي ، العسجد ، ق ١٩١ . الشرفي ، اللأسي ، ج ٢ : ٣٢٩ .

^(٢) حَيْسٌ : مدينة بالجنوب من زبيد بمسافة (٣٥ كيلومتراً) نسبت إلى بانيها حيس بن يريم بن ذي رعين ... الحميري . المقحفي ، معجم ، ص ٢١١ - ٢١٢ . الأكوغ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ١٠٧ .

^(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٨ . العسجد ، ق ١٩١ . الأكوغ : إسماعيل بن علي ، الدولة الرسولية في اليمن (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨ - ١٤٥٤ م) ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٢٥ .

^(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٠٥ .

^(٥) رَيْمَةٌ : اسم مشترك بين عدد من البلدان ، والمقصود من النص ريمة الأشباط التي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة الحديدة بمسافة (٧٠ كيلو متراً) . المقحفي ، معجم ، ص ٢٩٢ .

^(٦) وُصَابٌ : بلد واسع في الغرب الجنوبي من صنعاء بمسافة (١٨٢ كيلو متراً) ويشمل ناحيتين : وصاب العالي و وصاب السافل وهو منسوب إلى وصاب بن سهل بن زيد بن الجمهور ... بن حمير الأكبر . انظر : الوصابي : وجه الدين عبد الرحمن بن عمر الحبشي ، تاريخ وصاب الاعتبار في التواريخ والآثار ، تح : عبد الله محمد الحبشي ، مركز الدراسات اليمانية ، صنعاء ، ١٩٧٩ م ، ص ٨١ - ٨٣ . المقحفي ، معجم ، ص ٧٤٥ - ٧٤٦ .

وبعد وفاة الأتلبك سنقر ، انفرد الملك الناصر أيوب بن طغتكين وأتابكه الجديد غازي بن جبريل بالحكم ، وأتبع سياسة التصفية الجسدية للعديد من القادة والأمراء ، ومنهم : الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول الذي لم يؤثر فيه — على ما يبدو — السم (١) .

ونتيجة لهذه السياسة — سياسة التصفية — توفي الملك الناصر أيوب بن طغتكين ، وبوفاته دخلت اليمن في مرحلة فوضى واضطراب ، خفف من وطأتها الأمير بدر الدين الحسن بن علي ، الذي كان حينها أميراً لحرص (٢) والهلبة (٣) ، بعد أن بذل جهداً كبيراً في البحث عن شخص ينتمي إلى البيت الأيوبي ، فكان ما أسلفنا من انتقال مقاليد الحكم إلى الملك المعظم سليمان بن تقي الدين شاهنشاه .

ومع هذا الجهد الذي بُذِل لسد الفراغ السياسي في الدولة الأيوبية ، فإنه لم يكن في محله ، فالملك الجديد لم يكن ملماً بأمور الملك والسياسة ، فانصرف إلى اللهو والملاذات والنساء وترك أمور الحكم ، مما نتج عنه فراغ سياسي آخر ، ولكن مع وجود الملك المعظم هذه المرة .

أما بنو رسول فقد استمر بزوغ نجمهم بتولية الأمير بدر الدين الحسن بن علي على صنعاء (٤) ، ونظراً لتصاعد مكانة بني رسول في الدولة ، فقد حاول الملك المعظم — أكثر من مرة — التخلص منهم (٥) ، إلا أنه أخفق ، الأمر الذي أنتج تصدعاً في الدولة الأيوبية في اليمن .

ومع استمرار هذه الأوضاع لم يجد الملك العادل أبو بكر بن أيوب — ملك الدولة الأيوبية في مصر — بدأً من إرسال حملة عسكرية جديدة إلى اليمن لإعادة الاستقرار للدولة الأيوبية ، وكانت هذه الحملة بقيادة الملك المسعود ابن الملك الكامل ،

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٤٨ .

(٢) حرّص : بلد وواد مشهور بالشمال الغربي من حجة شرقي ميدي في تهامة ، ينسب إلى حرص بن خولان بن عمرو بن مالك بن حمير . الجعدي : عمر بن سمرة ، طبقات فقهاء اليمن ، تح : فؤاد سيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٣١٢ — ٣١٣ . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ٢ : ٢٥٦ .

(٣) الهلبيّة : قرية من أعمال زييد . الأكوخ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ٣٠٤ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦١ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٢ .

(٥) عن هذه المحاولات انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦١ — ١٦٢ . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٤٦ .

الذي عمل فور وصوله إلى اليمن على إعادة الأمور إلى طبيعتها ، وكان أول من استقبله عند وصوله الأمير بدر الدين الحسن بن علي ورفقته إخوته ^(١) الأمراء : نور الدين عمر ، وشرف الدين موسى ، وفخر الدين أبو بكر ، وذلك بسبب خلافهم مع الملك المعظم .

وحين علم الملك المعظم بوصول الملك المسعود ، تحصّن في تعز ، ولكن ذلك لم يمنع الملك المسعود من القبض عليه ، بعد أن أشار عليه الأمير بدر الدين الحسن بن علي بمراسلة الجند ^(٢) الذين كانوا مع الملك المعظم في تعز ، يتهددهم فيها بالويل والنكال إذا لم يقبضوا عليه ويسلموه إليه ، وهذا ما حدث فعلاً ، إذ قبض هؤلاء الجند على الملك المعظم وسلموه إلى الملك المسعود .

وعرفاناً بالجميل على ذلك الجهد الذي بذله بنو رسول في مساعدة الملك المسعود بعد وصوله إلى اليمن ، قام بتولية الأمير بدر الدين الحسن بن علي ^(٣) على القحمة ^(٤) ، ثم جعله أستاذ داره ^(٥) ، وأقطع الأمير نور الدين عمر بن علي مخلاف صهبان ^(٦) ، وفي سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٢ م ، عين الأمير بدر الدين والياً على صنعاء ^(٧) ، وأقطع الأمير نور الدين الأعمال الوصائية ^(٨) .

وبذلك أصبح بنو رسول يرتقون في مراكز الدولة من منصب إلى آخر ، وعندما قرر الملك المسعود العودة إلى مصر ، أناب عنه الحسام لؤلؤ ^(٩) ، و أبقى

^(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦٦ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٤ . الكبسي ، اللطائف السنية ، ص ٧٥ .

^(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٦٧ . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٤٧ .

^(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٠٤ .

^(٤) القحمة : بلدة تهامية بالقرب من جبل القحمة على وادي ذوال إلى الشمال الشرقي من زبيد ، بين بيت الفقيه والمنصورية ، وهي اليوم خربة . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٦٤٧ . المقحفي ، معجم ، ص ٥١٦ .

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٧٣ .

^(٦) صهبان : مخلاف في ناحية ذي السفال بالقرب من ذي جبلة في محافظة إب . المقحفي ، معجم ، ص ٧٠٣ .

^(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٧٥ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٣ . الأكوخ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٦ .

^(٨) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٣ .

^(٩) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٧٦ .

الأمير بدر الدين الحسن بن علي على صنعاء ، وعين الأمير نور الدين عمر بن علي أتابك له وصاحب بابيه (١) ، وبالتالي أصبح بنو رسول قاب قوسين أو أدنى من سيدة الحكم .

ويظهر أن بني رسول لم يستعجلوا الأمر ، وظلوا ينتظرون الفرصة المواتية لذلك ، فاستمروا في سياسة الإخلاص للدولة الأيوبية ، وفي تقديم خدماتهم لها ، والتي بلغت أوجها مع التصدي لحركة مرغم الصوفي ، وهزيمة الأشراف الزيديين في معركة عصر (٢) .

وإزاء ذلك ، ذاع صيت الأمراء الرسولين في أنحاء اليمن ، وأصبحت القبائل اليمنية – على ما يبدو – أكثر تقبلاً لفكرة وصولهم إلى السلطة بدلاً عن الأيوبيين . إن الانتصارات التي حققها بنو رسول ، والدور المتميز الذي لعبوه ، أثار حفيظة الملك الكامل الأيوبي ، الأمر الذي دفعه إلى إعادة الملك المسعود إلى اليمن في سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م (٣) ، لمحاولة الحد من نفوذهم أو التخلص منهم إن تمكن من ذلك (٤) ، وزادت محاولات الحسام لؤلؤ للتشكيك بولائهم (٥) من إصرار الملك المسعود على هذا الأمر .

(١) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٣٨ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٣ .

(٢) نظر فيما سبق ، ص ٤٣ .

(٣) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٤ ب . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤١٦ .

(٤) تذكر بعض المصادر التاريخية أن الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ، طلب من السلطان مدرك بن بشر بن حاتم أن ينظم له قصيدة تتضمن ذكر وقعة عصر والفخر بما كان فيها من بسالة بنو رسول ، ثم أرسلها إلى مصر ، وحين وصلت إلى هناك استعظمها الملك الكامل ، والتزم المخاطبة فيها بنون العظمة وقال لابنه المسعود : " من هذا يا يوسف الذي يخاطبك بهذه المخاطبة ؟ ! فقال : رجل من أمرائي يعرف بابن رسول . فقال – الملك الكامل – له : هيهات والله ما هذه مخاطبة أمير بل مخاطبة ضد ! فإن لم تثب عليه وثب عليك " . نظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ١٨٧ – ١٨٩ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٤ ب . الأكوغ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٨ .

(٥) نظراً لخوف الحسام لؤلؤ من أن يخبر الأمير بدر الدين الحسن ، الملك المسعود بضعفه في الحكم ، وتخليه عن الأمير نور الدين عمر يوم كان محاصراً في دروان من مرغم الصوفي ، بادره مخبراً الملك المسعود : إن الأمير بدر الدين أرسل إليه يطلب مالا ، فرد عليه بأنه لا يوجد عنده شيء واعتذر فعاد جواب الأمير بدر الدين له : " إذا لم ترسلوا لي الأموال نزلت وأخذت الحريم بعقصهم " ، وحين سمع الملك المسعود ذلك ، عظم عنده وقرر التخلص من الأمير بدر الدين تنفيذاً لوصية والده . نظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ١٩٣ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٤ ب . الأكوغ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٩ .

وتنفيذاً للمخطط الذي أعده الملك المسعود في هذا الخصوص ، أرسل الأمير نور الدين عمر بن علي بخزانة إلى عدن ^(١) ، ودعا بقية بني رسول إلى سماط ^(٢) كان قد أعده لهذا الغرض ، وألقى القبض عليهم ^(٣) وقيدهم وأرسلهم إلى مصر ، وكان ذلك في شهر رجب من سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م ^(٤) .

وفي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، قرر الملك المسعود الرحيل إلى مصر ^(٥) لرؤية والده ، واستتاب على اليمن — مرة أخرى — الحسام لؤلؤ ، ولكنه اعتذر وطلب منه أن يأذن له بالعودة معه إلى مصر ^(٦) ، وعندها لم يجد الملك المسعود من يصلح لهذا

^(١) الخزرجي ، العسجد ، ق ١٨٨ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٢٩٨ .

^(٢) السّماط : هو الوجبات الغذائية التي يقوم بها الملك في المناسبات والأعياد لكبار رجال الدولة والأعيان ، ويكون فيه أنواع مختلفة من الأطعمة والفاكهة والحلوى والشراب . المقرئزي : نقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تح : أيمن فؤاد سيد ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن ، ١٩٩٥ م ، ص ٧٧ — ٧٩ .

^(٣) تذكر المصادر التاريخية أن بني أيوب لم تخف على ملك اليمن أحد من العرب والعجم كما خافت من بني رسول ، وذلك لما كان منهم من علو الهمة وبعد الصيت وحسن السياسة وقهر الأعداء ، لأجل ذلك احتملوا لهم الضغن وقبضوا عليهم . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ١٨٩ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٩ . الأكوغ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٨ . ويضيف البعض أن القبض على أبناء علي بن رسول كان بمشورة من أخيه نور الدين عمر بن علي بن رسول للملك المسعود حين طلب منه أن يكون نائباً على اليمن ، فرفض متعللاً بالخوف من إخوته ولا سيما الأمير بدر الدين الحسن ، واقترح عليه القبض عليهم ليوافق على طلبه . انظر : ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ٨٧ . ونحن نستبعد ذلك لأن الملك المسعود منذ عاد إلى اليمن وفي نيته التخلص من الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول تنفيذاً لوصية والده ، وعليه لم يكن في حاجة لطلب من الأمير نور الدين عمر ليقوم بذلك ، وعموماً قد يفسر ما ذكره ابن الديبع الإبقاء على الأمير نور الدين وعدم القبض عليه مع إخوته ، ولا سيما أن الملك المسعود كان يميل إليه ويأنس به ، ويثق فيه دون إخوته . انظر : الأكوغ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٩ .

^(٤) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٤ ب . الأكوغ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٩ .

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٩٤ . الخزرجي ، العسجد ، ق ١٨٩ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٥ أ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٢٩٨ . وعند يحيى بن الحسين ، في سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م . انظر : غاية الأمانسي ، ج ١ : ٤١٧ .

^(٦) الأكوغ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٣٠ .

الأمر سوى الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول^(١) ، فأوكله إليه واستخلفه على اليمن^(٢) .

وخلال الطريق إلى مصر ، وبالقرب من مكة ، مرض الملك المسعود مرضاً شديداً ، ومات هناك في جمادى الأولى من السنة نفسها^(٣) .

أما الأمير نور الدين عمر بن علي – وبعد أن وصلتته الأخبار بوفاة الملك المسعود – فأظهر أنه نائب للأيوبيين على اليمن ولم يغير خُطبة ولا سَكَّة^(٤) ، وظلت الأمور كما كانت عليه أيام الملك المسعود بانتظار أن يبعث الملك الكامل إلى اليمن من ينوب عنه فيها من بني أيوب .

ويبدو أن الأيوبيين في مصر وبلاد الشام كانوا يعانون من مشاكل داخلية^(٥) وخارجية^(٦) ، جعلتهم يغفلون عن أمر اليمن ويتركونها غنيمة سهلة للأمير نور الدين

(١) الأكوخ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٣٠ .

(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ٩٥ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٢٩ .

(٣) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، تح : عبد الله محمد الحبشي ، دار الكاتب العربي ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ١٨ . الخزرجي ، العسجد ، ق ١٨٩ .

(٤) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٠٠ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٢٩ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤١٨ . أنباء الزمن ، ق ١٥٣ .

(٥) تمثلت هذه المشاكل في الانقسام والخلاف الذي حدث بين أبناء الملك العادل بعد وفاته ، ولا سيما خلال المدة ما بين ٦٢٤ – ٦٢٦ هـ / ١٢٢٧ – ١٢٢٩ م ، إذ دخل الملك الكامل في مصر في مواجهة مع أخويه الملك المعظم عيسى في الشام ، والملك الأشرف موسى شاه في ديار بكر وممالك الشرق ، انشغل على إثرها عن التفكير في اليمن واستعادته من بني رسول . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ : ١٢٦ . ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢ م ، ج ٦ : ٢٤٢ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٩٠ .

(٦) وتمثلت المشاكل الخارجية في ازدياد الخطر الصليبي وغيره على بلاد المسلمين، بعد الخلاف الذي نشأ في البيت الأيوبي والذي بسببه قام الملك المعظم عيسى بالتحالف مع جلال الدين خوارزم صاحب فارس ضد أخيه الملك الكامل ، وكرد فعل على ذلك ، تحالف الملك الكامل مع الملك الصليبي فريدريك الثاني ، ومقابل هذا التحالف تنازل الملك الكامل للصليبيين عن بيت المقدس وهو ما أثار سخط المسلمين وغضبهم عليه ، كذلك كان من الصعب على الملك الكامل في مثل هذه الأوضاع أن يرسل جزءاً من جيشه لاستعادة اليمن من بني رسول . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ : ١٢٦ . المقرئ ، السلوك ، ج ٣ : ٢٢٣ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ : ٢٤٢ . جميل حرب محمود ، اليمن والحجاز في العصر الأيوبي ، ص ١١٣ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٩٠ – ٩١ .

الذي ما أن شعر بعجزهم عن استعادة ملكهم ، حتى اتجه إلى تهيئة الأوضاع لاستقلاله بملك اليمن ، وبدأ بتعيين من يدينون له بالولاء على الحصون والمناطق ، ويعزل عنها كل من يخاف شقاقه وخلافه ^(١) ، وكانت أبرز الإنجازات التي حققها في هذا الاتجاه خلال المدة من ٦٢٦ – ٦٢٨ هـ / ١٢٢٩ – ١٢٣١ م :

١. السيطرة على حصن تعز بعد حصاره مدة من الزمن ، فأل الأمر بعد الحصار إلى الصلح بينه وبين الست ^(٢) أم قطب الدين ^(٣) (بنت جوزة) على أن يتزوجها وتسلم له الحصن ^(٤) .

٢. السيطرة على صنعاء بعد أن اخرج الأمير نجم الدين بن أبي زكريا ^(٥) منها ، ومع أن هذا الأمير تحصن – بعد ذلك – في براش ^(٦) ، إلا أن ذلك لم يفده شيئاً نظراً لطول الحصار على الحصن وشدته ، فاضطر إلى الاستسلام وإعلان الولاء لبني رسول ^(٧) .

^(١) ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٠٠ . الشرفي ، اللأكي ، ج ٢ : ٣٢٩ .

^(٢) الست : لقب عام يطلق على المرأة في ذلك الحين مثل السيدة وما شابه ذلك . انظر : الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص ٣١٧ .

^(٣) هي بنت الأتابك سنقر (وصي الملك الناصر أيوب بن طغتكين) ، تزوجها الملك المسعود بعد دخوله اليمن ، وبعد وفاته تزوجها الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول كجزء من الصلح الذي تم بين الطرفين . الخزرجي ، العسجد ، ق ١٩٣ . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٠١ .

^(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢١٢ .

^(٥) والي الأيوبيين على صنعاء آنذاك . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٤٦ – ٤٧ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٨٩ .

^(٦) برّاش : اسم مشترك بين عدد من المواضع في اليمن منها : برّاش صنعاء وهو جبل شامخ إلى الشرق من صنعاء يطل عليها من خلف جبل نغم . وبرّاش أيضاً جبل في بلاد وادعة إلى الجنوب من مدينة صعدة ويعرف ببرّاش صعدة . وسيأتي ذكره فيما بعد . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ١ : ١٠٥ – ١٠٦ . المقحفي ، معجم ، ص ٧٢ .

^(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانسي ، ج ١ : ٤٢٠ .

واختتم الملك المنصور نور الدين هذه الخطوات في سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م ، حين أرسل إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله ^(١) هدية عظيمة طالباً منه تشريفه بالحكم في اليمن نيابة عن الخلافة العباسية ، وذلك لإضفاء صفة الشرعية على حكمه ، فوصله هذا التشريف في العام التالي ^(٢) .

أما الأشراف الزيديون ، فآل بهم الحال بعد وفاة الأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة إلى عقد صلح مع الملك المنصور نور الدين عمر بن علي في سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م ^(٣) ، وتضمن هذا الصلح على :

١. إقرار الأشراف الزيديين على بلادهم ، فضلاً عن (الإسناد) ^(٤) و (الخشب) ^(٥) و (الخارد) ^(٦) و (مطرة) ^(٧) .

٢. وقوف الأشراف إلى جانب الملك المنصور في حالة نشوب حرب بينه وبين الأيوبيين في اليمن ^(٨) .

^(١) هو الخليفة أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله العباسي ، ولد في سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٣ م من أم تركية ، تولى الخلافة بعد وفاة والده في سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م ، وتوفي في سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م وعمره إحدى وخمسون سنة ، ومدة ولايته ست عشرة سنة . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ : ١١٦ ، ١٦١ .

^(٢) ابن الجزري : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، المختار من تاريخ ابن الجزري المسمى : حوادث الزمان وأنبلؤه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ، تح : خضير عباس محمد خليفة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١٥٧ . ابن الديبع ، قررة العيون ص ٣٠٣ . الفقي : عصام الدين عبد الرؤوف ، اليمن في ظل الإسلام منذ فجره وحتى قيام دولة بني رسول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٢ م ، ص ٢٣٩ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ١٠٠ .

^(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٤٧ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٧ ب .

^(٤) لم استدل على موقعها في المعاجم اليمنية .

^(٥) الخشب : وطن من أرحب شمال صنعاء . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٢ : ٣٠٨ . المقحفي ، معجم ، ص ٢٢٢ .

^(٦) الخارد : وادي مشهور في أرض الجوف . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٢ : ٣٠٣ . المقحفي ، معجم ، ص ٢١٥ .

^(٧) مطرة : بلد ما بين نهم وأرحب . المقحفي ، معجم ، ص ٦٣٤ .

^(٨) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٤٧ .

وفي سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م ، انتفض هذا الصلح ^(١) بسبب محاولة الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة الاستيلاء على حصن كوكبان ^(٢) ، الأمر الذي نتج عنه حدوث حرب بين الطرفين ، كانت نتيجتها استيلاء الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن رسول – والي الملك المنصور على صنعاء – على بعض المناطق الزيدية التي تم الصلح عليها ^(٣) .

وعلى إثر ذلك ، وثب الأمير عماد الدين يحيى على جبل منابر ^(٤) وعمره ، فازداد الأمر تعقيداً بين هؤلاء الأشراف والملك المنصور للرسولي ، ذلك أن هذا الجبل يطل على الأعمال التهامية ويشكل خطراً عليها .

ومع أن الملك المنصور حاول مقايضة الأمير عماد الدين بإعطائه حصن عزان ^(٥) وعشرة آلاف دينار ^(٦) ، مقابل أن يستعيد منه منابر ، إلا أن الأخير رفض هذا العرض ، وأعلن مشاركته للرسوليين في المهجم ^(٧) ، فأشتد غضب الملك المنصور من ذلك ، وخرج بنفسه من تعز في سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م ^(٨) ،

^(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٠٨ . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٥٦ . وفي بعض المصادر في سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م . انظر : الشرفي ، اللأئي ، ج ٢ : ٣٣١ .

^(٢) كوكبان : حصن مطل على شِباب كوكبان إلى الغرب الشمالي عن صنعاء ، يقال إنه سمي بهذا الاسم لأن قصره كان مبنياً بالفضة والحجارة ودخلها الياقوت والجوهر ، وكان الدر والجوهر يلمع مع حلول الليل كما يلمع الكوكب . انظر : الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٦٦٩ .

^(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٠٩ .

^(٤) منابر : جبل يقع غرب جبل حُفّاش وملحان ويطل على المهجم . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٠٤ ، (حاشية المحقق) .

^(٥) عزان : اسم مشترك بين عدد من الأماكن في اليمن منها : بلدة عزان في عرش رداع إلى الغرب الجنوبي منها بمسافة (١٨ كيلو متراً) ، وعزان حصن في جبل برع ، وعزان أعلى جبل ريمان المطل على مدينة إب من الزاوية الشرقية الشمالية ، وجبل عزان في حاشد . المقحفي ، معجم ، ص ٤٥٢ . والمقصود من النص عزان المصانع في بلاد حمير . ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٠٩ .

^(٦) الخزرجي ، المسجد ، ق ١٩٧ . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٥٦ .

^(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٠٩ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ١٠٤ .

^(٨) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ٩٦ – ٩٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٢٣ .

وجعل طريقه إلى الكدراء (١) و الذنائب (٢) ، حتى انتهى به المطاف بالاستيلاء على جبل منابر وحصنه ، رغم وعورة الطريق إليه (٣) ، فلما رأى الأشراف الزيديون قوة الملك المنصور التي قدرت حينها بستين ألف مقاتل (٤) ، لم يجدوا بداً من مصالحته مرة أخرى ، فصالحهم على أن البلاد التي استفتحها لا معارض له فيها (٥) . وفي السنة نفسها ، وعقب محاصرة الملك المنصور لحصون الشيخ علوان الجحدري (٦) ، اتخذت العلاقة بين الأشراف الحمزيين من آل يحيى بن حمزة ، والملك المنصور ، منحنى آخر تمثل في وقوف الأمير تاج الدين محمد بن يحيى بن حمزة إلى جانب الملك المنصور (٧) في حربه ضد الشيخ علوان ، وهو ما قابله الملك المنصور بالإحسان ، وأعطاه - مقابل ذلك - البونيين (٨) والشرفيين وحصون حجة ، وقد كان لهذا الأمر آثاره الكبيرة في الإمامة الزيدية لاحقاً .

(١) الكدراء : مدينة تهامية خربة في وادي سهام والكدراء أيضاً قرية عامرة في وادي سررد بالقرب من الزيدية . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٦٤٤ . المقحفى ، معجم ، ص ٥٥٢ .

(٢) الذنائب : بلدة في أسفل جبل ملحان إلى ناحية الشمال من المهجم . الأكوخ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ١٢٤ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢١١ .

(٤) الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ٩٧ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٤١ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٣١ . ومن الجدير بالذكر أن الملك المنصور تمكن من تجنيد هذه القوة من خلال الأموال التي كان أدخرها يوم كان نائباً للأيوبيين .

(٥) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٦٠ .

(٦) هو علوان بن عبد الله بن سعيد الجحدري ثم المنحجي نسباً ويعرف بالكردي لقباً ، كان على خلاف مع الملك المنصور نور الدين عمر قبل مقتله ثم أيد الملك المظفر في صراعه مع أخويه الفائز والمفضل على الملك ، إلا أن العلاقة بينهما شابها بعض الفتور والحرب أحياناً بسبب إجارة الشيخ علوان للأمير أسد الدين محمد بن الحسن الرسولي يوم كان على خلاف مع الملك المظفر ، توفي في سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م . انظر : الأفضل الرسولي : العباس بن علي بن داؤد بن يوسف ، العطيا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ، تح : عبد الواحد عبد الله الخامري ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ، ص ٤٨٣ - ٤٨٤ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٣٨ - ١٤١ . الشامي : أحمد بن محمد ، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، منشورات العصر الحديث ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج ٣ : ٢٣٩ - ٢٤٢ .

(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢١٤ .

(٨) البون : حقل من بلاد همدان يقع شمال صنعاء بمسافة (٤٨ كيلو متراً) ، وهو في الأصل بونان : البون الأعلى ومن قرأه : رقاعة ، قارن ، والبون الأسفل ، ومن قرأه : عمران ، ريده . انظر =

ومن الجدير بالذكر ، أن الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة لم يكن راضياً عن تصرفات عمه الأمير عماد الدين يحيى ونقضه للصالح مع الملك المنصور^(١) لذلك اتسمت علاقته مع هذا الملك بالودّ والهدوء .

ثانياً : عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين (٦٤٦ . ٦٥٦ هـ / ١٢٤٩ . ١٢٥٩ م)

١. الأوضاع السياسية قبيل قيام الإمام المهدي .

قبيل إعلان الإمام المهدي أحمد بن الحسين^(٢) لدعوته ، كشفت الأوضاع التي مرت بها اليمن في ذلك الحين عن ظهور قوى مؤثرة على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية ، تقاسمت مناطق النفوذ والسيادة ، وقد تمثلت هذه القوى بوصول الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة إلى رئاسة الأشراف الزيديين من دون احتساب أو إمامة^(٣) — بعد وفاة عمه الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة في سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م^(٤) ، ووفاة الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن في سنة ذاتها — وسيطرته على مناطق اليمن الأعلى باستثناء صنعاء وذمار ، بينما واصل بنو رسول وعلى

= الحميري : نشوان بن سعيد ، منتخبات في أخبار اليمن ، عني بتصحيحه : عظيم الدين أحمد ، دار التوير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٦ م ، ص ١٠ . المقحفي ، معجم ، ص ١٩٥ .

^(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢١٠ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٨ ب .

^(٢) هو الإمام المهدي أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن عبد الله بن القاسم بن أحمد بن إسماعيل بن أبي البركات بن أحمد ... بن القاسم الرسي بن إبراهيم ... بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ولد في هجرة كومة ببلد شاكر من بلاد الظاهر ، وحين بلغ الثانية عشر من عمره نقله عمه إلى مدرسة مسلت ومنها إلى المدرسة المنصورية بحوث ، فقرأ في العلوم حتى بلغ الغاية فيها . ولما كان مستوفياً لشروط الإمامة عند الزيدية طلب منه أهل زمانه من العلماء والفقهاء القيام بها ، فوافق على ذلك . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤ ب — ٧ أ . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٦٧ — ٨٦٨ . ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٤٠ . الحبسي ، تنمة الإفادة ، ق ٤٤ .

^(٣) لم يكن الأمير شمس الدين مستوفياً لشروط الإمامة أو الحسبة عند الزيدية ، لذلك لم يدعيهما . الأكوخ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٣٧ .

^(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٢٤ . أنباء الزمن ، ق ١٥٧ . ومع أن يحيى بن الحسين قد أكد على أن وفاة الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة كانت في سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م ، إلا أنه ورد في سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين أنه عاش حتى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م ، ثم عقب السيد شرف الدين على ذلك بالقول : " لعله في ذلك الأوان إلى نيف وثمانين سنة وقد ... ذهبت إحدى كريمته وضعف جسمه فغلب ولداه ولم يتركها له سبيلاً وبيعهما جميع أخدامهم في الحصون وولاتهم " . انظر : سيرة المهدي ، ق ٤٨ أ .

رأسهم الملك المنصور نور الدين عمر بن علي سيطرتهم على مناطق اليمن الأسفل ، إضافة إلى صنعاء و ذمار .

ويظهر أن كلا الطرفين الزيدي و الرسولي كانا في أمس الحاجة لتفعيل اتفاق الصلح بينهما ، بما يحفظ لكل منهما مناطق نفوذه ومصالحه ، ، فالملك المنصور لا يريد أن يفتح على نفسه حرباً داخلية مع الأشراف الزيديين ، ولا سيما أنه منشغل بحرب خارجية مستمرة مع الأيوبيين في مصر على بلاد الحجاز - مكة والمدينة - (١) وبالتالي أراد أن يؤمن الوضع الداخلي ليتفرغ للوضع الخارجي ، فضلاً عن تخوفه من أن يرسل الأيوبيون حملة عسكرية إلى اليمن لاستعادة ملكهم ، فأراد أن يتخذ من الأشراف الزيديين حلفاء له لمواجهة مثل هذا الأمر ، وهذا ما أكده الصلح الذي جرى بين الجانبين ، والذي تضمن على أنهما يد واحدة ضد الأيوبيين في حال عودتهم إلى اليمن (٢) .

أما الأشراف الزيديون فقد كانوا يدركون جيداً عجزهم عن مواجهة الدولة الرسولية ، ولا سيما بعد تلك المحاولة الفاشلة للسيطرة على حصن كوكبان ، وما نتج عنها من رد قوي سلب الأشراف العديد من المناطق التي كانت تحت نفوذهم ، وقد أدركوا أن الإصرار في هذا الجانب لن يكون في مصلحتهم ، كما أنهم في الوقت نفسه أرادوا المحافظة على مصالحهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مناطقهم ، والتي لن تحفظ إلا من خلال الصلح الذي عقده مع الدولة الرسولية ، وعليه فلا داعي لمواجهة خاسرة معها ، وأخيراً كانت الزيدية في ذلك الحين من دون إمام ، والأمر فيهم كما قال الشاعر :

**وتفرقوا فرقاً فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومنبر (٣) .**

ويبدو أن الجو السائد - آنذاك - كان مناسباً لكل الأطراف ولا مصلحة لأي طرف في تغييره .

(١) عن هذه الحروب انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٢١٥ - ٢١٧ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٥٤ -

٦١ . ابن الديبع ، قرعة العيون ، ص ٣٠٢ - ٣٠٦ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٤٧ .

(٣) ورد هذا البيت عند ابن حاتم في وصف حال أهل اليمن قبل الفتح الأيوبي ، وينطبق البيت نفسه على

حال الأشراف الزيديين قبيل قيام الدولة الرسولية . انظر : السمط ، ص ١٦

ولعله من المناسب في هذا السياق أن نوضح أن علاقة الأشراف الحمزيين من آل عبد الله بن حمزة بالإمامة الزيدية مرت بثلاث مراحل :

الأولى : الارتباط الشرعي والعسكري ، وهي مرحلة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة الذي جمع بين الإمامة والنفوذ .

الثانية : وهي مرحلة الانتقال بين الارتباط الشرعي ، والارتباط غير الشرعي ، مع الاحتفاظ بالارتباط العسكري ، وتمثلت هذه المرحلة في مدة احتساب الأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة ، وقد أطلقنا عليها هذه التسمية لأن هذا الأمير استند في احتسابه إلى مرجعيات دينية مثلها علماء الظاهر ، وإن كان هناك شك في اجتهادهم هذا مع وجود إمام مستوفٍ لشروط الإمامة ومستحق لها .

الثالثة : الارتباط العسكري من دون أي مسوغ شرعي ، وهذه هي المرحلة التي ترأس فيها الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة ، بعد أن أقصى الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن من دون أن يعلن نفسه محتسباً أو إماماً للزيدية .

٣ . قيام الإمام المهدي أحمد بن الحسين :

في شهر صفر من سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م ^(١) ، كان قيام الإمام المهدي أحمد ابن الحسين وكان مستوفياً لشروط الإمامة ، وظهر الفرق بينه وبين الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن واضحاً منذ بداية دعوته ، فالإمام المعتضد بالله كان سيء الحظ نظراً لانقسام علماء الزيدية وأشرافها حول إمامته ، مع كونه مستوفياً لشروطها ، فبايعه علماء صعدة وعارضه علماء الظاهر لأسباب ليس لها أساس شرعي ، وإنما لحبهم للأشراف الحمزيين وعدم رغبتهم في أن تخرج الإمامة من الفرع الحمزي إلى غيرهم . أما الإمام المهدي أحمد بن الحسين فكان أفضل حالاً منه ، لأن العلماء الذين أنكروا إمامة المعتضد بالله يحيى بن المحسن استشعروا خطأهم في ذلك ، وأرادوا التكفير عنه بعدم تكراره مع الإمام المهدي ، فتمت مبايعة الإمام المهدي بإجماع علماء الزيدية آنذاك .

^(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٧ أ . الواسعي : عبد الواسع بن يحيى ، تاريخ اليمن المسمى : فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٤٦ هـ ،

٣ . موقف الأشراف الحمزيين من إمامته :

يذكر ابن حاتم^(١) ، أنه لما قام المهدي أحمد بن الحسين بأمر الإمامة الزيدية أجابه سواد الناس ، والطغام ، والرعايا ، ولم يتأخر عن إجابته أحد . وينكر يحيى بن الحسين^(٢) في السياق نفسه ، أنه أجابه خلق كثير ، فهل كان بإمكان الأشراف الحمزيين مع هذا الوصف لدعوة الإمام المهدي أن يتأخروا عن إجابته ، لاسيما أنه مستوفياً لشروط الإمامة وأجمع العلماء على مبايعته ، ولم يترك ما حدث مع الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن مع الإمام المهدي من حيث انقسام العلماء حول إمامته .

وللإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نوضح الآتي :

أولاً : أن الإمام المهدي أحمد بن الحسين قام بأمر الإمامة بدعوة من الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة ، وذلك ما يؤكد مصنف سيرة الإمام المهدي حين قال : " ... فإنه ... دعاه إلى القيام والتصدي للأمر العام وبذل ما يجب من نصرته ... " ^(٣) ، ولكننا نؤكد أيضاً أن الأمير شمس الدين لم يقدم على هذا الأمر إلا بعد أن أشيع وظهر بين الناس والعلماء ، فأراد أن تكون له المبادرة فيه بدلاً من أن يكون من دون رضاه ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، كان قصد الأمير شمس الدين من هذه المبادرة أن يُبقي على مكانته كقائد للأشراف الزيديين إلى جانب الإمام ، ولا نبالغ إذا قلنا بالصلاحيات والامتيازات ذاتها ، وخاصة أنه تربع على عرش الزيدية منذ سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م دون منازع ، وهذا الأمر لن يحدث إلا إذا سائر دعوة الإمام المهدي ووقف إلى جانبه ، والعكس قد يحدث إذا وقف ضده .

ثانياً : أن الإمام المهدي دعا إلى الإمامة بعد غياب دام - فعلياً - مدة أربع وثلاثين سنة ، أي منذ وفاة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، وشكلياً مدة عشر سنوات ، أي منذ وفاة الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن ، وسواءً كان هذا وذاك ، فقد اختفت الإمامة الزيدية مدة طويلة من الزمن جعلت الناس مثلثين لأي إمام قادم مستوفٍ لشروطها ، ولعل ذلك ما قصده الإمام المهدي بقوله : " ... ولما نقلنا قلائد

(١) السمط ، ص ٢٢٥ .

(٢) غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٢٩ .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٦ ب .

الزعامة ، وتحملنا أقال الإمامة ، سار العلماء إلينا إرسالاً من كل فج عميق ... وكانوا يغدون في ميدان الاختبار ، ويجاروننا صبح مساء في ذلك المضمار ، فسبقنا سوابق فرسانه ، واستبددنا برهانه في طويل ميدانه ... فحينئذ أتضح الحق ، وتعين فرض الإمامة على كافة الخلق ، وازدحموا على البيعة ازدحام الإبل الهيم على حياضها ، والحدابير المسنة على رياضها ... " (١) .

وهذا ما لم يتحقق مع الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن الذي لم يقبل به شيعة الظاهر خلفاً للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، إذ إن المقارنة في هذا الشأن لم تكن في صالحه .

ثالثاً : غياب الشخص المؤهل من أبناء الإمام عبد الله بن حمزة لتقلد الإمامة (٢) ، وكانت المحاولة الأولى والأخيرة في هذا السياق هي مدة احتساب الأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة ، والتي لم تكن شرعية مع وجود إمام مستحق لمرتبة الإمامة آنذاك ، وبعد وفاة هذا الأمير ، انقطع أي أمل لشيعة الظاهر وعلماؤها في تقلد أيأ من أبناء الإمام عبد الله بن حمزة للإمامة أو حتى لمرتبة الاحتساب ؛ نظراً لعدم توافر شروطهما في أحد منهم ، وعليه تخلى مثل هؤلاء العلماء عن محاولة إبقاء الإمامة في آل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، وبدءوا يتقبلون فكرة انتقالها إلى أسرة أخرى من الأشراف ، وإلى شخص آخر من غير الحمزيين ، شريطة أن تتوافر شروط الإمامة فيه .

واستناداً إلى ما سبق ، لم يجد الأشراف الحمزيون بدأً من مبايعة الإمام المهدي لعدم مقدرتهم الوقوف أمام دعوته (٣) ، هذا من جانب ، وللحفاظ على مصالحهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، من جانب آخر ، ولا سيما مع وقوف العلماء إلى جانبه ، حتى من تردد منهم لم يجد بدأً في الأخير من الاعتراف بها ولو مكرهاً (٤) .

(١) أحمد بن الحسين (الإمام المهدي) ، مجموع رسائل ، تح : عبد الكريم أحمد جدبان ، منشورات مكتبة التراث الإسلامي ، صعدة ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ، ص ٩٧ .

(٢) الأكوغ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٣٧ .

(٣) محمد عبد العل أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ١٣١ .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٦٩ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٦٧ .

أما فيما يتعلق بتكرار ما حدث مع الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن مع الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، فأمر مستبعد لعدة أسباب منها :

١. أن الإمام المهدي أحمد بن الحسين وإن لم يكن من الفرع الحمزي ، إلا أنه لم يكن أيضاً من نسل الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين – وإن كان يلتقي به عند الإمام القاسم الرسي – وبالتالي اختفى في حالته ، ذلك الاستنفار الزائد والحساسية المفرطة حول مسألة انتقال الإمامة من الفرع الحمزي إلى الفرع الهادي ، فكأنه صار الحل الوسط – إن صح التعبير – في مثل هذه أمور .

٢. أن الإمام المهدي أحمد بن الحسين عاش مدة طويلة بين ظهراني الأشراف الحمزيين من آل الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة^(١) ، وبالتالي لم يكن غريباً عنهم ، وربما فكروا في إمكانية التأقلم معه .

ومهما يكن الأمر ، فقد بدأ المهدي أحمد بن الحسين رحلته مع الإمامة الزيدية في يوم الأحد الثالث عشر من شهر صفر من سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م ، وتحديدًا من ثلا^(٢) ، حيث يذكر السيد شرف الدين^(٣) أنه قوي في خاطر أحمد بن الحسين إتيان ثلا من البلاد الحميرية لحاجة عرضت له ، وأنه خرج من نيبين^(٤) حتى دخل ثلا في خلق كثير ومحفل عظيم ، وأن آل منصور ممثلين في رئيسهم – آنذاك – الشيخ منصور بن محمد ، تلقوه بالإنصاف والإتحاف ووعده النصر بالنفوس والحصون والأموال ، فلم يرَ إلا القيام بالأمر^(٥) .

(١) الجنداري ، الجامع الوجيز ، ق ١٨١ .

(٢) ثلا : مدينة أثرية على بعد (٤٥ كيلو متراً) من صنعاء إلى الشمال الغربي ، سميت بهذا الاسم نسبة إلى ثلا بن لبأخة بن ذي أقيان بن حمير الأصغر زرعة بن حميل الأصغر المازني .
الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ١ : ١٦٦ . المقحفي ، معجم ، ص ١١٣ .

(٣) سيرة المهدي ، ق ٢٦ ب .

(٤) ذيبين : وتكتب ذي بين ، مدينة إلى الشمال الغربي من صنعاء بمسافة (٩٤ كيلو متراً) ، تتبع حالياً محافظة عمران ومن أعمالها مرهبة وبني جبر وسفيان . المقحفي ، معجم ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

(٥) سيرة المهدي ، ق ٢٦ ب .

لقد كان المهدي أحمد بن الحسين مدركاً قبل إعلان إمامته أنه أمام خيارين لا ثالث لهما :

الأول : أن يعلن دعوته من (ظفار) ^(١) معقل الأشراف الحمزيين ومركز قوتهم — كما أراد الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة — وبالتالي يستمد جزءاً كبيراً من قوته من هؤلاء الأشراف ، ولن يكون هذا إلا بعد تقديم العديد من التنازلات لعل أبرزها : الإبقاء على النفوذ الحمزي ، السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وعدم المساس به ، ومعاملة الأشراف الحمزيين معاملة خاصة ينفردون بها دون بقية الناس ، مع يعنيه ذلك من الظلم والجور الذي قد يقع على بعض الناس بسبب هذا الأمر وهذه المعاملة ^(٢) .

الثاني : أن ينأى بدعوته منذ بدايتها عن هذا النفوذ ، ويستمد قوته من العلماء والعامّة ، وعليه لا يكون للأشراف الحمزيين أي تأثير يذكر فيها ؛ نظراً لتساوي موازين القوى بين الجانبين ، فإذا كان هؤلاء الأشراف يعتمدون على قوتهم العسكرية التي امتلكوها خلال المدة السابقة لقيام الإمام المهدي ، فإنه سيستمد قوته من قاعدة أساسها العامّة ورأسها العلماء .

ويبدو أن الإمام المهدي كان من الذين لا يرون الحلول الوسط في مثل هذه المسائل ^(٣) ، ولذلك نصحه بعض المقربين بالعدول عن هذا الطريق وموالاتة الأشراف الحمزيين ^(٤) دون إفراط أو تفريط ، بمعنى أن ينزلهم مكانتهم التي يستحقونها ، ويعطيهم الامتيازات التي يتأملونها ، دون المساس بحقوق الناس والعامّة ، ودون الإخلال بأصول وشروط الإمامة ، وهذا ما لم يره الإمام المهدي ، فاختر ما يراه صحيحاً وما يعتقده يقيناً ، وبدأ دعوته من ثلثا قاصداً متعمداً حتى يبعدها عن أي تأثير

^(١) ظفّار : حصن من بلاد همدان من أعمال نيبين ، كان يعرف سابقاً بأكمة الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي (٤٣٧ — ٤٤٤ هـ / ١٠٤٦ — ١٠٥٣ م) ثم أعاد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بناءه في سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م ، ثم ارتبط اسمه لاحقاً بالأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٥٦٤ . الأكوغ ، هجر ، ج ٣ : ١٢٨٣ .

^(٢) لعل ذلك ما جعل الأمير الحسين بن بدر الدين محمد بن أحمد ... الهادي يشترط في بيعته للأمير الحسن بن وهس أن لا يأخذ بنو حمزة أحداً بأغراضهم . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٩٤ .

^(٣) الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ١٨٩ .

^(٤) المرجع نفسه والجزء ، ص ١٨٧ .

للأشراف الحمزيين ، ولإيصال رسالة إلى العامة والخاصة مفادها أن الإمامة الزيدية على وشك مرحلة جديدة تختلف عن التي سبقتها ، مرحلة ليس للأشراف الحمزيين أي دور رئيس فيها ، وخاصة بعد ما أشيع عن هؤلاء الأشراف من الجور والظلم للناس في فترات تسلطهم السابقة (١) ، وبناءً عليه ليس أمامهم سوى الانخراط في ركب الإمامة الجديدة دون قيد أو شرط ، ودون أدنى تنازلات لهم من الإمام المهدي ، ولهذا الأمر اكتسبت دعوته زحماً شعبياً كبيراً ومحبة في قلوب الناس لا زالت آثارها إلى اليوم .

وبدلاً من السير إلى ظفار واستقباله من الأمير شمس الدين أحمد ، وإعلان إمامته من هناك ، كان المسير إلى ثلا ، وعضواً عن الزيارة كانت الرسالة التي نسفت كل ما كان يسعى له الأمير شمس الدين .

لقد كان الأمير شمس الدين يظن ويأمل أن الأمر سيقف عند حد تقاسم السلطة والنفوذ مع الإمام الجديد (٢) ، لكن الأمر جرى على خلاف ذلك ، فقد انفرد الإمام بالأمر دونه وأقصاه عن أي دور رئيس في الدولة ، وذلك ما لم يرضه هذا الأمير لنفسه ، وما سبب الصدام بين الطرفين لاحقاً .

أما عن رد فعل الأمير شمس الدين حيال الدعوة القادمة من ثلا فقد تظاهر بالبيعة للإمام المهدي أحمد بن الحسين والدخول في طاعته (٣) أولاً ، ويظهر أن هذا الموقف قد أملاه عاملان ، أولهما : مبايعة العلماء والعامة لهذا الإمام الذي استوفى

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٣ أ . ويؤيد ذلك ما جاء في قصيدة الشاعر أحمد بن أسعد الزيدي " منزل فيها قائم وحصيد " ، التي نظمها رداً على قصيدة الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة ، " لعل الليلي " ، حين قال قاصداً الأمراء من آل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة :

وكانت لكم في الاحتساب زخارف من القول لم ينظم لهن عقود
أبحتم بها الأرواح والمال برهة عليها رجال ركع ... وسجود .

انظر : ابن أبي الرجال : أحمد ، مطلع البدر ومجمع البحور ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٢) (تراجم) ، ج ١ : ١٣٠ . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٢٧ .

(٢) يؤكد ذلك ما تم الاتفاق عليه بين الأمير شمس الدين أحمد والأمير الحسن بن وهاس - الذي جرى تنصيبه إماماً بعد مقتل الإمام المهدي من قبل الأمراء الحمزيين - والذي نص على تقاسم خراج البلاد نصفين : نصف للحسن بن وهاس ، ونصف للأمير شمس الدين وإخوته . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانسي ، ج ١ : ٤٤٦ .

(٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ٤٢٩ .

شروط الإمامة ووجبت البيعة له من كل الناس ، وبناءً عليه وجد الأمير شمس الدين نفسه مضطراً لهذه البيعة مع تزامم الناس حول الإمام وتفرقهم من حوله . وثانيهما : تأمل الأمير شمس الدين من هذه البيعة أن يقدر الإمام المهدي مكانته بين الأشراف وينزله منزلته التي يستحقها ولا يغير عليه حالاً ، فإذا ما تم له ذلك زال أي خلاف بينه وبين الإمام المهدي ، والتحالف معه أفضل للأمير شمس الدين من التحالف مع غيره . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى حاول الإبقاء على العلاقات السياسية مع الدولة الرسولية كما كانت قبل دعوة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، بمعنى أن يظل على اتصال دائم مع الملك المنصور نور الدين عمر^(١) حتى تتضح الأمور ويرى ما سوف تصير إليه . وفي الوقت ذاته سعى إلى تشكيل حلف يتألف من آل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، وأبناء الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة القاطنين في حجة ، لمواجهة أي صراع قد يحدث مع الإمام المهدي^(٢) .

أما الإمام المهدي ، فكانت أمامه العديد من التحديات التي عليه مواجهتها والتعامل معها ، ولعل أبرزها غموض موقف الأشراف الحمزيين من إمامته وتخوفه منهم^(٣) ، فضلاً عن وجود الأمير الرسولي أسد الدين محمد بن الحسن في صنعاء^(٤) .

٤ . العلاقة مع الأشراف الحمزيين :

اتضح أول معالم هذه العلاقة بعد إخفاق الإمام المهدي في السيطرة على حصن كوكبان في شهر المحرم من سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م^(٥) ، إذ ذكر أن قوماً صوروا للإمام طريقة للدخول إليه^(٦) ، وكان الموضع الذي من المفترض على العسكر الدخول منه إلى الحصن صعباً^(٧) ، بحيث تعذر على أكثر العسكر طلوعه ، فلم يصعد منهم

^(١) هذا ما كشف عنه الإمام المهدي واستند إليه - لاحقاً - في تكفير الأمير شمس الدين أحمد ، وإجازة حربه . انظر فيما سيأتي ، ص ٧٠ .

^(٢) دل التنسيق بين الطرفين ومساندة كل طرف للآخر على وجود مثل هذا الحلف النسبي . انظر فيما سيأتي ، ص ٦٩ .

^(٣) وإلى ذلك ألمح السيد شرف الدين حين ذكر أن الإمام سار نحو صنعاء بعد قيامه ومعه بعض الأشراف الحمزيين إلا أنه مُضمر في نفسه قلة الثقة بهم . انظر : سيرة المهدي ، ق ٤٩ أ .

^(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٠ .

^(٥) المصدر نفسه والجزء ، ص ٤٣١ .

^(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٦ أ .

^(٧) انظر لوحة رقم (١) .

إلا القليل – قدر ثلاثين رجلاً^(١) – وهو عدد لا يمكن لمثلته السيطرة على كوكبان نظراً لسعته وقوة من فيه من رتبة الرسوليين ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، إذ إن من عجز عن دخول الحصن ، عجز أيضاً عن النزول من ذلك الموضع الصعب^(٢) ، فأصبحوا في وضع لا يحسد عليه ، فكان نصيب معظم من دخل الحصن ومن بقي خارجه للقتل^(٣) ، فقتل من عسكر الإمام في هذه المحاولة قدر ثمانين رجلاً^(٤) ، بعد أن أغارت عليهم الرتبة التي كانت في الحصن .

ويرى السيد شرف الدين^(٥) ، أن القوم الذين صوروا للإمام طريقة الدخول إلى الحصن لم يصدّقوه النصيحة ، وأنه اعترض على الإمام وحذره من الإصغاء إليهم بوصفهم مخادعين وغير صادقين ، إلا أن الإمام لم يأخذ الأمر على محمل الجد^(٦) .

وقبل توضيح أثر هذه المحاولة على الأشراف الحمزيين ، علينا أن نقف عند ما قاله السيد شرف الدين من وجود من لا تؤمن مخادعته وقله صدقه بين أعوان الإمام ، فالذي يظهر من هذا القول أن الكثير ممن تضرر من قيام الإمام المهدي ولم يجد بدأً من مبايعته ، عمل على إفشال هذه الدعوى من الداخل بأرائه واقتراحاته التي يعلم أنها ستضر بالإمامة ممثلة بالإمام المهدي أحمد بالحسين ، ولا نستبعد أن يكون مثل هؤلاء من الأشراف الحمزيين أو ممن هو محسوب عليهم وتضرر بتضررهم ، ولا شك أن السيد شرف الدين – وهو حمزي محب ومخلص للإمام – كان على علم ودراية بمثل هؤلاء أكثر من الإمام ، ولذلك نصحه وحذره^(٧) .

الشيء الآخر اللافت في هذا السياق ، والذي سوف تؤكد الأحداث اللاحقة ، ضعف الحس السياسي والعسكري عند الإمام المهدي ، الذي كان يثق فيمن حوله ثقة مطلقة أوصلته في نهاية المطاف إلى ما آل إليه ، فمع تحذيره من قبل السيد شرف

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٦ ب .

(٢) المصدر نفسه والورقة .

(٣) نفسه والورقة .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣١ .

(٥) سيرة المهدي ، ق ٤٦ أ .

(٦) المصدر نفسه والورقة .

(٧) مع عدم وجود وجه للشبهة والموازنة نتذكر ما فعله المنافقون مع الرسول (ﷺ) يوم كان في

المدينة من المكائد والذرائع على الإسلام والمسلمين وهو بين ظهرانيهم .

الدين ، فإنه لم يُصغ إليه ، وسيقع في مواقف مشابهة خلال سيرته ^(١) ، وكأنه لم يتعظ من هذه الدروس القاسية .

أما الأشراف الحمزيون ، فإنهم لما حل بعسكر الإمام المهدي ما حل بهم في كوكبان ، دخل في قلوب الأمراء الحمزيين من آل يحيى بن حمزة أن الإمام قد تضعض أمره وضعف شأنه ^(٢) ، وأنهم إذا اجتمعوا هم والملك المنصور الرسولي استأصلوا شأفته ^(٣) ، فأجمعوا على تقديم الأمير شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة إليه لهذا الغرض ، فسار الأمير المذكور إلى الملك المنصور في صنعاء في سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م ^(٤) ، وتم الأمر بينهما على أن يسلم الملك المنصور لآل يحيى بن حمزة حصن بكر ^(٥) ، مقابل أن يكون الطرفان يداً واحدة ضد الإمام ^(٦) .

ومن الجدير بالإشارة هنا ، أن هذا الصلح اقتصر على الأشراف الحمزيين من آل يحيى بن حمزة ، ولم يشمل الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة وإخوته ، والأمر الآخر أنه ليس كل الأشراف الحمزيين وقفوا ضد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ودعوته ، فهناك من وقف معه وسانده وأخلص له ، وأبرز مثال على ذلك مؤلف سيرته السيد شرف الدين يحيى بن القاسم الحمزي ، ولكننا عند الحديث عن العلاقة بين الأشراف الحمزيين والإمام المهدي ، فإننا نعني أمراء القوم وأصحاب القرار فيهم .

وعملاً بالاتفاق المبرم مع الملك المنصور ، آثار الأمراء من آل يحيى بن حمزة القلاقل والاضطرابات ^(٧) ضد أنصار الإمام المهدي ، وقطعوا الطرق والمنافع المتعلقة بالدولة الزيدية ، وأضروا بمصالح الإمام في حجة والمغارب ، عندها قرر الإمام حربهم والرد عليهم ، وأول ما ابتدأه في هذا الشأن الاستيلاء على حصن

^(١) نظر على سبيل التمثيل ، قصة صبوة ص .

^(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٧ ب .

^(٣) المصدر نفسه والورقة .

^(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٣١ .

^(٥) بُكْرٌ : حصن يحاذي جبل كوكبان ويطل على مركز الطويلة . المقحفي ، معجم ، ص ٨٦ . الأكوغ :

إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ٤٦ .

^(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٧ ب .

^(٧) المصدر نفسه ، ق ٤٨ أ .

مدع^(١) وهو لهم ، وحتى لا نتفاهم الأمور إلى ما لا تحمد عقباه ، سعى الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة في الصلح^(٢) بين الإمام المهدي وأبناء عمه ، فتوصل الطرفان إلى صلح مؤقت تضمن^(٣) :

١. تخلي الأمراء من آل يحيى بن حمزة عن تحالفاتهم مع الرسوليين .
٢. أن تكون الولاية في حصن مدع لشخص يثق فيه الطرفان ، وتُنق أن يكون هذا الشخص هو الأمير علي بن القاسم بن الحسين الحمزي ، على أن يُسلم الحصن للإمام بعد مدة يحددها الطرفان .
٣. القتال مع الإمام بالأموال والأنفس ومشاركته الحرب على الرسوليين في صنعاء .

أ. وقعة أرتل^(٤) :

إذا كان ما أسلفنا أعلاه ، قد أوقف الحرب بين الطرفين ، فإن الأمور لم تسر على ما يرام ، فقد وصل إلى الإمام المهدي وهو بثلا ، مجموعة من الأشراف الحمزيين وعلى رأسهم : الأمير نجم الدين موسى بن عبد الله بن حمزة والأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة وأقاموا عنده أياماً^(٥) ، وفي أثناء إقامتهم عنده كثرت الأحاديث عنهم وعن ما في نفوسهم من الفساد على الإمام^(٦) ، ولكن الإمام لم يلق لذلك بالاً ، بل إنه قرر في أثناء وجودهم السير إلى صنعاء^(٧) .

(١) مُدَع : جبل وحصن منيع يطل على مدينة ثلاث من الشمال الغربي ، وفي سفحه تقع قرية مدع . المقحفي

معجم ، ص ٥٩٩ . الأكوغ ، إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ٢٦٤ .

(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٩ أ .

(٣) المصدر نفسه والورقة .

(٤) أرتل : من قرى بلاد البستان (بني مطر) . انظر : المقحفي ، معجم ، ص ٢٥ . الأكوغ :

إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ٢٢ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٩ أ .

(٦) المصدر نفسه والورقة .

(٧) نفسه والورقة .

ولما أشرف الإمام المهدي على صنعاء ، ظهر ما كان يخفيه هؤلاء الأمراء ، ولهذا أشار السيد شرف الدين حين قال : " ... وكان بعضهم ربما ينزل القاع — قاع صنعاء — للغارة ، فيلنتقي بالغر^(١) ويخالطهم ويلقي إليهم الأسرار والأحاديث... " (٢) .
 وإلى المعنى نفسه قصد الإمام المهدي بقوله : " ... فلما وصلنا قرب البلاد — يعني صنعاء — أرسلوا إلى إخوانهم من أهل العناد ، ألا لا يهولنكم ما نحن عليه من الإبراق والإرعاد ، فهو حظنا مع صاحبنا ، لا نريد القتال ولا الجراد ، وأخذوا في التخذيل وتزهيد الناس فيما نحن عليه ... حتى تضعضعت أمور المسلمين ... وحالفوا قوماً على قتلنا ونحن وهم في مكان واحد ... " (٣) ، عندئذ صارحهم الإمام المهدي بما عنده فرجعوا إلى الظاهر (٤) .

ب . وقعة قارن (٥) :

ثم كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ، حين رفض العامة في بلاد حمير الانقياد للأمراء من آل يحيى بن حمزة (٦) ، بسبب تحالفهم السابق مع الرسولين ضد الإمام ، وعملهم الدعوب للإفساد عليه في تلك البلاد ، ونظراً لذلك أرسل الأمير شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة إلى ابن عمه الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة يخبره بالأمر ، فما كان من الأخير إلا أن أرسل الأمير بدر الدين عبد الله بن الحسن بن حمزة على رأس قوة عسكرية لإخضاع الناس في البلاد الحميرية (٧) الذين كان جلهم من أنصار الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، ثم تذكر المصادر التاريخية أن هذا العسكر عاث في البلاد فساداً ونهباً وتخريباً ، وهتكوا الأعراس ، وفعلوا الأفاعيل

(١) الغر : جنس من الترك . ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ، لسان العرب ، اعتنى بتصحيحه : أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصلوي العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٧ م ، ج ١٠ : مادة غر . والمقصود بهم هنا الرسوليين .

(٢) سيرة المهدي ، ق ٤٩ ب .

(٣) مجموع رسائل ، ص ١١٢ .

(٤) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٩ ب . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٨٠ . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ١٨٦ .

(٥) قارن : قرية في البون الأعلى تتبع إدارياً ناحية جبل عيال يزيد ، بالشمال الغربي من عمران . المقحفي ، معجم ، ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(٦) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٨١ .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٩ ب .

في النسوان^(١) ، فأغتم الإمام المهدي لذلك غمًا عظيمًا^(٢) ، واشتد غضبه على هؤلاء الأشراف .

وفي شهر رمضان من سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م ، اجتمع الإمام بالعلماء ورؤساء القبائل وشاورهم في أمر الأمراء الحمزيين وما فعلوه في حجة والمغرب^(٣) ، وقال لهم في معرض كلامه أنه قد صح عنده أن حكمهم اليوم وحكم الغز واحد ، وأنه لا يسعه عند الله إلا محاربتهم لأنهم أضروا عليه وعلى دولته من الغز ؛ لقرب ديارهم ومعرفتهم بالبلاد^(٤) ، واستند الإمام في رأيه هذا إلى عدة مسائل لإقناع العلماء وغيرهم به ، وأبرزها : رسالة من الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة إلى الملك المنصور نور الدين عمر ، تضمنت شعراً يقول فيه :

إذا أيقظتك صعاب الأمور
فتى لا ينام على دمنة
ويقول في قصيدة أخرى :

فنبذ لها عمر ثم نم
ولا يشرب الماء إلا بدم^(٥) .
رقدت وطاب النوم لي وكفيتني
وكل فتى يكفى الهموم ينام^(٦) .

أما فيما يخص الأمراء من آل يحيى بن حمزة ، فأوضح الإمام أنه يستند في حربهم لهم إلى ذلك الحلف المشهور الذي أقسمه الأمير شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة للملك المنصور على المحالفة والمناصرة ، والذي تضمن الأيمان الغليظة والتبرؤ من الحول والقوة إذا أخل به^(٧) .

وتأسيساً على ما تقدم ، لم يبقَ أمام الطرفين سوى استئناف الحرب ، ولما كان الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة غير مستعد لمثل هذه المواجهة ، ولا يرى جدوى تذكر من خوضها – في تلك الحين – أرسل إلى الإمام عارضاً عليه تجديد الصلح الأول ، فرفض الإمام في بادئ الأمر ثم وافق عليه بشروط منها^(٨) :

(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٦٩ .

(٢) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٨١ .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥١ أ .

(٤) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٨٢ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥١ أ . الأكوخ ، هجر ، ج ٣ : ١٣٠٠ .

(٦) المصدر نفسه والورقة .

(٧) نفسه ، ق ٤٧ ب .

(٨) نفسه ، ق ٥١ ب .

١. أن يكون الصلح على الظاهر (مناطق نفوذ الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة) دون البلاد الحميرية (مناطق نفوذ الأمير شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة) .

٢. أن يتم إخراج أولاد الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة من هذا الصلح .

٣. أن يرهن الأمير شجاع الدين يحيى بن الحسن بن حمزة الساعي في هذا الصلح ولده عند الإمام لإتمام ما شرط فيه .

وبنظرة متفحصة لهذا الصلح يتضح هدف كل طرف منه ، فالأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة جاء نيابة عن الأشراف الحمزيين عامة للتخفيف من غضب الإمام المهدي بعد الذي فعلوه في حجة والمغرب ، ولما لم يفلح في ذلك ، عرض الصلح بالأصالة عن نفسه وإخوانه — مضطراً — للخروج من المأزق الذي وجد نفسه فيه بعد فتوى الإمام المهدي التي حظيت بموافقة العلماء ، والتي تجيز له حربهم واستئصالهم.

أما الإمام المهدي فأراد في مستهل الأمر حرب الأشراف الحمزيين من آل عبد الله بن حمزة ويحيى بن حمزة معاً ، لكنه وبعد أن نُصح — كما يبدو — ارتأى التعامل أولاً مع الأمراء من آل يحيى بن حمزة والتخلص منهم ، ثم الالتفات إلى الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة وتباعه بعد ذلك .

ومهما يكن من شيء ، فقد استعد الأمراء من آل يحيى بن حمزة للحرب ، فيُروى أنه اجتمع مع الأمير فخر الدين عبد الله بن يحيى بن حمزة ما بين التسعمائة إلى الألف مقاتل ، فيهم عدد كبير من الرسولين والحتمييين^(١) ، وأنه أراد بهم قتال الإمام والقضاء على دعوته .

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥١ أ . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ١٨٦ . وفي بعض المصادر ما بين السبعمائة إلى الألف . نظر : الشرفي ، اللائق ، ج ٢ : ٢٨٣ .

وعلى الرغم من هذا الحشد الكبير ، فإن الإمام المهدي استطاع مباغتتهم وهزيمتهم في شهر شوال من سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م ^(١) في قرية قارن ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة وثمانين رجلاً ^(٢) ، وهي هزيمة لم تقم بعدها للأمرء من آل يحيى بن حمزة قائمة ^(٣) ، وإلى ذلك أشار الشاعر قاسم بن علي بن هتيمل حين قال :

قرنت بأهل قارن يوم سوء أرحت به الزعيم من الزعامة ^(٤) .

ج . استيلاء الإمام المهدي على صعدة :

بعد تخلصه من الأمرء من آل يحيى بن حمزة ، قرر الإمام المهدي القضاء على نفوذ الأشراف الحمزيين في الظاهر وصعدة ، ممثلاً بالأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة ، فسار بعد اثنين وعشرين يوماً من وقعة قارن ^(٥) إلى الظاهر ، وسيطر على حصن ذروة ^(٦) ، ثم سار إلى الجوف واستقر في الزاهر ^(٧) ، وأقبلت إليه قبائل الجوف ومأرب ، ثم واصل سيره إلى صعدة في عدد كبير من العساكر قدر بثمانمائة فارس ^(٨) ، وكان الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة قد انتقل إلى حصن براش صعدة ، وشحن حصن تلمص ^(٩) بالعدة والرجال .

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٢ .

^(٢) الشرفي ، اللائى ، ج ٢ : ٣٨٤ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٢ . الشامى ، تاريخ اليمن الفكرى ، ج ٣ : ١٨٦ .

^(٣) من غريب ما يمكننا ذكره في هذا الشأن أن الأمير شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة تحول — بعد هذه الواقعة — من تحالفه مع الرسوليين ، ومعارضته للإمام المهدي إلى الانطواء في صفوفه ، والقتال تحت رايته ، بل والأسر تحت هذه الراية . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٧ ب .

^(٤) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ٨ ، (مقدمة المحقق) . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٠ .

^(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٣ أ . الشرفي ، اللائى ، ج ٢ : ٣٨٥ .

^(٦) ذرُوة : حصن منيع يطل على ذي بين من بلاد حاشد . المقحفي ، معجم ، ص ٢٥٨ . الأكوع : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ١٢٢ .

^(٧) الزاهر : قرية مشهورة في بلاد الجوف . المقحفي ، معجم ، ص ٢٩٥ .

^(٨) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٢ .

^(٩) تلمُصُ : حصن مشهور في بلاد سحار بصعدة إلى الشمال من وادي عرار . الحجري ، مجموع ،

ونظراً لحادثة طعن أحد أصحاب الإمام المهدي من قِبل الأمير عبد الله بن وهاس ابن أبي هاشم^(١) ، وتحصنه في تلمص ، أمر الإمام بمحاصرة الحصن من جميع الجهات والتضييق على من فيه^(٢) ، عندها علم الأمير شمس الدين أحمد بأنه لا طاقة له بحرب الإمام ، ولا سيما بعد قتل حليفه الملك المنصور الرسولي^(٣) في قصر الجند^(٤) في شهر ذي القعدة من سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م^(٥) من قِبل مماليكه^(٦) ، فطلب الصلح مع الإمام فوافق بشروط منها^(٧) :

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٥ أ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٤ - ٤٣٥ .

(٣) تجدر الإشارة في هذا السياق ، أن الملك المنصور نور الدين عمر ، لم يكتفِ بالتحالف مع الأشراف الحمزيين من أجل القضاء على الإمام المهدي أحمد بن الحسين ودعوته ، بل إنه توجه بنفسه إلى صنعاء في شهر ربيع الآخر من سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م ، وأحكم الحصار على ثلا ، إلا أن جهوده تلك لم تؤت ثمارها ، على الرغم من العنف والقسوة التي اصطنعها في التعامل مع القبائل الموالية للإمام . وأمام هذا الصمود الذي واجهه الملك المنصور من أتباع الإمام في ثلا وخارجها ، والذي استمر ما يقرب من السنة ، عاد مضطراً إلى تعز في ربيع الأول من سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م ، على أمل جولة أخرى مع الإمام المهدي . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٤٠ ب - ٤٥ ب . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ١١٢ - ١١٤ .

(٤) الجندُ : بلدة مشهورة بالشرق الشمالي من مدينة تعز بمسافة (٢٢ كيلو متراً) ، وهي مدينة قديمة وبها أول مسجد بني في اليمن ، بناه الصحابي الجليل معاذ بن جبل في السنة الثانية للهجرة . المقحفي ، معجم ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٥) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٣٢ .

(٦) المملوك : هو العبد ، وتطلق كلمة مماليك على فئة من الرقيق الأبيض يشترتهم الحكام من أسواق النخاسة البيضاء لتكوين فرق عسكرية خاصة في أيام السلم ، ويتم إضافتها إلى الجيش العام أيام الحرب انظر : البستاني : بطرس ، محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٧ م ، ص ٨٦٢ . علي عبد الحليم ، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ، دار عكاظ ، جدة ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٢٠٨ . العبادي : أحمد مختار ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، مؤسسة شباب الإسكندرية ، ١٩٨٨ م ، ص ١١ . وكان الملك المنصور قد استكثر من شرائهم حتى بلغت مماليكه البحرية ألف فارس . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٣ .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٧ ب . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧١ - ٨٧٢ .

- تسليم حصن تلمص في صعدة ، وقفل ظفار في الظاهر ، ومدع والمكرام في ميثك^(١) ، والجاهلي^(٢) والظفير^(٣) في حجة ، وشمسان^(٤) في الجدم^(٥) .
- أن يكون لولاية في تلك الجهات تحت أمر الإمام .
- إخراج رهائن حاشد وبكيل وغيرهما من القبائل من الحصون .
- أن لا يتولى القضاء وإقامة الجمع في هذه المناطق إلا من يرتضيه الإمام .
- عدم التعرض لعمال الإمام ولا سيما جامعي الحقوق منهم .
- أن الإمام يعين من عمال الأمير شمس الدين من يشاء ولا يمنعه .
- أن يرفع الأشراف الحمزيون أيديهم عن الشرف .
- أن يردوا خيل آل دعام^(٦) ونقائصهم نتيجة للحرب .
- أن (غربان و الحواشد) لبني القاسم و (بني عوير)^(٧) لبني الهادي و (الجوف بين حدوده) للإمام وأن يكون (البون) مقسوماً إلى الجنات^(٨) و عمران^(٩) .

(١) ميثك : هو ميثك بن قدم بن قادم بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد ، سميت باسمه بلاد ميثك المعروفة اليوم في الشمال الشرقي من حجة . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٧٢٦ .

(٢) الجاهلي : حصن في ناحية الشمال من الشرف الأسفل من قضاء الشرفين وأعمال حجة ، ويدعى اليوم هجرة الشاهل . الأكوغ ، هجر ، ج ١ : ٢٩١ .

(٣) الظفير : ويدعى ظفير حجة وهو جبل شامخ في الجهة الشمالية من مدينة حجة ، على بعد (١٥ كيلومتراً) منها . المقحفي ، معجم ، ص ٤٢٤ . الأكوغ ، هجر ، ج ٣ : ١٣١٢ - ١٣١٣ .

(٤) شمسَان : اسم مشترك بين عدد من الأماكن في اليمن منها : حصن في وادي ضهر يطل على علمان ، وآخر بالقرب من غربان في بلاد حاشد ، وثالث في ناحية همدان صنعاء . المقحفي ، معجم ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ . والمقصود من النص يقع في بلاد حجة كما يفهم .

(٥) الجدم : عزلة بناحية مسور في بلاد حجة . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٩٧٦ ، (حاشية المحقق) .

(٦) آل الدعام : أهل درب ظالم في الجوف ، وهم بطن من بكيل الهمدانية من ولد آل الدعام بن عبد بن عليان ابن أرحب بن الدعام الأصغر ... بن بكيل . الملك الأشرف ، طرفة الأصحاب ، ص ١٢٣ - ١٢٤ . المقحفي ، معجم ، ص ٢٤٢ .

(٧) بنو عوير : من قبائل سحار في الجنوب الغربي من صعدة . المقحفي ، معجم ، ص ٤٧٩ .

(٨) الجنات : بلدة عامرة إلى الشمال من مدينة عمران بمسافة (ثلاثة كيلومترات) . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ١ : ١٩٢ . المقحفي ، معجم ، ص ١٤٤ .

(٩) عَمْرَان : مدينة بأعلى البون ، تبعد عن صنعاء بمسافة (٤٨ كيلومتراً) . المقحفي ، معجم ، ص ٤٧١ .

وبدلاً من أن يكون هذا الصلح حلاً جذرياً للعلاقة المتوترة بين الإمام المهدي والأمير شمس الدين أحمد ، زاد هذا الصلح وشروطه العلاقة تعقيداً . وعلى الرغم من الصفاء الظاهر الذي بدأ يسود هذه العلاقة ، والذي تجسد في قصيدة الأمير شمس الدين التي يقول في مطلعها :

أضاء على الإسلام نورك وانجلى بوجهك ليل الهم وابتسم الدهرُ
وقد علم الأعلام من آل أحمد بأنك أنت الفلك لما طغى البحرُ^(١).

فأن هذه العلاقة في صميمها ازدادت سوءاً ، لأن الأمير شمس الدين لم يعقد مثل هذا الصلح إلا مضطراً ، وتحت الضغط الناتج عن هزيمة أبناء عمه في موقعة قارن ، ومقتل حليفه الملك المنصور نور الدين الرسولي ، ولولا هذان الأمران لما وافق على شروط الصلح السالف .

٥ . سيطرة الإمام المهدي على صنعاء :

وبعد هذه الانتصارات المتلاحقة للإمام المهدي أحمد بن الحسين ، قرر أن يتوجه بالسيطرة على صنعاء ، مستغلاً الانقسامات التي حدثت في الدولة الرسولية بين أبناء الملك المنصور (المظفر يوسف من جانب ، والمفضل قطب الدين أبوبكر ، والفائز أحمد من جانب آخر) وصراعهم على السلطة^(٢) ، فأرسل إلى الأمير شمس الدين أحمد – وكان حينها في ظفار – ليكون في مقدمة عسكره المتوجه إلى صنعاء^(٣) ، فامتثل ، وجعل طريقه إلى رحابة^(٤) ووادي ظهر^(٥) ، ولما وصل إلى موضع يسمى الأبرق في أسفل الوادي ، وافاه العسكر الرسولي^(٦) بقيادة الأمير أسد

(١) ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ، ج ١ : ١٨٦ .

(٢) عن هذا الصراع ، انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٤١ وما بعدها .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٨ ب . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٩١ .

(٤) رُحَابَةُ : قرية تحت جبل الصمع من أعمال بني الحارث شرقي شبام سخيم ، بينهما نحو (ثلاثة أميال) . المقحفي ، معجم ، ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

(٥) وادي ضَهْرُ : أحد منتزهات صنعاء الشمالية بمسافة (سبعة كيلومترات) ، وهو منسوب إلى ضهر بن سعد بن عريب بن ذي يقم ، ويمتاز بخصوبة أرضه . المقحفي ، معجم ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٨ ب .

الدين محمد بن الحسن بن علي ، فدارت معركة بين الطرفين ، انتهت بانتصار الأمير شمس الدين على الرسوليين (١) .

ثم إن بعض أهل صنعاء ومن معهم من الرسوليين لما علموا بقدوم الإمام المهدي والأمير شمس الدين ، ورأوا أنه لا قبل لهم بمحاربتهم ، خرجوا من صنعاء وتحصنوا في براش مع الأمير أسد الدين (٢) .

٦ . التحالف ضد الإمام المهدي :

إذا الإمام المهدي قد حقق أكبر إنجازاته ، بسيطرته على صنعاء ، فإن الأمور سارت — بعد ذلك — على غير ما يرتضيه ، ولعل ذلك يعود إلى الآتي :

أولاً : إن الإمام وبعد دخوله إلى صنعاء جعل الولاية فيها للأمير الحسن بن محمد بن إبراهيم القاسمي (٣) ، وهو الأمر الذي جدد الخلاف بينه وبين الأمير شمس الدين أحمد وزاده تعقيداً ، وذلك أن الأمير شمس الدين كان يعتقد ويأمل في نفسه أن الولاية في صنعاء ستكون من نصيبه (٤) ، ويبدو أنه كان ينتظر ما سيقدره الإمام في هذا الشأن ليتخذ موقفه النهائي منه ، فإذا سارت الأمور كما يجب استمر في موقفه إلى جانب الإمام ، وإن لم تكن كذلك قطع أي أمل للالتقاء معه ، فكان من الإمام ما أسلفناه من توليه الأمير الحسن بن محمد .

ثانياً : إن الإمام وبعد استقراره في صنعاء قتل رجلين أو ثلاثة من جشم الهمدانية على تهمة قتل من غير حقيقة — كما يدعي بنو حاتم (٥) — مما أدى إلى نفورهم عن الإمام والميل عنه إلى حصني ذي مرمر (٦) والعروس (٧) تاركين حلفه .

(١) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٩١ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٣٥ . أنباء الزمن ، ق ١٦٢ .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٩ ب .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٢ .

(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٣٦ . ابن الأئف ، نزهة الأفكار ، ق ٥٩ ب .

(٦) ذي مرمر : حصن في أعلى قرية شبام الغراس ، على بعد (١٨ كيلو متراً) شمال غرب صنعاء . المقحفي ، معجم ، ص ٢٦١ . وعند الأكوغ إلى الشمال الشرقي من صنعاء بمسافة (٢٥ كيلو متراً) . انظر : هجر ، ج ٢ : ٧٨٨ .

(٧) العرُوسُ : حصن وبلدة في حضور ، بالجنوب الغربي من صنعاء ، وهو مقابل لحصن كوكبان من الجنوب . المقحفي ، معجم ، ص ٤٥٠ . الأكوغ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ٢٠٧ .

ويظهر أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الموقف الذي اتخذته بنو حاتم من الإمام ، والخلاف الذي حدث بين الإمام والأمير شمس الدين على ولاية صنعاء ، وذلك بحكم العلاقة التاريخية بين الطرفين التي تمتد جذورها إلى عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، الذي كان حليفاً لبني حاتم ومصاهراً لهم (١) .

ثالثاً : إن بوادر حلف ثلاثي لاحت في الأفق ضم الأشراف الحمزيين وسلطين بني حاتم و الرسوليين ، هدفه الأول التخلص من الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، ولعل ذلك ما أشار إليه الشاعر الحاتمي حين قال :

إن تأثروا أو تنكروا كان عاجلاً وإلا قصدنا الأريحي المظفرا
كبير غسان وابن كبيرهم وحامي حماها أن يضام ويقرا (٢)

كما يؤكد ابن حاتم هذا الرأي حين قال — عقب حادثة مقتل الرجلين من جشم — : " إن بني حمزة وبني حاتم والأمير أسد الدين — الرسولي — ... اجتمعوا وانفق رأيهم على دخول صنعاء والقبض على الإمام " (٣) ، ثم عقب أن ذلك كان بغير رأي الأمير شمس الدين الذي أنكره حين علم به ، ولذلك لم يتم تنفيذ ما اتفق عليه (٤) . ويتضح مما ذكره ابن حاتم أن هناك تنسيقاً بين الأطراف الثلاثة ، هدفه مواجهة الإمام ، كما يؤكد السيد شرف الدين ذلك بقوله : " ولما رحلوا — سلطين بني حاتم — عن صنعاء سرى كيدهم إلى صاحب براش أسد الدين ... واعملوا المكيدة ... " (٥) ويضيف : " أن الأمراء الحمزيين كان بعضهم يغدو إلى أسد الدين في الليل ويدل على عورات عسكر — الإمام — فكان لذلك إذا وقع القتال لم يكذب الباقون من عسكر الإمام يركنون إلى الأمراء الحمزيين خيفة لمكرهم " (٦) .

(١) عن هذه العلاقة ، انظر : الميسري ، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ص ٨٧ — ٨٩ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٣٧ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٠ أ . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ١٩٠ .

(٣) السمط ، ص ٢٧٧ .

(٤) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٢ أ ..

(٥) سيرة المهدي ، ق ٦٠ أ .

(٦) المصدر نفسه والورقة . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٩٢ .

٧ . موقف الإمام المهدي من هذه الأطراف :

لم يقف الإمام المهدي مكتوف الأيدي إزاء ما يحاك حوله من مكائد ودسائس ، فبعد خروج بني حاتم من صنعاء خرج الإمام على إثرهم صوب حصونهم ومعقلهم ، وأمر بخراب ممتلكات السلاطين عبد الله بن سالم ومن يتبعه من بني عمه (١) ، ما عدا ما يعود إلى السلطان علي بن سعيد بن علي بن حاتم الذي أمر الإمام باحترامه وعدم التعرض لأمواله وأتباعه (٢) ، فخربت نتيجة لذلك البساتين ، وغُورت الآبار ، ودُمرت البلاد (٣) .

أما بالنسبة للأمير أسد الدين ، فقد استمر الإمام بشن الغارات عليه وهو ببرايش حتى أضعفه (٤) . وبإخفاق المواجهة العسكرية مع الإمام لجأ الأطراف الثلاثة إلى الحيلة والمكر والخديعة لتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه بالقوة ، فتم الاتفاق فيما بينهم سراً على أن الأمير شمس الدين أحمد يسعى بالصلح بين الإمام المهدي والأمير أسد الدين (٥) ، بشرط أن يساعد الإمام المهدي ، الأمير أسد الدين في استنقاذ أخيه الأمير فخر الدين أبي بكر بن الحسن من سجن الملك المظفر (٦) ، و كان دور بني حاتم في هذه المكيدة أن يسعوا بين الأمير أسد الدين والملك المظفر للصلح بينهما عند نزول الأمير أسد الدين إليه (٧) ، كما شرط في هذا الصلح أن لا يقطع الأمير أسد الدين في أي من الأمور مع الملك المظفر إلا بمشورة الإمام ، وتحديداً في حال أن طلب شيئاً من الحصون والبلاد كغدية للأمير فخر الدين (٨) .

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٥ .

(٢) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٩٣ .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦١ أ .

(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٢ .

(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٧٧ . ابن الأئف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٢ أ .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٣ أ . وعن أسباب الخلاف بين الملك المظفر والأمير فخر الدين . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٤٤ - ٢٥٩ .

(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٧٨ . ابن الأئف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٢ ب .

(٨) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٣ أ .

وبالنظر إلى إتقان الخطة ، ودقة من نفذها ، فقد سارت الأمور كما رُسم لها ، فوصل الأمير أسد الدين إلى الملك المظفر وسعى بنو حاتم بينهما إلى أن تم الصلح (١) ولكن الملك المظفر اشترط لإتمامه أن يعود الأمير أسد الدين على رأس جريدة (٢) مكونة من مائة فارس إلى صنعاء لإخراج الإمام منها (٣) ، فعاد الأمير أسد الدين إلى صنعاء وخرج الإمام منها إلى (سناع) (٤) ؛ نظراً لتقاعس الناس عن نصرته وتحالف قبائل سَنحان (٥) مع الرسوليين (٦) .

وفي محاولة يائسة من الإمام لاستعادة صنعاء ، أرسل الأمير الحسن بن وهاس في جماعة من الفرسان إلى موضع يسمى (صبوة) (٧) بالقرب من صنعاء إلى ناحية الشرق من بلاد سَنحان ، ويبدو أن البعض صور للإمام أنه يستطيع من هذا الموضع قطع الميرة عن صنعاء (٨) ، وبدلاً من ذلك ، تم قطع الميرة عن هؤلاء الفرسان في (صبوة) ، بعد أن قام الأمير أسد الدين بمحاصرتهم من كل ناحية (٩) إلى أن استسلموا فتم أسرهم وإرسالهم إلى حصن براش (١٠) .

(١) ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣١٧ .

(٢) الجريدة : لا راجلون فيها ، لذلك يقل جريدة من الفرسان . إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج ١ : ١١٦ .

(٣) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٣٣ . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٢ .

(٤) سَناع : بمد النون ، وتكتب سَنَع قرية شرق حدة على بعد (ثمانية كيلومترات) من صنعاء . المقحفي ، معجم ، ص ٣٣٤ .

(٥) سَنحانُ : قبيلة من منحج ، تقع بلادهم بالقرب من صنعاء ، وتمتد من قاع صنعاء الجنوبي إلى ما يحاذي خولان العالية . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٤٣٢ - ٤٣٣ . المقحفي ، معجم ، ص ٣٣٣ . مجهول ، صفحات مجهولة من تاريخ اليمن ، تح : حسين أحمد السياغي ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٤٠ ، (حاشية المحقق) .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٢ ب . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٩٥ .

(٧) صَبْوَة : حصن بالغرب من مخلاف الحدب ، من أعمال بني شهاب غرب صنعاء . المقحفي ، معجم ، ص ٣٨٤ . ووردت في بعض المصادر بلفظ صبوة أو ظبوة وهي بلدة ووادي في بلاد سَنحان . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٨٠ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٦٩ . المقحفي ، معجم ، ص ٤١٩ .

(٨) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٥ أ .

(٩) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٩٧ .

(١٠) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٨٠ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٣ أ .

أما الأمير شمس الدين فإنه وبعد نصيحته للأمير أسد الدين بالنزول إلى الملك المظفر للتصالح معه ، استأذن الإمام بالعودة إلى ظفار مظهراً أنه يريد غزو تهامة (١) ، وهو في حقيقة الأمر كان ينتظر ما ستؤول إليه الأمور بعد نزول الأمير أسد الدين وتصالحه مع الملك المظفر (٢) .

٨ . الصلح بين الإمام المهدي والملك المظفر :

في شهر محرم من سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥٢ م (٣) ، ونظراً للأوضاع الداخلية التي تمر بها الدولة الرسولية ، حدثت مفاوضات في الصلح بين الإمام المهدي والملك المظفر ، وكان لهذا الملك أسبابه ودواعيه التي تدفعه لعقده ، والتي يمكن إجمالها في الآتي :

١. تخوفه من مراسلة الست أم قطب الدين (بنت جوزة) وابنيها المفضل والفائز للإمام المهدي (٤) ، طالبين منه النصر لفك الحصار المفروض عليهم في حصن الدملوة (٥) ، فأراد بصلحه هذا استبعاد مثل هذا الاحتمال ولو كان ضئيلاً حتى يجد المدة الكافية لاقتحام الحصن والسيطرة عليه .
٢. قدوم الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول — والد الأمير أسد الدين — وأخيه الأمير فخر الدين أبي بكر بن علي من مصر ، بعد ما يقرب من أربعة وعشرين عاماً قضاها في السجن ، وتخوف الملك المظفر منهما (٦) ومن أن يميلوا إلى الإمام إن ناصبهم الحرب ، فيجتمعون معه ويسلبوه ملكه ، ولا سيما بعد أن أظهر الأمير بدر الدين الغلظة على نواب الملك المظفر في تهامة ، وتلفظ بالكلام القبيح عليه ، وصغره في أعين الناس هناك (٧) ، فأراد الملك المظفر بهذا الصلح استبعاد لجوئهم إلى الإمام في حال حدوث الصراع معهم .

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٢ ب .

(٢) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٩٤ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٣٦ .

(٤) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ٦٦ ب .

(٥) الدملوة : حصن يعد فرع من جبل الصلوف في بلاد الحجرية بتعز . الحجري ، مجموع ، مج ١ :

ج ٢ : ٣٣٢ . المقحفي ، معجم ، ص ٢٤٧ . الأكوغ : إسماعيل ، البلدان اليمنية ، ص ١١٧ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٣٦ .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٦ ب .

٣. كان الملك المظفر يفكر جدياً في إلقاء القبض على الأمير بدر الدين (١) بعدما تأكد له من تصرفاته في تهامة أنه يبيت أمراً ما ، وذلك يعني تجدد الخلاف مرة أخرى مع الأمير أسد الدين ، الذي ولا شك إن حدث فسيلجأ إلى الإمام المهدي طالباً حلفه والتصالح معه ضد الملك المظفر ، فقصده هذا الأخير من صلحه مع الإمام المهدي قطع الطريق على الأمير أسد الدين .

وبناءً عليه ، تم الصلح بين الإمام والملك المظفر على الآتي (٢) :

١. أن للإمام اليمن الأعلى بما فيه صنعاء ، وللملك المظفر اليمن الأسفل وتهامة .
٢. أن على الملك المظفر للإمام في كل سنة ثمانين ألف درهم محمولة إلى خزائنه ، وأن يسلم للإمام حصن حلب (٣) والظفير .
٣. أن الإمام والملك المظفر حلفاء في حرب الأمير أسد الدين ، وأن لا يصالح ولا يقبل منه صلح .

٤. أن حصن كوكبان للإمام عند استيلائه على حصن براش من الأمير أسد الدين .

٥. أن يدخل في صلح الملك المظفر أهل ذي مرمر ، باستثناء السلطان عبد الله بن سالم بن علي بن حاتم وأتباعه ، وأن يخرج منه الأشراف الحمزيين (٤) .

وكان هذا الصلح في السابع عشر من شهر ربيع الأول من سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥٢م (٥) ، وتم على يد الشيخ زاهر بن عقبة من كبار الأعروش (٦) من طرف الإمام والسلطان أحمد بن علوان بن بشر بن حاتم من طرف الملك المظفر ، وتطبيقاً لشروط هذا الصلح تسلم الإمام المهدي حصن حلب والظفير ، ونيفاً وعشرين ألفاً محمولة إلى خزائنه ، ثم تكلم الملك المظفر مع الإمام بشأن الصلح بينه وبين الأشراف الحمزيين ، فوافق على ذلك بشروط منها (٧) :

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٦ ب .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٦ .

(٣) حُلب : من حصون المصانع وأعمال ثلا . المقحفي ، معجم ، ص ١٩٨ .

(٤) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٣٣٩ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٧ أ .

(٦) الأعروش : قبيلة من خولان الطيال ، وقبائل الأعروش أيضاً من حاشد ، المقحفي ، معجم ، ص ٤٢ .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٧ ب .

١. أن تكون مدة هذا الصلح ثلاثة أشهر حتى ينظر في حال هؤلاء الأشراف ويقرر ما يراه مناسباً في شأنهم بناءً على ذلك .

٢. أن لا يدخل حصونهم أي شحنة خلال مدة هذا الصلح ، وإن خالفوا نقض الصلح .

٣. أن لا يميلوا إلى أعداء الإمام وعلى رأسهم الأمير أسد الدين .

وبعد هذين الصلحين اللذين عقدهما الإمام المهدي مع الملك المظفر والأشراف الحمزيين لم يبق أمامه إلا التوجه إلى صنعاء ، فدخلها في الثاني والعشرين من شهر شعبان من سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥٢ م ^(١) للمرة الثانية ، بعد أن أخرج منها الأمير أسد الدين محمد إلى براش .

أما الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة ، فبعد خروجه من صنعاء وتخاذله عن الإمام المهدي ، أمره الأخير بالإقامة في ظفار ^(٢) وعدم الخروج منه إلى أي جهة إلا بعد موافقته ، وكأنه بذلك يعاقبه ، ونتيجة لهذا ضاق به الحال اقتصادياً ، وطال عليه الانتظار ، فكتب إلى الإمام رسالته الأخيرة ، التي تغير بعدها كل شيء ، وحاول من خلالها إيصال ما تكن به نفسه وما يجول في خاطره ، مع عجز لسانه عن البوح به ، لعل الإمام يقف مع نفسه وقفة أخيرة حياله ، ويغير طريقته في التعامل معه ، حتى لا يضطره إلى ما يرضاه لنفسه وللإمام .

جاء في هذه الرسالة قصيدة شعر قال فيها الأمير شمس الدين :

أعيذك أن تنافسني مطالاً وقد صدقت سواي بك الظنون
وكان الحق لو أنصفت أني وقد أخرت ؛ أولهم أكون
يعز علي أن ترضى بسخطي على زمني وإرضائي يهون ^(٣) .

ومع ما حملته القصيدة من معاني وتلميحات أثر الأمير شمس الدين تضمينها ، إلا أنها — على ما يبدو — لم تلقَ أذاناً صاغية من الإمام ، وسواء أن الإمام لم يفهم مغزى هذه الرسالة أو تجاهلها ، أو ظن أن الأمير شمس الدين يستعطفه بها ويترجاه ،

^(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٧٤ أ .

^(٢) هذا ما يفهم من قول الأمير شمس الدين :

ذوى غصني لحبسي عن سمائي ولم تنضر على العطش الغصون .

^(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٢ أ . ابن أبي الرجال ، مطلع النبور ، ج ١ : ١٨٦ .

فأن الرسالة حملت ضمن ما حملته ، فتح باب الحوار ، ونداء أخير — إن صح التعبير — لعل الإمام يسمعه .

ويظهر أن استيلاء الإمام على صنعاء ، وصلحه مع الملك المظفر ، وإخضاعه القبائل المتمردة في نواحي البلاد ، قد أشعره بالقوة ، فلم يعر هذه الرسالة الاهتمام المطلوب .

٩. أسباب الخلاف بين الإمام المهدي والأمير شمس الدين أحمد :

سبق وأن تطرقنا للحديث عن الخلاف بين الإمام المهدي والأمير شمس الدين أحمد ، ولغرض توضيح الصورة بشكل أوضح ، ولتبيان أسباب الخلاف وما آل إليه من حروب وصراعات ، آثرنا أن نتحدث عن أسبابه :

أ. الأسباب السياسية :

نرى أنها من أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الخلاف ، فالأمير شمس الدين كما وُصِف ، هو سلطان الشرف في ذلك الأوان ، وإليه ينتهي أمرها ^(١) ، فكان من البداهة أن يشعر بالنفور من الإمام الجديد ، الذي جاء ليسلبه ملكاً تربع على عرشه عشرات السنين ، ولا سيما إذا كان هذا الإمام من نوع المهدي أحمد بن الحسين لا يعرف مهادنة ، ولا يجد طريقاً إليها .

ولعلنا نتلمس مثل هذه الحساسية في رسالة الإمام المهدي المسماة : " حليفة القرآن " حين قال :

" ... وهم — أي الأشراف الحمزيين — ينتقصون الإمام و الإمامة ، ومرة يقولون : نحن أولى بالزعامة ... " ^(٢) .

وفي موضع آخر من الرسالة نفسها ، قال :

" ... فلما قام الإمام قلتم نحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ... " ^(٣) .

ومن اللافت للنظر أن شاعر الإمام المعروف " ابن هتيمل " ، استشعر مثل هذا الأمر ، ونصح الإمام بضرورة فتح الحوار مع الأشراف الحمزيين حين قال شعراً :

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٣٢ ب .

(٢) مجموع رسائل ، ص ٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

جناحك للقرابة والرحامة	خذ الحمزات بالإلطف وأخفض
يمكن بعد نفرتة زمامة	ولا تعجل ، فرب حمي أنف
وهم بيت وأنت له دعامة	فهم عين وأنت لها سواد
وصادم من أردت بهم صداما ^(١)	فغالب من أردت بهم غلاباً

ولكن الإمام لم يعمل بهذه النصيحة التي ظن أن فيها نوعاً من التنازل عن المبادئ التي قامت على أساسها دعوته ، واعتقد أن عليه ألا يقدم مثل هذه التنازلات مهما كانت النتائج .

كل ذلك يدل بما لا يدع مجالاً للشك أن التنافس على زعامة الأشراف الزيديين كان من أهم الأسباب التي أدت للخلاف بين الجانبين . كذلك علينا أن لا نغفل ونحن نتحدث عن هذه الأسباب ماشرط في الصلح الذي تم بين الإمام المهدي والأمير شمس الدين بعد وقعة قارن ، الذي سلب هذا الأمير الكثير من سلطاته ونفوذه بعدما تنازل عن عدد كبير من الحصون والمناطق للإمام ، ناهيك عن قطع الموارد المالية التي كانت تأتيه من هذه المناطق .

ب . الأسباب الإدارية والمالية :

على قائمة هذه الأسباب رفض الإمام المهدي تولية الأمير شمس الدين أحمد صنعاء وأعمالها ، ومع أن هذا الأمر — لو تم — سينهي الخلاف بين الجانبين ، إلا أن الإمام تعمد ^(٢) توليتها لغيره ، استمراراً لسياسته التي حددها بالنسبة للأشراف الحمزيين ، وظناً منه أن هذا يبعده عن الشبهات في مهادنة هؤلاء الأشراف ، والمؤكد أن الأمير شمس الدين كان يأمل ويتوقع أن يوليه الإمام صنعاء كتسوية للأمور بين الجانبين .

ويرفض الإمام أو تجاهله لتولية الأمير شمس الدين صنعاء ، فقد هذا الأمير الأمل في التقارب مع الإمام ، كما فقد أشياء أخرى مع فقدانه للولاية ، منها : التشريف والإجلال الذي كان يتأمله من الإمام ، والموارد المالية التي توفرها الولاية من

^(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٧ أ . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ١٨٧ .

^(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٢ .

الخراج^(١) والزكاة و العشور وغيرها ، والتي كان بإمكانه من خلالها أن يعيش في حالة اكتفاء مادي ، فهذا الأمير كان كبير الأشراف الحمزيين وإليه ينتهي أمرهم ، وكانوا يأملون منه توفير المتطلبات المادية لهم عن طريق العطايا والهبات والمساعدات والمناصب ، وهذا لا يتحقق إلا عن طريقين لا ثالث لهما : الأول عبر الإمام المهدي ، وعندها لا حاجة لسلوك الطريق الآخر ، وحين تعذر هذا الطريق اضطر هذا الأمير إلى سلوك الطريق الآخر المتمثل في التحالف مع الملك المظفر الرسولي ، الذي فطن لهذا الأمر ، وهو المشهور عنه بالفتنة والذكاء ، فأعطى الأمير شمس الدين ما بخل به الإمام ، وبهذا الفعل قطع الطريق بين الأمير شمس الدين والإمام المهدي ، إذ تذكر المصادر أن الملك المظفر أعطى الأمير شمس الدين يوم قدم إليه إلى زبيد مائتي ألف دينار^(٢) ، في حين كان راتبه من الإمام ثلاثة آلاف درهم^(٣) ، أي ما يعادل الألف دينار تقريباً ، وفي بعض المصادر أن الملك المظفر أعطاه من الأموال ما لا ينحصر^(٤) . هذا من الناحية المادية ، ولاستمرار هذه الموارد المالية ولّى الملك المظفر الأمير شمس الدين على القحمة^(٥) ، مع ما تعنيه الولاية من بقاء هذه الموارد في حالة دائمة ، والحق أن الأمير شمس الدين صبر صبراً طويلاً لعل الإمام يلتفت لمثل هذا الأمر ، ولكن الإمام — وبدلاً من إزالة أسباب الخلاف بينهما و التخفيف من شدته — قام بتصعيده حين أمر الأمير شمس الدين بالإقامة في ظفار ، وعدم الخروج منه إلا بإذنه ، وكأنه يعاقبه و يضيق عليه ، وإلى ذلك أشار هذا الأمير حين قال في قصيدته " لعل الليلي " :

^(١) يصل مقدار الخراج في بعض المناطق كصعدة والظاهر وظفار إلى مئات الآلاف من الدينار . ولا شك

أن هذا مبلغ كبير ويستحق أن يصارع هذا الأمير من أجله . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٠٣ .

^(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١٦ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٥ أ . وعند السيد شرف الدين

والشرفي ، نيفاً وأربعين ألف دينار . نظر : سيرة المهدي ، ق ٩٩ أ . اللكئ ، ج ٢ : ٤٢٢ .

^(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٩ ب .

^(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٥ .

^(٥) ابن الديبع ، قرة العيون ، ص ٣٢٣ .

وإن فتى دامت موثيق عهده
على مثل ما لاقيته لجليد^(١)
ولما صبرنا ظنت الناس أننا
على كل خسف سادرون هجود^(٢)
وقد سبق أن مر بنا تلك الرسالة التي وجهها هذا الأمير إلى الإمام يحذره فيها
من مغبة الاستمرار في التعامل معه بهذه الطريقة ، والتي أهم ما جاء فيها :

ذوى غصني لحبسي عن سمائي
ولم تنضر على العطش الغصون
سأستر تحت أثوابي هزلاً
إذا أبديته شمت السمين

وهذا كما وصفه الشامي : " استعطف مريز ، وهو إلى العتاب والاحتجاج
أقرب منه إلى الاستعطف " ^(٣) ، ولعل هذا الأمير — كما يقول الشامي ^(٤) — كان
أكثر دراية من الإمام بأحوال الناس والمشايخ ، وخبائيا آل حاتم والشيخ الرصاص .
لكن أكثر ما تتجسد فيه هذه الأسباب ، قصيدة أرسلها هذا الأمير إلى صديقه
الشاعر مسعود بن عمرو العنسي ، يشكو حاله — آنذاك — وما آلت إليه الأوضاع
عنده والتي قال فيها :

يا خليلاً مولعاً بالوفاء
وصفي إذ خاتني أصفائي
ليت أن النسيم إن هب وهناً
من ظفار ينبئك عن أنبائي
لا الديار هي الديار بعد التناي
يابن عمرو ولا الوراء بالوراء
ما ذنوب الذين هم في المحاريب
سجود وما ذنوب النساء
ويتيم ومعقد وضريـر
من غصون النبوة الكرماء ..

ويعلق الشامي على هذه القصيدة — وهو محق في ذلك — بالقول : " ... ولا
شك أن الأمير كان في ضائقة مالية ، وأنه مضطراً قد أفضى إلى صديقه الشاعر ...
بما لا يستطيع أن يفضي به إلا إلى صديق عزيز " ^(٥) .

^(١) ورد هذا البيت في بعض المصادر كالتالي :

وإن أمروء تبقى موثيق عهده على مثل ما لاقيته لجليد .

نظر : ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ، ج ١ : ١٢٨ .

^(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١٤ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١١٧ . العسجد ، ق ٢٢٨ .

^(٣) تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢١٦ .

^(٤) المرجع نفسه والجزء والصفحة .

^(٥) ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ، ج ١ : ١٨٦ — ١٨٧ .

^(٦) تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢١٧ .

وختاماً لهذه الأسباب يؤكد ما جاء على لسان الإمام المهدي في رسالته حليفة القرآن ما سبق وأشرنا إليه في هذا الخصوص حين قال :
" ... فأما الولايات والإقطاعات وما يجري مجراها فليست بعقود عند من عقل الصواب وفهم مضمون ما انطوت عليه السنة ونطق به الكتاب ... " (١) .
ثم يضيف : " ... والنوع الآخر الذي أحقوه — يقصد مخالفه — بالعقود وليس منها : الرقاعات التي تتضمن الصلوات والبهات وليس الأمر كما اعتقدوه ... لأن هذا ليس بعقد لازم ... " (٢) .

ويتضح مما جاء في هذه الرسالة أن من أهم الأسباب التي أدت إلى الخلاف بين الطرفين ما يتعلق بالولايات والإقطاعات والبهات والصلوات ، وهي أسباب أسهمت بشكل رئيس في أذكاء الصراع بين الجانبين .

ج . الأسباب الاجتماعية :

وتكمن هذه الأسباب في تجاهل الإمام المهدي لمكانة الأمير شمس الدين الاجتماعية ، وعدم إنزاله منزلته التي يستحقها ، وكان أول تجاهل من هذا النوع عندما أعلن الإمام المهدي دعوته من ثلا ولم يعلنها من ظفار ، إذ تنكر المصادر أن الأمير شمس الدين وإخوته ومعظم الأشراف الحمزيين لم يتلقوها بكل القبول (٣) لما كانت من ثلا ، وكان غرضهم أن تكون ظفار ، في حين يؤكد السيد شرف الدين (٤) أن الأمير شمس الدين استوحش من ميل الإمام إلى ناحية ثلا وحدث البيعة هناك ، وكان يظهر أن الدعوة يجب أن تكون من ظفار ؛ لأنه أعظم ناصر للإمام المهدي (٥) .

ولإدراك الملك المظفر لهذه الأمور في نفوس الأمراء ومواقفهم ، استغل ما فعله الإمام مع الأمير شمس الدين لصالحه ، وتصرف بخلافه ، فيرى أن الأمير شمس الدين وإخوته لما وصلوا إلى زييد لزيارة الملك المظفر ، خرج الملك المظفر بنفسه

(١) مجموع رسائل ، ص ١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٦٨ . الشرفي ، اللائي ، ج ٢ : ٣٦٧ .

(٤) سيرة المهدي ، ق ٣٢ ب .

(٥) المصدر نفسه ، ق ٣٣ أ .

للقائهم^(١) ، وحشد العساكر من كل أوب لاستقبالهم حتى سدت الفضاء^(٢) ، وأنه كان لهم من المقابلة والإتحاف ما لم يُسمع بمثله^(٣) ، حتى إن الإقامات حملت لهم في مدة مسيرهم إلى أن وصلوا إلى الباب السلطاني ، وبعد وصولهم واستقبالهم ضربت لهم الخيام والمطابخ مدة شهر^(٤) .

ومهما يكن الأمر ، نستطيع أن نتصور الطريقة التي يتعامل بها الملك المظفر مع ضيوفه ، والتي تمنحهم الشعور بذلك القدر الكبير والمكانة الرفيعة التي يكنها لهم ، والتي تجعلهم يشعرون — أيضاً — بأنهم أقرب ما يكونون إليه من أي طرف آخر . وحين قارن الأمير شمس الدين هذه المكانة التي له عند الملك المظفر ، بتلك التي له عند الإمام المهدي ، رأى الفرق الشاسع والبون الواسع ، ولذلك ظن في نفسه أن الملك المظفر أحق بحلفه من الإمام المهدي .

١٠ . شراء براش من قبل الإمام :

وبالتزامن مع رسالة الأمير شمس الدين وخلافه ، كانت قضية شراء الإمام المهدي لحصن براش صنعاء ، والأمر فيها أنه وبعد طول الحرب بين الإمام والأمير أسد الدين المتحصن في براش ، عرض الأخير الصلح على الإمام^(٥) ، إلا أن الإمام لم يوافق بناءً على شروط الصلح الذي عقده مع الملك المظفر ، والذي تضمن أحدها على أن الإمام والملك المظفر حلفاء في حرب الأمير أسد الدين^(٦) ، وأن لا يصلح ولا يُقبل منه صلحاً^(٧) ، وحين رفض الإمام ذلك ، وكان الأمير أسد الدين في أمس الحاجة للمال ، كما ذكر ذلك السيد شرف الدين وأكده بقوله : " أخبرني بعض الناس ... أن مماليكه المترفين — أي مماليك أسد الدين — الذين كانوا يستحقرون ... ملابس الكتان وحلية الفضة — لأن — لباسهم من نفائس الحرير المنقل بالذهب والنسيج

(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١١٥ . ابن الأنف . نزهة الأفكار ، ق ٦٥ أ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١٢ .

(٣) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٢٧ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٢٣ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١٢ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٢ ب .

(٦) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٠٠ .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٧ أ .

المصري المذهب ... انتهى بهم الحال إلى أن بعضهم يرتكي الرحاً بيده ، ويلبسون خشن اللباس " (١) .

ومع أن هذا القول فيه الكثير من المبالغة ، إلا أنه يعبر عن حقيقة الوضع ، وما كان يعانيه هؤلاء ، ولهذا عرض الأمير أسد الدين على الإمام المهدي بيع حصن براش مقابل ثمن معلوم يحدده ، ويظهر أن موافقة الإمام على ذلك جاءت لاعتبارين : أولهما : أن من ضمن شروط الصلح بين الإمام المهدي والملك المظفر : أن حصن كوكبان للإمام إذا استولى على براش ، ولم يحدد طريقة الاستيلاء عليه ، وثانيهما : أن لا تعارض بين شراء الإمام لحصن براش وشروط صلحه مع الملك المظفر .

فتم بيع براش للإمام مقابل خمسمائة ألف درهم وعشرين ألف (٢) ، غير الخلع والخيال على المتوسطين (٣) ، وعلى رأسهم الشريف شجاع الدين أحمد بن محمد بن حاتم العباسي العلوي ، وكان تسليم الحصن في السابع عشر من شهر رجب من سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م (٤) .

ويبدو أن الملك المظفر رأى في هذا الأمر تحايلاً على شروط الصلح الذي عقده مع الإمام المهدي ونقضاً لها ، فبدأ يثير الفوضى (٥) في المناطق التي تقع على الحدود بين الدولتين الزيدية و الرسولية ، وبدأ يحرض بعض الأطراف على إثارة الاضطرابات في الدولة الزيدية ، مما اضطر الإمام إلى محاصرة حصون تلك الأطراف ، وفي مقدمتها حصن هدد (٦) في نمار ، مما حدا بصاحبه مظفر بن راشد

(١) سيرة المهدي ، ق ٨٢ ب . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤٠٠ .

(٢) المصدر نفسه والورقة . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٢ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤٠٩ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٣٦ . وفي بعض المصادر مائة ألف دينار بواقع أن الدينار المظفري يساوي خمسة دراهم مهدي . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠١ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٤ أ . وفي بعض المصادر مائتي ألف درهم . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٠٠ . العسجد ، ق ٢٢٠ . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣١٨ .

(٣) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤٠٩ .

(٤) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٢ ب .

(٥) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤٠٩ .

(٦) هدد : حصن في عنس ، شمال نمار . المقضي ، معجم ، ص ٧١٩ .

الهرشي^(١) إلى تسليمه مقابل الأمان له ولمن معه^(٢) ، وكان هذا التسليم في شهر ذي الحجة من سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م^(٣) .

ونظراً لتدهور الأوضاع بين الإمام المهدي والملك المظفر ، ونقض الصلح بينهما ، سعت بعض الأطراف إلى الصلح بين الإمام المهدي والأمير أسد الدين^(٤) ، وتضمن هذا الصلح على : أن يعطي الإمام للأمير أسد الدين بلاداً معينة في (رداع)^(٥) و (عس)^(٦) وشيئاً من الأقطار الصناعية ، وكل منطقة يستفتحها في اليمن الأسفل ، مقابل الدخول في طاعة الإمام^(٧) .

(١) آل الهرش : من مشايخ سنحان . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٢٩٣ ، (حاشية المحقق) .

(٢) كان الحصار على هذه الحصون شديداً ، حتى إن أهلها أكلوا الخيول والحمير وأشياء من الأشجار التي لا تؤكل . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٧ أ .

(٣) المصدر نفسه ، ، ق ٨٧ أ .

(٤) نفسه ، ق ٨٦ ب .

(٥) ردّاعُ : اسم مشترك بين جملة من البلدان أشهرها : رداع العرش وهي إلى الشرق من ذمار بمسافة (٥٣ كيلو متراً) . الهمداني : الحسن بن أحمد بن يعقوب ، صفة الجزيرة العربية ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٢٠٣ . المقحفي ، معجم ، ص ٢٧٢ .

(٦) عَسْ : مدينة إلى الغرب من ذمار بمسافة (٤١ كيلو متراً) ، وهي اليوم ناحية تابعة لمحافظة ذمار ، وتنسب إلى عس بن زيد بن سدد بن زرعة بن سبأ الأصغر . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٦١٣ . المقحفي ، معجم ، ص ٤٧٤ .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٦ ب .

١١ . معركة السَّوَاد^(١) ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م^(٢) :

نتيجة لما سلف ، أرسل الملك المظفر ، الطواشي^(٣) تاج الدين بدرأ^(٤) ، والأمير شمس الدين علي بن يحيى العنسي لحرب الإمام وإخراجه من صنعاء^(٥) ، ولكي يتصدى الإمام المهدي لهذه الحملة ، أرسل الأمير أسد الدين ومجموعة من الأمراء والأشراف لقتالهم^(٦) ، ولما التقى الطرفان عند منطقة السواد ، ورأى الأمير أسد الدين تواتر عسكر الإمام والأشراف إلى ساحة المعركة ، أدركته الحمية^(٧) على أهل جنسه من الغز ، وخشي أن يُهزم العسكر الرسولي ، فبعث للطواشي تاج الدين يحذره من مغبة الاستمرار في القتال وينصحه بالعودة إلى الملك المظفر^(٨) في اليمن الأسفل ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من عسكره ، وإلا قتلوا جميعاً ، فاستمع الطواشي تاج الدين لذلك وعاد بمن معه^(٩) .

ثم ما لبث الأمير أسد الدين بعد هذه المعركة أن أعلن تنصله عن الصلح مع الإمام المهدي ، وجعل عذره في ذلك أن الإمام لم يوفه قيمة حصن براش ولم يسلمه منها إلا اليسير^(١٠) ، ولكن السيد شرف الدين^(١١) يذكر أسباباً أخرى لهذا النقص منها: أن الملك المظفر مناهُ بخروج أبيه الأمير بدر الدين الحسن بن علي وأخيه الأمير

(١) السَّوَاد : موضع بالقرب من قرية حزيز ، جنوبي صنعاء بمسافة (تسعة كيلومترات) . المقففي ، معجم ، ص ٣٣٥ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٢ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٨ .

(٣) الطواشي : هم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه . دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية ، ص ١٠٩ .

(٤) هو تاج الدين بدر الدين بن عبدالله المظفري الملقب الصغير ، كان خادماً لبنت جوزة ، إلا أنه كان يميل للمظفر — قبل توليه الحكم — فأمرت بسجنه في زبيد ، إلا أنه فر منه بعد مقتل الملك المنصور نور الدين ، وكان له دور كبير في مساندة الملك المظفر ، توفي في سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١١٣ .

(٥) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٣ .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٢ .

(٧) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٠١ . العسجد ، ق ٢٢١ .

(٨) ابن الديبع ، قرة العيون ، ص ٣١٩ .

(٩) الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٢١ .

(١٠) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٣ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٤ أ .

(١١) سيرة المهدي ، ق ٨٩ أ .

فخر الدين أبي بكر بن الحسن من السجن إذا نقض صلحه مع الإمام ، ومنها : أنه خشي على ملكهم بعد الهزيمة التي لحقت بالرسوليين في السواد ، فظن أن الإمام لا يتأخر بعدها عن اليمن الأسفل لإسقاط الدولة الرسولية .

١٣ . حملة الملك المظفر على اليمن الأعلى :

يبدو أن الملك المظفر وانطلاقاً من إستراتيجيته في فرض هيمنته على اليمن بأكمله ، قرر التحرك باتجاه اليمن الأعلى في سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٤ م^(١) ، حالما استولى على حصن الدملة^(٢) من زوجة أبيه وأخويه الفائز والمفضل ، ولاسيما بعد أن وجد فيه — كما أشار المؤرخون — أموالاً عظيمة^(٣) ، كانت هي المحرك الرئيس له لحرب الإمام المهدي ، مستعيناً بها في استقطاب القبائل ، وضم الأشراف المنشقين عن الإمام ، وسلاطين بني حاتم إلى صفه .

ولعل ما يؤكد ذلك أن الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة وبعد رسالته الأخيرة إلى الإمام ، وتجاهل الأخير لها ، قرر التحالف مع الرسوليين ، وجرت بينه وبين الملك المظفر مراسلات^(٤) سرية للوقوف بوجه الإمام ، وعندما تم الاتفاق بينهما على ذلك ، طالب الأمير شمس الدين ، الملك المظفر بتزويده بالأموال لمعاونته على حرب الإمام فزوده بما طلب^(٥) .

وإزاء ذلك قرر الملك المظفر الطلوع إلى اليمن الأعلى^(٦) ، وكان الأمير أسد الدين — بعد نقضه الصلح مع الإمام المهدي — قد لجأ إلى إحدى حصون الشيخ علوان الجحدري واستجار به^(٧) ، فأجاره وراسل الملك المظفر في ذلك ، وبعد تردد من الملك المظفر أعطاه الأمان^(٨) ، وتصالح معه يوم قَدَمَ إليه في ذمار . ولإكمال ما

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٨ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٣ .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٨ أ — ٨٨ ب .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٤ . الشرفي ، اللأكي ، ج ٢ : ٤١٤ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٨ أ . ويقال أن الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ، عم الملك المظفر ، أشار عليه بذلك ، وهو في دار الاعتقال ، وأنه عنفه ووبخه وخوفه على ملك بني رسول من أن يسلبه الإمام إن تركه وشأنه . انظر: المصدر نفسه ، ق ٨٨ ب .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٣ .

(٧) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٤ .

(٨) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٢٠ .

بدأه الملك المظفر في حرب الإمام ، أرسل الأمير أسد الدين على رأس مجموعة من الفرسان إلى صنعاء ^(١) لإخراج الإمام منها ، ولما علم الإمام بقدوم الأمير أسد الدين خرج من صنعاء إلى سناح ^(٢) وطلب النصرة من تلك الجهات فلم ينصروه لخوفهم من الرسولييين ، وعلمهم بطلوع الملك المظفر إلى اليمن الأعلى ، ولذلك عاد الإمام أدراجه إلى صعدة بسبب هذا الأمر .

وبسيطرة الأمير أسد الدين على صنعاء ^(٣) ، حقق الملك المظفر أول أهداف حملته من دون الوصول إلى صنعاء ، واستكمالاً للأهداف المتبقية منها ، أمر الملك المظفر ، الأمير أسد الدين والأمير شمس الدين أحمد ^(٤) بالتوجه إلى صعدة عن طريق الجوف ^(٥) ، وكان الأمير محمد بن فليته – وهو من أنصار الإمام – قد أمر ولده سليمان بالتحصن في درب الزاهر ، والتأهب للحرب ^(٦) إذا قدم الأميران إلى صعدة . ونظراً للفارق بين القوتين ومساعدة قبائل جنب ^(٧) وآل جحاف ^(٨) وآل ضيغم وآل راشد ^(٩) ، في الجوف للأميرين أسد الدين وشمس الدين ، استطاع هذان الأميران الاستيلاء على درب الزاهر بعد استسلام من فيه مقابل الأمان لهم ^(١٠) .

١٣ . سقوط صعدة بيد الرسولييين :

بتأمين الأمير شمس الدين ، وأسد الدين لأنفسهما من الخلف ، أصبح الطريق أمامهما آمناً إلى صعدة ، فسارا إليها والأخبار تتوالى عليهما من بعض أهلها أن

(١) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٢٣ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٩ .

(٣) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٤٨ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٥ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٩ . ثبأ الزمن ، ق ٦٤ أ .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩١ ب . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤١٦ .

(٧) جَنْبٌ : من قبائل مذحج ، وهم ولد يزيد بن حرب جانبوا أخاهم يزيد بن مزيد ، وحالفوا سعد العشيرة .

الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ١ : ١٩٢ – ١٩٣ . المقضي ، معجم ، ص ١٤٥ .

(٨) آل جحاف : من بني منبه بن مرهبة بن دومان بن بكيل بن جشم الأكبر بن نوف بن همدان ، من أهل الجوف . الملك الأشرف ، طرفة الأصحاب ، ص ١٢١ .

(٩) آل ضيغم وآل راشد : من آل منيف بن ضيغم بن منيف بن جابر بن علي ... بن مدرك ، وقيل أنهم من نزار بن عنز بن وائل . الملك الأشرف ، طرفة الأصحاب ، ص ١٢٢ .

(١٠) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٦ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤١٦ .

المدينة قاب قوسين أو أدنى من السقوط (١) ، وأن الإمام قد خرج منها ورصد لهما عند طريق مذاب (٢) والعشبية (٣) .

ولتجنب هذا الكمين ، سأل الأميران عن طرق أخرى تؤدي إلى صعدة غير تلك الطريق المرصودة ، فدلهم بعض الناس على طريق مجهولة تمر شرقي حصن براش صعدة (٤) — وهو يومئذ في أيديهم — ولم يخطر ببال الإمام أنهما يستطيعان المضي إلى صعدة (٥) منها . وهذا يدل على سوء تقديره للأمور ، فكيف يعلق مصير مدينة بأكملها بهذا الظن ، لذلك لم يشعر بهما إلا وقد أصبحا خلفه على مشارف صعدة ولا قدرة لديه على منعهما ، فدخلت المدينة في شهر ذي الحجة من سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٤ م (٦) ، ولم تستطع الرتبة التي تركها الإمام في المدينة بقيادة الأمير الحسن بن وهاس (٧) أن تفعل شيئاً ، عدا بعض المناوشات التي لا وجدوى ولا تأثير منها .

ويعود سقوط المدينة بهذه السرعة إلى الآتي :

١. خيانة بعض الحدادين (٨) الموجودين في المدينة ، وإفشائهم للأمير شمس الدين بمواقع الضعف فيها (٩) ، وتعزى خيانتهم تلك إلى الكراهية والحروب التي كانت بينهم وبين أهل المعلاة وسَمارة وسائر أهل صعدة ، والدليل على ذلك

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩١ ب .

(٢) مذاب : وادي يسقي أرض الجوف . المقحفي ، معجم ، ص ٦٠١ .

(٣) العَشْبِيَّة : عزلة من حرف سفيان وأعمال خمر . المقحفي ، معجم ، ص ٤٧٢ .

(٤) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤١٦ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٢ أ .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٠٥ .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٣٩ . أنباء الزمن ، ق ١٦٤ . ومن الجدير بالذكر أنه تم إطلاق سراح الأمير الحسن بن وهاس من سجن الأمير أسد الدين — بعد أسره في صبوة — إثر الصلح الذي عقده مع الإمام المهدي ، وتطبيقاً لمبدأ تبادل الأسرى بين المتحاربين . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٥ أ . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٤ .

(٨) الحدادون : لا يوجد في المراجع ذكر لنسب الحدادين ، إلا ما ذكره الحجري بأنهم من الفرس ولهم درب يحمل اسمهم بمدينة صعدة . انظر : مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٤٨٠ .

(٩) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٢ أ .

أنهم وبعد دخول طلائع الرسوليين والحمزيين إلى المدينة ، أغلقوا دروبهم ورفعوا راية كائنت شعاراً للأمير شمس الدين وأصحابه (١) ، فلم يقربهم أحد .
٢. أن سقوط المدينة كان بسبب بعض الأشراف الحمزيين الذين كانوا في صعدة يوم سقوطها ، وكانوا يظهرون الولاء للإمام وأنهم من جملته ، فلما قدم أصحابهم إلى المدينة ، أظهروا ما يبطنون من الخلاف على الإمام ، وسهلوا لأصحابهم الدخول إلى المدينة (٢) .

ولاستدراك ما يمكن استدراكه ، أرسل الإمام المهدي وهو بحوث أخاه الأمير سليمان بن الحسين إلى درب ظالم (٣) ، وهو للأمرء الحمزيين ، وفيه من قبلهم الأمير نجم الدين موسى بن عبد الله بن حمزة ، وبعد حصار شديد للدرب استسلم من فيه وعلى رأسهم الأمير نجم الدين (٤) ، ثم أمر الإمام أخاه الأمير سليمان بالمضي إلى صعدة ، وكان الأميران أسد الدين وشمس الدين قد خرجا منها بالأسرى والغنائم إلى صنعاء ، وتركها فيها رتبة يقودها الأمير عز الدين محمد بن أحمد بن عبد الله بن حمزة ، الذي حين جاءت الأخبار بقدم الأمير سليمان خرج منها وتركها (٥) .

١٤ . معركة نقيب الحصباء (٦) :

مع اشتداد الصراع بين الإمام المهدي والملك المظفر ، حاول كلٌّ منهما تعزيز مواقعه ، فالملك المظفر أرسل إلى الأميرين أسد الدين وشمس الدين بأموال عظيمة (٧) وأمرهما بحرب الإمام ، فخرجا إلى مخلاف بني وهاس من بلاد حاشد ،

(١) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤١٧ .

(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٢ أ .

(٣) درب ظالم : درب في الجوف ، يسكنه آل الدعام الهمدانيين . الملك الأشرف ، طرفة الأصحاب ، ص ١٢٣ - ١٢٤ . المقضي ، معجم ، ص ٢٤٢ .

(٤) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٥ أ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤١٨ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٤٠ . أنباء الزمن ، ق ١٦٥ .

(٦) الحصباء : نقيب في بلاد السود وأعمال ثلا ، وهو من بلد حمير . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٢٢ ، (حاشية المحقق) .

(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١١ .

و أخرجوا عدة مواضع فيه ^(١) لأصحاب الإمام وأنصاره ، ثم سارا إلى مصنعة آل أبي العديم ، فأخذها ، ثم قصدا الإمام المهدي في هجرة بني قنيل من بلاد حمير ^(٢) .
 أما الإمام المهدي فحاول الحد من هذه الحرب المستمرة ، إلا أنه — كما يبدو — لم يستطع إيقافها ، وكل ما استطاع فعله أنه جمع جموعاً وسار بها إلى نقيل الحصبات لمنع الرسولين وحلفائهم من طلوعه ، ومع هذا لم يتمكن من ذلك ، إذ فرق الأميران عسكرهما إلى فريقين ^(٣) وسلك كل فريق جانب من جوانب النقيل وأحاطوا بعسكر الإمام ، الذين فر منهم من فر ، وقُتل من قتل ، وأسر من أسر ^(٤) ، وكان لهذه المعركة التي حدثت في شهر شعبان من سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م ، أثرها الكبير في الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، لفقده فيها ركناً من أركان دعوته ، ممثلاً بالفقيه حسام الدين حميد المحلي ^(٥) صاحب التصانيف المعروفة ، وأبرز علماء الزيدية في ذلك الحين ، و إليه أشار الإمام في رسالته إلى الأمير شمس الدين بعد هذه المعركة عندما قال :

" ... ننتشدك الله ومن سمع كلامنا هذا ، لو بُعث أبوك وجدك رسول الله (ﷺ) ، أكان مع حميد أم عليه؟! أو سعيأ إليك أو إليه؟! أو كانا يؤثران نصرنا أو نصرك؟! أو يعضدان أمرنا أو أمرك؟! ... " ^(٦) .

وفي موضع آخر من الرسالة نفسها قال :

" ... رادفت الغمة ، و راكمت سحايب الظلمة ، وقتلت رباني من هذه الأمة ، رجلاً أفنى عمره في الذب عن الدين ، ونشر علوم أهل بيت محمد الأمين ، ولأبيك أمير المؤمنين من مقاماته غررها ، ومن أكاليمة شذورها ودررها ، ومن تصانيفه روائعها وطرائفها ، ومن رسائلها سوابقها وشرائفها ... " ^(٧) .

^(١) ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٢٢ . الشرفي ، اللآئى ، ج ٢ : ٣٣٤ .

^(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٠ .

^(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١١ .

^(٤) الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٢٧ . الشرفي ، اللآئى ، ج ٢ : ٤٢٠ .

^(٥) فظفر فيما سبق ، ص ١٣٧ .

^(٦) مجموع رسائل ، ص ١٠٢ .

^(٧) المصدر نفسه والصفحة .

وفيه قال الإمام أيضاً عندما أدعى الأمير شمس الدين أن الإمام غرر به :
" ... وأما قولك : إني اغتررته : فكيف يُغر رباني الكلام؟! وعين عيون أهل
الإسلام؟! وهو يُصنف من قبل أن نولد نحن ، أمثل حميد يُختلس عن دينه؟!
أو يُلوى عن يقينه؟! ... " (١) .

أما الأمير شمس الدين فلم يؤثر فيه كلام الإمام ورسائله ، وقرر المضي في
الطريق الذي وجد نفسه مضطراً لسلوكه ، ولتعزير تحالفه مع الرسوليين سار في شهر
شوال من سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م إلى زبيد للقاء الملك المظفر (٢) ، فالتقى به
هناك ، وقُوبل بالإكرام ، وضُربت له الخيام ، وأقام في ضيافة الملك المظفر
مدة شهر (٣) امتدحه خلالها بقصيدته الشهيرة المثيرة للجدل : " لعل الليلي " . التي
يقول مطلعها :

لعل الليلي الماضيات تعود وتبدو نجوم الدهر وهي سعود
عفا منزل ما بين نعمان واللوى وجرت به للرامسات برود (٤) .

ثم إنه استأذن الملك المظفر للعودة إلى بلاده ، فأذن له وإخوانه ، وأجزل لهم
العطايا والهبات ، وزودهم بمائة فارس من المماليك لنصرتهم على الإمام المهدي (٥) .

١٥ . محاولة قتل الإمام المهدي :

في سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٦ م ، اتخذ الصراع بين الإمام المهدي أحمد بن
الحسين والملك المظفر الرسولي اتجاهاً آخر ، وأدلى سلاطين بني حاتم بدلوهم في هذا
الصراع ، غير متناسين قتل الإمام لرجلين منهم ، وذلك الدمار والخراب الذي
تعرضت له بلادهم بعد ذلك من قبل عسكر الإمام وبأمره .

(١) مجموع رسائل ، ص ١٠٣ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١٢ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٤٩ .

(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١١٦ .

(٤) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٢٣ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٩ أ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٤١ .

وظهرت أول بوادر هذا الاتجاه ، عندما بعث الملك المظفر إلى الخليفة العباسي — آنذاك — المستعصم بالله (١) ، يخبره بأحوال الإمام (٢) ويستعين به في مواجهته ، ولاسيما أن الملك المظفر يعد نائباً (٣) للخليفة العباسي على اليمن ، وهناك تواصل بينهما . فبعث الخليفة العباسي برجلين من الحشاشين (٤) إلى الملك المظفر لدفعهم على الإمام المهدي (٥) ، وبذلك يتخلصان منه ، فلما وصلا إلى صنعاء مع رسول الملك المظفر إلى الخليفة العباسي ، استقبلهما السلطان أحمد بن علوان بن بشر بن حاتم (٦) ، وهناك تم رسم خطة لقتل الإمام ، ونصت هذه الخطة على أن يحملاً خطاباً من السلطان أحمد بن علوان إلى الإمام في حصن حلب بصفة ساعيين في الصلح (٧) بين الإمام والملك المظفر ، وبوساطة السلطان الحاتمي ، وإحكام هذه الخطة طلب السلطان من الإمام على لسانهما الذمة والأمان له ليصل إليه ويبحثا شروط الصلح وإتمامه ، وحين وصلا إلى الإمام في حلب ، قابلهما بالإكرام (٨) وأقاما عنده يومين ، وفي صباح اليوم الثالث دخلا إليه وأرادا وداعه (٩) — كما زعما — وكان في مجلسه يومها الفقيه قاسم بن أحمد الشاكري ، والفقيه عبد الله البهلولي ، والشيخ عبد الله الصعدي (١٠) ، فقال لهما الإمام تكلمما بحاجتكما ، وكان ينتظر منهما أن يفتاحاه

(١) هو أبو أحمد عبد الله بن المستعصم بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر ، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه في سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م ، وقتل على يد التتار في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م ، وبمقتله سقطت الخلافة العباسية في بغداد . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ : ١٦٣ .

(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٢ ب .

(٣) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٣٣ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٧ . أنباء الزمن ، ق ١٦٣ .

(٤) الحشيشية : قوم يرمون أنفسهم على الملوك فيقتلونهم ويقتلون ويرون ذلك من الدين . انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٣٤٢ . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٥ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٢ ب . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٢٣ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤١ .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٢ ب . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٢٣ — ٤٢٤ .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٢ .

(٨) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٥ .

(٩) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٦ .

(١٠) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٠٠ ب .

بموضوع الصلح مع الملك المظفر ، إلا أن أحدهما تكلم بكلام غير مفهوم ^(١) ، وقال في ختامه أريد أن ألقى إليك حديث سر — بمعنى أن يكونا بمفردهما — فتعجب الإمام من كلامه وساوره الشك في طلبه ، وأشار إلى الفقيه الشاكري أن يدنو إليه ليشاوره ^(٢) في أمر الرجل ، وحين دنا الفقيه إلى الإمام للمشاورة حجب ما بينه وبين الحشيشي ^(٣) ، عندها استخرج الحشيشي سكيناً كان ملصقاً بفخذه ^(٤) وانقض على الإمام وطعنه طعنة بليغة في كتفه الأيسر ، ولولا تنبه الإمام له في اللحظة الأخيرة لتمكن الحشيشي من قتله في الحال ، ثم أراد الحشيشي أن يكرر فعلته مرة أخرى ، لكن الفقيه الشاكري انقض عليه ^(٥) وأمسك به ومنعه من ذلك ، إلى أن أغار حرس الإمام وأتباعه وقتلوا الرجلين ^(٦) . كان هذا الحادث في الثامن من شهر ربيع الأول من سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٦ م ^(٧) ، وبسببه ظل الإمام مدة شهرين يعالج من تلك الطعنة في كتفه حتى شفي منها .

ومع أن بعض المؤرخين والباحثين ^(٨) يستبعد أي علاقة للخليفة العباسي المستعصم بالله في هذه المحاولة ، إلا أن الروايات التاريخية الأخرى تفند هذا القول ، فقد ورد في السيرة المنصورية أن الخليفة العباسي الناصر أحمد بن المستظهر أرسل فرقة من الحشيشية مكونة من أربعة رجال ، منهم رجلان لقتل الشريف ابن عزيز قتادة بن إدريس شريف مكة ، ورجلان آخران لقتل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، وأن الإمام المنصور لما بلغه الخبر ، أخذ يتحرز ويقبض على كل من يقدم إلى صعدة مع الحاج ، ممن يشبه أنهم من العجم الذين لا يتكلمون العربية ، أو ممن

(١) الشرفي ، اللالكئ ، ج ٢ : ٤٢٤ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٢ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٥ .

(٤) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٢ ب ، ١٠٠ ب .

(٥) الشرفي ، اللالكئ ، ج ٢ : ٤٢٥ .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٠١ أ . ابن الأثف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٥ ب .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٢ . أنباء الزمن ، ق ١٦٥ .

(٨) الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٠١ .

هم على هيئة غريبة تثير الريبة^(١). وهذا يؤكد أن الخلفاء العباسيين كانوا يمارسون مثل هذه الأعمال^(٢).

كذلك يشكك بعض الباحثين^(٣) في أي دور للملك المظفر في هذه المحاولة بحجة أنه من السذاجة أن يعتمد هذا الملك في مثل هذا العمل على حشاشين أحدهما كبير السن ، أعور العين ، طويل القامة ، والآخر حديث السن ، وينتظر من الإمام أن يصدقه^(٤) ويقبله . وهذا الرأي مردود عليه ؛ لان الخدعة انطوت على الإمام وصدقها وهذا يدل على دهاء من خطط ، كما أن ابن الأنف^(٥) قد أكد على هذا الدور ، عندما ذكر أن الملك المظفر بذل أموالاً جمة لهؤلاء الحشيشية بغية قتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، ولولا طول الأجل – إلى حين – لنجحت الخطة وقتل الإمام .

وختاماً لهذه النقطة ، نعيد التذكير بأن هناك تنسيقاً مستمراً بين أعداء الإمام المهدي (الرسوليين ، والحاثمين ، والأشراف الحمزيين) ، وقد مر بنا ذلك الاتفاق الذي تم بين هذه الأطراف الثلاثة بعد دخول الإمام المهدي الأول إلى صنعاء في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م على اغتيال الإمام في ذلك الحين ، ولولا اعتراض الأمير شمس الدين عليه لنفذ ، وهذا يدل على أن بني حاتم كانوا يسعون في هذا الاتجاه ، ولكن ليس بمفردهم .

(١) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٣٤٢ .

(٢) انظر أيضاً ، قتل إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في المغرب الأقصى بالسلم على يد رجل يقال له الشماخ اليماني ، أرسله الخليفة العباسي الهادي ، وقيل الرشيد ليحد من نفوذ العلويين ويمنعهم من تأسيس دولة لهم هناك . انظر : اليعقوبي : أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر ، تاريخ اليعقوبي ، علق عليه ووضع حواشيه : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، ج ٢ : ٢٨٣ – ٢٨٤ . المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي مروج الذهب ومعادن الجوهر ، شرحه : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ج ٣ : ٣٦٢ . علي إبراهيم حسن ، التاريخ الإسلامي العام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ م ، ص ٣٧٨ . صبحي : أحمد محمود ، الزيدية ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ١٠٩ – ١١٠ . العبادي : أحمد مختار ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د . ت ، ص ٤٩ .

(٣) انظر على سبيل التمثيل : الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٠٢ .

(٤) المرجع نفسه والجزء والصفحة .

(٥) انظر : نزهة الأفكار ، ق ٦٥ أ – ٦٥ ب .

وتأسيساً عليه ، لا يمكن أن يجرؤ بنو حاتم على مثل هذا الفعل وحدهم ، ودون مشاوررة الملك المظفر فيه ، مع أننا لا نستبعد أن يكونوا من ابتدعه أو خطط له ، و إن انحصر دورهم — في الظاهر — على كونهم وسطاء فيه .

١٦ . أسباب خروج الشيخ الرصاص على الإمام المهدي :

مهما تكن المعاناة التي تكبدها الإمام المهدي من جراء معاداة الأشراف الحمزيين وبني حاتم و الرسوليين ، إلا أن خروج الشيخ الرصاص^(١) وانضمامه إلى هذا التجمع مثل ضربة موجعة له ، ولاسيما لما لعبه هذا الشيخ من دور في الصراع مع الإمام ، وحتى في قتله لاحقاً .

ولعله من المفيد هنا ، أن نشير إلى أسباب خروج الشيخ الرصاص على الإمام المهدي ، والتي من الممكن أن نعزوها إلى :

أ . الأسباب السياسية :

يعود خلاف الشيخ أحمد بن محمد الرصاص للإمام المهدي إلى بداية دعوته ولكنه لم يظهره إلا متأخراً ، فقد ذكر السيد شرف الدين^(٢) في معرض حديثه عن دعوة الإمام أنه لم يتخلف أحد من العلماء في الوصول إليه وهو بثلا ، إلا ما كان من الشيخ الرصاص ، فإنه وصل أولاً إلى ظفار وأجرى حديثاً مع الأمير شمس الدين حول امتحان الإمام قبل مبايعته ، وأن رأيهم أجمع على صدور الشيخ الرصاص إلى الإمام وأن لا يبايعه إلا بعد أن يعود إلى ظفار ويشاور الأمير شمس الدين في ذلك .

وبناءً على ما سلف ، يتضح لنا ارتباط الشيخ الرصاص بالأشراف الحمزيين ارتباطاً وثيقاً تمتد جذوره إلى عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ومع أن الشيخ الرصاص بايع الإمام المهدي بعد امتحانه في ثلا ، إلا أنه كان — على ما يبدو — مضطراً لذلك^(٣) ، نظراً لعدم وجود العذر الذي يمتنع معه عن المبايعة — كما كان

(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٣ .

(٢) سيرة المهدي ، ق ٣٣ أ .

(٣) ورد في سيرة الإمام المهدي أن شخصاً يدعى عبد الله بن الأديب الصنعاني بالغ في أذية الإمام وأفرط في الحديث عليه بما يسوءه ، وأن أنصار الإمام أسروه خلال سفره وقدموا به إلى الإمام ، وخلال أسره أخبر السيد شرف الدين بقصة عن الشيخ الرصاص لم يصدقها عنه — آنذاك — والقصة أنه أدعى أن الشيخ الرصاص سلم لبعض العلماء جُعلاً (رشوة) من أجل إبطال دعوة الإمام المهدي أيام قيامه . انظر : سيرة المهدي ، ق ٥٤ أ — ٥٤ ب . ثم يعقب السيد شرف الدين على ذلك بالقول : " فلما جرى من الرصاص ما جرى غلب على ظني صدقه " . انظر : المصدر نفسه ، ق ٥٤ ب .

الحال مع الأمير شمس الدين — وقد كان الإمام المهدي يدرك ذلك ، ولأجله حاول استرضاء الشيخ الرصاص بطرق عدة ، منها على سبيل التمثيل أن الإمام بعد دخوله الأول إلى صنعاء سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م أعطاه دار الكبير من كبار الباطنية وهي دار مزخرقة بالذهب ، كما أعطاه العديد من الضياع والحوانيت و الصوافي ، ما قدر قيمته بثلاثين ألف دينار ، وعندما سؤل الإمام عن ذلك ، أشار إلى أنه — أي الشيخ الرصاص — من جملة المؤلفه قلوبهم (١) .

ومع هذا الاسترضاء والتودد والتأليف للشيخ من قبل الإمام ، فإنه لم يقنع وتطلعت نفسه إلى ما هو أعظم من ذلك ، فقيل إنه كان معجباً بنفسه وطالباً للرئاسة (٢) في المذهب الزيدي ، ولا سيما بعد مقتل الفقيه حسام الدين حميد المحلي في معركة الحصبات ، وذلك ما لم يكن يراه الإمام المهدي ، فكان ذلك مما أثار حفيظة الشيخ الرصاص على الإمام المهدي ، وجعله يقنع الأمير الحسن بن وهاس الحمزي بأنه أولى بالإمامة منه (٣) .

ب . الأسباب الإدارية والمالية :

لا تختلف هذه الأسباب في جوهرها عن تلك التي كانت لدى الأمير شمس الدين ، فإذا توقع الأمير شمس الدين أحمد أن الإمام المهدي سوف يوليه على صنعاء مع أنه لم يطلب ذلك صراحة ، فإن الشيخ الرصاص طلب من الإمام صراحة أن يوليه على الظاهر ، وليس هذا فحسب ، بل وأن لا تكون فوق يده يد في هذه البلاد ، فرأى الإمام أن ذلك غير صائب (٤) ، ولا شك أن أسبابه في ذلك هي الأسباب نفسها التي جعلته يولي صنعاء للأمير الحسن بن محمد القاسمي ويستنتي منها الأمير شمس الدين أحمد ، ونظراً لرفض الإمام لطلب الشيخ الرصاص في الولاية ، دخل في نفسه الحقد عليه (٥) ، وطلب له الغوائل (٦) ، وتحالف مع أعدائه .

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٠ أ .

(٢) المصدر نفسه ، ق ١٠٩ ب .

(٣) نفسه والورقة .

(٤) لين فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٦ .

(٥) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٣٣ .

(٦) لين فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٦ .

ج . الأسباب الاجتماعية :

وهي من الأسباب المكلمة للخلاف ، وكان الإمام يدرك ذلك ، وحاول الحد منها ولكن المطلوب منه كان أكثر مما قدمه ، فكما حاول الإمام تأليف قلب الشيخ الرصاص مادياً بإعطائه الدور ، والأملك في صنعاء وغيرها ، حاول أيضاً تأليفه اجتماعياً عن طريق خطبه لابنته لأخي الإمام من أمه الأمير إبراهيم بن يحيى^(١) ، إلا أن ذلك لم يوطد العلاقة بين الطرفين ، بل زادها توتراً وخلافاً ، وتفاصيل ذلك ، أنه وبعد عقد النكاح وتحديد المهر بألفي درهم مهديّة^(٢) ، عاد الكل إلى محله ن بيت ردم^(٣) لقضاء العيد ، فقيل إن الشيخ الرصاص استتبأ دفع المهر^(٤) بعد مرور مدة طويلة على عقد النكاح ، وقيل - وهو الأرجح - إن الإمام أعطاه شيئاً يسيراً من المال جزءاً من المهر ، فاستقله وغضب من ذلك^(٥) .

ومهما يكن الأمر الذي أغضب الشيخ الرصاص ، إلا أنه في النهاية لم يخرج عن هذا السياق ، وهو ما عبر عنه الشيخ الرصاص نفسه بعد مقتل الإمام المهدي في شوابة^(٦) حين قال : " إنه لولا قام - على الإمام - لما جرى ما جرى " ^(٧) ، وكأنه يقول لو أن الإمام أنزله منزلته التي يستحقها - حسب ظنه - والتي يرضى بها ، لما خرج على الإمام المهدي ، وبالتالي لما قُتل .

أما السبب المباشر الذي اتخذته الشيخ الرصاص لإعلان خلافه على الإمام ، فيعود إلى أن بعض ولاة الإمام بحوث طلب فطرة من رجل من خواص الشيخ

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٠٩ ب .

(٢) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤٣٤ .

(٣) نيت ركم : قرية وحصن في مخلاف بني شهاب أسفل بني مطر ، جنوب جبل حضور إلى الغرب من صنعاء . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٠٨ ، (حاشية المحقق) . الأكوغ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ٤٩ .

(٤) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٠٩ ب .

(٥) الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤٣٤ .

(٦) شوابة : واد من أعمال نيبين من بلاد بكيل ، ينحدر مازة إلى الجوف ، وإليه تنسب قرية شوابة في عزلة سفيان ، ناحية نيبين ، بمحافظة عمران . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٤٥٨ .
المقحفي ، معجم ، ص ٣٧٥ . الأكوغ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ١٧٠ .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٢١ أ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤٤٨ .

الرصاص ، فغضب الشيخ الرصاص (١) من ذلك واعتدى على جامع الحقوق (٢) ، وخرج على الإمام على رأس خمسمائة من أصحابه وأنصاره ، وحط على جبل الحرام (٣) ، وكان هذا آخر عهد الشيخ الرصاص بالإمام المهدي من جهة الموالاتة ، وبدأ بعدها عهد آخر اتسم بطابع المواجهة .

١٧ . مقتل الإمام المهدي في شوابة :

بخروج الشيخ الرصاص على الإمام تكتمل أضلاع المربع المعادي للإمام ، والمكون من مال الرسوليين ، وقوة الأشراف الحمزيين ، ودهاء السلاطين الحاتميين ، والغطاء الديني الذي كان ينقصهم في هذه المواجهة ممثلاً بالشيخ الرصاص ومن تبعه من العلماء الهادوية .

ثم كان للطبيعة كلمتها في هذا الشأن ، فعم اليمن حالة من القحط العظيم ، كانت بدايتها في سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٨ م ، واستمرت لمدة ثلاث سنوات بعدها (٤) .

وكان السبب في مقتل الإمام المهدي أن الأشراف الحمزيين ومن والاهم بدعوا القيام بأعمال عسكرية ضده ، أولها الاستيلاء على حصن ذروة (٥) ، ولمواجهة هذه الأعمال والتحركات ، نهض الإمام بعسكره للتصدي لهم وحربهم ، وحين حط في مسلت (٦) ، وصلته الأخبار بأن الأشراف الحمزيين – وعلى رأسهم الأمير شمس الدين والشيخ الرصاص – عازمون على التوجه إلى شوابة (٧) لحصد زرعها ، وكان أهلها من أنصار الإمام ، وهي المنطقة الوحيدة في تلك النواحي التي فيها زراعة (٨) بسبب حالة القحط والجذب ، ولأهمية الأمر في تلك السنة أغار الإمام وأنصاره إلى

(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٨٣ .

(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١١٠ أ .

(٣) الحرام : جبل من بلاد حجور . المقحفي ، معجم ، ص ١٧٨ .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٣ . أنباء الزمن ، ق ١٦٦ . العرشي ، بلوغ المرام ، ص ٤٩ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١١٤ ب . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٦٧ ب .

(٦) مسلت : واد في بلاد الظاهر ، تنسب إليه قرية مسلت من عزلة بني قيس . ابن دعشم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٦٤٠ ، (حاشية المحقق) .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١١٩ أ .

(٨) الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١٠٤ .

هناك لمنعهم من حصاد الزرع ^(١) ، فدارت معركة بين الطرفين في شهر صفر من سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م ^(٢) ، انتصر فيها الأشراف الحمزيون ومن معهم على الإمام المهدي وأتباعه ، وكان السبب وراء هزيمة الإمام في هذه المعركة أن الإمام أمر أصحابه أن ينهضوا إلى هضبة مشرفة على غيل شوابة ليكونوا قريباً من الماء والكلأ ، فنهضوا بأنقاليهم وأثاثهم وعُددهم ، ونظراً لضيق الطريق أمرهم أن يفترقوا فريقين ، فكان أحد الفريقين وهو العسكر مسيرهم قارعة الطريق ، وكان الفريق الثاني ، وهو فريق الأنتقال والأثاث مسيرهم سفح الجبل ، فلما بصر بهم الأشراف الحمزيون على هذه الحالة رأوها فرصة يجب انتهازها لافتراق الجيش فريقين ، وبعد كل فريق عن صاحبه ^(٣) ، فهجموا عليهم ، فكانت الطائفة لهم . وقتل الإمام وأجتز رأسه ^(٤) وحمل إلى خيمة الأمير شمس الدين والشيخ الرصاص ، أما الأمير شمس الدين فأرسل رسالة إلى الملك المظفر يعبر فيها عن سعادته بما حدث ، ويظهر مسرته لذلك ، وجاء في هذه الرسالة : " ... يجدد الخدمة ، ويشكر النعمة الله تعالى ثم للمقام العالي السلطاني خلد الله ملكه وينهى صدورها من المصنف بشوابة ورأس أحمد بن الحسين بين يدي ، وخاتمه في إصبعي - وأنشد شعراً - :

وأبلج ذي تاج أشاطت رماحنا بمعترك بين الفوارس أقتما
هو بين أيدي الخيل إذ فتكت به صدور العوالي ينضح المسك والدماء !

— ثم قال — : وكان من سعادة مولانا السلطان ويؤمن طيره ، أن قُتل عدوه على يد غيره " ^(٥) .

وأما الشيخ الرصاص ، فقال لمن حوله : " أنه لولا قام — على الإمام — لما جرى ما جرى " ^(٦) .

^(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٢٥ . ابن فند ، ملئر ، ج ٢ : ٨٧٧ .

^(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١١٩ أ . العراشي : عبد الحكيم محمد ثابت ، الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر الأول يوسف بن عمر (٦٤٧ — ٦٩٤ هـ) دراسة سياسية وحضارية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م ، ص ٦٠ .

^(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

^(٤) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٧٠ أ . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٧ .

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٣١ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٢٥ .

^(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٢١ أ . الشرفي ، اللاكئ ، ج ٢ : ٤٤٨ .

وتجسيداُ لذلك الحقد والبغض الذي يكنه الأشراف الحمزيون للإمام المهدي ،
حُمِلَ رأسه إلى حصن ظفار ^(١) - معقلهم - وطافوا به في الأسواق ، والسكك ^(٢) ،
ودفنوه في مكان الأزبال ^(٣) ، قبل أن يستخرج ويدفن مع جسده في شوابة ^(٤) من قبيل
من لم يرضَ بهذا الفعل ، ثم نقله أصحابه فيما بعد إلى نيبين فقبره إلى اليوم فيها ^(٥) .
وبمقتل هذا الإمام ، تدخل الإمامة الزيدية مرة أخرى في دائرة الضعف الذي
سوف يستمر مدة طويلة من الزمن سنأتي عليه في المباحث الآتية .

^(١) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٧ .

^(٢) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٤٨ .

^(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٤ .

^(٤) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٤٨ .

^(٥) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٦٧ .

الفصل الثاني

الإمامة الزيدية بعد مقتل الإمام المهدي

أولاً : ضعف الإمامة الزيدية وتجدد الصراع مع الرسولييين :

بعد مقتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين في شوابة ، اتفق الشيخ أحمد بن محمد الرصاص والأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة على مبايعة الأمير الحسن بن وهاس الحمزي ^(١) ، إماماً جديداً للزيدية ^(٢) ، ونص هذا الاتفاق على تقاسم السلطة ، والنفوذ ، والمال ، مناصفة ^(٣) بين الأمير شمس الدين وإخوته من جهة ، والإمام الحسن بن وهاس وأتباعه من جهة أخرى ، بما فيهم الشيخ الرصاص . وبوفاة الأمير شمس الدين أحمد ، وأخويه موسى ، والحسن ، وجماعة من الأمراء من بني وهاس ، والشيخ الرصاص ، وكثير من الناس ، في مدة زمنية قصيرة لا تتعدى الأشهر بعد مقتل الإمام المهدي ^(٤) ، تجدد الاتفاق المذكور آنفاً بين الإمام الحسن بن وهاس ، والأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة ، رئيس الأشراف الحمزيين في حينه ^(٥) . إلا أن هذا الاتفاق لم يدم طويلاً بسبب تفرد الأمير صارم الدين بالأمر دون الحسن بن وهاس ^(٦) ، فأدى ذلك إلى نشوب الخلاف بين الطرفين ، وتقاتلتهما ^(٧) في موقعة عسافر ^(٨) في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ^(٩) ، والتي أسفرت

^(١) كان الأمير الحسن بن وهاس من أوائل الأشراف الحمزيين الذين لبوا دعوة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، وكان صادقاً في مبايعته له ، حتى إنه أسر مرتين وهو يقاتل تحت رايته ، الأولى في صبوة بالقرب من صنعاء ، والثانية في صعدة ، ونظراً لإخلاصه ووفائه للإمام المهدي ، أرسله نيابة عنه إلى الشيخ أحمد بن محمد الرصاص وغيره من العلماء ، ليسمع ما عندهم على الإمام المهدي ، ويناظرهم فيه ، وبدلاً من ذلك استطاع الشيخ الرصاص إقناعه بما لديه على الإمام من الاعتراضات والمآخذ ، بل وأوهمه بأنه الأولى بالإمامة منه ، فكان منه أن انضم إلى جملة المخالفين على الإمام والخارجين عليه ، واشترك معهم في قتاله يوم شوابة . انظر : ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٢٤ .

^(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٦ .

^(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٨٤ .

^(٤) يبدو أن وباء حل بمنطقة الظاهر في ذلك الحين ، كان السبب في وفاة كل هؤلاء . بينما تعزو بعض المصادر الزيدية ما حل بهم إلى اشتراكهم في قتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، وكأنه انتقام إلهي على ما فعلوه . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٦ .

^(٥) ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٢٥ .

^(٦) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٨٤ .

^(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٤٠ .

^(٨) عسافر : موضع في حاشد من بلاد همدان . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٢٦ (حاشية المحقق) .

^(٩) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٣٤ . العراشي ، الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر ، ص ٦١ .

عن انتصار الأمير صارم الدين ، وأسرته للحسن بن وهاس^(١) . وبهذا الأسر الذي سوف يستمر لعشر سنوات في حصن ظفار ، تنتهي علاقة الحسن بن وهاس بالإمامة الزيدية التي لم يكن من الأساس أهلاً لها^(٢) .

إن انقسام الأشراف الزيديين حول إمامة الحسن بن وهاس ، بسبب اشتراكه في قتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين^(٣) ، وخلافه مع بقية الأشراف الحمزيين ، ولاسيما من آل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، قد مهد الطريق للحسن بن بدر الدين محمد^(٤) لأن يدعو لنفسه ، وذلك في الخامس والعشرين من شهر شوال من سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م^(٥) ، أي بعد قيام الحسن بن وهاس بعدة أشهر ، ويظهر أن الإمام المنصور بالله الحسن لم يتمكن من القضاء على عوامل الضعف والانقسام التي لتأبى الإمامة الزيدية ، أو أن يجمع كلمة الأشراف الزيديين من حوله ، وذلك لعدة أسباب ، وفي مقدمتها :

١. اعتراض الأشراف الحمزيين على دعوته^(٦) ، نظراً لكونه من آل الهادي ، وذلك ما لم يرغبوا فيه ، حتى وإن اختلفوا مع الحسن بن وهاس الحمزي .
٢. تذبذب مواقفه السابقة ، بين القول أن الحسن بن وهاس يصلح للإمامة ، ومبايعته له^(٧) ، وتراجعته عن هذا القول ، وعن هذه البيعة ، بعد مقتل الإمام

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٤٠ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ١٧٢ أ .

(٢) يذكر يحيى بن الحسين أن سبب تخلي الحسن بن وهاس عن الإمامة بعد خروجه من السجن في سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م ، هو رؤيته لرسول (ﷺ) في المنام ، وقوله له : " يا حسن إذا لم تكن الإمامة كالشمس شارقة وإلا فليست بإمامة " . انظر : غلية الأماني ، ج ١ : ٤٥٦ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٨٤ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٦٠ .

(٤) هو الحسن بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى ... بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، كان من تلاميذ الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، والفقيه حميد المحلي ، وأصبح من أعيان الأشراف علماء ، وفصاحة ، وفراسة ، وخطابة ، وله مؤلفات كثيرة أهمها : (أنوار اليقين في شرح فضائل أمير المؤمنين) ، (الأرجوزة البليغة والكلمة الفاتحة الفصيحة) ، (الكامل المنير) ، دعا وهو ابن إحدى وستين سنة ، وتوفي في سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ م ، في هجرة تاج الدين برغافة . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٨٧ - ٨٨٨ . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٣٢٧ - ٣٢٩ .

(٥) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٣٢٨ . المؤيدي ، التحف ، ص ٢٥٩ .

(٦) الوزير : الهادي بن إبراهيم ، كاشفة الغمة عن حسن سيرة أمام الأئمة ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) (سير وتراجم) ، ق ٥٦ .

(٧) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٨٨ ، ٨٩٣ .

المهدي أحمد بن الحسين ، وهو ما عزاه الآخرون إلى رغبته في تولي الإمامة لا غير ^(١) ، وأفقدته الكثير من المصداقية عند العامة .

٣. افتقاده للقوة العسكرية التي يستطيع من خلالها مواجهة الأشراف الحمزيين .

٤. كبر سنه الذي تجاوز الستين ^(٢) ، وعجزه عن النهوض بأعباء الإمامة .

ونظراً لإخفاق الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين محمد في دعوته ، قام الداعي إلى الله يحيى بن محمد السراجي ^(٣) بالدعوة لنفسه في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ^(٤) ، ويبدو أنها دعوة لم يكتب لها النجاح كسابقتها ، لانقسام الأشراف عموماً حول إمامته ^(٥) ، ومعارضة الأشراف الحمزيين لها ، وانحصارها في حضور ^(٦) ، وبلاد المغرب ^(٧) ، وعدم امتدادها إلى الظاهر و صعدة ، مما سهل السيطرة عليها ، والقبض على صاحبها ، فضلاً عن أن الدولة الرسولية في ذلك الحين كانت قد توطدت أركانها على يد الملك المظفر ، بعد أن تخلص من معارضيه من أبناء العائلة الرسولية

(١) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٦١ .

(٢) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٥٦ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٦١ .

(٣) هو يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد ... يرجع بنسبه إلى علي بن أبي طالب ، قرأ في نواحي تهامة على الشيخ أحمد بن عجيل ، وقرأ بمكة على الشيخ العلامة ابن حنكاش ، كان عالماً مبرزاً ، ويروى أنه كان يحفظ من أحاديث الرسول (ﷺ) ستين ألف حديث ، توفي في سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م ، وقبر بمسجد الأجدم بصنعاء . نظر : المهلا : شرف الدين الحسين بن ناصر بن عبد الحفيظ ، مطمح الآمال في إيقاظ جهلة العمال من سنة الضلال ، تح : عبد الله بن عبد الله بن أحمد الحوثي ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ٢٥١ . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٣ : ١٢٥٢ - ١٢٥٣ .

(٤) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٣٦ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٥٠ . وعند ابن حاتم في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م . انظر : السمط ، ص ٣٥٢ .

(٥) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٦٦ .

(٦) حَضُور : جبل شامخ غربي صنعاء بمسافة (١٨ كيلو متراً) ، ينسب إلى حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سُدَد بن زرعة بن حمير بن سبأ الأصغر ، وهو أعلى جبل في اليمن ، ويدعى أيضاً جبيل النبي شعيب لوجود قبر ومسجد النبي شعيب عليه السلام . السويدي : أبو الفوز محمد أمين البغدادي ، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٩ م ، ص ٦٥ . المقحفي ، معجم ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٥٠ .

وقام بتعيين الأمير علم الدين سنجر الشعبي والياً على صنعاء ، وأمره بالتصدي والقضاء على أي محاولة للتمرد من أي جهة ، وعلى رأسهم الأشراف الزيديين . وبناء على ما تقدم كان من المتوقع أن تفضل هذه الدعوة ، التي ظل صاحبها مطارداً من قبل الرسولييين وحلفائهم من القبائل ، حتى انتهى به المطاف أسيراً^(١) على يد قوم من بني فاهم^(٢) في جهة حضور ، بذل لهم الرسوليون مالاً بغية القيام بهذا العمل^(٣) . وفور إلقاء القبض عليه ، قام الأمير علم الدين الشعبي بكحله^(٤) ، وكأنه أراد بذلك إيصال رسالة تهديد وتحذير للأشراف الزيديين .

ويتضح مما سبق ، أن الأشراف الحمزيين كانوا على ما يبدو هم المسيطرون فعلياً على الأوضاع في الدولة الزيدية ، فهم من يعين الأئمة ، وهم من يخلعونهم ، وهم أصحاب القرار فيما يخص العلاقة مع الدولة الرسولية ، حتى إن الرسولييين لا يتعاملون مع أحد من الأشراف الزيديين خارج إطار هذه الأسرة . أليسوا هم من قتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، وهم من أقام الحسن بن وهاس ، وهم من خلعه وأسره ، وهم بعدم اعترافهم بالإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين جعلوا دعوتهم ناقصة ، وهم بتخليهم عن الإمام السراجي ، ساهموا في أسره وكحله من قبل الرسويين وعليه فالعلاقة التي يمكننا دراستها في هذا السياق ، هي العلاقة التي جمعت الأشراف الحمزيين وعلى رأسهم الأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة ، والملك المظفر الرسولي ، لأنها هي الأساس لأي علاقة مع بقية الأشراف الزيديين .

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٥٣ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٣٧ .

(٢) بنو فاهم : من قبائل حضور . المقحفي ، معجم ، ص ٤٩٦ .

(٣) تؤكد المصادر الزيدية أن أسر هذا الإمام كان بمكيدة ومكر دبره له بنو فاهم من أجل المال الذي وعدهم به الأمير سنجر الشعبي ، بينما يذكر ابن حاتم أن عيسى بن فاهم المتحالف مع الرسولييين في حضور ، دخل في حروب كثيرة مع الإمام السراجي ، وأنه تمكن في إحداها من القبض عليه ، وتسليمه للأمير الشعبي ، الذي أعطاه مالاً جزيلاً كمكافأة له على ذلك . نظر : السمط ، ص ٣٥٣ . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٦٦ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥١ .

(٤) الكحل : هو سمل العين ، وفقاً بمسامير الحديد المحماة بالنار . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٦ ، مادة : سمل . الفيروز أبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، تح : مؤسسة الرسالة بإشراف : محمد نعيم العرقسوسي ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، مادة : سمل . وذكر ابن حاتم أن الملك المظفر لم يكن راضياً عن هذا الأمر ، وأن أقصى ما كان يتمناه هو إيداعه السجن نظر : السمط ، ص ٣٥٣ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ١٤٨ .

لقد سبق وأشرنا إلى العلاقة التي جمعت بين الأشراف الحمزيين بقيادة الأمير شمس الدين والملك المظفر ، والتي كان من أهم نتائجها قتل الإمام المهدي في شوابة . وبعد مقتله استمرت هذه العلاقة مع نوع من الحذر ، فالملك المظفر كان يعلم بأن الأوضاع في اليمن الأعلى ، لا يمكن أن تستقر دون تحالفه مع الأشراف الحمزيين ، والأشراف الحمزيون من جانبهم ، كانوا يدركون بأنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه الملك المظفر ، فكان من مصلحة الجانبين التعاون فيما بينهما .

١. مقتل الأمير بكتمر القلاب :

ومع وجود مثل هذه الضرورة الملحة للصلح ، والحنف بين الطرفين ، فإن العلاقة بينهما كثيراً ما انتابتها بعض الأحداث التي عكرت الصفو بين الجانبين ، وكان السبب الرئيس فيها هو السياسة التوسعية التي انتهجها الملك المظفر في اليمن الأعلى ، والتي قصد من ورائها الحد التدريجي من نفوذ الأشراف الحمزيين هناك ، فخلال سنوات قليلة استطاع هذا الملك السيطرة على العديد من الحصون عن طريق الشراء والحصار^(١) ، في حجة و المخلافة ، والبلاد الحميرية ، وصولاً إلى الجوف ، وهو ما شكل تهديداً مباشراً على الأشراف الحمزيين .

وبوصول النفوذ الرسولي إلى الجوف ، وجد الأمير صارم الدين داؤد نفسه في دائرة تضيق عليه يوماً بعد يوم ، ووجد نفسه مضطراً لخوض حرباً مع الدولة الرسولية تعتمد على الكر والفر ، للمحافظة على نفوذ الأشراف الحمزيين في اليمن الأعلى ، وبقائهم فيه . وكانت أول هذه الحروب في سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م^(٢) ، عندما أرسل الملك المظفر ، الأمير فخر الدين بكتمر القلاب إلى الجوف على رأس مائة فارس وخمسمائة راجل ، وأمره بعمارة حصن الزاهر^(٣) ، ليحفظ زرع سدال^(٤) وكان من عادة هذا الأمير — بعد أن عمر الزاهر — أن يخرج ليطوف بالجوف

(١) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٥٥ — ٣٦٤ .

الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٤١ — ١٥٢ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٦٥ .

(٣) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٠٧ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٥٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٥٣ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٦٦ .

الأسفل ، و يتفقد أوضاعه ، و يترك مجموعة صغيرة مكونة من مائة راجل (١) في الخلق (٢) ، وحين علم الأمير صارم الدين بمكان المجموعة ، خرج غازياً لها على رأس الأشراف الحمزيين ، وقتلهم عن آخرهم (٣) ، ووافق ذلك رجوع الأمير بكتمر من طوافه في الجوف الأسفل ، فدارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل الأمير بكتمر وجماعة من أصحابه ، وفرار من نجا (٤) إلى براقش (٥) .

٣. موقعة نقيب العجلة (٦) :

وبمقتل الأمير بكتمر القلاب ، تجدد الصراع بين الأشراف الحمزيين والدولة الرسولية ، الأمر الذي دفع الملك المظفر أن يأمر واليه على صنعاء الأمير علم الدين الشعبي ، بالسير إلى صعدة (٧) — وكانت حينها بيد الأشراف الحمزيين — على رأس خمسمائة فارس ، وثلاثة آلاف راجل ، لتأديب الإشراف الحمزيين بعد الذي فعلوه بالأمير بكتمر وأصحابه ، فخرج من صنعاء في شهر جمادى الآخرة من سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨م (٨) ، ومن جانبه خرج الأمير صارم الدين داؤد ومعه كافة بني حمزة من صعدة ، وتمركزوا على نقيب العجلة ، لمنع الأمير علم الدين الشعبي من

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٦٦ .

(٢) الخلق : قرية ومركز ناحية الخلق بالجوف : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٣٠٦ ، (حاشية المحقق) .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٦٦ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٥٧ .

(٤) الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١٠٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٣ . ويعلل ابن حاتم هزيمة الأمير بكتمر القلاب ومقتله ، بأن الأمير علم الدين الشعبي أرسل معه جماعة من أهل نمار ، فرفض القلاب الخروج بهم لوجود أحقاد وضغائن قديمة بينه وبينهم ، وطلب أن يخرج معه المماليك الأسدية ، فرفض الأمير علم الدين ذلك ، وأصر على موقفه ، مما اضطرت القلاب إلى الخروج بأهل نمار ، وحين دارت المعركة بين العسكر الرسولي والأشراف الحمزيين ، خذل أهل نمار الأمير القلاب ، وتركوه وحيداً في المعركة ، مما أدى إلى قتله . انظر : السمط ، ص ٣٦٦ .

(٥) بَرَاقش : مدينة أثرية تقع في وادي الجوف ، إلى الجنوب من معين . المقحفي ، معجم ، ص ٧٣ .

(٦) لم استدل على موقعة العجلة في المعاجم اليمنية ، ويتضح من النص أن هذا النقيب هو نقطة العبور والانتقال من ظاهر همدان إلى صعدة .

(٧) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٤٢ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٤ . العراشي ، الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر ، ص ٦٢ .

(٨) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٧٤ .

التقدم^(١) ، ولما علم الأمير علم الدين بذلك ، فرق عسكره إلى فريقين^(٢) : فريق يشغل الأشراف الحمزيين ، ويوهمهم بنيته الزحف على النقيل ، وفريق آخر كان على رأسه الأمير علم الدين ، سلك طريقاً أخرى بموازاة النقيل ، فلم يشعر الإشراف الحمزيون به إلا وهو خلفهم^(٣) ، فدارت موقعة بين الجانبين انتهت بهزيمة الأشراف الحمزيين ، ومقتل الأمير حمزة بن الحسن بن حمزة ، وجماعة معه ، وفرار الأمير صارم الدين إلى براش صعدة^(٤) ، وسيطرة الرسولييين على المدينة^(٥) .

وبعد السيطرة الرسولية على صعدة ، قام الأمير علم الدين الشعبي بتعيين الشيخ عبد الله بن عمرو والياً عليها^(٦) ، وجعل فيها ثمانين فارساً من المماليك ، ثلاثون من البحرية^(٧) ، بقيادة القائد مغطاي ، وخمسون من الحلقة^(٨) ، بقيادة الأمير موسى بن الرسول^(٩) .

(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٦٨ . مع أن رأي الأمير صارم الدين داؤد كان أن يترك الأشراف الحمزيون مواجهة الأمير علم الدين الشعبي ، وأن يتجهوا إلى صنعاء ، فإذا علم بمسيرهم إليها ، عدل عن رأيه التوجه إلى صعدة ، وعاد إلى صنعاء ، ولكن الأشراف لم يوافقوه في ذلك . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٧٥ . ويبدو هذا الرأي سديداً ، لو عملوا به ، ووافقوا عليه .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٧٦ .

(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٦٩ .

(٤) يبدو أن هناك خلافاً — نجهل أسبابه — حدث بين الأمير عز الدين محمد بن أحمد بن عبد الله بن حمزة وعمه الأمير صارم الدين داؤد ، وبسببه انسحب الأخير من حصن براش إلى ظفار ، وقام الأول بتسليمه إلى الملك المظفر ، مقابل التحالف معه . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٧٠ .

(٥) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٣٨ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٤ .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٧٩ .

(٧) المماليك البحرية : هم المماليك الأتراك ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم ، للتمييز بينهم وبين غيرهم من المماليك ، ولا سيما القادمين من مصر . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٣٩٦ ، (حاشية المحقق) .

(٨) المماليك الحلقة : هم نوع من المماليك مهمتهم الأساسية حراسة السلطان في حله وترحاله ، ويشتركون في الحروب إذا دعت الضرورة إلى ذلك . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢١٠ . عليان : محمد عبد الفتاح ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد بني رسول باليمن ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٢٢٨ .

(٩) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٧٩ .

٣ . حصار ثلا وتلمص :

وتعزيزاً لهذه الانتصارات التي حققها الرسوليون في اليمن الأعلى ، أمر الملك المظفر ، الأمير علم الدين الشعبي بمحاصرة ثلا (١) ، حتى الاستيلاء عليه (٢) ، فخرج من صنعاء ، وأحكم الحصار ، ونتيجة لذلك ، أرسل أهل ثلا إلى الأشراف الحمزيين يطلبون منهم النجدة ، والمساعدة ، وإلا سلموا الحصن للرسوليين (٣) ، وازداد الأمر سوءاً — بالنسبة لهؤلاء الأشراف — عندما أرسل الملك المظفر ، القائد إبيك الحسني للاستيلاء على حصن تلمص (٤) ، فلما كان هذا الأمر أيقن الأمير عز الدين محمد بن أحمد أن الهدف الرئيس للملك المظفر في اليمن الأعلى ، هو القضاء على النفوذ الزيدي فيه ، وعلم أنه بسقوط ثلا ، و تلمص ، يتجه الملك المظفر إلى حصن ظفار ، وبه يسقط آخر معقل للأشراف الحمزيين ، فقرر دون أن يبدي ذلك لأحد أن يعمل جاهداً للحيلولة دون تحقيقه ، مستغلاً في ذلك تحالفه مع الرسوليين ، فجرت بينه وبين بقية الأشراف الحمزيين وعلى رأسهم عمه الأمير صارم الدين داؤد مراسلات بهذا الشأن ، ثم أخذ يثير الشائعات في صعدة ونواحيها أن الأشراف الحمزيين ينوون الهجوم على حصن براش ، بعد علمهم بوجود جامكية قدرها عشرون ألف دينار (٥) ، مخصصة لنفقات العسكر .

(١) الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٤٣ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٥ . العراشي ، الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر ، ص ٦٢ .

(٢) كانت ثلا منذ قيام دولة بني رسول في سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، من أشد المناوئين لها ، وأبرز المتحالفين مع الدولة الزيدية ، وظلت عصية عليهم ، وفيه للزيديين حتى سقوط الدولة الرسولية في سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م . نظر : الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٧٣ . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٥٨ . جار الله : عبد الرحمن حسن ، ثلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي تاريخها وأثارها ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٤٦ — ٤٧ . وإلى أهميتها بالنسبة للدولة الزيدية أشار ابن حاتم حين قال قاصداً الأشراف الزيديين : " ... وأيقنوا أنهم بعد فوات ثلا صارت إلى البلاء ... وهما — أي ظفار وثلا — زوقاء حصونهم ومعانقهم ، وبهما يحاربون ، ويقاومون الغز ... " . نظر : السمط ، ص ٤٠٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٨٢ .

(٤) نفسه ، ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٥) نفسه ، ص ٣٨٤ .

وبناءً عليه أرسل هذا الأمير إلى نجران والجوف ، مظهراً طلب النجدة منهم على قومه من الأشراف الحمزيين ، وبوصفه حليفاً للرسوليين ، ومن واجبه القتال معهم ضد أعدائهم . فاجتمع له نتيجة لذلك مائة فارس (١) .

وعلى الرغم من تلك شكوك التي ساورت بعض الرسوليين إزاء تصرفاته ، فإنه كان يبدها ، ويطمئنهم بالقول أن هؤلاء الفرسان الذين معه ما هم إلا لنصرتهم . ومهما يكن من أمر ، فقد كان في ذات الوقت أعجز عن مواجهة العسكر الرسولي في حال فكر في ذلك (٢) ، ولهذا وغيره من الأمور التي أبداها الأمير عز الدين ، وثق به الرسوليون في صعدة ، ولم يتخذوا أي خطوات لمواجهة أي تحرك مريب من قبله (٣) . ومع أن بعض الأمراء أقترح التحصن في براش (٤) ، تحسباً لأي طارئ ، إلا أنه لم يُسمع منه ذلك .

وبينما الوضع على هذه الحالة ، هاجم الأشراف الحمزيون بقيادة الأمير صارم الدين ، العسكر الرسولي المحاصر لحصن تلمص (٥) ، واستطاعوا بمساعدة من الأمير عز الدين ومن معه من هزيمة هذا العسكر ، الذي تفاجئ — كما يبدو — بموقف الأمير عز الدين (٦) ، ولم يجد أمامه سوى الفرار إلى بلاد خولان (٧) ، بعد أن قُتل منهم من قتل ، ونُهب معسكرهم ، وأسر قائدهم الأمير موسى بن الرسول (٨) .

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٨٥ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) لم تكن هذه المرة هي المرة الأولى التي يعمل فيها الأمير عز الدين بغية القضاء على الوجود الرسولي في صعدة ، فقد قام قبل ذلك بتغذية الخلافات بين المماليك البحرية بقيادة مغلطاي ، والشيخ عبد الله بن عمرو والي صعدة ، والتي انتهت بالقبض على هذا الشيخ من قبل هؤلاء المماليك بعد أن أوهمهم الأمير عز الدين أن هذا الأمر يرضي الملك المظفر ، ويرغب في تحقيقه ، مع أنه لم يكن على علم مسبق به ، لذلك أطلق سراح هذا الشيخ لاحقاً . وقد كان هدف الأمير عز الدين من هذه المحاولة ، أن يزرع عدم الثقة في قلوب أهل صعدة بالملك المظفر ، فضلاً عن إعطائهم انطباع بأنه شخص لا يمكن الوثوق به والتحالف معه . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٨٥ .

(٥) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٧١ .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٨٨ .

(٧) الحمزي ، كنز الاخبار ، ص ١٠٨ . الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٤٣ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٥٥ .

(٨) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٨٧ .

واستغلالاً لهذا الوضع ، قرر الأشراف الحمزيون فك الحصار عن حصن ثلا^(١) ، فدخلوا إلى الحصن خلصة ، لتعزيز القوة التي فيه^(٢) ، فأوضح لهم صاحب الحصن عدم جدوى ما قاموا به ، لأن المشكلة تكمن في قلة الطعام والماء^(٣) ، وليست في قلة الرجال بل إن دخولهم إلى الحصن زاد المشكلة تعقيداً ، فخرجوا من الحصن ليلاً كما دخلوا ، وأقاموا في نغاش^(٤) حتى يتدبروا أمرهم .

وبينما هم هناك ، رفض الأمير علم الدين الشعبي الاستجابة لمطالب جماعة من مشايخ البلاد ، ممن كانوا في تحالف مع الرسوليين^(٥) ، في أثناء حصار ثلا ، مما أدى إلى تخليهم عن مواقعهم ، وترك الأمير علم الدين يواجه الموقف بمن معه ، الأمر الذي نتج عنه انشقاق في الصف الرسولي ، وفرار الأمير علم الدين إلى صنعاء ، والذي تزامن مع استيلاء الأشراف الزيديين على حصن التعبرة^(٦) .

ويظهر أن سوء تقدير الأمير علم الدين الشعبي للأمور^(٧) ، وعدم مقدرته على اتخاذ المواقف التي تتطلب أحياناً بعض المرونة ، قد أدى إلى هزيمة الرسوليين المحاصرين لثلا ، وإضعاف الدولة الرسولية في اليمن الأعلى . فمع إدراكه لاستحالة

(١) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٠٨ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٦ .

(٢) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٨٠ أ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٨٩ .

(٤) نغاش : بلدة في جبال عيال يزيد ، شمال عمران . المقحفي ، معجم ، ص ٧٠٤ .

(٥) تذكر المصادر التاريخية أن جماعة من مشايخ البلاد المتحالفين مع الرسوليين في حصار ثلا جاؤوا إلى الأمير علم الدين الشعبي طالبين منه بعض الحوائج ، فلم يحسن الرد عليهم ، ولا قضى لهم أمراً ، بل كان منه الوعيد والتهديد ، وكان من جملة ما قاله : " والله ما ارتقب إلا أخذ هذه القلعة ، ثم تفرغ للعرب حتى أجعلها وطنه " ، وحين سُمع منه هذا القول ، لحقت القبائل اليمنية الأثفة ، ورحلوا عنه ، وتركوا حلفه ، وليتفادى الأمير علم الدين عواقب ما قال ، أمر عسكره بالزحف على ثلا ، فظن بعضهم أنه يريد الفرار ، فانقسم العسكر بين مهاجم وفارٍ ، مما سبب إرباكاً ، قتل نتيجة له من هاجم الحصن ، وانهزم الباقيون مع الأمير علم الدين الشعبي إلى صنعاء . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٩٠ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٨٠ أ — ٨٠ ب . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٥ .

(٦) التعبرة : حصن بالقرب من ثلا . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٠٨ ، (حاشية المحقق) .

(٧) ليس هذا الأمر وحده يدل على سوء تقدير الأمير علم الدين الشعبي للأمور ، فقد سبق وأشرنا إلى موضوع كحله للإمام السراجي ، وسيأتي معنا سوء تعامله مع المماليك الأسيديّة في صنعاء ، والذي سوف يؤدي في نهاية الأمر إلى سقوطها بيد الأشراف الزيديين في عهد الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين . انظر فيما سيأتي ص ١٢٤ — ١٢٥ .

سقوط حصن ثلا عن طريق القوة العسكرية ، وبأن السبيل الوحيد لتحقيق ذلك يكمن في الحصار الطويل والشديد ، إلا أنه وبعد مدة طويلة من الزمن ، افشل هذا الحصار بسوء تدبيره ، وقلة حيلته ، وقصر نظره ، وكان يكفيه لإنجاز هذا الأمر أن يقرر خواطر من جاء إليه من المشايخ ، ويعطيهم ما طلبوا أن تمكن من ذلك وإلا وعدهم خيراً إلى حين سقوط ثلا .

ومع ورود الأخبار إلى الملك المظفر بما حل بالأمير علم الدين وأصحابه في ثلا ، أرسل إليه ليتوجه إلى صعدة ، ويفك الحصار المفروض على الرسوليين في براش^(١) ، فتوجه إلى هناك ، وفك الحصار عن براش ، واستولى على صعدة مرة أخرى^(٢) ، ولكنه في الوقت ذاته خاف على صنعاء من الأشراف الزيديين ، فعاد أدراجه إليها^(٣) ، وترك في صعدة مجموعة من الفرسان مكونة من خمسين فارساً ، وعلى رأسهم الأميران سيف الدين البندقاري ، والأمير علي بن مظفر العبيدي^(٤) .

وكعادة الأشراف الزيديين في حربهم مع الدولة الرسولية ، التي تعتمد على الكر والفر ، قصد هؤلاء الأشراف مدينة صعدة ، وأخرجوا منها القوة الرسولية المتواجدة هناك^(٥) .

٤ . الصلح بين الطرفين :

ويظهر أن السجال المستمر بين الأشراف الزيديين والرسوليين ، وصراعهم حول مناطق النفوذ في صعدة وصنعاء ، دفع الملك المظفر إلى التفكير في وضع حد لهذا كله ، وتضمنت خطته على أن يجمع كل الأشراف الزيديين الذين هم في حلف الدولة

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٩٤ .

(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٧٤ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٩٧ .

(٥) نفسه ، ص ٣٩٥ .

الرسولية ، كالسراجيين ^(١) ، والعباسيين ^(٢) ، وآل سليمان بن موسى ^(٣) ، وآل يحيى بن الحسن ^(٤) ، وغيرهم من القبائل ، كهمدان ، وسنحان ، وإلزامهم الحلول بصعدة بعيالهم ، وأموالهم ^(٥) ، وتوكل إليهم مهمة الدفاع عنها من الأشراف الحمزيين ، على أن تصرف لهم رواتب شهرية (جامكيات) ، يتقاضونها من حصن براش . بينما يتفرغ الأمير علم الدين سنجر الشعبي لحرب هؤلاء الأشراف في بقية المناطق القريبة من صنعاء ^(٦) .

والذي يبدو أن الملك المظفر وجد صعوبة في تنفيذ هذه الخطة ، بسبب عجزه عن إقناع الأشراف الزيديين المتحالفين معه بها ، وكذا غيرهم من القبائل ، وبالمقابل خاف الأشراف الحمزيون من حدوثها ^(٧) ، وبالتالي دخولهم في حرب مستمرة مع بني عمومتهم ، يكون المستفيد الأكبر منها الملك المظفر ، ولذلك كله ، آل الأمر إلى عقد صلح بين الطرفين الحمزي ، و الرسولي ، في شهر شعبان من سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م ^(٨) والذي تضمن الآتي :

^(١) الأشراف السراجيون : يعود نسبهم إلى يحيى بن محمد بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن سراج ، وإنما سمي سراجاً لحسن وجهه ونضارته ، وقيل سمي سراجاً لأن أباه رأى في منامه أن قائلاً يقول له : سم ولدك سراج الدين . انظر : الملك الأشرف ، طرفة الأصحاب ، ص ١١٠ - ١١١ .

^(٢) الأشراف العباسيون : هم بطون متسعة ، إلا أن المشهور منهم صاحب براش صنعاء الأمير أحمد بن محمد بن حاتم بن الحسين ... بن العباس بن علي بن أبي طالب . انظر : الملك الأشرف ، طرفة الأصحاب ، ص ١١١ .

^(٣) آل سليمان بن موسى : هم من الأشراف الحمزيين الذين يعود نسبهم إلى سليمان بن موسى بن علي بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن ... بن الحسن بن علي بن أبي طالب . انظر : الملك الأشرف ، طرفة الأصحاب ، ص ١٠٤ - ١٠٧ .

^(٤) آل يحيى بن الحسن : من الأشراف الحمزيين . انظر : ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣١ ، (حاشية المحقق)

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٩٨ .

^(٦) المصدر نفسه والصفحة .

^(٧) نفسه ، ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .

^(٨) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٧٤ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٥٦ .

أ - تقسيم بلاد صعدة على ثلاثة أقسام (١) :

نصف للأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة ، وربع للأمير عز الدين محمد بن أحمد بن عبد الله بن حمزة ، وربع للملك المظفر .

ب - تقسيم مدينة صعدة على قسمين (٢) :

نصف للأمير عز الدين محمد ، ونصف للأمير صارم الدين داؤد ، ولا نصيب للملك المظفر فيها .

ج - تكون مدة هذا الصلح سنتين من يوم عقده .

٥. انقسام الأشراف الحمزيين :

ومع أن هذا الصلح قد جنب الأشراف الحمزيين حرباً كانوا يتخوفون منها مع الملك المظفر ، أو مع أبناء عمومته من الأشراف الزيديين المتحالفين معه ، إلا أنه - أي الصلح - أدخلهم في أتون حرب جديدة أسوأ مما كانوا يتوقعوه ، ولا نستبعد أن يكون الملك المظفر قد استدرجهم إليها (٣) تحت مسمى الصلح معهم ، وهو يعلم ما ستؤول إليه الأوضاع بعد ذلك . إذ يذكر ابن حاتم (٤) أن الأمير عز الدين محمد ندم على كونهم جعلوا نصيب الملك المظفر في بلاد صعدة من نصيبه ، وأنه قرر أن يستعيد حقه بأي طريقة ، ولما كان عاجزاً عن مواجهة الملك المظفر ، ولا طاقة له بحربه ، اقترح على عمه الأمير صارم الدين أن يكون نصيب الملك المظفر في بلاد صعدة مناصفة بينهما ، إلا أن الأمير صارم الدين رفض ذلك ، مما أدى إلى نشوب حرباً بين الجانبين دارت رحاها في صعدة وما حولها ، لمدة تزيد على الشهر (٥) ، ولم تنته إلا بسيطرة الأمير عز الدين كلياً على صعدة وبلادها (٦) ، وانسحاب الأمير صارم الدين إلى ظفار ، بعد أن قتل من الأشراف الزيديين في هذه المعارك عدد كبير .

(١) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٨١ أ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٩٩ .

(٣) هذا ما يمكن الاستدلال عليه من رد الملك المظفر على الأمير عز الدين حين قال : " إن أحببت أن تحارب عمك فلنأخذ منك ولا نعيناك عليه " ، ورده أيضاً على الأمير صارم الدين داؤد حين قال : " هذا أمر فيما بينك وبين ابن أخيك ونحن براء منه " . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٠٠ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة .

(٥) نفسه ، ص ٤٠١ .

(٦) نفسه ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

٦. قيام الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين (١) :

بوجود شخص كالمالك المظفر على رأس الدولة الرسولية ، عانى الأشراف الحمزيون خاصة ، والزيديون عامة ، الكثير من أجل الإبقاء على نفوذهم وقوتهم في اليمن الأعلى ، ولا سيما بعد أن تمكن هذا الملك من زرع بذور الفتنة بينهم ، وضم مجموعة كبيرة منهم إلى صفه ، ووصل بنفوذه إلى معاقلهم .
ونظراً لذلك ، أدرك هؤلاء الأشراف الخطر المحدق بهم ، إذا أصروا على المضي في هذا الطريق دون إمام يجمع كلمتهم ، ويوحد صفوفهم ، ويظهر أن رأيهم قد أنصب على تنصيب المهدي إبراهيم بن تاج الدين ، إماماً عليهم يقاتلون تحت رايته (٢) .
ولم تمض مدة طويلة على قيامه ، حتى بدأت الأوضاع تتغير لصالح الأشراف الزيديين ، ولا سيما بعد أن إجابته عنس وبني الراعي (٣) وبني شهاب (٤) و زُبيد (٥)

(١) هو إبراهيم بن أحمد تاج الدين بن محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى ... بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، كان إماماً شهيراً ، ذا علم غزير ، دعا بعد موت عمه الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين محمد . انظر : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٦١ - ٦٢ . المؤيدي ، التحف ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ . ومن الجدير بالذكر أنه حين حدثوا المهدي إبراهيم بن تاج الدين في أمر توليه الإمامة ، اشترط إجماع العلماء والفقهاء على ذلك ، فبعث إليهم الأمير صارم الدين ، فأجابته البعض وامتنع البعض الآخر ، وقالوا له لا يمكننا أن نبايعه دون المناظرة ، لتصح إمامته ونبايعة على بصيرة ، فلما سمع الأمير صارم الدين قولهم أخرج سيفه ، وأقسم لئن تأخر عن مبايعته أحد لأضربن عنقه ، عندها بايعوه طائعين وكارهين ، وكانت البيعة له في ظفار في آخر ذي الحجة من سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ م . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٠٧ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٨٤ أ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٠٦ . كان الأمير صارم الدين يدرك هذه الحقيقة ، ولكنه لم يعمل بمقتضاها ولم يحقق شروطها وأركانها ، ولذلك باعت محاولاته في هذا الشأن بالفشل .

(٣) بنو الراعي : عزلة من ناحية بني مطر (ناحية البستان سابقاً) . المقحفي ، معجم ، ص ٢٦٥ .

(٤) بنو شهاب : قبيلة وبلد من حمير قرب صنعاء تسمى اليوم بلاد البستان ، وتنسب إلى شهاب بن العاقل بن ربيعة بن وهب بن ظالم ... بن كندة ، وتضم عزلتي شهاب الأسفل ، وشهاب الأعلى ، ومن قراهم : بيت بوس ، وحده ، وحمل ، وأرتل . انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ١٥١ ، (حاشية المحقق) . ابن الدبيع ، قررة العيون ، ص ١٢٩ ، (حاشية المحقق) . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ١ : ١١٩ .

(٥) زُبيد : قبيلة شهيرة تنسب إلى مذحج بن أد بن عمرو بن زيد بن كهلان بن سبأ . انظر : الهمداني ، الإكليل ، تح : محمد بن علي الأكوخ ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، ج ٢ : ٥١ - ٥٢ ، (حاشية المحقق) . ابن عبد البر ، الأنباه ، ص ١٢٦ - ١٢٨ .

وتراجع الكثير من الأشراف الزيديين المتحالفين مع الملك المظفر عن هذا الحلف ،
بغية الانضمام للإمام المهدي (١) .

وفي محاولة جادة من قبل هؤلاء الأشراف لمساعدة الإمام المهدي ، قام
آل سليمان بن موسى بالاستيلاء على نمار في شهر جمادى الأولى من سنة ٦٧١ هـ
/ ١٢٧٣ م (٢) ، وطردها منها واليهما الرسولي الأمير شمس الدين ابن فيروز ، وحين
وصلت هذه الأخبار إلى باقي الأشراف ، تقوت عزائمهم ، واستنهضوا أصحابهم ،
 واجتمع لهم زهاء سبعمائة فارس ، وعشرة آلاف رجل ، كانت مهمتهم فك الحصار
الثاني على ثلا (٣) ، من قبل الأمير علم الدين الشعبي ، كهدف له الأولوية قبل كل
شيء .

ونظراً لتعقد الأمور على الرسوليين في اليمن الأعلى ، وخروجها عن نطاق
السيطرة ، أضطر الأمير علم الدين الشعبي إلى فك الحصار عن ثلا ، والعودة إلى
صنعاء (٤) ، ومراسلة الملك المظفر بكل المستجدات لديه ، مبيناً له عدم مقدرته على
حسم المواجهة مع الأشراف الزيديين بقيادة الإمام المهدي ، وأنهم قاب قوسين أو أدنى
عن صنعاء ، إن لم يتداركها (٥) .

وبعد وصول الرسالة إلى الملك المظفر أدرك خطورة الوضع ، فتحرك نحو نمار
في شهر شعبان من سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م (٦) ، ودخلها بعد أن أخرج منها آل
سليمان بن موسى ، ومن كان في صفهم ، وأقام بها ثلاثة أشهر ، عمر خلالها دروب

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٠٩ . وكان من أهم العوامل التي ساعدت آل سليمان بن موسى في
الاستيلاء على نمار ، هو وجود معظم أهل نمار المتحالفين مع الدولة الرسولية مع الأمير علم الدين
الشعبي المحاصر لثلا ، وقد شعر عسكره من أهل نمار بهذا الخطر الذي يتهددهم ، وحاولوا الاستئذان
منه ليعودوا إلى ديارهم ويحفظوا مدينتهم ، ولكنه لم يوافق . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٤) نفسه والصفحات .

(٥) نفسه ، ص ٤١٥ .

(٦) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٠ . مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٣٨ .

المدينة وحصونها^(١) . وبعد أن تم له ما أراد ، واصل سيره إلى صنعاء ، ودخلها في سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م^(٢) .

وخلال مدة إقامة الملك المظفر في صنعاء ، تمكن الإمام المهدي من تثبيت وجوده في حضور ونواحيها ، بعد أن سيطر على حصن عزان حضور^(٣) ، مما حدا بالملك المظفر إلى التصدي له ، ومواجهته ، وكان أول عمل له في هذا السياق ، إرسال ألفي مقاتل للسيطرة على بيت حنبص^(٤) — وكان حينها بيد الأشراف الزيديين — فتم له ذلك في أواخر شهر ربيع الأول من سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م^(٥) ، وما زال في تعقبه للإمام المهدي وأصحابه ، حتى أجلاهم عن عيبان^(٦) ، وحده^(٧) ، و سناع ، وحضور ، وكل نواحي صنعاء ، بحيث لا يمثلون خطراً عليها .

ولإحكام السيطرة على هذه المناطق ، قام الملك المظفر ببناء حصن على جبل عنتر^(٨) ، اسماه " ظفار " ^(٩) نسبة إليه ، يستطيع من خلاله صد أي هجوم زيدي على صنعاء ونواحيها .

وبعودة الأوضاع إلى طبيعتها ، وزوال الخطر الزيدي عن صنعاء وذمار ، قرر الملك المظفر العودة إلى اليمن الأسفل ، في شهر جمادى الآخرة من سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م^(١٠) .

(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٨٤ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٧ .

(٢) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٤٥ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٤٧ .

(٤) بيت حُنْبُص : بلدة بالقرب من صنعاء في ظاهر جبل عيبان ، فوق حدة . المقحفي ، معجم ، ص ٩٥ .

(٥) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٣٩ .

(٦) عَيْبَان : جبل يطل على صنعاء من ناحية الغرب . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٦١٩ .

المقحفي ، معجم ، ص ٤٨٢ .

(٧) حُدَّة : قرية من حازة بني شهاب في ناحية بني مطر ، غربي صنعاء بمسافة (خمسة كيلو مترات)

المقحفي ، معجم ، ص ١٧٤ .

(٨) جبل عنتر : يسمى أيضاً قرن عنتر ، وهو حصن يطل على صنعاء من الجنوب الغربي . الحمزي ،

كنز الأخبار ، ص ١١٠ ، (حاشية المحقق) .

(٩) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٤٠ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٨٦ أ .

(١٠) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٤٦ .

لقد كان للفارق الكبير بين القوتين الرسولية و الزيدية ، أثر كبير في إعادة الأوضاع إلى نصابها بالنسبة للرسوليين ، ويظهر أنه كان وضعاً مؤقتاً ، إذ تمكن الإمام المهدي بعد ذلك من السيطرة على عددٍ من الحصون المهمة ، كمدع ، وتعز المصانع ، و النواس ^(١) والمنار ، مما شكل مرة أخرى تهديداً جدياً للدولة الرسولية .

ومهما يكن من أمر الانتصارات التي حققها الإمام المهدي إبراهيم ، فإنه ظل تواقاً للاستيلاء على صنعاء ، قلب اليمن ، ومصدر حكمه وهو ما تيسر له لاحقاً من خلال الخلاف الذي حدث بين الأمير علم الدين الشعبي والي صنعاء ، والمماليك الأُسدية ^(٢) فيها ^(٣) ، والذي مهما تعددت أسبابه ، إلا أن سوء تعامل الأمير علم الدين مع هؤلاء المماليك ، مع ما لهم من أهمية عسكرية بالنسبة للدولة الرسولية ، يظل السبب الأبرز في ذلك ، فبدافع خوفه المستمر من هؤلاء المماليك الممتدة جذورهم في صنعاء إلى عهد الأمير أسد الدين محمد بن الحسن الرسولي ، والمنتسبين إليه اسماً ، و ولأناً ، عمد إلى زرع بذور الفتنة بينهم ^(٤) ، وتوليتهم على بلاد بعيدة عن صنعاء

^(١) تعز المصانع ، والنولس ، والمنار ، حصون تابعة للدولة الرسولية في البلاد الحميرية . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٩ .

^(٢) المماليك الأُسدية : هم المماليك الذين كانوا في حلقة الأمير أسد الدين محمد بن الحسن الرسولي ، يوم كان والياً على صنعاء في عهد الملك المنصور نور الدين عمر ، ولذلك نسبوا إليه ، ونظراً للخلاف الذي حدث بين هذا الأمير والملك المنصور ، بسبب نية الأخير عزل الأول عن صنعاء ، وتوليبتها لابنه قطب الدين المفضل ، قام أحد المماليك البحرية (الأتراك) ، بقتل الملك المنصور في الجند في سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م ، بتحريض من الأمير أسد الدين ، ولما تولى الملك المظفر الحكم ظلت العلاقة بينهما مضطربة ، حتى تمكن الملك المظفر في الأخير من القبض عليه ، والزج به في السجن إلى أن توفي فيه في سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٩ م ، ولهذا كانت العلاقة بين هؤلاء المماليك والملك المظفر متوترة . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٣ ب . ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٣٣ ، ٤٤٩ ، ٤٦٢ .

^(٣) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٤١ .

^(٤) اتخذ هذا الأمر أشكال عدة ، مثل :

أ — تحريض أبناء هؤلاء المماليك على أبائهم ، لا لشيء ، إلا لأن هؤلاء الأبناء أفسدوا لهذا الأمير بعزم أبائهم الخلاف عليه ، والانضمام إلى الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين تون موفقتهم وبدلاً من أن يشكر لهم هذا الموقف ، إذا به يحرض هؤلاء الأبناء على قتل أبائهم ، لأنهم أفسدوا بأسرارهم ، وكان هدفه من ذلك التخلص من الطرفين في آنٍ واحد .

ب — إثارة الأحقاد القديمة بين هؤلاء المماليك بغرض التناحر والافتتال فيما بينهم ، كما حدث في قصة الداوي الذي كلما جاء إلى الأمير علم الدين يطلب حاجة ، قال له : " لم تجد لك شغلاً غيري =

كلحج ، وأبين ، لعله بذلك يتمكن من إضعافهم ويشنت قوتهم وبأسهم ، ويبعدهم عن بلادهم وأوطانهم .

وإلى جانب هذه السياسة السيئة من قبل الأمير علم الدين الشعبي في تعامله مع هؤلاء المماليك ، أسهمت عوامل أخرى في تعميق هذا الخلاف ، منها على سبيل التمثيل ، تأخر الجوامك^(١) ، نتيجة لكثرة الحروب التي خاضتها الدولة الرسولية مع الأشراف الزيديين في ذلك الحين^(٢) ، وهو أمر لم يكن المماليك الأسيدي معتادين عليه من قبل ، وكان ردهم على الأمير علم الدين بعد أن استمهلهم في ذلك ، أن قالوا : " هذا شيء لا نجيب إليه ، فإن يكن عندك مال تسلمه ، وإلا تركناك وسرنا عنك " ^(٣) وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على هشاشة العلاقة بين الطرفين ، فهؤلاء المماليك لم ينسوا للملك المظفر أسره لأميرهم أسد الدين محمد بن الحسن الرسولي^(٤) ، يوم نزل إليه إلى زبيد ، كما لم ينسوا للأمير علم الدين حقه عليهم ومواقفه ضدهم .

فلما وصلت الأوضاع إلى هذا الحد ، ووصل الخلاف بين الأمير علم الدين وهؤلاء المماليك إلى ذروته ، خاف على نفسه منهم^(٥) ، وخرج من صنعاء إلى نمار مظهراً أنه يريد تفقد أحوالها ، ويبدو أن هؤلاء المماليك فطنوا إلى ذلك ، فقاموا

=أطلب الذي أقتلع أضراسك " ، قاصداً أحد المماليك الذي يدعى حسن بكتمر ، فكان ذلك مما يؤلم الدلوي ويجرحه ، وأدى به في نهاية المطاف إلى قتل هذا المملوك بسبب معايرة الأمير علم الدين المستمرة والمتعمدة له .

ج — تحريض كل مملوك من هؤلاء المماليك على قتل صاحبه عند حدوث أبسط مشكلة ، ولو كان ذلك عن طرق السكر أو الخطأ ، وتعتمد ذلك ، مع أنه يستطيع حل هذه المشاكل بأبسط الطرق ، لو أراد . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٠ — ١١١ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٩٠ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٨٨ ب .

^(١) الجوامك : كلمة فارسية من مصطلحات الدواوين ، ومعناها المرتب أو العطاء الذي يناله موظف الدولة . ابن الديبع ، الفضل المزيد ، ص ٣٨٩ (ملحق المحقق) . دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية ، ص ٥١ .

^(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٥٦ .

^(٣) المصدر نفسه والصفحة .

^(٤) توفي هذا الأمير في سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٩ م ، وهو ما يزال في أسر الملك المظفر بتعز . انظر :

الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٠٤ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٦٢ .

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٥٨ .

بالسيطرة على صنعاء ، واقتحموا قصر الملك المظفر فيها ^(١) ، وأخذوا منه تسعة آلاف دينار تعويضاً عن رواتبهم ، وقاموا بنهب قصر الأمير علم الدين ، وكل البيوت التي تدين بالولاء له ^(٢) .

وبقطع العلاقة بين هؤلاء المماليك والدولة الرسولية ، لم يجدوا لأنفسهم سبيلاً يسلكوه ، ويحموا به أنفسهم من الملك المظفر ، سوى استدعاء الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين إلى صنعاء ^(٣) .

تزامن ذلك أيضاً مع سيطرة الحوالبين ^(٤) من أهل شبام على حصن كوكبان في الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م ^(٥) ، بعد تأخر مماثل لرواتبهم من قِبل الدولة الرسولية .

ومع وصول دعوة المماليك الأسدية للإمام المهدي ، تشاور مع باقي الأشراف في هذا الشأن ، وأتفق رأيهم على التوجه إلى صنعاء ، فخرج الإمام إليها صحبة الأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي ، والأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله ، والأمير عز الدين محمد ، وآل سريح ، وبني وهاس ، وغيرهم ، ودخلها بمن معه ^(٦) . ونتيجة لانتساع الأحداث بشكل يندرج بالخطر ، تحرك الملك المظفر من الدملوة إلى اليمن الأعلى ، وخلال تحركه هذا ، حاول معالجة وتفادي الأسباب التي جعلت البعض يعلنون الخلاف عليه ، وكان المال هو السبيل لشراء الولاءات ، فتذكر المصادر أنه أنفق أموالاً كثيرة ، حتى إنه أنفق على عسكره في يوم واحد نفقتين ،

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٦٦ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١١ .

(٤) بنو حوال : من قبائل حمير ، منهم الملوك بنو يعفر الحوالبون أصحاب الدولة اليعفرية التي قامت في سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧١٤ م . انظر : الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ٢ : ٢٩٩ . حسين عبد الله ، اليعفريون ، الموسوعة اليمنية ، مؤسسة العفيف الثقافية ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م ، ج ٤ : ٣٢٢٢ .

(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٦٣ . وعند ابن الحسين ، في سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م . انظر : غاية الأمان ، ج ١ : ٤٥٨ .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٦٧ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٩١ أ .

الأولى في صدر النهار والثانية في آخره ^(١) ، وأرسل الأموال إلى القبائل في صنعاء وذمار ، وحذرهم من الانضمام إلى الإمام المهدي ، لأنه في طريقه إليه ^(٢) .

٧ . معركة أفق ^(٣) وأسر الإمام المهدي :

بعد دخول الإمام المهدي إلى صنعاء ، وصلته الأخبار بتحريك الملك المظفر إلى ذمار ، وبعد عدة مشاورات بين الإمام والأشراف ، أنقسم رأيهم على قسمين : الأول : بزعم الإمام المهدي ، ويرى مواصلة الحرب والنزول إلى ذمار لملاقاة الرسوليين ^(٤) . والثاني : بزعم الأمير صارم الدين داود ، ويرى البقاء في صنعاء وإخضاع القبائل المتحالفة مع الرسوليين ^(٥) المجاورة لها ، وخاصة همدان ، وسنحان حتى يدخلوا في طاعة الإمام ، ويؤدوا الرهائن عليها ، فإذا تم ذلك انتظروا وصول الملك المظفر إلى صنعاء وحاربوه عليها اعتماداً على أسلوب الكر والفر .

(١) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٩١ ب .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٨١ .

(٣) أفق : قرية عامرة من مخلاف عنس وأعمال ذمار . انظر : البكري : عبد الله بن عبد العزيز ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تح : مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ م ، ج ١ : ١٧٨ . المقحفي ، معجم ، ص ٤٦ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٨٧ .

(٥) استند الأمير صارم الدين في رأيه هذا إلى أنه لا يمكن الوثوق بالمماليك الأسيديّة في قتال الملك المظفر لعدة أسباب :

أ — خوفهم من الملك ومن عقابه بعد الذي فعلوه مع الأمير علم الدين ، وبعد تسليمهم صنعاء للإمام المهدي إبراهيم .

ب — رغبة البعض منهم في طلب العفو والعودة إلى خدمة الدولة الرسولية .

ج — عدم تحمس البعض لقتال الملك المظفر في ذمار ، ورغبتهم البقاء في صنعاء للدفاع عن أبنائهم ونسائهم وأموالهم . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٥٩ . وقد كان محقاً في رأيه فمجرد وصول الأخبار إلى هؤلاء المماليك بقنوم الملك المظفر ، حتى عادوا أدراجهم إلى صنعاء ، وقليل منهم من بقي مع الإمام المهدي .

ويبدو أن الإمام المهدي هو من فرض رأيه في النهاية . إذ خرج من صنعاء إلى جهران ^(١) في شهر جمادى الأولى من سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م ^(٢) ، ومن جهران توجه إلى قرية أفق في غرب نمار .

وبعد عدة مناوشات بين الجانبين ^(٣) زحف الملك المظفر بعسكره على قرية أفق ، وما هي إلا ساعات ، حتى استطاع عسكره هزيمة الأشراف الزيديين . ومهما تكن أسباب هذه الهزيمة ، إلا أن المسلم به أن للأمير صارم الدين داؤد دوراً كبيراً فيها ، فبعد اقتراحه على الإمام المهدي البقاء في حصن القرية حتى لا يتعرض للأذى ، وتكفله له بقيادة المعركة بنفسه ، والصمود فيها ، فر هذا الأمير من ميدان المعركة بعد مدة يسيرة من بدايتها ، تاركاً الإمام في موقف لا يحسد عليه ^(٤) .

وإذا كانت الأخبار التي وردت إلى الرسوليين — في بادئ الأمر — بوجود الإمام المهدي في الحصن ^(٥) غير مؤكدة ، فإن الوضع قد تغير كلياً بعد استسلام أحد المماليك الأسيديّة — ممن كان مع الإمام المهدي في الحصن — وتأكيد له للأمير علم الدين الشعبي بوجوده فيه ^(٦) .

^(١) جهران : حقل واسع إلى الجنوب من مدينة صنعاء بمسافة (٦٦ كيلو متراً) ، وينسب إلى جهران بن يحيى بن دهمان بن مالك ، من ولد سبأ الأصغر ، وهي اليوم ناحية من أعمال آنس تعرف بقلاع جهران . المقحفي ، معجم ، ص ١٩٦ .

^(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٨٧ . مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٤١ .

^(٣) عن هذه المناوشات انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٨٩ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٩٣ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٩٣ أ .

^(٤) يذكر ابن فند وغيره ، أن الملك المظفر بذل مالاً للأشراف الحمزيين ، حتى يتخلوا عن الإمام المهدي في معركة أفق ، واستند في ذلك إلى أبيات من الشعر قالها الإمام المهدي وهو في أسره ، تصرح بمثل هذا الأمر ، وأبرزها قوله :

حتى إذا خان بعض الأهل موثقه وغرّه فضة السلطان والذهب
أبدى شفاقاً وأخفى منه معظمه وجاعنا الغدر لا من حيث نحسباً

نظر : مآثر ، ج ٢ : ٩٠٤ — ٩٠٥ . الحبسي ، تنمة الإفادة ، ق ٤٦ .

^(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٤ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٩٤ ب .

^(٦) كان اسم هذا المملوك كستمر . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٤ .

عندئذ أمر الملك المظفر خمسمائة من الشفاليت (١) ، يقودهم الشيخ علوان بن أحمد باقتحام الحصن (٢) ، فتقدموا إلى الحصن وفتحوا بابه بعد قتال يسير مع أنصار الإمام فيه ، وتم أسر الإمام المهدي (٣) .

وبعد هذا الأسر (٤) ، قام الأمير صارم الدين داؤد بمراسلة الشريف المطهر بن يحيى المرتضى (٥) ، عارضاً عليه القيام بالإمامة فوافق ، وتكنى بالمتوكل على الله .

(١) الشفاليت : جمع شفلوت ، وهي محرفة عن كلمة Cavalier الفرنسية ، أي الفارس ، وقد أطلقت في أوروبا في العصور الوسطى على الفارس الذي يدافع عن المرأة والضعفاء ، ويبدو أن الكلمة انتقلت إلى مصر والشام من خلال الحملات الصليبية على العالم الإسلامي ، ومنها انتقلت إلى اليمن عن طريق الفتح الأيوبي . انظر : ابن الديبع ، الفضل المزيدي ، ص ٣٨٩ (ملحق المحقق) . لقمان : حمزة علي ، معارك حاسمة في تاريخ اليمن ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٧٨ م ، ص ١٠١ . ويتضح من النص أن هؤلاء الشفاليت كانوا متخصصين في طلوع الحصون واقتحامها ، وحمل المنجنيقات إلى المواقع وتركيبها أو فكها . انظر : عليان ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد بني رسول ، ص ١٩٨ .

(٢) كان ذلك بعد أن أدرك العسكر الرسولي الكلل من القتال وهم بالعودة إلى المعسكر .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٦ . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١١ . العراشي ، الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر ، ص ٦٢ . وظل في أسرها حتى وفاته في سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٥ م . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٠٤ . الحبسي ، تنمة الإفادة ، ق ٤٦ .

(٤) بالأسر الذي لا يرجى منه خلاص ، يفقد الإمام الزيدي شرطاً رئيساً من شروط الإمامة عند الزيدية ، وهو أن يكون حراً ، وبذلك يسقط تكليف الإمامة عنه ، ويستبدل بشخص آخر ، لأنه لا يستطيع القيام بأعباء الإمامة وهو مأسور ، وفي تاريخ الدولة الزيدية أمثلة على ذلك ، لعل أبرزها إسقاط تكليف الإمامة عن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، واستبداله بالإمام الهادي علي بن المؤيد ، بعد أسره من قبل ولد الإمام الناصر صلاح الدين محمد . انظر فيما سيأتي ، ص ١٧٦ .

(٥) هو المطهر بن يحيى بن المطهر بن القاسم بن المطهر ... بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، ولد في سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٣ م ، وتلقى العلم على يد الفقيه الأمير الحسين بن بدر الدين محمد ، والفقيه إبراهيم بن علي الأكوغ وغيرهما ، كان أماماً معروفاً بالفضل ، والعلم ، والورع ، لقب بالمظلل بالغمام لأنه وقف في جبل اللوز في تنعم محارباً للدولة الرسولية ، وعندما حاصره الملك المؤيد ابن الملك المظفر فيه ، حطت سحابة على هذا الجبل ، وحالت بين الإمام وبين الرسولين ، فلم يعرفوا مكانه ولم يظفروا به ، واستطاع النجاة منهم . انظر : الحبسي ، تنمة الإفادة ، ق ٤٦ . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ١١٣٧ - ١١٤٠ .

٨ . سياسة الملك المظفر في مواجهة الأشراف :

حتى لا يتكرر ما قام به الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين من السيطرة على صنعاء ، عمد الملك المظفر إلى القيام بعدد من الخطوات للحد من هذا الأمر، وأهمها :
أ- عقد صلح مع الأمير صارم الدين داؤد لمدة ثلاث سنوات (١) ، واستثنى منه ، الإمام المتوكل على الله المطهر ، والأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي (٢) ، وكان هدفه من إخراج الإمام المتوكل ، عزله عن الأشراف الحمزيين الذي لا يستطيع بدونهم فعل أي شيء ، بينما كانت غايته من إخراج الأمير جمال الدين هي الاستيلاء على حصونه في حضور (عزان والقاهر) .
ب- إنكاء الخلافات بين الأشراف الزيديين عموماً والأشراف الحمزيين خصوصاً بدعم كل طرف على الآخر حتى تستعر الحرب بينهم ويصعب إيقافها (٣) .

وإتماماً لهذه الخطوات ، أمر الملك المظفر الأمير علم الدين الشعبي بالتحرك نحو حصون الأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي في حضور (٤) ، والاستيلاء عليها ، وكان يعلم جيداً أن الأمير صارم الدين لن يتدخل في هذه الحرب ، بموجب الصلح الذي عقده مع الرسوليين . ويظهر أن هذا التخلي من الأمير صارم الدين عن الأمير جمال الدين ، فضلاً عن أمور أخرى سنأتي على ذكرها ، هي جوهر الخلاف بين الأميرين ، والذي على إثره أنشق الأمير جمال الدين عن الأشراف الحمزيين ، وأنضم حتى وفاته إلى الرسوليين ، فبعد حصار الأمير علم الدين الشعبي لحصون الأمير جمال الدين في حضور ، أرسل الأخير إلى الأشراف الزيديين طالباً منهم المساعدة والعون على الرسوليين ، فلم يمهده أحد إلا الإمام المتوكل (٥) ، ونظراً لاشتداد الحصار ، وتخاذل الأشراف الزيديين عن نصرته ، عرض الأمير جمال الدين الصلح

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٨ .

(٢) كان الأمير صارم الدين داؤد يعتقد أن باستطاعة الإمام المتوكل والأمير جمال الدين المدافعة عن حصونهما بدونه ، أو هكذا أظهر ، ولذلك وافق على إتمام الصلح مع الرسوليين بدونهما . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٨ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٦١ .

(٣) الأكوخ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٤٤ . عن هذا الموضوع ، انظر فيما سيأتي ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٩ .

(٥) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٠٠ .

على الرسوليين ، فتم الصلح في العاشر من شهر رمضان من سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٨ م ^(١) ، على تسليم حصون حضور مقابل ألفي دينار ، والأمان له وللمن معه في هذه الحصون ^(٢) .

وحتى يعوض الأمير جمال الدين خسارته لحصون حضور ، قرر الاستيلاء على حصن العظيمة ^(٣) ، وهو لآل الشريف يحيى بن حسن ، وخلال محاصرته له ، قدم آل يحيى بن حسن إلى الأمير صارم الدين في ظفار ، واستجاروا به ^(٤) ليمنع الأمير جمال الدين من الاستيلاء على حصنهم ، فأجارهم وأرسل إلى الأمير جمال الدين ليفك الحصار عن العظيمة ، فلم يفعل ^(٥) ، مما اضطر الأمير صارم الدين إلى محاصرة حصن الميقاع ^(٦) ، وهو للأمير جمال الدين ، وهذا ما زاد الأمور تعقيداً بين الجانبين .

وبغض النظر عن هذا الخلاف الذي استجد بين الأميرين ، إلا أن ما يهمنا في الأمر هو تدخل الملك المظفر فيه ، ودعمه للطرفين معاً وفي آن واحد ، فتذكر المصادر أن هذا الملك أرسل ألفي دينار كإعانة للأمير صارم الدين في حربه مع الأمير جمال الدين ، وأن الأمير صارم الدين ^(٧) بنى بهذه الأموال حصن كحل ^(٨) وأشيح ^(٩) في بلاد الأمير جمال الدين ، وفي الوقت ذاته تذكر هذه المصادر أن الأمير

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٠٣ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٠١ . الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٥٢ . .

(٣) العظيمة : حصن في بلاد حاشد ، على مقربة من خمر . المقحفي ، معجم ، ص ٤٥٨ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٠٣ .

(٥) المصدر نفسه والصفحة .

(٦) الميقاع قرية وحصن في بلاد حاشد ، غربي خمر . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٦٧٤ ، (حاشية المحقق) . المقحفي ، معجم ، ص ٦٨٦ .

(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٠٤ .

(٨) كحل : حصن في عزلة مرهبة على بعد (ثلاثة كيلومترات) شمال غرب ذيبين ، يقال له اليوم مكحل ، ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٦٧٣ ، (حاشية المحقق) . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٣١ ، (حاشية المحقق) .

(٩) أشيخ : حصن في خمر في ظاهر بلاد حاشد . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٣١ ، (حاشية المحقق) . وهو غير حصن أشيخ الذي في بلاد أنس ، ويعرف اليوم بحصن ظفار . المقحفي ، معجم ، ص ٣٧ .

جمال الدين وبعد عجزه عن مواجهة الأمير صارم الدين ، لم يجد له ملجأ يلجأ إليه ، إلا النزول إلى الملك المظفر ^(١) ، الذي تلقاه بالإكرام وأجزل له الإحسان .

ومن هنا يتضح جلياً ، الدور الرئيس الذي كان للملك المظفر في إنكفاء هذه الخلافات والحروب ، والذي رأى فيها تدعيماً لدولته ، وتقليلاً من خطر هؤلاء الأشراف عليها .

ولتعميق هذه الخلافات أرسل الملك المظفر إلى كافة الأمراء من الأشراف الزيديين يدعوهم لحضور الفرجة ^(٢) في سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨١ م ^(٣) ، فلم يجبه أحد بسبب خلافات استجدت بينهم وبينه على حصن تلمص في صعدة ^(٤) ، إلا ما كان من الأميرين جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي ، والأمير عز الدين محمد بن أحمد ، فإنهما لبيا الدعوة ^(٥) ، والذي يبدو أن الملك المظفر كان على يقين بأن دعوته تلك لن تجد أذناً صاغية من كل الأشراف وأن الموقف منها سيكون عامل انقسام بينهم ، وهذا ما أراد .

وكنوع من العقاب للأمير جمال الدين ، والأمير عز الدين ، على مخالفتها لبقية الأشراف في مقاطعة الدعوة الرسولية ، قام الأمير صارم الدين بالاستيلاء على بلادهما في الظاهر و صعدة ^(٦) ، مما عده الملك المظفر تعدياً عليه ، لأنهما في ضيافته ، ناهيك على أنه وجد في ذلك فرصة لزيادة الفرقة بين الأشراف ، والحد من قوتهم .

واستغلالاً من هذا الملك ، للموقف الصعب الذي وجد الأميران نفسيهما فيه ، أتفق معهما على أن يسلم الأمير جمال الدين حصن الميقاع ، ويسلم الأمير عز الدين حصن تعز صعدة ^(٧) ، مقابل أن يعلن الحرب على الأمير صارم الدين ، ويزودهما بالمال

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٠٤ .

(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢١٧ - ٢١٨ .

(٣) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٣ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٦٧ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٣٥ .

(٥) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٣ .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٣٥ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢١٨ .

(٧) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٣ .

والخيل والرجال لمساننته فيها (١) ، وكان ذلك في سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م (٢) ، وهكذا وجد الملك المظفر ضالته في هذا الاتفاق ، وتمكن من خلاله ، وخلال مدة قصيرة من السيطرة على صعدة ، والاستيلاء على حصن ذروة ، ثم أكمل الأمير علم الدين الشعبي هذا العمل بخروجه إلى الظاهر ، وسيطرته على حصني كحل وأشبح وهما للأمير صارم الدين ، كما قام بشراء حصن العظيمة من آل يحيى بن حسن ، بنيف وعشرين ألف دينار (٣) ، وجعل الأمير جمال الدين في الكولة (٤) ، على رأس مائة فارس وألف راجل (٥) ، ولإحكام الحصار على حصن ظفار معقل الأمير صارم الدين داؤد ، قام ببناء مواضع قريبة منه ، كالدحضة (٦) ، والمنقل (٧) ، والمنارة (٨) ، والخيسين (٩) .

٩. وفاة الأمير علم الدين الشعبي ونتائجها :

وقبل اكتمال خطة الملك المظفر الهادفة إلى إضعاف النفوذ الزيدي في اليمن الأعلى ، بإسقاط معقلهم الحصين في ظفار ، يتغير مجرى الأحداث بشكل لم يكن في الحسبان ، بعد وفاة الأمير علم الدين الشعبي في صنعاء ، بسبب انهدام القصر عليه ، وعلى مجموعة ممن كان في ضيافته في سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤ م (١٠) ، والحق أنه كانت لهذا الأمير — مع ما أسلفنا من أخطاء — خبرة طويلة في التعامل مع القبائل ، ودور بارز في الصراع مع الأشراف الزيديين ، ليس في صنعاء ، وذمار وحسب ، وإنما في كل المناطق ، وصولاً إلى صعدة في أقصى الشمال .

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٣٦ — ٥٣٧ .

(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢١٩ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٣٨ .

(٤) الكولة : حصن وبلد في حاشد من ناحية العشة . المقفي ، معجم ، ص ٥٦٤ .

(٥) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٦٠ .

(٦) لم استدل على موقعها في المعاجم اليمنية ، ويتضح من النص أنها بالقرب من حصن ظفار .

(٧) المنقل : قرية بالقرب من السبيع . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٥٠٥ ، (حاشية المحقق) .

(٨) المنارة : حصن بالقرب من المنقل . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٥ ، (حاشية المحقق) .

(٩) الخيسين : موقع بالقرب من القبة والمنقل . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٣ ، (حاشية المحقق) .

(١٠) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٤ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٢٧ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣١ .

وبوفاة هذا الأمير ، تنفس الأشراف الزيديون المحاصرين في ظفار الصعداء مؤقتاً ، وقاموا بعددٍ من الخطوات كان الهدف منها فك الحصار كلياً عن ظفار ، وأبرز هذه الخطوات ، إقامة الشريف يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن حمزة إماماً للزيدية (١) مع أنه لا يملك شروطها (٢) ، وكان القصد من وراء ذلك مساعدة الأمير صارم الدين في قتال الرسوليين (٣) .

وفي سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٥ م ، استطاع الأمير صارم الدين بمساعدة الإمام الجديد ، من كسر الحصار المفروض على ظفار ، والسيطرة على حصن المنقل ، والمنارة ، ومدينة صعدة (٤) ، مما حدا بالأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي المتحالف مع الرسوليين ، إلى مراسلة الملك المظفر يخبره بذلك ، ويلح عليه بتدارك الوضع قبل أن يستفحل وتصبح السيطرة عليه (٥) .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أن الملك المظفر عين الأمير فخر الدين ابن فيروز والياً على صنعاء (٦) بعد وفاة الأمير علم الدين الشعبي ، ولكن هذا الأمير لم يكن بنفس كفاءة ، وهمة ، وحزم الأمير علم الدين ، ولذلك أرسل الملك المظفر ولده الوائق والياً جديداً على صنعاء ، فدخلها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول ، من سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٥ م (٧) ، وأسندت إليه مهمة مواجهة الأشراف الزيديين في اليمن الأعلى ، فكان أول ما فعله في هذا الشأن ، هو إرسال الأمير عز الدين البلكي ، وهو يومئذ أستاذ داره (٨) ، في مائة فارس ، وأربع مائة راجل ، إضافة إلى سبعين فارساً من همدان ، وثلاثين آخرين بقيادة الأمير نجم الدين ابن أزدمر إلى الأمير جمال الدين

(١) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣١ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٦٨ . وعند ابن حاتم والحمزي ، إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حمزة . انظر : السمط ، ص ٥٤٢ . كنز الأخيار ، ص ١١٥ .

(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٣٥ .

(٣) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣١ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٦٨ .

(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٤٣ - ٥٤٤ .

(٥) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣١ .

(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٤١ .

(٧) الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١١٤ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٣٥ .

(٨) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٤٤ .

وأمر الجميع بالتوجه إلى صعدة لإخراج الأشراف منها (١) ، وحين علم الأمير صارم الدين بقومهم انسحب من صعدة ، وتحصن في تلمص ، ولكنه اضطر في النهاية إلى الانسحاب منه إلى ثلا (٢) وتسليمه للرسوليين لعدة أسباب أهمها :

أ- ميل الأمير نجم الدين موسى بن أحمد بن عبد الله بن حمزة (٣) بعسكره إلى قللة (٤) ، بعد مراسلات تمت بينه وبين الرسوليين (٥) ، متخلياً بذلك عن عمه الأمير صارم الدين في أحوج ما يكون إليه .
ب- قلة الإمدادات نتيجة لشدة الحصار .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولا سيما مع إصرار الرسوليين على تعقب الأمير صارم الدين أينما توجه ، فحاصروا ثلا حصاراً شديداً (٦) ، تمت على إثره مراسلات بين الطرفين في الصلح بينهما (٧) ، فأقر الصلح على : أن يرهن الأمير صارم الدين حصن قفل ظفار للرسوليين ، مقابل أن يرفع الحصار عن ثلا ، وأن يطلق الملك المظفر الأمير أسد الدين محمد بن الأمير صارم الدين الذي كان رهينة عنده في حصن الدملوة (٨) ، لأمر سبقت هذا الصلح .

١٠ . عودة التحالف بين الأشراف الزيديين :

ولأهمية حصن القفل العسكرية بالنسبة للحصون الأخرى في ظفار ، لم يألُ الأمير صارم الدين جهداً من أجل استعادته ، فبدون هذا الحصن ، تصبح حصون ظفار الأخرى ، كتعز ، والطفة ، والقاهرة ، والمنصورة ، عديمة الجدوى ، ناهيك عن مكانته المعنوية للأشراف الحمزيين التي تمتد جذورها إلى عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ولأجل ذلك أعاد هذا الأمير تحالفه السابق مع الإمام المتوكل على

(١) الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٦٢ .

(٢) ابن الديبع ، قرة العيون ، ص ٣٣٢ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٦٩ .

(٣) كان الأمير عز الدين محمد بن أحمد قد توفي في سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٥ م ، وآل الأمر من بعده إلى أخيه الأمير نجم الدين موسى بن أحمد في صعدة ونواحيها . انظر : الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١١٤ .

(٤) قللة : هجرة من بني جماعة في بلاد صعدة . المقحفي ، معجم ، ص ٥٠٣ .

(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٤٦ .

(٦) الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١١٦ .

(٧) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٣٩ .

(٨) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٤٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٦٩ .

الله المطهر بن يحيى المرتضى^(١) ، القاطن في ذروان حجة ، ومع ابن أخيه الأمير نجم الدين موسى بن أحمد^(٢) المتمركز في بلاد عنز^(٣) ، وأتفق معهما على إغفال خلافاتهم الماضية ، والتحالف ضد الرسولين ، وكان ذلك في سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٨ م^(٤) ، ومما لا شك فيه أن استشعار كل الأطراف الزيدية للخطر الداهم ، سهل مسألة تحالفهم ، كما أنه في الوقت ذاته غير الأوضاع عما كانت عليه سابقاً ، وجعلها تعود مرة أخرى لصالح هؤلاء الأشراف .

وكانت أول الأحداث في هذا التحول ، ما قام به الإمام المتوكل ، وبصحبه الأمير نجم الدين موسى ، من استعادة السيطرة على صعدة ، ومحاصرة حصن الزاهر في الجوف^(٥) ، وبالتنسيق معهما ، قام الأمير صارم الدين داؤد بمحاصرة حصن الفقل المرهون لدى الرسولين^(٦) .

ومع أن الملك الواثق ابن الملك المظفر أرسل الأمير شمس الدين علي بن الهمام والأمير جمال الدين علي لفك الحصار عن الزاهر^(٧) ، إلا أن الأوضاع لم تتحسن لأن الإمام المتوكل والأمير نجم الدين استغلوا خروج الأميرين من الظاهر إلى الجوف ، وتوجها إلى الظاهر ، وسيطرا على بعض الحصون المهمة فيه ، ككحل ، وأشيوخ^(٨) ، مما زاد الأمور تعقيداً بالنسبة للرسولين ، وجعلها تسوء أكثر ، وإلى ذلك أشار ابن حاتم بقوله : " واضطربت البلاد اضطراباً عظيماً ، وتفاقت الأمور واشتدت وخالف أهل المشرق وأهل المغرب ، وفسدت البلاد من نقيص صيد^(٩) إلى صعدة^(١٠) .

(١) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣٢ . العراشي ، الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر ، ص ٦٣ .

(٢) الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٦٣ .

(٣) عنز : بطن من همدان ، تقع مساكنهم إلى الشمال من بلاد حاشد ، وهم من ولد عنز بن سعد بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٥٩٥ . المقحفي ، معجم ، ص ٤٤٢ .

(٤) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٥) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٤٩ .

(٦) المصدر نفسه والصفحة .

(٧) الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٦٣ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٠ .

(٨) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٤٩ .

(٩) نقيص صيّد : وهو ما يعرف اليوم بنقيص سمارة ، الذي يقع بين يريم والمخادر ، ويمر به طريق تعز - نمار . المقحفي ، معجم ، ص ٤٠٠ .

(١٠) السمط ، ص ٥٤٩ - ٥٥٠ .

١١ . حملة الملك الأشرف على اليمن الأعلى :

مع أن ابن حاتم لم يذكر تفاصيل هذا الاضطراب ، وما حدث فيه ، إلا أن قوله " وفسدت البلاد من نقيط صيد إلى صعدة " ، يدل على أن الاضطراب عم معظم المناطق في اليمن الأعلى ، وأن الدولة الرسولية فقدت سيطرتها الكاملة عليه ، وهو الأمر الذي اضطر الملك المظفر إلى عزل ولده الوائق عن ولاية صنعاء ، وإرسال ولده الأشرف إليها ^(١) ، في شهر جمادى الآخرة من سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٨ م ^(٢) ، لتدارك الأوضاع .

وعلى ما يبدو أن الملك الوائق لم يكن ذا خبرة سياسية ، ولم ينجح في التعامل مع القبائل في اليمن الأعلى ، ومع الأشراف الزيديين ، وبالتالي لم يكن البديل المناسب للأمير علم الدين الشعبي المعروف بالشدة والحزم ، ولولا تهيئة الملك المظفر لولده الأشرف لولاية العهد ، لأبقاه والياً على صنعاء ، ولكنه أثره لمهمة أكبر وإن استعان به في بعض المهام المؤقتة .

وعموماً نستطيع القول ، أنه بوصول الملك الأشرف إلى صنعاء ، تم إيقاف التدهور والاضطراب الذي حل باليمن الأعلى ، فخلال جولة هذا الملك التي مر فيها بالبون ، والظاهر ، استطاع استعادة العديد من الحصون التي سيطر عليها الأشراف الزيديين في الآونة الأخيرة ^(٣) ، ولولا استماتة الأشراف الحمزيين وغيرهم في الدفاع عن حصن ظفار ، وشحنه بالرجال والعتاد والطعام ، لتمكن من الاستيلاء عليه ^(٤) .

^(١) كان الأشرف ابن الملك المظفر ، ملكاً نبيلاً عارفاً ، ذكياً ، فطناً ، حازماً ، حسن السيرة والسياسة ، ولهذا كُنت الأوضاع تهدى ، وتقل الفوضى ، وتصل إليه القبائل عارضة الطاعة ، ويتم الصلح مع الأشراف الزيديين ، فور وصوله إلى اليمن الأعلى ، وهذا إن دل على شيء فإما يدل على تقديره للجميع ، وتقديرهم له ، وذلك ما لم يكن عند أخويه الوائق والمؤيد ، توفي في الثالث والعشرين من شهر محرم من سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م ، للمزيد من التفاصيل حول هذا الملك ، انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٩٧ - ٢٩٨ .

^(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٧ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣٢ .

^(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٥١ - ٥٥٢ .

^(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٥٢ .

ونظراً لمعرفة الملك المظفر بأحوال الأشراف الزيديين ، أشار على ولده الأشراف بعقد صلح معهم ، فتم هذا الصلح في شهر جمادى الأولى من سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٩ م^(١) ، و تضمن على الآتي :

أ- استعادة الأمير صارم الدين داؤد لحصن القفل بظفار ، فضلاً عن حصن نروة والتعبئة^(٢) .

ب- أن أي قبيلة من أحلاف كلا الفريقين ، تتعدى على قبيلة أخرى ، يكون الطرفان خصمين لها^(٣) .

وبعد هذا الصلح انتهت مهمة الملك الأشراف في اليمن الأعلى ، ليعود مرة أخرى إلى اليمن الأسفل ، بعد أن أقطعت صنعاء لأخيه الملك المؤيد^(٤) ، وأسندت للملك الوائى ولاية فشال^(٥) وأعمالها .

وفي سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩١ م ، توفى الأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة^(٦) ، وانتقلت الزعامة على الأشراف الحمزيين إلى ابن أخيه الأمير همام الدين سليمان بن القاسم بن عبد الله بن حمزة^(٧) ، الذي لم يكن كأسلافه حنكة ، ودهائماً فتلاشى أي ذكر قوي لهؤلاء الأشراف في عهده .

وبوفاة الأمير صارم الدين ، الذي كان له ولأخيه الأمير شمس الدين من قبله ، دور كبير في تاريخ الدولة الزيدية ، يضعف جانب الأشراف الحمزيين ، ويجد الإمام المتوكل على الله مجالاً للظهور وللتعبير عن نفسه ، كسلطة مستقلة للأشراف الزيديين متمثلة في الإمامة .

(١) الخزرى ، العقود ، ج ١ : ٢٤٨ . مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٤٦ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧١ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٥١ . الخزرى ، العقود ، ج ١ : ٢٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥٦ .

(٤) الخزرى ، العسجد ، ق ٢٦٥ .

(٥) فَشَالُ : بلدة تهامية من أعمال رمع ، شمالي زبيد ، تسمى اليوم الحسينية . المقحفى ، معجم ، ص ٥٠٠ .

(٦) الحمزى ، كنز الأخبار ، ص ١١٧ . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٣٢ .

(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٥٧ .

وبينما الوضع على هذا الحال ، والصلح معقود بين الطرفين ، قام جماعة من قبيلة جُشم^(١) ، بالاستيلاء على حصن بيت أنعم^(٢) ، وهو لقوم متحالفين مع الدولة الرسولية ، فغضب الملك المظفر لذلك ، وأرسل إلى ولده المؤيد ، أمراً بإياه بخراب بلاد جُشم^(٣) وإجلانهم عن بيت أنعم ، فخرج الملك المؤيد من صنعاء إلى هناك ، وأقام الحصار على الحصن المذكور مدة خمسة أشهر^(٤) دون طائل ، ويبدو أن قبيلة جُشم قد تحسبت لمثل هذا الأمر ، وشحنت الحصن بالطعام والماء بما يكفيها لعدة أشهر أخرى ، ولا نستبعد تواطؤ الأشراف الزيديين معها في ذلك .

ونظراً لفشل الملك المؤيد فيما أسند إليه ، تدخل الملك المظفر بنفسه ، وطلب من الإمام المتوكل والأشراف التدخل لإخراج جُشم من بيت أنعم ، بناءً على الصلح الذي تم بين الجانبين^(٥) ، فلم يلتفت الإمام لهذا الطلب^(٦) ، مما عزز موقف الرسوليين بين القبائل الأخرى ، التي رأت في موقف الإمام المتوكل إخلالاً بشروط الصلح السابق ، واستناداً إلى ما تقدم ، تمكن الرسوليون بالتحالف مع القبائل في المشرق^(٧) من اقتحام بيت أنعم واستعادته ، بعد أن انسحبت منه قبيلة جُشم التي أدركت بأنه لا طاقة لها بقتال القبائل كافة .

(١) جُشم : قبيلة من حمير ، من ولد جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان ... بن الهميسع بن حمير بن سبأ ، منازلهم في بعدان ، وريمان ، وعدوان ، وحملان في محافظة إب ، وفي سعوان ، وشعوب ، بضواحي صنعاء الشمالية . المقحفى ، معجم ، ص ١٣٦ .

(٢) بيت أنعم : يقع في أعلى وادي ضهر من همدان صنعاء . الأكوخ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ٤٩ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٥٦ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة .

(٥) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٥٠ .

(٦) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٦٥ .

(٧) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٥٧ .

١٣. معركة مأجل^(١) الصعدي :

وفي سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م^(٢) ، خرج الملك المؤيد من صنعاء ، على رأس ألف فارس وعشرة آلاف راجل^(٣) ، قاصداً الظاهر ، في خطوة كان الهدف من ورائها الحد من النفوذ الزيدي المتصاعد في تلك المناطق ، وعضواً عن ذلك ، تمكن الأشراف الزيديون بقيادة الإمام المتوكل ، من هزيمته في معركة مأجل الصعدي^(٤) ، ويبدو أن هناك عوامل أسهمت في هذه الهزيمة لعل أبرزها : الخلاف الذي حدث بين الملك المؤيد والأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي^(٥) ، والذي على إثره تخلى هذا الأمير عن التحالف مع الدولة الرسولية مؤقتاً ، وانضم إلى صف الإمام المتوكل^(٦) ، وهو ما أثر في موازين القوى بالنسبة للجانبين ، ومثل دعماً عسكرياً ومعنوياً للأشراف الزيديين ، فضلاً عن انضمام أهل حضور وبنو شهاب الذين كانوا في الجيش الرسولي ، إلى صف الأشراف الزيديين في أثناء المعركة^(٧) ، مما سبب إرباكاً للملك المؤيد .

(١) المأجل : هي البركة التي تحفظ فيها مياه الأمطار ، والموقع المقصود من النص إلى الشرق من الطريق ما بين حوث وخمر . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٨ ، (حاشية المحقق) . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣٣ ، (حاشية المحقق)

(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٨ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٥٨ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٣ .

(٥) كان سبب هذا الخلاف ، أن حاشية الملك المؤيد كانت تصور له أن الأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي يميل إلى أخيه الملك الأشرف أكثر منه . انظر : الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١١٨ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٦٨ . وبغض النظر عن السبب الحقيقي لهذا الخلاف ، إلا أنه أدى فيما بعد إلى وقوف الأمير جمال الدين إلى جانب الملك الأشرف في الحروب التي حدثت بينه وبين أخيه المؤيد على الملك ، بعد وفاة الملك المظفر . انظر . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٢١ . يحيى بن الحسين ، غلية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٦ - ٤٧٧ .

(٦) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣٣ .

(٧) يُعزى ذلك إلى أن أهل حضور وبنو شهاب كانوا منقسمين في ولائهم بين الجانبين ، وعندما حدثت المعركة خاف المتحالفون مع الدولة الرسولية من الهزيمة وانتقام إخوانهم منهم ، فمالوا في أتونها إلى الطرف الآخر تقادياً لهذا الأمر . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٥٩ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٦٩ .

إن حادثة سن الملك المؤيد ، وقلة خبرته في التعامل مع الأشراف الزيديين ، واستغلالهم لهذا الأمر ، وبالتالي تحقيق بعض الانجازات على حساب الدولة الرسولية ، جعل الملك المظفر يرسل ولده الأشراف إلى صنعاء ، لمعالجة الأوضاع وإصلاحها ، والعمل دون تفاقمها ، فقدم إليها في سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م (١) ، وانتهى الأمر بينه وبين الأشراف الزيديين إلى تجديد الصلح السابق (٢) .

لقد عانى الأشراف الزيديون كثيراً في عهد الملك المظفر ، حتى وهو في التسعين من عمره ، ولم تقم لهم قائمة تذكر بعد مقتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين خلال عهد هذا الملك ، فقد كان داهية وخبيراً بأمور الحرب والسياسة ، وكان يصلح هؤلاء الأشراف عندما يكون في حاجة لهذا الصلح ، وكان يضرب بيد من حديد إذا خرجت الأمور عن نطاق السيطرة ، وكان يكرم خصومه وأعداءه حتى يدفعهم إلى حلفه ، وكان يحسن إلى أسراه حتى يضطرهم إلى مدحه والإطراء عليه (٣) .

إننا نستطيع القول ، أن القوة التي اكتسبتها الدولة الرسولية خلال عهده و ما بعده ، والتي استمر في ظلها أبنائه وأحفاده ، ما هي إلا امتداد لقوته ونفوذه ، ولكل ما نُكر ، استبشر الكثيرون من أعداء الدولة الرسولية بوفاته في الثالث عشر من شهر رمضان من سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م (٤) ، ولا سيما من الأشراف الزيديين الذين

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٦٣ .

(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٢٠ .

(٣) ولا أدل على ذلك من قول الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين ، وهو في أسر الملك المظفر ، واصفاً حاله بعد معركة أبق :
وبعد ذلك جاعوا بي إلى ملك
أبو الهزير نقي العرض من دنس
فكان منه الإحسان ما شهدت
فمن يبلغ عني كل من سكنت
فليشكروه فإنني اليوم شاكره

له المقاهر والعليا مكتسباً
وباذل المال لا زور ولا كذباً
بفضله فيه عجم الناس والعرب
قلبي محبته أو بيننا نسباً
سراً وجهراً وهذا دون ما يجب .

انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٠٧ - ٩٠٨ .

(٤) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٧١ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٧٥ . مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٤٩ .

رأوا أن الأوضاع لابد وستتغير بعده ، مهما بلغ أبنائه في مجال السياسة والحرب ، لأنهم لن يبلغوا مداه ، ولن يصلوا إلى مقامه .

إن المتتبع لتاريخ الأشراف الزيديين خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، يكتشف ذلك الهم الكبير الذي مثله الملك المظفر الرسولي لهؤلاء الأشراف ، حتى إنه ما من ضعف وانقسام يحل بهم ، إلا وله يد فيه ، ولهذا أطلقها الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى المرتضى صرخة مدوية تعبر عن مكنون نفسه وغيره من الأشراف ، وتعكس وتدل على ما سبق وأشرنا إليه ، حين بلغه خبر وفاة الملك المظفر عندما قال : " مات التبع الأصغر ، مات معاوية الزمان ، مات الذي كانت أقلامه تكسر رماحنا " (١) .

وبوفاة الملك المظفر ، يبدأ عهد جديد في تاريخ الدولة الرسولية ، تجلت أول ملامحه بالصراع الذي نشب داخل البيت الرسولي بين أبناء الملك المظفر (الأشراف ، والمؤيد) ، وذلك أن الملك المظفر قبيل وفاته بعدة أشهر ، أوصى بولاية العهد من بعده لولده الأشراف ، وكتب له مرسوماً (٢) بذلك ، مما أغضب ولده المؤيد (٣) الذي كان يعتقد أنه الأحق بولاية العهد من أخيه الأشراف ، ودفعه للخروج عن طاعة والده والاتجاه إلى نواحي حضرموت و الشحر (٤) ، وبعد وفاة الملك المظفر خرج المؤيد من تلك النواحي قاصداً تعز للاستيلاء على الملك من أخيه الأشراف ، وعند منطقة كثيب القشيب (٥) التقى هناك مع الناصر ابن أخيه الأشراف ، المرسل من قبل والده

(١) الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٧٢ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣٥ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٥ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٦٦ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٧٣ .

(٣) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٧١ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٥ .

(٤) الشحرُ : من موانئ حضرموت ، ويمتد على الساحل من حدود جبال دمخ شمالاً ، إلى وادي المعينة غرباً . الأكرع : محمد بن علي ، اليمن الخضراء مهد الحضارة ، مكتبة الجبل الجديد ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١٢٨ .

(٥) القشيب : عزلة من مخلاف السلفية من ريمة ، تنسب إلى بني قشيب . الحمزي ، كز الأخيار ، ص ١٢١ ، (حاشية المحقق) . المقحفي ، معجم ، ص ٥٢٨ . وعند ابن الديبع في منطقة الدعيس ، وهي قرية من قرى لحج . انظر : قرّة العيون ، ص ٣٣٨ . وعند ابن الحسين عند كثيب العسب ، وهو واد من أودية قرن ، في سرو منحج . انظر : غلية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٧ .

على رأس ثلاثمائة فارس^(١) للتصدي له ، ودارت معركة بينهما انتهت بهزيمة المؤيد وأسرته ، وإيداعه دار الاعتقال بتعز^(٢) .

ومع هذا الانتصار الذي حققه الملك الأشرف على أخيه المؤيد ، إلا أنه لم ينعم بالملك طويلاً ، إذ وافاه الأجل في سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م^(٣) ، نتيجة لمرض أصابه وآل الأمر من بعده إلى إخراج أخيه المؤيد من الأسر ، لتقليده الملك^(٤) . وعلى ما يبدو ، أن بُعد أبناء الملك الأشرف عن تعز^(٥) ، والموت المفاجئ له دون أن يوصي بالملك من بعده ، ساعداً في وصول المؤيد إلى سدة الحكم ، فلم يجدوا بداً من التسليم به ، فقدم الناصر جلال الدين محمد من القحمة التي كان والياً عليها ، والعاقل صلاح الدين من صنعاء ، وطلباً من عمهما المؤيد إعفائهما من الولاية ، فوافق^(٦) وجعل الولاية على القحمة لولده الظافر عيسى ، والولاية على صنعاء لولده المظفر ضرغام الدين حسن^(٧) .

وكما فعل المؤيد مع أخيه الأشرف بعد وفاة والدهما ، فعل المسعود الشيء نفسه مع المؤيد ، عندما خرج عليه ، وكان يومها والياً على الأعمال السرددية^(٨) ، مما حدا بالملك المؤيد إلى إرسال أخيه المنصور ، وولده الظافر لحربه^(٩) ، وفي

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٦ .

(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٢١ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ١١٣ أ .

(٣) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٧٦ . مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٥٠ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ١١٤ أ .

(٤) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٧٩ . ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص ٩٤ .

(٥) المصدر نفسه والجزء والصفحة . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٣٩ .

(٦) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٨٨ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٨ .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٨ .

(٨) سرؤد : من أشهر وديان اليمن ، ينبع من الهضبة الفاصلة بين جبال الحيمة الداخلية وبلاد الطويلة ، ويصب في البحر الأحمر ، ينسب إلى سررد بن معدي كرب بن شرحبيل بن ينكف بن شمر . المقحفي ، معجم ، ص ٣١٩ .

(٩) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٢٣ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٠٥ . وعند ابن الديبع ، ولده الظاهر . انظر : قرّة العيون ، ص ٣٤٣ . وعند ابن الحسين ، ولده المظفر . انظر : غاية الأمانى ،

ج ١ : ٤٧٩ .

موضع يقع بين حرص و المحالب ^(١) ، التقى الجانبان ودار القتال ، فهزم المسعود ، وتم أسره وإيداعه دار الاعتقال بتعز ^(٢) .

١٣ . علاقة الملك المؤيد بالأشراف الزيديين :

إن المتتبع لعلاقات الأشراف الزيديين مع الدولة الرسولية بعد وفاة الملك المظفر ، يرى أن الأشراف وقفوا موقفاً عدائياً من الملك المؤيد ، ولاسيما في صراعه مع إخوته ، فقد وقفوا أولاً إلى جانب أخيه الأشراف ، وكذا كان الحال مع أخيه المسعود ^(٣) .

وفي سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م ، توفي الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى المرتضى في ذروان حجة ^(٤) ، دون أن يكون له تأثير رئيس على مجرى الأحداث السياسية نظراً لانقسام الأشراف حول إمامته ، وعدم الاعتراف به من قبل الكثيرين ولاسيما في الظاهر ^(٥) وصعدة .

وبغض النظر عن ذلك التماسك الذي بدأ على الدولة الرسولية في عهد الملك المؤيد ، إلا أننا نرى أن هذا العهد ما هو إلا مرحلة انتقالية طبيعية بين مرحلتي القوة والضعف التي مرت بهما هذه الدولة ، فعلى الرغم من مظاهر القوة التي بدت على الدولة الرسولية ، والتي ورثها الملك المؤيد نتيجة الجهود الكبيرة التي بذلها الملك المظفر ، فإنها حملت معها بذور الضعف والانحلال .

لقد أراد الملك المؤيد منذ بداية عهده إيصال رسالة إلى الأشراف الزيديين وإلى غيرهم ، مفادها أن وفاة الملك المظفر لن تغير من الأمر شيئاً ، وأنه لا يقل شأناً عن

^(١) المَحَالِبُ : قرية تهامية تقع جنوب وادي مور ، ما بين المهجم والذنانب . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٦٨٩ . المقحفي ، معجم ، ص ٥٨٨ .

^(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٢٣ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ١٩١ . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٤٣ .

^(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٦ ، ٤٧٩ .

^(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٣٤ .

^(٥) ذكر ابن فند ، أن شيعة الظاهر قالوا حين وصلتهم دعوة الإمام المتوكل على الله : " صمّي صمام لا خلف ولا أمام " ، يستهزئون بدعوته . انظر : مآثر ، ج ٢ : ٩٣٠ .

أبيه ، فبدأ ملكه حازماً وقوياً ، واستهله بحصار حصني الميقاع وظفار^(١) ، وإرسال الأمير علي بن أحمد بن عز الدين على رأس قوة عسكرية للاستيلاء على صعدة^(٢) . وأمام هذا الاندفاع ، لم يجد الأشراف بدأً من صلحه ، لعلمهم يمتصون بعض حماسه ، وتضمن الصلح على : تسليم حصني اللجام^(٣) ، ونعمان^(٤) ، وبلاد صعدة للرسوليين ، وقسمة بلاد مدع بين الطرفين ، كما كانت أيام الملك المظفر^(٥) . وتقليداً لسياسة والده في التعامل مع الأشراف الزيديين المتحالفين مع الدولة الرسولية ، تسلم الملك المؤيد حصون الأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي بعد وفاته في سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م^(٦) ، من ولده إدريس ، وأبقاه على ما كان أبيه من الإمارة ، والركوب تحت الأعلام السلطانية ، ومنحه العطايا وولاه القحمة^(٧) . ومع أن الأشراف الحمزيين لم يبقوا مع الإمام المهدي محمد بن المطهر حين أعلن دعوته في سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م^(٨) ، إلا أن الملك المؤيد لم يفرق بينهما^(٩) وعد ذلك نقضاً للصلح السابق ، وعاود الحصار لحصن ظفار^(١٠) ، وبعد مدة منه أرسل الأشراف الحمزيون إليه تجديد الصلح بشروط جديدة ، وعرضوا عليه تسليم حصن تلمص^(١١) ، مقابل فك الحصار عن ظفار ، ودفع خمسين ألف دينار^(١٢)

(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٩ .

(٣) اللجام : حصن بالقرب من ناعط ، مطل على وادي البون . الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١٠٧ ، (حاشية المحقق) .

(٤) نَعْمَانُ : اسم مشترك بين عدد من الأماكن في اليمن ، ربما يكون المقصود هنا حصن نعمان الواقع في صعدة . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٧٤٣ . المقضي ، معجم ، ص ٧٠١ - ٧٠٢ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٠ .

(٦) الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١٢٥ .

(٧) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٢٦ .

(٨) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٤١ .

(٩) ابن الدبيع ، قرّة العيون ، ص ٣٤٥ .

(١٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٢ .

(١١) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ٢١٤ .

(١٢) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٣٢ . وعند الحمزي ، خمسة وأربعين ألف دينار . انظر : كنز الأخيار ، ص ١٢٩ .

وإزالة المواضع التي عمرت من أجل هذا الحصار ، فوافق على ذلك ^(١) ، وأرسل أميراً من أمرائه لإتمامه ^(٢) .

وبالنظر إلى الأهمية الإستراتيجية لحصن تلمص — بالنسبة لصعدة وبلادها — فقد ماطل الأشراف الحمزيون في تسليمه ^(٣) ، مع أنهم قد استلموا المال المدفوع فيه ، مما أغضب الملك المؤيد وجعله يرسل الأمير طغريل — واليه على صنعاء — لإعادة الحصار ^(٤) .

وفي أثناء مدة الحصار في سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م ، حدث قحط عظيم ، عم جميع اليمن ^(٥) ، وبلغ زبدي ^(٦) الطعام ثلاثين درهماً ^(٧) (أربعة دنائير) ^(٨) ، فاشتد الحال على الجميع ، ومل الناس القتال ، وجنحوا إلى الصلح ، على أن يرفع الحصار عن ظفار ، مقابل أن يعيد الأشراف المال الذي تسلموه في حصن تلمص ^(٩) .

إن قراءة متمعنة للصراع الزيدي — الرسولي خلال عهد الملك المؤيد ، تظهر بوضوح أن هذا الصراع تمحور حول ثلاث مناطق ، كانت محل نزاع وتصادم مستمر ، وهي :

أ. صعدة وبلادها :

في سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م ، وصل الإمام المهدي محمد بن المطهر من ظليمة إلى الجهات الصعدية ^(١٠) ، واستطاع هزيمة واليها من قبل الدولة الرسولية ابن

(١) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ٢١٤ .

(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٢٩ .

(٣) الخزرجي ، المسجد ، ق ٢٩٩ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٣ .

(٥) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٣٠ .

(٦) الزبدي : من المكابيل المستعملة للغلل ، ويساوي مناً ، والمن يساوي رطلين . انظر : ابن المجاور : جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر ، اعتنى بتصحيحه : أوسكر لوفجرين ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، ج ١ : ٨٩ . عليان ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد بني رسول ، ص ٢٢٣ .

(٧) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٣٨ .

(٨) المصدر نفسه والجزء ، ص ٣٣٩ .

(٩) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٣٠ .

(١٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٤ .

بهرام^(١) ، والسيطرة عليها^(٢) ، ولاسترجاعها أرسل الملك المؤيد ، الأمير عباس بن محمد من صنعاء لهذا الغرض ، وبعد حصار استمر سنة ، تمكن هذا الأمير من إخراج الإمام المهدي منها^(٣) ، وترك فيها مجموعة مكونة من ثلاثين فارس وثلاثمائة راجل^(٤) ، بقيادة الأمير بهاء الكردي لحمايتها ، ولم تحل سنة ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م ، إلا واستطاع الأشراف الزيديون استعادتها من الرسولين نهائياً^(٥) .

ب . صنعاء ونواحيها :

إتباعاً لأسلوب الكر والفر المتعارف عليه بين الأشراف الزيديين والدولة الرسولية ، كان الإمام المهدي محمد يباشر جبهات القتال بنفسه ، وكانت صنعاء من أهم هذه الجبهات ، وقد استغل الإمام المهدي الخلاف الذي حدث بين الأكراد والملك المؤيد ، بسبب قتلهم للأمير طغريل^(٦) ، فضم إلى صفوفه مجموعة كبيرة منهم ، استطاع من خلالهم الاستيلاء على عدد من الحصون المهمة ، كردمان^(٧) بني خوال وقرن عنتر ، وبيت ردم ، وبرام^(٨) ، وقاهر حضور ، ، ليس ذلك فحسب ، وإنما هاجم صنعاء ذاتها ، ووصل إلى أسوارها^(٩) ، ولولا بسالة الأمير عباس بن محمد في القتال ، وإمداده بالمظفر بن الملك المؤيد ، لاستولى عليها في ذلك الحين^(١٠).

(١) ورد اسمه عند ابن حاتم ، الأمير بدر الدين الحسن بن بهرام . انظر : السمط ، ص ٥٦٠ . وعند

الخرزجي ، الأمير جمال الدين علي بن بهرام . انظر : العقود ، ج ١ : ٣٥١ .

(٢) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٣٤ .

(٣) الخزرجي ، المسجد ، ق ٣٠٣ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٨٥ .

(٥) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٨٨ .

(٦) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٤١ .

(٧) رَدْمَانُ : اسم مشترك بين عدد من الأماكن والقبائل في اليمن ، والمقصود من النص لا يبعد عن صنعاء كثيراً . المقحفي ، معجم ، ص ٢٧٣ .

(٨) بَرَام : حصن صغير إلى الجنوب الغربي من صنعاء . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٤٢ ، (حاشية المحقق) .

(٩) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٨٧ .

(١٠) الخزرجي ، المسجد ، ق ٣١٨ .

وفي سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م ، أعاد الإمام المهدي كرتة على صنعاء ، وحاصرها لمدة شهرين ^(١) ، ولم يرفع عنها الحصار إلا بعد علمه بقدوم الملك المؤيد إليها ^(٢) ، وهذا يدل على خروج الأمور عن نطاق السيطرة .
ومن الجدير بالذكر في هذا السياق ، أن الإمام المهدي كان يدرك صعوبة الاحتفاظ بصنعاء بعد الاستيلاء عليها ، لذلك قصد من حربه مع الرسولين فيها ، إضعافهم قدر الإمكان ، وتشتيت قوتهم ، وإلهائهم عن بقية الجهات .

ج . حجة وبلاد الشرفين :

لتوسيع دائرة الصراع مع الدولة الرسولية سار الإمام المهدي إلى حجة والشرفين ^(٣) ، لمنع الأمير إدريس بن علي بن عبد الله الحمزي المتحالف مع الرسولين من التوغل في تلك المناطق ، وكان الملك المؤيد قد أمره بالتوجه إلى هناك ^(٤) والاستيلاء عليها ، فسيطر على معظم حصون الشرف الأسفل ، وجبل سعد ^(٥) وحصون القاهرة ^(٦) ، والجاهلي ، والمفتاح في الشرف الأعلى .
وفور وصول الإمام المهدي إلى الشرفين ، أنضم إليه أهلها نظراً لسوء سيرة ولاة وعمال الدولة الرسولية في تلك النواحي ^(٧) ، واجتمع معه ما يقدر بستة آلاف مقاتل من القبائل ^(٨) ، تمكن بواسطتهم من هزيمة العسكر الرسولي ، وأسر قائدهم ^(٩) ، واستعادة المناطق والحصون التي استولى عليها .
وبهذا الانتصار الذي حققه الإمام المهدي في حجة والشرفين ، تضطر الدولة الرسولية إلى عقد صلح معه ، في سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٣ م ^(١٠) ، تضمن الآتي :

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٨ .

(٢) الخزرجي ، العسجد ، ق ٣١٨ .

(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٩٦ .

(٤) الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١٣٩ .

(٥) جبل سعد : جبل معروف في الجبر من بلاد الشرفين . المقحفي ، معجم ، ص ٣٢٢ .

(٦) القاهرة : حصون معروفة في بلاد المحابشة التي تقع وسط بلاد الشرفين . الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١٤٠ . المقحفي ، معجم ، ص ٥٨٦ .

(٧) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٩٦ .

(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٩ .

(٩) الحمزي ، كنز الأخيار ، ص ١٤٤ .

(١٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٩٠ .

أ- أن للإمام المهدي الشرف الأعلى ، والحبر ، وكل ما تحت يده من بلاد حجة ، وظليمة ، وبيت ردم ، وبني الوشاح ، وظفر بني وهاس ^(١) .

ب- أن تسلم الدولة الرسولية للإمام المهدي ثلاثة آلاف دينار ^(٢) كل سنة ، مقابل عدم اعتدائه على أراضيها المنفق عليها .

ويبدو من خلال ما تقدم ، أن الملك المؤيد قد واجه صعوبات ومشاكل ، بعضها ذاتية الطابع ، والأخرى موضوعية ، ولعل أبرزها : وفاة ولديه الظافر في سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م ^(٣) ، والمظفر في سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٣ م ^(٤) ، وصغر سن ولده المجاهد لتولي الملك ، مع ما لذلك من تأثير نفسي واجتماعي ، أعاقه عن التفكير في مواجهة هؤلاء الأشراف ، والتفرق لقتالهم . فضلاً عن عدم استقرار الولاية في صنعاء ، التي وبعد أن ولاها ولده المظفر ^(٥) ، جاءه معتذراً عنها في سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م ^(٦) ، مما اضطره إلى توليتها للأمير طغريل ^(٧) ، ولكنه اعتذر هو الآخر عنها بعد سنتين من توليتها ^(٨) ، ونظراً لذلك أعادها - الملك المؤيد - مرة أخرى لولده المظفر ^(٩) ، ليعتذر عنها للمرة الثانية في سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٦ م ^(١٠) فيعيدها للأمير طغريل ^(١١) الذي لم يلبث طويلاً فيها ؛ نتيجة لقتله من قبل الأكراد ^(١٢)

(١) الحمزي ، كز الأخيار ، ص ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٥٢ .

(٤) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ٢٦٨ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٧٨ .

(٦) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٠٩ .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٢ .

(٨) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٦٧ .

(٩) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٥ .

(١٠) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٦٧ .

(١١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٥ .

(١٢) الأكراد : هم البقية الباقية من عسكر الأيوبيين ، وكانوا قد تجمعوا بعائلاتهم في مدينة نمار منذ بداية الدولة الرسولية ، وظلوا موالين لها حتى عهد الإمام المهدي علي بن محمد الهادي ، عندها تحول ولائهم من بني رسول إلى الدولة الزيدية . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١٧ . الحداد ، التاريخ العام لليمن ، ج ٣ : ١٤٢ .

في سنة ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م^(١) ، فضلاً عن تمرد الأكراد في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣١٠ م ، وانضمامهم إلى الإمام المهدي محمد بن المطهر^(٢) .

ثانياً : إحياء الإمامة الزيدية :

مع وفاة الملك المؤيد داؤد في سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م^(٣) ، وانتقال الملك إلى ولده المجاهد علي من بعده^(٤) ، تدخل العلاقات الزيدية - الرسولية طوراً جديداً ، زال فيه حكم بني رسول عن معظم مناطق اليمن الأعلى^(٥) ، وكان ذلك لعدة أسباب يأتي في مقدمتها ، حداثة سن الملك المجاهد البالغة خمس عشرة سنة^(٦) ، وقلة خبرته التي تسببت في العديد من الأخطاء ، والتي نتج عنها تجدد الصراع داخل البيت الرسولي بين الملك المجاهد وابن عمه الظاهر عبد الله بن الملك المنصور أيوب^(٧) ، بعد أن قام الأول بالقبض على عمه الملك المنصور^(٨) ، وابن عمه الناصر محمد بن الملك الأشرف^(٩) ، وقد استمر هذا الصراع حتى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م^(١٠) .

(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٨٦ . ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٤٧ . وعند ابن الحسين ، في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م . انظر : غاية الأمان ، ج ١ : ٤٨٧ .

(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٨٧ . وعن تحالف الأكراد مع الإمام المهدي محمد بن المطهر . انظر : ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٤٧ .

(٣) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ٢٨٥ .

(٤) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٥٤ .

(٥) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ١٢٥ ب . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٥٠٠ .

(٦) الأكرع : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٥٠ . الفيضي : محمد بن يحيى ، الدولة الرسولية في اليمن دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية (٨٠٣ هـ - ٨٢٧ هـ / ١٤٠٠ م - ١٤٢٤ م) الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م ، ص ٦١ .

(٧) عن هذا الصراع ، انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٦ - ٥٥ .

(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٩٦ .

(٩) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٥٤ .

(١٠) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٥٥ . مع التأكيد على أن الصراع داخل البيت الرسولي من أجل الحكم لم يقف عند هذا الحد ، بل استمر حتى وفاة الملك المجاهد ، بعد أن تمرد عليه وخرج عن طاعته أربعة من أولاده وهم : المؤيد في سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٤ م ، والصالح والعدل والمظفر في سنة ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م . بلعاز وتشجيع ومسندة من الدولة الزيدية . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٧٦ - ٧٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥١٨ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢١٣ - ٢١٤ . الأكرع : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٥٥ .

ومما لا شك فيه ، أن انعكاسات ذلك قد ظهرت بشكل واضح على الأوضاع الداخلية ، فقد شجعت العديد من الأطراف على التمرد ، ولعل أبرزها ، ما قام به المماليك والعبيد ^(١) حين ألقوا القبض على الملك المجاهد في سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٣ م ^(٢) ، بعد تأخر رواتبهم ، ويبدو أن الأمور كانت ستؤول إلى ما هو أسوأ من ذلك لولا المساعي التي بذلها عبيد الطشتخانة ^(٣) لتخليصه من الأسر ^(٤) .

كذلك استغلت العديد من القبائل حالة الفوضى و الاضطراب للقيام بالتمردات ، وأهمها تلك التي قامت بها قبائل الجحافل ^(٥) في سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ^(٦) ، وقبائل المعازبة ^(٧) في سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م ^(٨) ، وقبائل الأهمول ^(٩) في سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م ^(١٠) .

^(١) العبید : المقصود بهم هنا ، سكان إفريقيا المجلوبين للعمل في أراضي كبار الإقطاعيين . شائف عبده سعيد ، الصراع الاجتماعي في اليمن في عهد الأيوبيين والرسوليين ، مجلة سبأ ، العدد السابع ، دار جامعة عدن ، ١٩٩٨ م ، ص ١١٠ - ١١١ .

^(٢) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٥٠ .

^(٣) الطشت خانة أو الطست خانة : تعني بيت الطشت الذي يحتوي على أنواع الطشوت (الطسوت) ، والأدوات التي تستخدم لغسيل الثياب الخاصة بالسلطان . انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ : ١٠ - ١١ .

^(٤) يحيى بن الحسين ، غية الأمانى ، ج ١ : ٤٩٦ . وكاد الأمر نفسه يتكرر في سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م ، لولا إفشاء الخطة من قبل بعض المماليك للملك المجاهد في آخر لحظة . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٧٩ - ٨٠ .

^(٥) الجحافل : قبائل من مذحج ، تسكن منطقتي لحج وأبين . المقحفي ، معجم ، ص ١٢٥ .

^(٦) كانت الجحافل ضمن القوات التي دخلت إلى عدن مع الأمير شجاع الدين عمر بن بالبال العملي الوديدار - أمير لحج - المتحالف مع الظاهر ضد الملك المجاهد ، وقامت بالعديد من أعمال السلب والنهب والتخريب فيها . انظر : ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ٢٩٥ .

^(٧) المعازبة : من أشهر القبائل اليمنية في تهامة ، وهي فرع من قبيلة من الأشاعر المشهورة في صدر الإسلام ، ولكن مع مرور الزمن اشتهر الفرع وغلب على الأصل ، وتعرف في الوقت الحاضر بالزرائيق ، ومن أشهر مناطقهم بيت الفقيه والمنصورية . الفيفي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٦٨ . المقحفي ، معجم ، ص ٦٣٥ .

^(٨) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٢١ .

^(٩) الأهمول : قبيلة تهامية تسكن ما بين موزع وحيس . الجندي ، السلوك ، ج ٢ : ٢٩٨ . وتتسب إلى هامل بن الشاهد بن عك بن عدنان . انظر : الملك الأشرف ، طرفة الأصحاب ، ص ٨٣ .

^(١٠) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٥٠ . مع التنويه إلى أن هذه التمردات القبلية استمرت حتى سقوط الدولة الرسولية ، بل إنها كانت إحدى الأسباب الرئيسة في سقوطها . للمزيد من المعلومات عن هذه =

إن سوء تدبير الملك المجاهد للأمر ، وما تمخض عنه ، دفعه إلى معالجة الخطأ بمثله ، وذلك عندما استنجد الملك المجاهد بالسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ^(١) لمواجهة هذه الأوضاع ، فأمدّه بألفي فارس وألفي راغل ^(٢) ، وبدلاً من أن يساعده في مواجهة أعدائه من بعض الرسولين ، والمماليك ، والقبائل ، والزبيديين ، زادوا الأوضاع تعقيداً ، إذ تذكر المصادر أنهم — وبعد وصولهم إلى اليمن — نهبوا القرى ^(٣) ، وسبوا النساء ، وباعوهن كما يباع الرقيق ^(٤) ، واعتدوا على الناس وممتلكاتهم ^(٥) ، مما أثار سخط الناس عليهم ، وعلى الملك المجاهد الذي استدعاهم ، فأصبح كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ونتيجة لهذه العوامل مجتمعة ، وجد الملك المجاهد الرسولي نفسه منشغلاً في ترتيب أوضاعه الداخلية في اليمن الأسفل ، وهو الأمر الذي استغله الإمام المهدي محمد بن المطهر ليمد نفوذه في معظم مناطق اليمن الأعلى ، وصولاً إلى صنعاء التي استطاع الاستيلاء عليها في سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٤ م ^(٦) ، وهو الاستيلاء الذي لم تعد بعده صنعاء أبداً إلى سيطرة الدولة الرسولية حتى سقوطها في سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م .

=التمردات وتأثيرها على الدولة الرسولية ، نظر : هديل : طه حسين عوض ، التمردات القبلية في عهد الدولة الرسولية وأثرها على الحياة العامة في اليمن ، رسالة ماجستير ، جامعة عدن ، كلية الآداب ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٥٠٢ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ١٩٥ ، ٤٠٨ .

^(٢) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٥٥ .

^(٣) يعلل الدكتور محمد عبد العال أحمد ما قام به هؤلاء العسكر ، بإخلال الملك المجاهد لتعهداته بتوفير القوات الضروري لهم ولدوايهم عند قدومهم إلى اليمن ، فضلاً عن امتناع الناس عن البيع لهم ورفضه إجبارهم على ذلك ، ويعلل موقفه هذا بتخوفه من وجود تلك القوات الكبيرة في بلاده ، وخشيته من استيلاءها على الحكم إذا تحالفت مع خصمه وابن عمه الظاهر عبد الله . انظر : بنو رسول وبنو طاهر ، ص ١٩٦ ، ٤١٣ - ٤١٦ .

^(٤) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٣٣ .

^(٥) الخزرجي ، المسجد ، ق ٣٥٧ .

^(٦) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٤٣ . الفيبي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٦٥ .

ومن الجدير بالإشارة ذكره هنا ، أن الأشراف الزيديين وعلى رأسهم الإمام المهدي محمد ، كان لهم دور فعال في الأحداث السياسية التي مرت بها الدولة الرسولية في هذه المدة ، فنظراً للخلاف بين الإمام المهدي والأشراف الحمزيين الذي تمتد جذوره إلى بدايات دعوته (١) ، وقف هؤلاء الأشراف إلى جانب الملك المجاهد (٢) في حربه مع المماليك ، ومع ابن عمه الظاهر ، بينما وقف الإمام المهدي إلى جانب الظاهر في هذه الحرب (٣) ، وهذا لا شك يذكرنا بما كان يفعله الملك الرسولي المنصور نور الدين ومن بعده ولده المظفر ، يوم كانا يؤثران تأثيراً مباشراً بتدخلهما في مجرى الأحداث السياسية والعسكرية التي كان يمر بها الأشراف الزيديون ، وإن لم يكن بنفس الحجم والتأثير .

ثالثاً : تعارض الأئمة :

للمرة الأولى منذ قيامها ، لا تكون الدولة الرسولية سبباً في إضعاف الدولة الزيدية ، بقدر ما كان الأشراف الزيديون أنفسهم هم سبب ضعفها وتدهورها . صحيح أنه قد مرت بنا العديد من الحروب والصراعات التي دارت بين هؤلاء الأشراف ، ولكننا كنا نؤكد مراراً وتكراراً على دور الدولة الرسولية في هذه الصراعات وإنكائها ولما ضعفت هذه الدولة في عهد الملك المجاهد ، وزال سلطانها عن معظم مناطق اليمن الأعلى ، كان الوضع بالنسبة للأشراف الزيديين أفضل ما يكون للنهوض بدولتهم واستعادة أمجادها القديمة ، وعضواً عن ذلك خاض هؤلاء الأشراف صراعات دامية فيما بينهم ، بعد وفاة الإمام المهدي محمد بن المطهر في سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م (٤) ، على أثر انقسامهم حول من يخلفه ، فتعارض نتيجة لذلك أربعة من الأئمة في آن واحد ، ومكان واحد (٥) ، وذلك ما لم يحدث خلال تاريخ الزيدية الطويل في اليمن ، وهؤلاء الأئمة هم :

(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٤١ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٥٠٠ - ٥٠١ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو ظاهر ، ص ١٩٣ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٥٠٤ .

(٤) المهلا ، مطمح الآمال ، ص ٢٥٠ . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ١٠٧٩ . المؤيدى ، التحف ، ص ٢٦٥ . وعند ابن الحسين في سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م . انظر : غاية الأمانى ، ج ١ : ٥٠٦ .

(٥) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٦٩ .

١. الإمام الناصر لدين الله علي بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين ، ظهر في بلاد شطب^(١) من أعمال السودة^(٢) ، واستمد قوته من أسبقيته في الدعوة^(٣) بعد الإمام المهدي محمد بن المطهر ، وكونه حفيد للإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين .

٢. الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة^(٤) ، الذي أعلن دعوته في صنعاء وجهاتها ، وبلغ نفوذه إلى الظاهر ، وصعدة ، والشرف^(٥) ، نظراً لتأييد الأشراف الحمزيين له في ابتداء دعوته ، وكان مركز إقامته حصن هران في ذمار^(٦) .

٣. الإمام الواثق بالله المطهر بن محمد بن المطهر ، الذي أراد أن يخلف أباه على عرش الإمامة ، واعتقد أنه الأحق بها ، وظهرت دعوته في بلاد حجة^(٧) .

(١) شَطْبٌ : جبل واسع يطل على مركز السودة ، وإليه تنسب سودة شطب . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٤٥٢ . المقحفي ، معجم ، ص ٣٦٥ .

(٢) السودة : مدينة شهيرة بالشمال الغربي من عمران بمسافة (٤٤ كيلو متراً) . المقحفي ، معجم ، ص ٣٣٧ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٧١ .

(٤) هو يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن يوسف بن علي ... بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولد في شهر صفر من سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م ، بصنعاء ، تلقى العلم منذ كان صغيراً في المدرسة المنصورية بحوث على يد عدد من الشيوخ والفقهاء أبرزهم : الشيخ العلامة علي بن سليمان البصير ، والشيخ العلامة محمد بن خليفة ، كان في أول شبابه من أئصار المتوكل على الله المطهر بن يحيى المرتضى ، وله العديد من المؤلفات التي سنأتي على ذكرها لاحقاً ، توفي في سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م بدمار ، وقبر فيها . انظر : ابن الهادي : عبد الله بن يحيى بن حمزة ، النبذة اليسيرة من سيرة الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٢) سير وتراجم ، ق ٣ ب وما بعدها . ابن الوزير : عبدالله بن علي ، اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري (١٠٤٥ - ١٠٩٠ هـ) ، المسمى : طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى ، تح : محمد عبد الرحيم جازم ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٥٥ . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٣ : ١٢٢٤ . الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٢٤ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١١ .

(٦) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢١٠ .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٥١١ .

٤. الإمام المهدي أحمد بن علي بن أبي الفتح ، الذي ظهر في بلاد سفيان (١) ، ويُعتقد أنه من ذرية الإمام أبي الفتح الديلمي (٢) .

وأمام هذا الانقسام الذي عم معظم مناطق اليمن الأعلى ، دارت رحى معارك وحروب مستعرة ، ومستمرة بين هؤلاء الأئمة وأنصارهم (٣) ، لذا لم يستطع أي إمام منهم — خلال هذه المدة — من بسط نفوذه وقوته على بقية الأطراف ، فأصبح هم كل أمام منهم أن يبقي ويحافظ على المناطق التي تقع تحت سيطرته .

ومهما يكن الإغفال المتعمد من قبل المصادر الزيدية (٤) لهذه الفترة ، فأنا نستطيع أن نستنتج أنها كانت فترة عصيبة على الأشراف الزيديين عموماً ، ولنا أن نتصور استمرار هذا الحال ما يقرب من العشرين عام والنتائج المترتبة عليه ، ولولا ما تعانيه الدولة الرسولية من ضعفٍ هي الأخرى في ذلك الحين ، لتم القضاء على الإمامة الزيدية .

وبحلول سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م ، لاحت بوادر انفراج في الأزمة الزيدية ، بعد ملل الأشراف من هذه الحالة ، ووفاة الإمامين الناصر علي بن صلاح ، والمؤيد يحيى بن حمزة ، فاتفق هؤلاء الأشراف على إقامة إمام جديد يجمع كلمتهم ، ويخلصهم مما هو من البلاء والافتتال .

(١) بلاد سفيان : ناحية من بكيل بمحافظة عمران . المقحفي ، معجم ، ص ١٨٠ .

(٢) هو الإمام الناصر أبو الفتح الناصر بن الحسن بن محمد الديلمي ، نشأ في بلاد السديلم (جیلان) ، وتلقى العلم بها ، ودعا لنفسه بالإمامة هناك في سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م ، ولكنه أخفق ، فقدم إلى اليمن بدعوة من بعض أشرافها ، ودعا لنفسه بالإمامة في سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٦ م ، ونظراً لظهور علي بن محمد الصليحي في سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م ، وتقايس الناس عن نصرته ، أخذ ينتقل من بلد إلى آخر ، حتى ظفر به الصليحي في سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٣ م ، وقتله في معركة ببلاد عنس .
نظر : الحمادي : محمد بن مالك بن أبي القبائل ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، تح : محمد بن علي الأكوع ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م ، ص ١٢٣ .
الحكمي : نجم الدين عمارة بن علي ، تاريخ اليمن المسمى : المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها ، تح : محمد بن علي الأكوع ، المكتبة اليمنية ، صنعاء ، ط ٣ ، ١٩٨٥ م ، ص ٨٨ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٢٤٦ - ٢٥٠ .

(٣) الأكوع ، هجر ، ج ١ : ٥٠١ .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٧١ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١١ . أنباء الزمن ،

رابعاً : إعادة تكوين الدولة الزيدية :

بعد اتفاق الأشراف الزيديين على إيقاف الاقتتال فيما بينهم ، اجتمعت كلمتهم على إقامة الإمام المهدي لدين الله علي بن محمد (١) ، والسمع والطاعة له ، فتمت مبايعته في ثلا في آخر شهر ربيع الآخر من سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م (٢) ، ويبدو أن هذا الإمام كان مدركاً للدور الذي يقوم به بقايا الأشراف الحمزيين في إنكفاء الخلافات والحروب بين الأشراف الزيديين ، وعليه قرر التخلص منهم نهائياً واستئصال شأفتهم من اليمن الأعلى عامة ، حتى تستتب الأمور وتستقر .

وكان أول ما قام به في هذا الخصوص ، أن توجه إلى صعدة وأخرجهم منها (٣) ، وكان ذلك بالتنسيق مع أهلها الذين ملوا تسلط هؤلاء الأشراف وجورهم . وفي سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٤ م ، واصل هذا الإمام مطاردته لهؤلاء الأشراف من منطقة إلى أخرى ، ومن حصن إلى آخر ، حتى تمكن في هذه السنة من إجلائهم عن معقلهم الحصين في ظفار (٤) ، وبسقوطه لم يجد هؤلاء الأشراف ملجأً يلجئون إليه ، سوى النزول إلى اليمن الأسفل ، ضيوفاً على الدولة الرسولية ، بعد أن خسروا معظم معاقلم وحصونهم في اليمن الأعلى (٥).

وبالتزامن مع هذا الأمر ، قام الإمام المهدي بالتصالح مع أكراد ذمار (٦) الذي انقطعت صلتهم بالدولة الرسولية منذ عهد الملك المجاهد ، وتوج هذا الصلح بزواج الناصر صلاح الدين محمد ابن الإمام المهدي ، بفاطمة بنت الأسد بن إبراهيم ، كبير

(١) هو علي بن محمد بن علي بن يحيى بن منصور بن مفضل ... بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، ولد في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م ، وانتقل من هجرة صوف إلى صنعاء لتلقي العلوم على يد عدد من المشايخ والفقهاء ، أهمهم : الشيخ العلامة يحيى بن محمد بن يحيى بن حنش ، والشيخ العلامة أحمد بن سعيد الحارثي ، والشيخ العلامة أحمد بن محمد مرغم . انظر : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ٧٨٠ - ٧٨١ .

(٢) الجنداري ، الجامع الوجيز ، ق ٩٧ أ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١٥ .

(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢١٣ .

(٥) ليس كل الأشراف الحمزيين نزلوا إلى اليمن الأسفل ، فهناك من بقي منهم في اليمن الأعلى ، ولكن دون أن يكون لهم دور في الحياة السياسية .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١٥ .

الأكراد في زمار وأميرهم^(١) ، لتتحول العلاقة بين الطرفين ، من علاقة عداوة إلى علاقة تحالف تاريخي ، أصبحت بموجبه مدينة زمار ضمن حدود الدولة الزيدية ، وأصبح الأكراد جنوداً في خدمة هذه الدولة .

وبسيطرة الإمام المهدي علي بن محمد على معظم مناطق اليمن الأعلى ابتداءً من صعدة في أقصى الشمال ، وصولاً إلى زمار في أقصى الجنوب ، لم يبق أمامه سوى أن يكمل هذه الإنجازات باستعادة السيطرة على صنعاء^(٢) ، وكان الأمر قد آل بعد وفاة الإمام المؤيد يحيى بن حمزة إلى أمير من نسله يدعى عبد الله بن داود ، تناصره قبيلة همدان^(٣) .

وقبل أن يكمل الإمام المهدي علي خطواته للاستيلاء على صنعاء ، أصيب بمرض الفالج^(٤) ، ذلك المرض الذي جعله يعتزل الناس ، ويوكل إلى ولده الناصر صلاح الدين محمد تدبير الأمور وتسييرها^(٥) .

(١) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢١٢ .

(٢) مع أنه تم العثور على مسكوكات فضية تحمل اسم الإمام المهدي علي بن محمد ، ضربت في صنعاء خلال عامي (٧٥٤ هـ / ١٣٥٤ م ، ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م) ، إلا أن المصادر التاريخية لم تشر إلى استيلائه عليها ، ويمكننا التوفيق بين الأمرين ، بالقول أن الأمير عبداً لله بن داود كان يدين بالولاء الشكلي للإمام المهدي ، ومن أشكال هذا الولاء ، سك العملة باسم الإمام المهدي المعترف به من قبل الأشراف الزيديين . عن هذه المسكوكات ، انظر فيما سيأتي ، ص ٣٨٠ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١٤ - ٥١٥ .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠٢١ . المؤيدي ، التحف ، ص ٢٧٥ .

(٥) على الرغم من المرض الذي ألمّ بالإمام المهدي علي بن محمد ، فإن ذلك لم يؤثر في قوة الدولة الزيدية بقيادة ولده الناصر ، الذي تدخل بقوة في الصراع الذي حدث بين الملك الأفضل عبالس وأخيه الملك المظفر يحيى في سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م ، وساعد الأخير في محاولة الاستيلاء على حرص في سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م ، والشحر في سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م ، كما واصل غزواته على مناطق الدولة الرسولية حتى استولى في بعضها على المهجم ، والكدراء ، والقحمة ، وحاصر زبيد ، مستغلاً في ذلك الخلاف الذي حدث بين والي الملك الأفضل على حرص بهاء الدين الطفاري ، والأشراف السليمانيين في تلك المنطقة ، وكان ذلك في سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٤ . مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٦٧ - ٦٨ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٠ - ٥٢٣ . محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢١٤ - ٢١٥ . الفيضي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٧٣ - ٧٤ .

وفي سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م ، توفي الإمام المهدي ^(١) في مدينة نمار ، بعد صراع طويل مع المرض ، وآل الأمر من بعده إلى ولده الناصر صلاح الدين ، الذي كان هو الإمام الفعلي خلال مدة مرض والده ، فاكتمت نتيجة لذلك خبرة في أمور السياسة والرئاسة ، جعلت علماء الزيدية وشيوخها يفضلونه لمرتبة الإمامة دون غيره ، ولا سيما مع توافر شروطها فيه ^(٢) .

خامساً : الأوضاع السياسية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين :

استكمالاً لما كان الإمام المهدي علي بن محمد يطمح في إنجازه ، قرر الإمام الناصر صلاح الدين محمد الاستيلاء على صنعاء ، ولتحقيق هذا الأمر ، قام في سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٧ م ، بعدد من الخطوات ^(٣) ، أبرزها : عقد صلح مع همدان ، والداعي عبد الله بن علي بن محمد الأئف ^(٤) ، تخلوا بموجبه عن مناصرة الأشراف من بني عبد الله ^(٥) ، كما تقدم للزواج من أم الأمير إدريس بن عبد الله بن داؤد صاحب صنعاء للتقرب منه وكسب ثقته ^(٦) .

وبناءً على ما تقدم ، سار الإمام الناصر صلاح الدين إلى صنعاء في سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٣ م ^(٧) ، وبمساعدة كبيرة من زوجته أم الأمير إدريس ^(٨) – التي أفنعت ولدها بالخروج إلى الإمام لاستقباله ، وبددت مخاوفه من قدومه ، كما حافظت على القصر في صنعاء من أن يستولي عليه أبناء عم الأمير إدريس – تمكن الإمام الناصر من الدخول إلى صنعاء بسلام ، ودون أدنى قتال ، وبسط سيطرته عليها .

^(١) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ٧٨٠ .

^(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠٢٢ .

^(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٥ – ٥٢٨ .

^(٤) كبير الباطنية الإسماعيلية في اليمن آنذاك .

^(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٧ .

^(٦) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢١٩ .

^(٧) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٤٠٩ . وعند ابن الحسين في سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨٢ م . انظر : غاية

الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٩ . أنباء الزمن ، ق ٢١٩ .

^(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٩ .

وبعد استيلاءه على صنعاء ، لم يلبث طويلاً فيها ، حتى انتقض الصلح الذي كان بينه من جهة ، وبين همدان والداعي عبد الله بن علي (١) من جهة أخرى ، وكانت أبرز أسباب هذا النقض هي : قتل أهل حصن فدة (٢) – وهم من أنصار الداعي عبد الله – لرجلين من أتباع الإمام الناصر (٣) ، ومناصرة الداعي لأهل حصن ذي مرمر في حربهم مع الإمام .

ولذلك شن الإمام الناصر صلاح الدين محمد ، حملة شعواء على الداعي عبدالله وأتباعه من همدان ، فاستولى على بيت غفر (٤) ، وحصون فدة ، ولؤلؤة (٥) ، ورداع وبيت أنعم ، والقلعة (٦) ، وأرسل عساكره لحصار القلعة المعروفة بطيبة في وادي ظهر، إلا أن تدخل بعض الوجهاء حال دون الاستيلاء عليها ، وتقرر تسليم حصن ذي مرمر للإمام مقابل رفع الحصار عن طيبة (٧) ، فلما رُفِع الحصار ، تراجع بنو حاتم عن تسليم حصن ذي مرمر (٨) ، مما حدا بالإمام إلى معاودة الحصار مرة أخرى على طيبة ، ولم يرفعه هذه المرة إلا بعد أن تم تسليم حصن ذهبان (٩) له مقابل ذلك (١٠) .

(١) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٠ .

(٢) فِدة : حصن وسط وادي ضهر ، على بعد (سبعة كيلو مترات) غرب صنعاء . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٦٣٤ . المقحفي ، معجم ، ص ٤٩٨ .

(٣) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٠ .

(٤) بيت غفر : قرية إلى الغرب من صنعاء ، على طرف قاع المنقب ، شرقي جبل كوكبان بمسافة (خمسة كيلو مترات) . المقحفي ، معجم ، ص ٤٨٩ .

(٥) لؤلؤة : قرية من ناحية همدان إلى الغرب الشمالي من صنعاء ، على مقربة من ريعان . ابن الديبع ، قرة العيون ، ص ٢١٤ ، (حاشية المحقق) . المقحفي ، معجم ، ص ٥٧٢ .

(٦) القلعة : لم استدل على موقعها في المعاجم اليمينية ، ويتضح من النص أنها في نواحي صنعاء ، ولا تبعد كثيراً عنها .

(٧) ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ١٧٧ ب .

(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٢ .

(٩) ذهبان : قرية تقع فيما بين ثقبان والجراف ، شمال صنعاء ، وهي منسوبة إلى ذهبان بن نوف ذي ثعلبان بن شرحبيل ... بن زرعة . المقحفي ، معجم ، ص ٢٦٢ .

(١٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٤ .

أما فيما يخص العلاقة مع الدولة الرسولية ؛ فنظراً للضعف والانقسام الذي كانت تعاني منه ، منذ عهد الملك المجاهد ومن جاء بعده ^(١) ، بسبب تمردات الأمراء ، وبعض القبائل ، تمكن الإمام الناصر خلال مدة حكمه من نشر المذهب الزيدي ^(٢) في مناطق كان تعرف قبل ذلك بأنها سنية ، شافعية ^(٣) ، ووصل في بعض حملاته إلى مدينة المهجم في تهامة ، التي دخلها وأمر بخرابها في سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٦ م ^(٤) ، وإلى مدينة زبيد التي خيم في بستانها ثلاثة أيام ^(٥) من السنة نفسها ، وإلى مدينة ذي

^(١) هذا ما أكده الدكتور محمد عبد العال أحمد حين قال : " أما بالنسبة للزيدية فمن الواضح أن سلاطين بني رسول قد تحاشوا منذ عهد المجاهد الدخول بقدر الإمكان في صراع ضدهم ، في الوقت الذي لم يكن الإمام الزيدي يفوت فيه أي فرصة تسنح له للتوسع على حساب الدولة الرسولية ، إلى حد تجاوزت فيه هذه التوسعات صنعاء جنوباً " . انظر : بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢١٩ .

^(٢) ينسب المذهب الزيدي إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الذي ولد في المدينة المنورة في سنة ٨٠ هـ / ٧٠٧ م ، وكان يكنى أبا الحسين ، كانت إمامته بالكوفة ، وثار ضد الخلافة الأموية في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك في سنة ١٢١ هـ / ٧٣٩ م ، وتذكر المصادر التاريخية أن من كانوا ينوون الخروج معه سألوه عن رأيه فيمن تقدم جده علي بن أبي طالب في الخلافة ، فرد عليهم بأنه لا يقول فيهم إلا خيراً ، عندئذٍ تقسم أصحابه إلى قسمين : قسم تبعه فيما قال ، فسموا لاحقاً بـ : الزيدية ، وقسم رفض ما قال ، فسموا لاحقاً بـ : الرافضة . انظر : الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود ، الأخبار الطوال ، تح : عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٠م ، ص ٣٤٤ . المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ١ : ٢٤١ - ٢٥٣ . الكتبي : محمد بن شاكر ، فوات الوفيات ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ م ، ج ٢ : ٣٥ - ٣٨ . أبو زهرة : محمد ، الإمام زيد حياته وعصره - آرائه وفقهه ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٢ وما بعدها . العمرجي : أحمد شوقي إبراهيم ، الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي (١٣٢ - ٣٦٥ هـ) ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٥ - ٢٦ .

^(٣) ينسب هذا المذهب إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، أحد أقطاب الاجتهاد ، وعلم من أعلام الفقه الإسلامي ، انتشر مذهبه في اليمن في القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي ، على يد عدد من العلماء . للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر : الزركلي : خير الدين ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٨٤ م ، ج ٦ : ٢٦ .

^(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢١٧ .

^(٥) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ١٥٤ .

جبلّة (١) في مخلاف جعفر ، التي اكتفى بنهبها في سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م (٢) ، وإلى مدينة عدن في أقصى الجنوب ، التي كاد يستولي عليها في سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م (٣) ، لولا صمود أهلها (٤) ، وإلى مدينة زبيد مرة أخرى في سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م (٥) ، وإلى حرض في السنة نفسها (٦) ، وإلى حصن الدرج من بلاد الشوافي في سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م (٧) ، وإلى جبل بعدان (٨) في سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م (٩) . ولولا وفاته المفاجئة في شهر ذي القعدة من السنة نفسها (١٠) ، لعانت الدولة الرسولية كثيراً في عهده .

ولم تكن هذه الغزوات مجرد غزوات عابرة وعفوية ، بل كانت منظمة ، ومؤقتة ، نتيجة لضعف الدولة الرسولية التي تنتقل الصراع معها إلى داخل حدودها ، ليشمل مناطق أخرى كالمحالب ، والمملاح (١١) ، والنويدرة (١٢) ، وغيرها .

(١) جبلّة : تقع في جنوب مدينة إب وتبعد عنها بحوالي (عشرة كيلو مترات) ، وهي عبارة عن ربوة شمال جبل التعكر . الويسي : حسين بن علي ، اليمن الكبرى كتاب جغرافي جيولوجي تاريخي ، مطبعة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ١٤٤ . الحجري ، مجموع ، مج ١ ، ج ١ ، ص ٣١ - ٣٧ .

(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ١٨٣ .

(٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٩٣ .

(٤) الأكوخ : إسماعيل ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٥٥ .

(٥) الخزرجي ، العسجد ، ق ٤٥٧ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٥ .

(٧) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٢١٤ .

(٨) بعدان : جبل مشهور مطل على مدينة إب من ناحية الشرق ، ينسب إلى بعدان بن جُشم بن عبد شمس بن وائل ... بن الهُميسع بن حمير . المقحفي ، معجم ، ص ٨٤ .

(٩) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٦ .

(١٠) كانت وفاة الإمام الناصر صلاح الدين ، بسبب مرض ألمّ به ، إثر سقوطه من على بغلته في أحد المنحدرات الجبلية ، وهو عائد من بلاد بني شاور . انظر : الخزرجي ، العسجد ، ق ٤٦٥ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٦ .

(١١) المملاح : لم استدل على موقعها في المعاجم اليمنية ، ويتضح من النص ومن التسمية أنها بالقرب من زبيد إلى جهة البحر .

(١٢) النويدرة : قرية بالقرب من مدينة زبيد إلى الشمال الغربي منها ، تسمى اليوم (السطور) . المقحفي ، معجم ، ص ٧٠٩ .

كما لا يفوتنا في هذا السياق ، أن نشير إلى دعم الإمام الناصر – ومن قبله والده – للأمرء والقادة المنشقين عن الدولة الرسولية ، كالأمر نور الدين محمد بن ميكائيل^(١) الذي سبب الكثير من الاضطرابات للرسوليين في تهامة ، ولا سيما في حرض لأكثر من عشر سنوات ، وهو أمر لم يكن ليحدث لولا دعم الدولة الزيدية له ، بالأموال ، والرجال مقابل إعلان الولاء لها^(٢) .

سادساً : عودة الضعف والانقسام إلى الدولة الزيدية :

مما لا شك فيه أن وفاة الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي المفاجئة في سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م ، أحدثت فراغاً سياسياً كبيراً ، ويبدو أن الإمام الناصر كان يعي هذه المشكلة قبل وفاته ، ولا سيما أن أولاده الثلاثة لا تتوافر في أحد منهم شروط الإمامة الزيدية^(٣) ، ولذلك أشار على وزرائه ، وأهل الحل والعقد في دولته ، بضرورة الاتفاق على إمامة ابن عمه السيد علي بن أبي الفضائل^(٤) – بعد وفاته – نظراً لتوافر شروط الإمامة فيه من جهة ، وللمحافظة على مصالح أولاده وأسرتهم من جهة أخرى^(٥) .

(١) هو الأمير محمد بن ميكائيل الفاطمي ، كان رجلاً جليلاً ، عاقلاً ، نبيلاً ، كريماً ، وكان يلقب بملك الأمرء في مدة إمارته وطاعته للدولة الرسولية ، وفي شهر صفر من سنة ٧٦٣ هـ / ١٣٦٢ م ، أدعى السلطنة لنفسه ، وخطب له في المهجم ، والمحالب ، وحرض ونواحيها ، وضرب السكة باسمه ، وتسمى بالشريف الحسين النسيب ، مستغلاً في ذلك الحين الفوضى التي نتجت عن سوء سياسة الملك المجاهد والخلاف الذي حدث بينه من جهة ، وأولاده المظفر ، والصالح ، والعدل ، من جهة أخرى ، ثم تحالف مع الدولة الزيدية في عهد الإمام المهدي علي بن محمد ، ونظراً لهزيمته من قبل الدولة الرسولية في تهامة ، لجأ إلى اليمن الأعلى بعد أن أعطاه الإمام المهدي حصن المفتاح وما يليه من بلاد الشرف ، وظل على ولايته تلك إلى أن توفي في سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٨ م . انظر : الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ١٠٢ ، ١٦٦ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥١٨ – ٥٢٨ . الفيافي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٦٨ – ٦٩ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٢٠ .

(٣) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٤ .

(٤) المرتضى : الحسن بن أحمد بن يحيى ، سيرة الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى المسماة : كنز الحكماء وروضة العلماء ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) (سير وتراجم) ، ق ٥٩ أ .

(٥) المصدر نفسه والورقة .

ويظهر أن الأمور سارت بطريقة مغايرة لما كان مخطط لها ، فقد قُوبل طلب الوزراء والأمرء بأن تكون الإمامة للسيد علي بن أبي الفضائل ، مقابل أن تكون الولاية في صنعاء للأمير عبد الله بن صلاح ، والولاية في ظفار للأمير علي بن صلاح والولاية في دمار للأمير الحسن بن صلاح ، بالرّفض من هذا السيد ^(١) ، وكانت أسبابه في ذلك عديدة ، لكن أبرزها : اقتناعه بوجود شخص آخر تتوافر فيه شروط الإمامة ، ويستحقها أكثر منه ، وهو المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ^(٢) ، واعتقاده أن قبوله الإمامة بهذا العرض ، يجعل منه تابعاً لأولاد الإمام الناصر صلاح الدين لا متبوعاً ، وهذا يتناقض مع مفهوم الإمامة التي يجب بموجبها على الكل طاعة الإمام ، ناهيك عن أن بقاء أهم المدن والمواقع في الدولة الزيدية تحت سيطرة أولاد الإمام الناصر يعطي انطباع بأنهم أرادوا أن يحتفظوا بالسلطة الفعلية ، على يكون هو الغطاء الشرعي لها .

إن رفض السيد علي بن أبي الفضائل لعرض الإمامة بهذه الطريقة ، دفع الوزراء والأمرء إلى اللجوء إلى مشاوره القاضي عبد الله بن حسن الدواري في صعدة ، بوصفه أحد أعلام المذهب الزيدي في ذلك الحين ، ومن أكثر المقربين لآل الإمام الناصر ، والذي بدوره أشار عليهم بالتريث في الأمر ^(٣) وعدم البث فيه حتى يصل إليهم ، وألمح في رده عليهم بإمكانية إقامة الأمير علي بن صلاح محل والده ^(٤) . ومع مجيء القاضي الدواري إلى صنعاء ^(٥) ، أحدثت آراءه بشأن الإمامة ^(٦) ، وضرورة إقامة الأمير علي بن صلاح ، تصدعاً في المجتمع الزيدي ، فقد انقسم العلماء ، والشيوخ ، والفقهاء ، بين مؤيد لأرائه ، ومعارض ، واختلفت المصادر

(١) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٧ .

(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١٠٧٨ .

(٣) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٥٩ ب .

(٤) المصدر نفسه والورقة .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٣٨ .

(٦) ذكر الإمام الهادي عز الدين ، أنه اطلع للقاضي عبد الله بن حسن الدواري في كتابيه : (جوهر الغواص) و (تعليق الأصول) ، اشتراط الاجتهاد في الإمامة ، ولما حدث الخلاف بعد وفاة الإمام الناصر صلاح الدين ، خدش بيده ما ذكره في كتابيه ، ورقم في الهامش بخطه ، إجازة إقامة المقلد . انظر : العناية التامة بتحقيق مسائل الإمامة ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) (علم كلام) ق ١٧ .

حول سبب هذا الانقسام ، فمنها من يذكر أن الوزراء والأمراء بذلوا مالا لبعض هؤلاء العلماء والشيوخ والفقهاء ، من أجل تغيير مواقفهم ، والموافقة على إقامة الأمير علي بن صلاح ، وهذا ما يؤكد صاحب الكنز ، حين ذكر أن الوزراء أعطوا أحمد ويحيى ولدي القاضي الدواري عشرين ألف دينار (١) ، لكل واحد منهم عشرة .

ومنها من ذكر أن بعض هؤلاء العلماء المؤيدين للقاضي الدواري ، كالسيد داؤد بن يحيى بن الحسين ، والسيد صلاح بن الجلال ، ونظراً لما تقتضيه الضرورة آنذاك ولمعرفتهم القريبة بالأمير علي بن صلاح ، أدركوا بأنه لا يصلح للقيام بالإمامة في ذلك الحين إلا هو (٢) .

وإزاء هذا الخلاف الحاد بين العلماء ، تمسك القاضي الدواري ، وولديه أحمد ويحيى ، وغيرهم من العلماء ، بجواز إمامة المقلد (٣) ، وتخلوا عن شرط الاجتهاد في الإمامة الزيدية ، مفسحين المجال لإمامة الأمير علي بن صلاح . فيما أصر الفريق الآخر على ضرورة توافر شرط الاجتهاد في الإمام الزيدي ، وأرتا حلاً للمشكلة في مبايعة إمام جديد تتوافر فيه هذه الشروط ، فتشاوروا فيما بينهم (٤) فيمن يصلح للإمامة ، واستقر أخيراً قرارهم على مبايعة المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (٥) ، بعد عدة مسائل سؤل عنها وأخفق فيها الآخرون . وحين علم الوزراء والأمرء بذلك ، قرروا التعجيل في بيعة الأمير علي بن صلاح (٦) ، وإشهارها قبل أن يعلم العامة بما أتفق عليه الفريق الآخر ، والذي يبدو من المصادر الزيدية أن هاتين البيعتين تمتا في الليلة ذاتها (٧) ، إلا أن إعلان إمامة علي بن صلاح هي الأسبق .

ومع تمسك كل طرف بموقفه وإمامه ، أصبح أمر المواجهة بينهما لا بد منه ،

فتم ذلك على مرحلتين :

(١) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٧ .

(٢) هذا ما أكده الإمام عز الدين حين قال : " ... والذي يظهر والله يحب الإنصاف أن فراستهم فيه صدقت ... وأنه بلغ في أحكام السياسة وأحكام الرئاسة والاستقلال في الأمور وحسن المباشرة مبلغاً عظيماً لا يطمح وراءه طامح ... " . انظر : العناية التامة ، ق ١٧ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٩ .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١٠٨٠ .

(٥) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٠ ب . ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٨ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٩ .

(٧) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١٠٨٢ .

الأولى في بيت بوس^(١) ، وحدثت بعد أن خرج المهدي أحمد بن يحيى المرتضى من صنعاء إلى بيت بوس ليعلن إمامته من هناك^(٢) ، وحين أخبر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح بذلك ، أدرك بأنه لا يمكنه المضي في طريق الإمامة دون القضاء على دعوة المهدي أحمد ، ولا سيما مع توافر شروط الإمامة فيه ، وافقاره لها ، مما جعل موقفه ضعيفاً بين العامة والقبائل ، لذلك قرر الخروج من صنعاء إلى بيت بوس لتدارك الأمر قبل فوات الأوان ، ونظراً للفارق في القوة بين الجانبين ، تمكن الإمام المنصور بالله علي بن صلاح من أحكام الحصار على بيت بوس ، ودكه بالعرادات^(٣) ، حتى استسلم معظم من فيه ، باستثناء الإمام المهدي وبعضاً من أنصاره المخلصين .

وبينما الحال على ذلك ، تدخل القاضي الدواري في الصلح بين الطرفين ، على أن يتم في صنعاء أمر التفاوض في مسألة الإمامة^(٤) ، ومن هو أهل لها .

وبعد رجوع كل الأطراف إلى صنعاء أخذ الإمام المنصور بالله علي بن صلاح في حشد القبائل للوقوف في صفه^(٥) ، مما حدا بالإمام المهدي إلى التحرك هو الآخر في الاتجاه نفسه ، فخرج إلى حضور^(٦) لإقناع أهلها بالوقوف إلى جانبه . ونتيجة لأهمية دور القبائل في مثل هذه الأوضاع ، أخذ كل طرف ينتقل من منطقة إلى أخرى ، ومن قبيلة إلى غيرها ، حتى يقتنعهم بوجهة نظره وسلامة موقفه ، للحصول على تأييدها . أما المرحلة الثانية فحدثت في معبر^(٧) ، بعد ما استدعى

(١) بَيْتُ بَوْسٍ : بلدة وحصن في الجنوب الغربي من صنعاء بمسافة (خمسة كيلو مترات) ، تنسب إلى القليل ذي بوس بن شرحبيل أحد ملوك حمير . المقحفي ، معجم ، ص ٩٤ .

(٢) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٨ .

(٣) العرادة : آلة تشبه المنجنيق وأصغر منه ، وجمعها عرادات ، و ترمى بها الحجارة على الحصون وما شابه ذلك . دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية ، ص ١١٢ . عبد الغني محمود عبد العاطي ، أبو فراس بن دعثم وكتابه السيرة المنصورية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، العدد العاشر ، ١٩٨٩م ، ص ٢٦٢ .

(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٦ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٤٠ .

(٦) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٦ .

(٧) مَعْبَرٌ : مدينة بالجنوب من صنعاء بمسافة (٦٨ كيلو متراً) ، تقع في وسط قاع جهران بنذمار . المقحفي ، معجم ، ص ٦٣٧ .

الأشراف السليمانيون^(١) ، الإمام المهدي للوصول إلى جهتهم من ناحية جهران^(٢) ، وكان هدفهم من هذا الاستدعاء هو السيطرة على ذمار ، وقبل أن يتحقق ما كان يخطط له هؤلاء الأشراف ، سار الإمام المنصور بالله علي بن صلاح إلى ذمار لحمايتها منهم مما اضطر الإمام المهدي إلى التوقف في منطقة معبر^(٣) ، وهناك حدثت المواجهة ، وكان سببها أن الإمام المهدي أتفق مع قبائل عنس أن يلتقي بهم في معبر حتى يتمكن من الوصول إلى بلادهم^(٤) بسلام ، وبينما هو منتظراً لقدومهم ، وصلت الأخبار إلى الإمام المنصور بالله علي بن صلاح بوجوده في معبر في قلة من الرجال ، وكان مصدر هذه الأخبار شيخ معبر حمرة بن عمر^(٥) ، الذي ألح على الإمام المنصور بالله علي بن صلاح في انتهاز الفرصة قبل فواتها ، ولا سيما مع تفرق عسكر الإمام المهدي في بلاد جهران ، لحصار بعض الحصون والدروب^(٦) .

وليظفر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح بخصمه ، أرسل عسكره إلى معبر في الليلة ذاتها^(٧) من ذمار ، ولم يأت ظهر اليوم التالي إلا وقد استطاعوا محاصرة دار الشريف محمد بن مهدي بن قاسم السليمانى حيث كان الإمام المهدي موجوداً^(٨) . وبعد قتال استمر طيلة النهار ، وعدد كبير من القتلى ، وحصار استمر حتى فجر اليوم التالي ، أيقن الإمام المهدي بصعوبة مواصلة القتال ، فتم الحديث بين الطرفين على أن يسلم الإمام المهدي نفسه لعسكر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، مقابل الأمان له وللمن معه في الدار^(٩) .

(١) الأشراف السليمانيون : يعود نسبهم إلى سليمان بن عبد الله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبد الله المحض ، وليس إلى سليمان بن داود بن الحسن المثنى ، كما قد يظن البعض ، ومن المرجح أنهم استوطنوا المخلاف الذي نسب إليهم فيما بعد - المخلاف السليمانى - في تهامة ، في القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي . نظر : الملك الأشراف ، طرفة الأصحاب ، ص ١٠٨ - ١١١ . الفيضي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٥٩ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٥ .

(٣) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٢ ب .

(٤) المصدر نفسه ، ق ٦٣ أ .

(٥) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٩ .

(٦) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٣ أ .

(٧) المصدر نفسه والورقة .

(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٥ .

(٩) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٩ .

وحتى تتضح الأمور أكثر ، علينا أن نوضح الآتي :

١. أن السهولة التي تم بها القبض على الإمام المهدي لم تكن إلا لأمرين : الأول ما ذكره صاحب الكنز من أن العيون التي كانت ترصد للإمام المهدي الطرقات القادمة من دمار ، عادت إلى معبر في الليلة التي خرج فيها عسكر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح من دمار ^(١) ، وذلك بعد أن تبادل إلى مسامعهم أن الإمام المهدي عازم على الخروج إلى الكميم ^(٢) أو بلاد سنحان ، فظنوا أنه بحاجة لهم لتأمين طريقه إلى تلك البلاد ، وهذا يتناقض مع ما ذكره المؤلف نفسه من أن وجهة الإمام المهدي التالية كانت بلاد عنس ، وعليه فمن هو مصدر هذه المعلومات المغلوطة ، وهذا أن دل فإنما يدل على أن صفوف الإمام المهدي كانت مختربة ، ولا نستبعد أن يكون شيخ معبر هو مصدر هذه الإشاعات الكاذبة ، حتى يفسح الطريق أمام عسكر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح للوصول إلى معبر بسلام .

٢. أن قدوم هؤلاء العسكر إلى معبر تصادف مع موعد قدوم قبائل عنس ، فظن الإمام المهدي وأصحابه أن هؤلاء العسكر هم قبائل عنس التي كان ينتظرهم ^(٣) في معبر ، ولذلك لم يهرب من الدار التي كان فيها ، بل إنه واصل وضوءه وأدى صلاته وهم في طريقهم إليه ^(٤). وهذا يجعلنا نتساءل عن سبب تخلف قبائل عنس عن القدوم إلى الإمام المهدي في الموعد المحدد ، ولا سيما أن المواجهة بينه وبين عسكر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح استمرت يوماً وليلة ، وكان بإمكانهم إنقاذه لو أرادوا ذلك .

٣. أن الأمام المهدي لم يكن حسن التدبير في وقوفه في معبر في عدد قليل من الرجال لسببين : الأول : أنه كان يعلم أن شيخ معبر حمرة بن عمر من أنصار آل الإمام الناصر صلاح الدين ، وله تعلق بدولتهم ^(٥) ، ومع ذلك استأمنه على نفسه . والثاني : أنه أخطئ في تفريق عسكره في بلاد جهران ، والبقاء في

(١) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٣ أ .

(٢) الكُميم : مخلاف مشهور من أعمال ناحية الحدا . المقضي ، معجم ، ص ٥٥٩ .

(٣) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٣ أ .

(٤) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٩ .

(٥) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٢ ب .

عدد قليل من الرجال ، مع علمه بقرب العدو منه في ذمار ، إذا ما قرروا الهجوم عليه .

وبأسره للإمام المهدي ، اتجه المنصور بالله علي بن صلاح لتسوية أوضاعه مع بقية الأطراف التي استغلت حالة الفوضى والاضطراب التي أعقبت وفاة والده ، وكان في مقدمة هذه الأطراف :

أ. الدولة الرسولية :

على الرغم من الضعف الذي كانت تعانيه هذه الدولة في ذلك الحين ، فأنها رأت في هذه الأوضاع التي تمر بها الدولة الزيدية فرصة لا بد من اقتناصها ^(١) ، فأدلت بدلوها فيها ، وحاولت استثمارها لصالحها ، وكان أول ما قامت به في هذا الخصوص ، هو الاستيلاء على رداق بوساطة نائبها في تلك الجهات الشيخ طاهر بن عامر ^(٢) ، وبمساندة كبيرة من قبائل عنس ، وبني ضرار ، كذلك قام الملك الأشرف بن الأفضل الرسولي ، بإرسال مملوكه الشمسي بعساكر كثيرة إلى اليمن الأعلى ^(٣) للاستيلاء على ذمار ، ولكنه أخفق في ذلك ، نظراً لصمود الإمام المنصور بالله علي بن صلاح وأتصاره فيها ^(٤) ، ولم تقتصر أعمال الدولة الرسولية على إرسال العساكر والجيوش ، بل تعدتها إلى دعم أعداء الدولة الزيدية ^(٥) أمثال السيد إدريس بن

(١) الفيفي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ١٤١ .

(٢) بنو طاهر : أسرة يعود نسبها إلى قبيلة الذراحن الحميرية التي سكنت منطقة جبن برداع ، وتختلف المصادر التاريخية حول هذا النسب ، فمنها من ينسبهم إلى قريش ، وتحديدًا إلى بني أمية ، ومنها من تنسبهم إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بن مروان على وجه الدقة . والرأي الأول هو الأقرب إلى الصحة . انظر : ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٦١ . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٤٠٥ . بامخرمة : أبو محمد الطيب ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، تح : محمد يسلم عبد النور ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ج ٣ : ١١٢١ - ١١٢٧ . بافقيه : محمد بن عمر الطيب ، تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر ، تح : عبد الله الحبشي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٩ م / ١٩٩٩ م ، ص ١٢٤ . شرف الدين : عيسى بن لطف الله بن المطهر ، روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط مصور ، وزارة الإعلام والثقافة ، مشروع الكتاب ٧ / ١ ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ق ٨ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٤ .

(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٨ .

(٥) الفيفي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ١٤١ .

عبد الله بن داؤد ^(١) ، والداعي عبد الله بن علي ^(٢) بن الأنف ، لعلهم يحققون ما عجز عنه أمراء بني رسول .

ب. القبائل :

لم يكن الخطر الذي تواجهه الدولة الزيدية بعد وفاة الإمام الناصر صلاح الدين ، نابعاً من الدولة الرسولية ، أو الأشراف المنشقين عنها ، أو حتى الإسماعيلية ، بقدر ما كان نابعاً من تلك التمردات التي قامت بها العديد من القبائل في مختلف المناطق ، البعض منها كان بالتحالف مع الدولة الرسولية ، والبعض الآخر مع الإسماعيلية ، إلا أن السمة الغالبة فيها هي العفوية ، والرغبة في التخلص من السيطرة المركزية للدولة الزيدية ، ولذلك قامت هذه القبائل بالعديد من التمردات فور سماعها بوفاة الإمام الناصر ، ونشوب الصراع على الإمامة بين الإمام المنصور بالله علي بن صلاح والإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، وكان أبرز هذه التمردات :

- قيام أهل البلاد المنحجية ^(٣) بالوثوب على حصون جهاتهم ، وطرد عمال الدولة الزيدية منها .
- استيلاء أهل الجرشة ^(٤) على حصن النواس ، وطرد واليه منه .
- سيطرة قبائل همدان على حصون الدولة الزيدية بالقرب من صنعاء ، كالقلعة ، وفدة ، وبيت أنعم ، ولؤلؤة ^(٥) .
- وثوب أهل حضور على والي الدولة الزيدية في منطقتهم ، والاستيلاء على الحصون .
- سيطرة بني شهاب على بيت حنبص ، وحدة ، وبيت برام .

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٥ .

^(٢) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٢٤٢ .

^(٣) مَنَحِج : قبيلة تنسب إلى عرب بن زيد بن كهلان . ابن حزم : أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد ، جمهرة أنساب العرب ، راجع النسخة : لجنة من العلماء بإشراف محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ م ، ص ٣٩٧ . كحالة : عمر رضا ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ج ٣ : ١٠٦٢ .

^(٤) الجَرَشَةُ : عزلة من بلاد عنس وأعمال نمار . المقففي ، معجم ، ص ١٣٢ .

^(٥) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٧ .

- امتناع قبائل سنحان ، وأهل البون ، ومن يليهم من بلاد الظاهر ، عن أداء الحقوق الواجبة عليهم للدولة الزيدية ^(١) ، وقطعهم الطرق على الإمام المنصور بالله علي بن صلاح وأعوانه ^(٢) .
- إخراج أهل السودة لعامل الدولة الزيدية عليهم ^(٣) .
- خلاف بني شاور ^(٤) في بلاد لاعة ^(٥) مع الدولة الزيدية ، واستيلائهم على حصن عفار ^(٦) ، بمساعدة من أهل ميتك ، والسود ، وجبل عيال يزيد ^(٧) .
- خلاف أهل دروان الحقل من بلاد يريم .
- استيلاء بنو الحارث ^(٨) على حصن منيف ^(٩) .

ج . الأشراف الزيديون :

إذا ما استثنينا الصراع الذي حدث بين الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، والإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، يبقى معنا عدد من الأطراف يأتي في مقدمتهم :

-
- ^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٥٢ .
- ^(٢) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٣١ .
- ^(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٥٧ .
- ^(٤) بنو شاور : بطن من حاشد الهمدانية ، من ولد شاور بن قدم بن زيد بن عريب بن جشم ، وإليهم تنسب بلدة شاور في لاعة . الهمداني ، الإكليل ، ج ١٠ : ١١٦ . المقحفي ، معجم ، ص ٣٤٨ .
- ^(٥) لاعة : بلدة معروفة في بلاد حجة وإليها تنسب عدن - لاعة . المقحفي ، معجم ، ص ٥٦٧ .
- ^(٦) عفار : حصن وجبل في بلاد كحلان ، بالشمال الشرقي من حجة ، بمسافة (٢٧ كيلو متراً) . المقحفي ، معجم ، ص ٤٥٨ .
- ^(٧) عيال يزيد : من قبائل بكيل ، في ناحية عمران شمال صنعاء ، بمسافة (٧٠ كيلو متراً) المقحفي ، معجم ، ص ٤٨١ .
- ^(٨) بنو الحارث : قبيلة من ولد الحارث بن كعب بن عله بن جلد بن مذحج ، وتقع ديارها شمال صنعاء بمسافة (خمسة كيلو مترات) . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٨١ . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ٢ : ٢٠٨ . المقحفي ، معجم ، ص ١٥٥ .
- ^(٩) منيف : من الحصون القريبة من تربة ذبحان في بلاد المعافر . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٧٢٢ . المقحفي ، معجم ، ص ٦٧١ .

• الأمير إدريس بن عبد الله :

لم ينس هذا الأمير ما فعله الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي من الحيلة والمكيدة ، للاستيلاء على صنعاء ، بعد زواجه من أمه ، لذلك رأى أن الأوان قد آن لاستعادتها ، بعد وفاة هذا الإمام ، وما تلا ذلك من الصراعات وحروب ، وكان أول ما فعله في هذا الشأن ، هو التنسيق مع حلفائه التقليديين من قبائل همدان ، وخولان ، للسيطرة على صنعاء ، ونظراً لتماسك أنصار الإمام المنصور بالله علي بن صلاح المتمركزين في المدينة ، لم يتمكن من دخولها ، وظل محاصراً لها لمدة ثلاثة أشهر^(١) ، حتى كاد أهلها يستسلمون بسبب قلة الطعام فيها ، ولولا تدارك الإمام المنصور بالله علي بن صلاح لهم لسقطت المدينة .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أن الأمير إدريس لم يترك سبيلاً لاستعادة صنعاء إلا سلكه ، ابتداءً من التنسيق مع القبائل ، ومروراً بالتحالف مع الداعي الإسماعيلي عبد الله بن محمد الأنف ، ووصولاً إلى الاستعانة بالدولة الرسولية ، ومع كل ذلك ، لم ينجح فيما أراد .

• السيد علي بن أبي الفضائل :

كان الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى — قبل أن يؤسر في معبر — قد استخلف السيد علي بن أبي الفضائل على رصابة^(٢) ، وبعد أن أسر الإمام المهدي دعا هذا السيد لنفسه دعوة لم يستجاب لها^(٣) ، ولم تكن ذا تأثير ، ومع ذلك كان له دور رئيس في الصراع مع الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، إذ تذكر بعض المصادر^(٤) ، أنه ساعد الأشراف السليمانيين في حصارهم لصنعاء ، من خلال قطع الطريق بينها وبين ذمار ، تزامن ذلك ، مع الحصار الذي قام به الأمير إدريس بن عبد الله من الجهة الشمالية لها ، كما تؤكد هذه المصادر ، حدوث قتال بين أتباعه ، وأنصار الإمام المنصور بالله علي بن صلاح على بعض المناطق .

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٣ .

(٢) رُصَابَة : أكبر قرى قاع جهران بدمار ، تبعد عن صنعاء بمسافة (٧٥ كيلو متراً) . المقففي ، مع ، ص ٢٧٦ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٦ .

(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٣١ .

• أشرف صعدة :

إنه وفاة الإمام الناصر صلاح الدين ، وخروج القاضي عبد الله بن حسن الدواري من صعدة إلى صنعاء ، قام بعض هؤلاء الأشراف ، ولاسيما من الحمزيين ، بالاستيلاء على مدينة صعدة ، وقتل واليها (١) ، ومع أنهم تمكنوا من الاستيلاء على المدينة ، إلا أنهم فشلوا في السيطرة على الحصون : كتلمص ، وبراش ، والمنصورة ، وهو ما أفقد الانتصار الذي حققوه في المدينة ، أي معنى ، أو أهمية عسكرية (٢) .

د. الإسماعيلية (٣) :

وعلى رأسها في ذلك الحين ، الداعي عبد الله بن علي بن محمد الأنف ، الذي أسهم مع الأمير إدريس بن عبد الله في حصار صنعاء ، وقد سبق وأشرنا إلى ذلك آنفاً ، ولكن الأمر الذي نود الإشارة إليه بهذا الخصوص ، هو دور بقية الإسماعيلية – الباطنية – في إرياب (٤) ، وعراس (٥) ، وكحلان (٦) ، وآل حجاج (٧) وتحالفهم مع قبائل بني شرحة ، وأهل الشعر ، ضد الإمام المنصور بالله علي بن

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٧ .

(٢) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٣٠ .

(٣) الإسماعيلية : فرقة شيعية باطنية تنسب إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ... بن علي بن أبي طالب ، وسبب تسميتهم بهذا الاسم ، أنهم قالوا أن الإمامة بعد جعفر الصادق لولده إسماعيل ، ورفضوا أن تنقل من إسماعيل لأخيه موسى ، سواء في حياته أم بعد وفاته ، وأصرروا أن تبقى الإمامة في ذرية إسماعيل من بعده ، وعليه سمي من قال بهذا الرأي بـ : الإسماعيلية ، ومن وافق على نقل الإمامة إلى موسى بـ : الموسوية . وقد ظهرت هذه الدعوى في اليمن وقامت على أساسها دولة في القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي ، على يد علي بن الفضل الجيشاني ، والحسن بن فرج بن حوشب الكوفي . انظر : الديلمي : محمد بن الحسن ، بيان مذهب الباطنية وبطلانه منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد ، عني بتصحيحه : ر . شر . وطمان ، النشرات الإسلامية (١١) ، مطبعة الدولة ، استانبول ، ١٩٣٨ م ، ص ٢٣ – ٢٤ . الفقي ، اليمن في ظل الإسلام ، ص ١٢٧ . الغالبي : سلوى سعد سليمان ، الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم ودوره في توحيد اليمن (١٠٥٤ – ١٠٨٧ م) ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ص ٢٦ – ٢٧ .

(٤) إرياب : عزلة واسعة في بلاد يريم ، تضم ما يزيد عن أربعين قرية . المقحفي ، معجم ، ص ٢٧ .

(٥) عَرَس : عزلة إلى الجنوب من مدينة يريم ، ومتصلة بحدودها . المقحفي ، معجم ، ص ٤٤٣ .

(٦) كحلان : اسم مشترك بين عدد من المناطق في اليمن ، والمقصود من النص ، كحلان حضور التي تقع إلى الشرق من يريم بمسافة (٢٣ كيلو متراً) . المقحفي ، معجم ، ص ٥٥٠ .

(٧) آل حجاج : مخلاف واسع من ناحية جبن وأعمال رداع . المقحفي ، معجم ، ص ١٦٧ .

صلاح^(١) ، بل إن الأمر وصل ببعضهم إلى حد التآمر على قتله ، بعد أن أرسلوا إليه كتاباً يطلبون منه فيه الوصول إليهم لقبض بلادهم ، وحين وصل إلى تلك البلاد ، تألب عليه هؤلاء الباطنية وكادوا يقتلوه^(٢) ، لولا استماتة أصحابه في الدفاع عنه .

سابعاً : سياسة الإمام المنصور مع القوى المتمردة :

بعد فشل الرسولين في الاستيلاء على ذمار ، اكتفوا بالسيطرة على رداع ، ولكن الإمام المنصور بالله علي بن صلاح لم يمكنهم من ذلك ، وظلت الحرب بينهما على رداع سجلاً^(٣) ، تارة تسيطر عليها الدولة الرسولية ، وأخرى تسيطر عليها الدولة الزيدية ، وبالنظر إلى هذه الحال ، فقد مل الرسوليون القتال ، وأثروا الصلح مع الإمام المنصور^(٤) وكان هذا الصلح في سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٤ م^(٥) .

وإثر هذا الصلح ، عقدت الدولة الزيدية صلحاً ثانياً مع الأمير إدريس بن عبد الله^(٦) و ثالثاً^(٧) مع الداعي الإسماعيلي عبد الله بن علي بن الأنف ، نص على قدر معين من

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٣ .

(٢) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٣٦ .

(٣) عن هذه الحروب انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٨ .

(٤) تكمن أسباب هذا الصلح في الآتي :

أ- إصرار الإمام المنصور بالله علي بن صلاح على السيطرة على رداع وبلادها مهما كلفه الثمن ، وذلك لقربها من مدينة ذمار ، مقر حكمه ، وعاصمة دولته .

ب- تدهور الأوضاع في الدولة الرسولية ، بعد أن عمت الفوضى والاضطرابات تهامة ، وانتشرت الفتن بين الناس ، وسيطرة الأشراف السليمانيين على حرض ، ناهيك عن تمردات قبائل المعازبة المستمرة ، التي أدت إلى خراب العديد من الجهات في نواحي زبيد ، وقطع الطرق منها وإليها .

ج - بوادر حسن النية التي أبدتها الإمام المنصور بالله علي بن صلاح تجاه الملك الأشرف الرسولي ، عندما أرسل إليه خمساً من جواد الخيل ، وخمسة أحمال من الأمتعة الرفيعة كهدية . انظر :

يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٥١ . أنباء الزمن ، ق ٢٣٥ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٦١ .

(٦) تُعزى أسباب هذا الصلح إلى الآتي :

أ- فشله في الاستيلاء على صنعاء خلال تلك المدة ، على الرغم من المؤازرة والمناصرة التي حُضي بها من بعض القبائل ، والدعم الذي تلقاه من قبل الرسولين .

ب- انقطاع هذا الدعم بسبب تدهور الأوضاع في الدولة الرسولية . انظر : يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٣٥ .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٦١ .

المال تؤديه الإسماعيلية وهمدان للدولة الزيدية ، فضلاً عن تسليم حصني المنقب ، ومصنعة الظلع ، مقابل إيقاف الحرب بين الجانبين .

أما عن تعامل الإمام المنصور مع القبائل ، فقد استخدم أسلوبين :

١. القوة العسكرية :

كان الإمام المنصور بالله علي بن صلاح يدرك جيداً إن التمردات القبلية هي الخطر الأكبر على دولته ، وأن القبائل لا تفهم لغة في التعامل معها إلا لغة القوة ، واستناداً إليه ، تمكن هذا الإمام من إخضاع العديد من القبائل بعد عددٍ من المعارك التي خاضها معها ، وقد أعطى هذا الأسلوب الذي استخدمه الإمام المنصور مع القبائل ، انطباعاً لديها مفاده ، أن الأوضاع في الدولة الزيدية لم تكن بالضعف الذي تصورته ، وأنها – أي الدولة الزيدية – ما زالت قوية قادرة على الصمود ، ويصعب التمرد والخروج عليها . ولا أدل على ذلك من بقاءها في ذلك الحين ، على الرغم من كثرة الأعداء ، وتعدد الجبهات .

٣. تخريب البنية الاقتصادية :

فضلاً عن أسلوب القوة العسكرية ، استخدم الإمام المنصور هذا الأسلوب في قمع التمردات القبلية ، وذلك لأنه يهدد هذه القبائل في وجودها وكيونيتها ، ويصبح ما تمردت من أجله ، غير ذا جدوى أمام ما قد تتعرض له من الإبادة بسبب الجوع ، والبرد ، والعطش ، ولذلك عادة ما تخضع القبائل إذا ما أتبع معها هذا الأسلوب .

ويبدو أن الإمام المنصور بالله علي بن صلاح كان مدركاً لهذا الأمر ، فعمل بمقتضاه بعد أن وصلت القبائل في تمرداتها إلى مرحلة تهدد فيها كيان الدولة الزيدية ، وتزعزع استقرارها ، ابتداءً من الامتناع عن أداء الحقوق الواجبة عليها، و مروراً بقطع الطرق بين المدن ، ونهب المسافرين ، ووصولاً إلى المشاركة الفعالة مع أعداء هذه الدولة في الحرب ضدها .

وتطبيقاً لهذا الأسلوب قام الإمام المنصور بالله علي بن صلاح بخراب الدور ، وقطع الزروع ، ورمم الآبار ^(١) ، وتثريد أفراد القبائل المتمردة في بيت برام ، وبيت ردم ،

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٥٣ .

وريعان ، وعراس ، وخمر ^(١) ، والجنات ، وخيوان ^(٢) ، وبيت حنبلص ، وحدة ، وعمران ، وغيرها من المناطق التي لا يمكننا حصرها ، ولنا أن نتصور أن تعيش قبيلة بأكملها دون ماء أو مأوى أو طعام . ولهذا كله لم تجد معظم القبائل التي تمردت بدأً من الخضوع مرة أخرى للدولة الزيدية .

ولم يكد الإمام المنصور يحسم أمره مع الدولة الرسولية ^(٣) ، والإسماعيليين والقبائل ، حتى استجدت له جبهة جديدة قديمة ، تمثلت في هروب الإمام المهدي أحمد

-
- (١) خمر : بلدة مشهور في بلاد حاشد ، وهي مركز بني صريم . المقحفي ، معجم ، ص ٢٢٤ .
- (٢) خيوان : مدينة وواد مشهور في حوث ، إلى الشمال من صنعاء بمسافة (١٢٢ كيلو متراً) . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ٢ : ٣٢٣ . المقحفي ، معجم ، ص ٢٣٤ .
- (٣) كان الصلح الذي عقده الإمام المنصور بالله علي بن صلاح مع الدولة الرسولية سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٤ م مؤقتاً ، أملت الأوضاع التي كانت تمر بها كلتا الدولتين ، الزيدية والرسولية ، ولما استقرت الأوضاع في الدولة الزيدية ، تجدد الصراع بين الدولتين على خلاف رداع في سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م ، وظلت الحرب بينهما سجلاً ، تارة ينتصر هؤلاء ، وتارة ينتصر أولئك ، وتارة يصطلحون ، حتى وفاة الإمام المنصور في سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م . عن هذه الحروب ونتائجها ، انظر : مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ١٨٢ - ١٨٣ ، ١٨٥ - ١٨٦ ، ١٨٨ - ١٨٩ ، ١٩٩ - ٢٠٣ ، ٢٠٥ . الفيفي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ١٤٣ - ١٤٤ . وبعد وفاة الإمام المنصور ، والصراع الذي حدث على الإمامة في الدولة الزيدية ، استولى بنو طاهر ، بصفتهم ولاية للدولة الرسولية على العديد من الحصون والمناطق مما يلي مخلاف رداع شمالاً وغرباً ، ولذلك ، واستشعاراً للخطر الذي يمثلونه على الدولة الزيدية ، خاض الإمام الناصر بن محمد - بعد تفرده بالإمامة وبالتحالف مع بعض القبائل في تلك الجهات كآل عمار وغيرهم - حرباً ضروساً معهم ، قُتل فيها اثنان من أولاد طاهر بن عامر بن معوضة (داود وعبد الباقي) ، قبل أن تسقط الدولة الرسولية ، وتقوم الدولة الطاهرية على أنقاضها في سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م . انظر : ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٤٦ وما بعدها . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٨١ . الفيضلي : محمد أحمد مقبل ، تاريخ الدولة الطاهرية (٨٥٨ - ٩٤٥ هـ) ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م ، ص ١٤ - ١٥ .

بن يحيى المرتضى من السجن في صنعاء (١) ، وتوجهه إلى فللة (٢) ، والتقائه بالإمام الهادي علي بن المؤيد (٣) .

ومع اجتماع الإمامين المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، والهادي علي بن المؤيد ، استقر رأيهما على التحالف ضد الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، والتحرك إلى صعدة (٤) للسيطرة عليها ، وكان ذلك في سنة ٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م ، وعلى الرغم من استيلائهما عليها ، إلا أن مماليك الإمام المنصور بالله علي بن صلاح وعسكره استطاعوا إخراجهما منها في السنة نفسها (٥) ، ونتيجة لذلك عاد الإمام الهادي إلى فللة واستقر بها ، بينما سار الإمام المهدي إلى بلاد حجة معتزلاً للإمامة حتى سنة وفاته (٦) .

ثامناً : العوامل التي ساعدت على بقاء الدولة الزيدية :

١. الصفات الشخصية للإمام المنصور بالله :

وأولها الشجاعة التي تجسدت في ما ذكره ابن الحسين حين قال : " وفيها — أي سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م — جهز الأشرف الرسولي ... مملوكه ابن الشمسي بعساكر كثيرة إلى اليمن الأعلى . فلما وصل أرياب بذل الأموال ، واستخدم الرجال وشن الغارات على نمار ... وأقبل الإمام المهدي ... إلى جهران ... وقطعوا المادة من صنعاء إلى نمار ، وعلي بن صلاح الدين واقف في قصر نمار لم يرتع لهذه الحوادث الكبار حتى لقد راوده أصحابه على الانتقال من نمار إلى بعض الحصون

(١) كان ذلك في سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م — أي بعد سبع سنوات قضاها في السجن — وبمساعدة من بعض العسكر المكلفين بحراسته من أهل الصيد ، بعد أن حفظهم القرآن ، وعلمهم معانيه وتفسيره . انظر : المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٥ أ . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٢٣٠ .

(٢) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٦ ب .

(٣) كان الإمام الهادي علي بن المؤيد قد أعلن إمامته في سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م ، بعد أسر الإمام المهدي في معبر ، وتضاعل الآمال في خروجه ، ونظراً لقلّة أنصاره ، وقوة خصمه الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، ظل طوال سنوات إمامته الماضية مستقراً في فللة ، دون أن يقوم بأي عمل ، باستثناء محاولته الوحيدة والفاشلة للسيطرة على صعدة في سنة قيامه ، ولذلك تجاهل الإمام المنصور أمره وكأنه لم يكن ، ولأنه لا يشكل خطراً حقيقياً على دولته ، مقارنة ببقية الأطراف . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٠١ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٤٦ .

(٤) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٦ ب .

(٥) المصدر نفسه والورقة .

(٦) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٠٣ .

فلم يلتفت إلى قولهم . وكان شديد البأس ولم يبرح كذلك حتى تفرقت عنه الجموع ... " (١) . وثانيهما : الإقدام الذي تمثل في قتاله لأعدائه في معظم المناطق من صعدة إلى صنعاء ، وصولاً إلى ذمار ، وهذا ما أكده ابن الحسين أيضاً حين قال : " وكان الإمامان - الهادي والمهدي - قد جعلاً عيوناً يأتون إليهما بالأخبار عن علي بن صلاح الدين ... لعلمها بشدة إقدامه وصبره على معاودة السفر ومنع النوم بالشهر . فأتاهما الخبر بقدم ذلك العسكر ... وخرجا من صعدة فوراً " (٢) .

ولأهمية الموضوع ، نوضح أن هذه الصفات التي ساعدت الإمام المنصور بالله علي بن صلاح على الوقوف في وجه أعدائه ، إنما هي عائدة إلى تربيته منذ الصغر ، تربية تعتمد على الفروسية والقتال ، ولا سيما وهو ابن الإمام الناصر صلاح الدين الذي عُرف بالشجاعة والإقدام ، وحفيد الإمام المهدي علي بن محمد الذي كان كذلك ، كما علينا أن لا نغفل تأثير والدته الكردية فاطمة بنت الأسد وأخواله الأكراد في ذلك ، وخاصة مع ما هو معروف عن الأكراد من الفروسية وحب القتال .

٣ . دور المماليك والعبيد :

إن المتأمل للأحداث التي مرت بها الدولة الزيدية في ذلك الحين ، يلاحظ بوضوح الدور الكبير الذي قام به المماليك والعبيد في مساندة الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ضد أعدائه ، وهو أمر لم يكن مألوفاً قبل ذلك ، إذ يبدو أن الانقسام بين الأشراف الزيديين حول الإمامة ، فسح المجال لهؤلاء المماليك والعبيد للقيام بأدوار رئيسية في الصراع الدائر مع مختلف الأطراف ، وبصورة لا تقل أهمية عما قام به الإمام المنصور بالله علي بن صلاح والأشراف المساندين له . ويأتي في مقدمة هؤلاء : الفتى ربحان (٣) الذي كان له دور مهم في إخضاع العديد من القبائل المتمردة على الدولة الزيدية ، ولا سيما منها القرية من صنعاء ، حتى انتهى به الأمر مقتولاً على يد أنصار الأمير إدريس بن عبد الله من همدان (٤) ، والمملوك قاسم بن عبد الله سنقر (٥) الذي أوكلت إليه مهمة الدفاع عن صعدة ، وتمكن في مرات عدة من طرد

(١) غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٤ .

(٢) أنباء الزمن ، ق ٢٣٥ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٣ .

(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٨ .

(٥) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٦ ب .

الأشراف الزيديين المنشقين عن الدولة الزيدية منها ، حتى استقرت الأوضاع فيها ،
والمملوك مبارك بن عبد الله ^(١) الذي أسندت إليه مهمة التصدي والقضاء على
التمردات القبلية البعيدة عن صنعاء .

وتأسيساً على ما تقدم ، نستطيع القول أن هناك عدداً آخر من المماليك والعبيد
الذين أسهموا في هذا الصراع مع الإمام المنصور بالله علي بن صلاح وإن لم تُذكر
أسمائهم في المصادر ، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار تعدد جبهات القتال وكثافتها ، مما
جعل الإمام المنصور بالله علي بن صلاح في حاجة ملحة لأمثال هؤلاء ، وتحديدًا ممن
اشتهر بالولاء والإخلاص . ونختتم هذه النقطة بالإشارة إلى دور الإمام الناصر صلاح
الدين في استئثار المماليك والعبيد في الدولة الزيدية ، ولا شك أن لزوجته فاطمة
الكردية دوراً رئيساً في ذلك .

٣ . ثبات موقف زوجة الإمام الناصر صلاح الدين :

التي وإن لم تباشر القتال بالسيف ، إلا أنها بأشرته بالإدارة وتدبير الأمور ،
فيذكر ابن الحسين ^(٢) أنه لما اتصلت الفتنة ، وتعاضمت المحنة على الدولة الزيدية ،
واضطر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح للخروج من صنعاء إلى ذمار ، استخلف
على صنعاء والدته فاطمة بنت الأسد الكردي ، وكانت هي صاحبة الحل والعقد فيها ،
وفي أعمالها ، كما كانت تباشر بنفسها تجهيز الحملات والعاكر إلى المناطق
المضطربة القريبة والبعيدة عن صنعاء ، وخاصة مع انشغال ولدها بالقتال في ذمار
ونواحيها .

ونحن نعتقد أنه لولا وجودها في صنعاء ، لما صمدت المدينة في وجه
أعدائها والمحاصرين لها ، ولأختلف الوضع كثير عما صار إليه .

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٥٧ .

^(٢) غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٥٦ . لُبَاءُ الزَّمَنِ ، ق ٢٣٥ .

الفصل الثالث

أسباب ضعف الإمامة الزيدية

لقد بات من المؤكد أن هناك عوامل عدة أسهمت في ضعف الإمامة الزيدية
ولعل أبرزها :

أولاً : الأسباب السياسية :

١ . تدخل المرأة والمماليك في الإمامة :

سبق وأن أشرنا إلى الدور الذي قامت به السيدة فاطمة بنت الأسد الكردي زوج
الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، ووالدة الإمام المنصور بالله علي بن
صلاح ، في مسألة صمود الدولة الزيدية بعد وفاة الإمام الناصر ، ومساعدتها لولدها
الإمام المنصور بالله في حربه ضد أعدائه . وقد أشرنا أيضاً إلى دور بعض المماليك
والعبيد في الشأن نفسه ، ومع أنه كان تتدخل إيجابياً – في ذلك الحين – يصب في
مصلحة الإمامة الزيدية ، إلا أنه كان أول تدخل من نوعه في هذه الإمامة عبر تاريخها
الطويل .

ونظراً لتداخل دور المرأة والمماليك في هذا الموضوع ، لم نستطع أن نفصل
بينهما ، بل إننا نستطيع القول ، أن دور المماليك في الإمامة ما هو إلا انعكاس لتدخل
المرأة فيها ، فالمملوك والعبد أسهل انتقاداً وتبعية للمرأة من الحر الشريف الذي ينأى
بنفسه أن يكون تابعاً للمرأة ، ولو كانت زوجة للإمام أو أمه .

أما عن سبب هذا التداخل بين دور المرأة والمماليك في شؤون الإمامة ، فيمكن
حسب اعتقادنا في تعصب هؤلاء المماليك والأكراد عموماً للإمام المنصور بالله
علي بن صلاح ، لا لأنه مستحق للإمامة بعد وفاة أبيه الإمام الناصر ، وإنما لأن أمه
كردية الأصل ، وعليه فإن الوقوف إلى جانبه هو في حقيقة الأمر وقوف في مصلحة
العنصر الكردي والمملوكي في اليمن .

ونظراً لقوة شخصية الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، ظل دور المرأة
والمماليك محصوراً ومُسيطرًا عليه ، وعامل قوة واستقرار للدولة الزيدية ، وبعد وفاة
الإمام المنصور في سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م ^(١) ، آل الأمر من بعده لولده محمد ^(٢)
ولكن الأخير لم يلبث على رأس الإمامة الزيدية سوى أربعين يوماً ^(٣) ، توفي بعدها

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٣ . ثبأ الزمن ، ق ٢٤٠ .

^(٢) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٢٩ .

^(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠٥٢ . العرشي ، بلوغ المرام ، ص ٥٣ .

بسبب الطاعون الكبير الذي عم أرجاء اليمن ، وحصد عشرات الآلاف ^(١) — إن لم نقل مئات الآلاف — من سكان اليمن عموماً ، بما فيهم الإمام المنصور بالله علي بن صلاح والإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ^(٢) .

ونتيجة لذلك لم يبقَ من آل الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي بن محمد بعد وفاة أبنائه ، سوى الشريفة فاطمة بنت الحسن بن صلاح الدين محمد ^(٣) ، التي كانت في الوقت ذاته زوجاً للإمام محمد بن علي بن صلاح ^(٤) ، فلما مات زوجها ومات معه الآلاف من سكان صنعاء بسبب الوباء ، سيطرت على زمام الأمور بمساعدة مملوك — زوجها — قاسم بن عبد الله بن سنفر ^(٥) ، ولأن الأشراف الزيديين لا يقبلون بولاية المرأة عليهم ، ولا يجيزون تولى المرأة للإمامة ، كان لابد من تنصيب إمام جديد للزيدية ، وبعد التشاور فيما بينها وبين مملوكها قاسم ^(٦) ، تم الاتفاق على إقامة السيد صلاح الدين بن علي بن محمد بن أبي القاسم ^(٧) ، وهو أمرٌ يتم لأول مرة في تاريخ الزيدية في اليمن ، وذلك أن يعين إمام للزيدية من قبل امرأة ومملوك ، مهما كانت صفاته ودرجة بلوغه في العلم والاجتهاد ونحوهما ، لأن هذا الأمر من اختصاص العلماء والفقهاء والشيوخ المشهود لهم بالعلم والثقة دون غيرهم ، فما بالنساء والمماليك .

ولإضفاء صفة الشرعية على حكم الشريفة فاطمة بنت الحسن ، تم زواجها من الإمام الجديد ^(٨) ، الذي لم يلبث أن أدرك أنه مجرد غطاء شرعي لسلطة الشريفة والمملوك ^(٩) ، وذلك ما لم يرتضه لنفسه ، فقرر التخلص من المملوك قاسم ^(١٠)

(١) ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٩٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٢ .

(٢) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٢٣٣ . العرشي ، بلوغ المرام ، ص ٥٣ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠٥٢ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٣ .

(٤) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٠ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٣ . أنباء الزمن ، ق ٢٤١ .

(٦) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٠ .

(٧) ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٩٨ .

(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٣ . أنباء الزمن ، ق ٢٤١ .

(٩) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٠ . ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٥ .

(١٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٤ . أنباء الزمن ، ق ٢٤١ .

بتحريض بعض العسكر على قتله ، ولكن الخطة فشلت (١) ، وبدلاً من أن يتخلص من المملوك قاسم ، استطاع هذا المملوك بنفوذه وقوته التخلص من الإمام بإيداعه السجن (٢) رغباً عن زوجته الشريفة فاطمة ، التي كان يعتقد أنها متواطئة معه ، وبدأ يتصرف وكأنه الإمام الشرعي والحاكم الفعلي الذي بيده الأمر والنهي (٣) دون مشورة من أحد .

ثم إن الشريفة فاطمة تمكنت بنفوذها السابق من إخراج زوجها الإمام المهدي صلاح الدين بن علي من السجن ، والذهاب معه إلى صعدة (٤) ، حيث ما زال لها الحكم والنفوذ هناك .

ولأن الزيدية لا تقبل بولاية من ليس من نسل علي بن أبي طالب ، وتحديداً من ولديه الحسن والحسين ، كان لزاماً على المملوك قاسم أن ينصب إماماً جديداً للدولة من هذا الأصل ، ولاسيما بعد هروب الإمام المهدي صلاح من السجن ، ولذلك قرر إقامة الناصر بن محمد (٥) - حفيد الإمام المنصور بالله علي بن صلاح من أمه مريم (٦) - وكان صغيراً في السن (٧) آنذاك ، وظن أنه بهذا الاختيار يستطيع السيطرة على مقاليد الأمور ، رغم وجود هذا الإمام ، والمؤكد في الأمر أن الإمام الناصر لم يكن ذلك الشخص الذي يريده المملوك قاسم ، لأنه لم يرض أن يكون تابعاً لمملوك وهو من نسل الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، فكان لا بد من حدوث الاختلاف بين الطرفين ، وقبل أن يتمكن المملوك قاسم من أسر الإمام الناصر (٨) ، تمكن الأخير من الخروج من صنعاء (٩) بمساعدة كبيرة من بعض عبيد جده ، الذين

(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٥ . ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٦٦ .

(٢) ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٩٨ . الحبسي ، تنمة الإفادة ، ق ٥٦ .

(٣) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٣ .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٦ . ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٦٦ . الحبسي ، تنمة الإفادة ، ق ٥٦ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأملني ، ج ٢ : ٥٧٤ . أنباء الزمن ، ق ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٦) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٣ .

(٧) ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٩٨ .

(٨) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٦ .

(٩) يذكر ابن الأنف أن والدة الإمام الناصر (مريم بنت علي بن صلاح) قامت بطلاء وجه ولدها باللون الأسود وأخرجته من قصر صنعاء بين مجموعة من الجوارى والإماء حتى لا يعرفه أحد . انظر :

روضة الأخبار ، ص ٣٥ . يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٤٢ .

تضرروا من سياسة المملوك قاسم^(١) وتعرضوا لظلمه ، وبعد خروجه من صنعاء أتجه إلى ذمار ليستقر في حصن هران^(٢) - معقل جده - بعد أن تسلمه من بعض الخارجيين عن طاعة المملوك قاسم^(٣) .

أما المملوك قاسم فإنه وبعد خروج الإمام الناصر من صنعاء ، قام باستدعاء الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان^(٤) ، الذي كان قد أعلن دعوته بعد وفاة الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، وأجابه الكثير من العلماء في الأهرج من بلاد حمير^(٥) ، ولا سيما بعد ما آلت إليه الأوضاع من تغلب الشريفة فاطمة والمملوك قاسم على الحكم قبل اختلافهما .

إن هذه الفوضى السياسية التي انتابت الإمامة الزيدية نتج عنها وجود ثلاث قوى على رأس كل قوة إمام زيدي ، فإلى جانب الإمام المتوكل على الله الذي دخل إلى صنعاء في سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م ، كان هناك الإمام المهدي صلاح الدين بن علي ابن محمد في صعدة ، تسانده في ذلك زوجته الشريفة فاطمة بنت الحسن وأنصارها . وكان هناك أيضاً الإمام الناصر بن محمد في ذمار ، يناصره عبيد ومماليك جده الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، الخارجيين عن طاعة المملوك قاسم بن سنقر .

ولأنه لا بد من حسم الصراع على الإمامة لصالح طرف دون آخر ، خرج الإمام المتوكل على الله والمملوك قاسم من صنعاء لحرب الإمام الناصر في ذمار^(٦) ، وحين بلغ الإمام الناصر خروجهما من صنعاء ، تجهز بعسكره وخرج للقائهما في سنة

(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٦ .

(٢) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٥ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأملني ، ج ٢ : ٥٧٥ . أنباء الزمن ، ق ٢٤٢ .

(٤) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٤ . ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٦ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأملني ، ج ٢ : ٥٧٤ .

(٦) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٤٢ . وفي بعض المصادر أنهما خرجا من صنعاء قاصدين الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل الرسولي يطلبان دعمه في قتلهما للإمامين المهدي والناصر . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٢٢ . ويذكر ابن الأنف أن بعض الأشراف نصح المملوك قاسم بن سنقر بعدم النزول إلى اليمن الأسفل حتى لا يقع في كمين الإمام الناصر بن محمد ، لأن النزول من صنعاء إلى اليمن الأسفل لا بد فيه من المرور بدمار ، وهي تحت سيطرة الإمام الناصر ، وإن كان مصراً على ذلك ، فلا بد عليه أن يرجع إلى صنعاء ويستعد لملاقاته ، وحين هم بسماع قولهم ، قال له صهره الكردي : " يردك غلام وأنت قاسم المشهور الذي يحذره الملوك " ، فكابر ونزل على حالته تلك غير مستعد لاحتمال ملاقاته الإمام الناصر . انظر : روضة الأخبار ، ص ٣٩ .

٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م ، وكان على حداثة سنه عالي الهمة سريع النهضة ^(١) ، وفي موضع من ناحية جهران في ذمار يسمى قريس ^(٢) ، التقى بهما ، وكانت نتيجة القتال ، انتصار الإمام الناصر ، وأسره للإمام المتوكل ^(٣) ، وقتله للمملوك قاسم ^(٤) ، ثم إنه بعد ذلك توجه إلى صنعاء ، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد أن أخرج زيد بن قاسم بن سنقر منها ^(٥) .

وفي سنة ٨٤٦ هـ / ١٤٤٣ م ^(٦) ، خرج الإمام المهدي صلاح الدين بن علي من صعدة إلى جهة صنعاء لقتال الإمام الناصر ، وعندما وصل إلى منطقة بالقرب من

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٥ . أنباء الزمن ، ق ٢٤٢ .

(٢) قريس : جبل في قاع جهران بدمار يطل على قرية رصابة . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٢٠ . المحففي ، معجم ، ص ٥٢٥ .

(٣) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ١١٣٣ .

(٤) روى ابن الأنف أن الإمام الناصر أمر اثنين من العبيد بان يلقيا الوسائد على المملوك قاسم ثم يجلسا عليها حتى يموت اختناقاً . انظر : روضة الأخبار ، ص ٤٣ . ويعلق محمد بن علي الأكوخ على ذلك بالقول : " إنما اختار الناصر هذه القتلة لقاسم سنقر خوفاً من الغز أهل ذمار موهماً لهم بأنه مات موتاً طبيعياً لأن قاسم سنقر منهم " . انظر : روضة الأخبار ، ص ٤٣ ، (حاشية المحقق) .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٥ . وتذكر بعض المصادر الزيدية قصة غريبة لهذا الدخول وهي أن رجلاً من اليهود جاء إلى الإمام الناصر وهو في حصن هران بدمار وقال له : قم لقبض صنعاء ، فقد اقتضى الحساب ، انك تصلي الفجر في مسجد وهب ، والظهر والعصر في جامع صنعاء ، والمغرب في القصر ، من غير لا ضربة ولا طعنة ، فقال كيف يؤتى هذا والمدينة في يد زيد بن قاسم سنقر وأهلها على رأيه ، فقال الزمي : أنا أسير معك فإن اختلف شيء من قولي هذا ، عاقبتني ، وفي بعض المصادر ، روي هدر ، فكان ما قال اليهودي . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٦٨ - ١١٦٩ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٥ - ٥٧٦ . أما ابن الأنف فيروي أن الإمام الناصر تقدم إلى صنعاء وكان عند بابها رتبة قد وقع عليهم المطر فذهبوا وخلوا الباب وانقلبوا ، فأعلم العبيد بعض من كان عند باب اليمن من اليهود بالأمر فطلعوا وكسروا غلاق الباب وأدخلوا الإمام الناصر . انظر : روضة الأخبار ، ص ٤٢ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٨٠ . أنباء الزمن ، ق ٢٤٤ .

صنعاء تسمى علب^(١) ، خرج الإمام الناصر بجنده ، وتمكن من هزيمته وأسرته^(٢) ، وإيداعه دار الاعتقال بصنعاء ، إلى أن توفي فيه لاحقاً^(٣) .

بعد ذلك توجه الإمام الناصر إلى صعدة واستولى عليها وعلى بلادها^(٤) ، ولم يترك للشريفة فاطمة بنت الحسن غير بعض الحصون^(٥) ، وتأسيساً على ما تقدم يظهر بوضوح ما حل بالدولة الزيدية من التشرذم والانقسام والضعف ، بعد تعارض الأئمة الثلاثة ، والافتتال فيما بينهم ، والذي كان السبب الأول والرئيس فيه تدخل الشريفة فاطمة بنت الحسن والمملوك قاسم بن سنقر في الإمامة .

٣- مفهوم الوراثة في الإمامة عند الزيدية :

إن المتتبع لتاريخ الدولة الزيدية في اليمن منذ قيامها في سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٨ م على يد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، يلفت نظره بجلاء الدور الذي لعبه مفهوم الوراثة في اختيار معظم الأئمة الزيديين ، وتأثيراته السلبية في الإمامة الزيدية ، الأمر الذي أنتج في معظم الأحيان العديد من الصراعات التي عصفت بها.

ويحق لنا القول ، أنه على الرغم من الجهود التي بذلها الإمام الهادي إلى الحق بغية تأسيس الدولة الزيدية في اليمن ، وإقامة الإمامة فيها ، إلا أن شروط الامامة التي وضعت ، قد اختفت عملياً من اليمن في سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م^(٦) ، والسبب يعود — فيما يبدو — إلى إدعاء الأحقية بالإمامة لجماعة دون أخرى وفقاً للمفهوم أعلاه ،

(١) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٤٠ . ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٦٦ . وعلب : قرية في سفح جبل نغم إلى الجنوب منه ، وعلى بعد (أربعة كيلو مترات) من صنعاء ، وتعرف أيضاً بحمراء علب . المقحفي ، معجم ، ص ٤٦٥ .

(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٧ . العرشي ، بلوغ المرام ، ص ٥٤ .

(٣) توفي الإمام المهدي صلاح الدين بن علي بن محمد بن أبي القاسم في سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٦ م . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٨٢ . الجرافي : المقتطف ، ص ٢٠٠ .

(٤) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٤٥ .

(٥) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٧٥ .

(٦) علي محمد زيد ، تيارات معتزلة اليمن ، ص ١٧ .

فوفق هذا المفهوم — على سبيل التمثيل — دخل أولاد الإمام الناصر ^(١) أحمد بن يحيى بن الحسين في صراع فيما بينهم ، أدى إلى خراب صعدة وخلعهم جميعاً عن الإمامة من قبيل القبائل ^(٢) في تلك الجهات ، التي لم تجد بداً من ذلك لتجنيب المنطقة المزيد من الويلات والدمار .

وباستعراض سريع وموجز لتاريخ بعض الأئمة الزيديين ، يتضح لنا مدى تأثير هذا المفهوم في الإمامة ، ومساهمته بشكل أو بآخر في إضعافها ، فهذا الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني ^(٣) ، الذي استطاع أن يمد نفوذ الدولة الزيدية إلى نجران ^(٤) في أقصى الشمال ، وصنعاء ودمار في الجنوب ، اضطر في نهاية المطاف إلى ترك الإمامة ^(٥) واعتزال الناس بعد سنوات قليلة من قيامه في سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ^(٦) ، والسبب في ذلك ما قام به الداعي يوسف بن الإمام المنصور يحيى بن أحمد بن يحيى

^(١) هو أحمد بن يحيى الحسين بن القاسم ... بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، كان متقدماً في الفقه ، ناشئاً على الزهد شجاعاً ، له العديد من المؤلفات أهمها : الكتاب المعروف بـ : (المفرد) ، وكتاب : (النجاة) ، وأمه هي أم محمد المرتضى ، واسمها فاطمة بنت الحسن بن القاسم بن إبراهيم الرسي . توفي في سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م ، وقيل في سنة ٣٥٢ هـ / ٩٣٧ م . انظر : البطحاني : الناطق بالحق يحيى بن الحسين بن هارون ، الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ، مخطوط ميكرو فيلم ، المكتبة الوطنية ، عدن ، برقم (٢٢٥) ، ق ١١٧ . المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ٢ : ٨٨ — ٨٩ . الناصر لدين الله أحمد بن يحيى بن الحسين ، كتاب النجاة ، تح : فيلغرد ماد يلونغ ، دار النشر فرانز شتاينر ، فيسبان ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١ ، (مقدمة المحقق) .

^(٢) علي محمد زيد ، تيارات معتزلة اليمن ، ص ١٧ .

^(٣) هو القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم الرسي ، ولد سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م بتبالة في بلد خثعم من أرض الحجاز ، نشأ على التقوى والصلاح ، وحاول إعادة شيء من المجد والهيبة للدولة الزيدية المنهارة في اليمن ، توفي في شهر رمضان من سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م . انظر : المحلي الحدائق الوردية ، ج ٢ : ١١٤ — ١١٥ . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ٨٥٩ — ٨٦٠ . ونعتقد أن سبب اعتزاله الإمامة يعود إلى رغبته في المحافظة على كيان الدولة الزيدية ، وليس لعجزه عن مواجهة التمردات التي قام بها الداعي يوسف .

^(٤) نجران : أحد مخاليف اليمن وأوديته الخصبية في ذلك الحين إلى الشمال الشرقي من صنعاء بمسافة (١٢٣ ميل) سمي باسم نجران بن زيد بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان . انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٢ . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٧٣٤ . الأكوغ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ٢٨٠ . الأكوغ : محمد ، اليمن الخضراء ، ص ١٤٩ .

^(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٢٣٣ .

^(٦) الحسين بن أحمد بن يعقوب ، سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني ، تح : عبد الله محمد الحبشي ، دار الحكمة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، ص ٢٤ .

بن الحسين من تمرّدات في صعدة ونواحيها^(١) ، أدت إلى اضطراب الأوضاع وزعزعتها في تلك الجهات . ومما لا شك فيه أن هذه التمرّدات التي قام بها الداعي يوسف ومن ورائه الأشراف من آل الهادي ، هي في حقيقة الأمر تعبيراً عن سخطهم ورفضهم لانتقال الإمامة من الأشراف الهادويين إلى الأشراف القاسميين ، وإصرارهم على بقائها في نسل الإمام الهادي دون غيرهم ، ولذلك قاموا بكل ما يستطيعون من أجل إخفاق الإمام المنصور بالله القاسم العياني .

وكرّد فعل طبيعي ونتيجة حتمية على ما فعله الأشراف الهادويون مع الإمام المنصور بالله القاسم العياني ، دخل الأشراف القاسميون في صراع مرير مع الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان الهادوي ، أدى في نهايته إلى أسره على أيديهم^(٢) في مصنعة أثافت^(٣) ، في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م^(٤) ، وإيداعه السجن إلى قبيل وفاته بعدة أشهر في سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م^(٥) .

وتكريساً لهذا المفهوم ، خاض الأمير يحيى بن الإمام المتوكل أحمد بن سليمان صراع مع الإمام المنصور عبد الله بن حمزة في سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م^(٦) ، بعد عامين من قيامه ، اعتقاداً منه أنه أحق بالإمامة من الإمام المنصور ، على اعتبار أنه نجل الإمام السابق ، وسليل أسرة الإمام الهادي إلى الحق ، وبعد عدة معارك بين

(١) عن هذه التمرّدات . نظر : يحيى بن الحسين ، غلية الأمانى ، ج ١ : ٢٢٩ - ٢٣٣ . أنباء الزمن ، ق ٦٧ - ٧٠ .

(٢) المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ٢ : ٢٤٤ . يحيى بن الحسين ، غلية الأمانى ، ج ١ : ٣١٨ .

(٣) أثافت : بلدة خربة في بلاد حاشد ، على مقربة من نماج شرقي خمر . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١١٤ . الحجري ، مجموع ، مج ١ : ج ١ : ٥٦ - ٥٧ . المقحفى ، معجم ، ص ١٢ .

(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٠٦ .

(٥) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ١٣٥ . العرشي ، بلوغ المرام ، ص ٤٠ . الجرافي ، المقطف ، ص ١٧٨ .

(٦) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١١٩ - ١٢٠ .

الطرفين تمكن الإمام المنصور من القبض على هذا الأمير في هجرة الهراثم ^(١) ، وقتله فيما بعد ^(٢) .

وكما فعل الأمير يحيى بن أحمد بن سليمان مع الإمام المنصور عبد الله بن حمزة - مع الفارق في النتيجة - فعل أولاد الإمام المنصور مع الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن ، إذ تم إقصاء هذا الإمام عن الإمامة ، لا لعدم استيفائه لشروطها ، ولكن لتبقى في نطاق الإشراف الحمزيين من نسل الإمام المنصور دون غيرهم ، وهو الأمر الذي عُبر عنه بإقامة الأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة محتسباً للزيدية في سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م بعد وفاة والده .

ومن الجدير بالإشارة أن هذا المفهوم لم يقتصر على طرف دون آخر ، فالكل يظن أنه الأحق بالإمامة من غيره ، وأنه يجب أن تظل في إطاره ، مع التأكيد على أن الأشراف الهاديين هم أول من أحدث هذا الأمر واصطنعه ، لأن جدهم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين هو أول من أقام دولة وإمامة زيدية في اليمن ، وله الفضل في ذلك ، وعليه فهم الأجدر والأحق بها من غيرهم ، وهذا ما عبر عنه الإمام المعتضد يحيى بن المحسن حين قال قاصداً الأشراف الحمزيين :

هم حسدونا إرثنا من جدونا ضللاً وأرباب الرئاسة تحسد
ثلاثون منا من إمام نعهده ومحتسب هل فيهم ذاك يوجد
أبونا الرضى الهادي إلى الحق خير من تضمه في باطن الرمس ملحد ^(٣) .

وفق هذا التصور ، أصبحت الإمامة عنده إرثاً يتداولونه فيما بينهم ، وهو خلاف ما اعتقدته الزيدية كفرقة منذ ابتداء أمرها ، فليس هناك نص يدل على أن الإمامة محصورة في فرع دون آخر ، بل أن كل النصوص الخاصة بالإمامة تؤكد

^(١) الهراثم : هجرة قديمة ، كانت مشهورة في وادعة حاشد تقع إلى الشمال من خمر . الأكوغ ، هجر ، ج ٤ : ٢٣٢٣ .

^(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٦٨ . بينما يؤكد ابن فند أن أصحاب الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة هم من قتل الأمير يحيى بن أحمد خنقاً بالعمائم وإن الإمام لم يكن على علم بذلك ولا أمر به . انظر : مآثر ، ج ٢ : ٨٣٩ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٢٦ .

^(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٥٤ .

على مسألة الانتساب إلى الإمام علي بن أبي طالب من ولديه الحسن والحسين^(١) (ﷺ) ، من أي فرع كان ، على أن يكون مستوفياً لشروط الإمامة الأخرى .

وبالمقابل سعى الأشراف الحمزيين منذ وفاة الإمام المنصور عبد الله بن حمزة إلى إبقاء هذه الإمامة في نسلهم ، وتجسيداُ لذلك قاموا بعدد من الأعمال التي تدل على وجود هذا المفهوم لديهم وأبرزها :

أ - إقامة الأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة محتسباً للزيدية^(٢) ، مع وجود إمام مستوفياً لشروطها ومستحقاً لها ، وهو الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن^(٣) .

ب - مشاركتهم بفعالية في القضاء على دعوة الإمام المهدي أحمد بن الحسين وذلك بالتحالف مع الرسوليين ، وهو ما أدى في نهاية الأمر إلى مقتله في شوابة ، كل ذلك من أجل المحافظة على نفوذهم وسلطتهم ، حتى وإن بقيت الزيدية دون إمام .

ج - تنصيبهم - في المدة التي تلت مقتل الإمام المهدي - لعدد من الأئمة ممن لا تتوافر فيهم شروط الإمامة الزيدية ، عدا كونهم من الأشراف الحمزيين ، ولعل أبرز هؤلاء الإمام الحسن بن وهاس^(٤) ، والإمام يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن حمزة^(٥) .

(١) النوبختي : أبو محمد الحسن بن موسى ، فرق الشيعة ، منشورات دار الأضواء ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٢١ . الحميري : أبو سعيد محمد بن نشوان ، الحور العين ، تح : كمال مصطفى ، دار أزال ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٥ م ، ص ٢٠٨ . الأكوخ : إسماعيل بن علي ، الزيدية نشأتها ومعتقداتها ، ط ٣ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ٧٩ .

(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٤١ . الشرفي ، اللائي ، ج ٢ : ٣٦٠ .

(٣) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٣ : ١٢٤٩ . أحمد حسين شرف الدين ، تاريخ اليمن الثقافي ، مطبعة الكيلاني الصغير ، القاهرة ، ط ١٠ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ج ٤ : ٢٨٥ . تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن ، مطبعة الكيلاني الصغير ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م . ص ٢٨٥ .

(٤) الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٠٤ .

(٥) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٨٩ .

د - عدم اعترافهم بإمامة كل من الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين محمد^(١) ، والإمام الداعي إلى الله يحيى بن محمد السراجي^(٢) ، والإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى المرتضى^(٣) ، وولده الإمام المهدي محمد بن المطهر^(٤) ، لا لعدم استيفائهم لشروط الإمامة ، وإنما لكونهم من غير الأشراف الحمزيين .

هـ - خذلانهم للإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين أحمد في معركة أفاق ، بعد أن شعروا باستفراجه بالأمور دونهم ، وهو ما أدى إلى أسره في نهاية المعركة . واستمراراً لهذا الصراع القائم على مفهوم الوراثة في الإمامة بين الأشراف الحمزيين والأشراف الهاديين ، تم إقصاء الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة المدعوم من قبل الأشراف الحمزيين ، والمتوافرة فيه شروط الإمامة الزيدية ، بعد أن عارضه في ذلك عدد من الأئمة أبرزهم : الإمام الواثق المطهر بن محمد بن المطهر الهادي^(٥) الذي كان يعتقد بأنه الأولى بالإمامة من غيره ، كونه ابن الإمام المهدي محمد بن المطهر ، وحفيد الإمام المتوكل المطهر بن يحيى المرتضى .

ولعل أهم ما نستطيع أن نذكره في هذا السياق ، هو بقاء الإمامة الزيدية في آل الإمام المهدي علي بن محمد الهادي ، من سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م^(٦) إلى سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م^(٧) ، أي ما يقارب المائة عام ، هذا إذا أغفلنا أن الإمام الناصر بن محمد وهو حفيد للإمام المنصور بالله علي بن صلاح من أمه ، وامتداداً لهذه الأسرة ، تربع على عرش الإمامة الزيدية إلى سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م^(٨) ، وقد لا يظهر في حالة الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي مفهوم الوراثة في الإمامة على اعتبار أنه استوفى شروطها ، وحُظي بإجماع العلماء والفقهاء في عصره^(٩) ، إلا

(١) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٥٦ .

(٢) ابن فند ، مئثر ، ج ٢ : ٩٦٦ . الشرفي ، اللآئى ، ج ٢ : ٤٩١ .

(٣) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٦٠ . الحبسي ، تنمة الإفادة ، ق ٤٦ .

(٤) ابن فند ، مئثر ، ج ٢ : ٩٤١ .

(٥) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٠ .

(٦) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢١٢ . القاسمي ، الجواهر المضيئة ، ق ٢٦ ب .

(٧) الجنداري ، الجامع الوجيز ، ق ١٠٩ ب .

(٨) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٥١ .

(٩) القاسمي ، الجواهر المضيئة ، ق ٣٤ ب .

أن هذا المفهوم سيظهر وبقوة في حالة ولده الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، الذي لم يكن مستوفياً لشروط الإمامة الزيدية ^(١) ، ولم يكن أحد يتوقع أن يكون أماماً خلفاً لوالده ، وهذا ما أكده صاحب الكنز حين قال : " ... وكانوا غير طامعين بأن أحد يجيئهم إلى قيام أياً - من - أولاد الناصر لظهور قصورهم عن هذا الأمر " ^(٢) ، ومع ذلك تم تنصيبه إماماً للزيدية مع أنه مفترق لأهم شروطها ، ألا وهو الاجتهاد ، وكان الفضل في هذا التنصيب يعود إلى بعض الوزراء والأمراء الذي يدينون بالولاء للإمام الناصر وأولاده ، ورأوا في ذلك بقاءً لمصالحهم الشخصية ^(٣) ، كما كان لبعض العلماء دور كبير في ذلك ، ولكن من منظور آخر ، يرى في تنصيبه ضرورة تحتها الأوضاع آنذاك ، ولم يكن ذلك كله إلا على حساب الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، الذي كان مستحقاً لهذه الإمامة ومستوفياً لشروطها ^(٤) ، ومع ذلك ، وفي ظل هذا المفهوم تم إقصائه منها ، بل وتم سجنه لمدة سبع سنين ^(٥) من أجل هذا الغرض .

٣ . عدم التزام البعض بشروط وأصول الإمامة :

مع أنه من المفترض أن تكون شروط الإمامة الزيدية وأصولها عامل قوة وتماسك بالنسبة لجميع الأشراف الزيديين ، إلا أنها مثلت في أحيان كثيرة سبباً في ضعف الإمامة الزيدية والأشراف الزيديين على حدٍ سواء .

وقبل أن نوضح أوجه الضعف في ذلك ، علينا استعراض هذه الشروط والأصول بشكلٍ موجز :

أ . شروط الإمامة الزيدية :

يمكن إجمال شروط الإمامة عند الزيدية في أن الإمام مكلفٌ ، ذكراً ، حرٌّ ، علويٌّ ، فاطميٌّ ولو عتيقٌ غير مدع ، ورعٌ ، عدلٌ ، سخيٌّ ، يضع الحقوق في

(١) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٢٤ .

(٢) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٥٩ ب .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١٠٧٩ .

(٤) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٢٢٩ .

(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأملني ، ج ٢ : ٥٤٥ ، ٥٥٣ .

مواضعها ، سليم الحواس والإطراف ، مجتهداً ، حليماً ، عالمً ، أكثر رأيه الإصابة ، شجاعً ، مقدامً ، لم يتقدمه مجاب ، حسن التدبير والسياسة (١) .

ب. أصول الإمامة عند الزيدية :

تتلخص في جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل (٢) ، وفي الخروج على أئمة الجور (٣) ، وفي القول بعدم عصمة الأئمة (٤) ، وفي جواز خروج إمامين في وقت واحد ، بشرط أن تكون الأقطار متباعدة صعبة الاتصال ببعضها (٥) ، وفي أن يكون الإمام من أولاد فاطمة بنت الرسول (ﷺ) من نسل علي بن أبي طالب ، وبعبارة أدق أن يكون من أولاد الحسن والحسين أبناء علي بن أبي طالب (٦) .

هذه هي المبادئ الأساسية التي وضعت كشرط وأصول للإمامة الزيدية ، إلا أن الملاحظ أن الشروط حالما وضعت موضع التطبيق ، أصابها بعض الاختلال بسبب البعض ، من ذلك اشتراط أن يكون الإمام عالماً ، مجتهداً ، أكثر رأيه الإصابة ، لأن

(١) يحيى بن حمزة (الإمام المؤيد بالله) ، النهاية في الوصول إلى علم حقائق الأصول ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) ، ج ٢ : ١١١ ب . الإمام عز الدين ، العناية التامة ، ق ١٤ - ١٥ . أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٤٥ . صبحي ، الزيدية ، ص ١٤٩ - ١٥٠ . أشواق أحمد مهدي ، التجديد في فكر الإمامة عند الزيدية في اليمن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، ص ١١٠ . عواجي : غالب بن علي ، فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها ، دار لينة ، دمنهور ، ط ٣ ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م ، ج ١ : ٢٠١ - ٢٠٥ .

(٢) الأشعري : أبو الحسن علي بن إسماعيل ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، ج ٢ : ١٥١ . ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ج ٤ : ١٦٣ . الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، مطبعة صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، ج ١ : ١٦٠ .

(٣) الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ج ٢ : ١٥٠ . أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٥ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م ، ج ٤ : ١٣٦ .

(٤) الصاحب بن عباد ، الزيدية ، تح : ناجي حسن ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦ م ، ص ١٥٩ ، ١٨٥ . أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١٠ ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م ، ج ٣ : ٢٧٦ .

(٥) الإمام عز الدين ، العناية التامة ، ق ٢٣ .

(٦) يحيى بن الحسين (الإمام الهادي إلى الحق) ، المجموعة الفاخرة لمجموع كتب ورسائل الإمام الهادي إلى الحق ، تح : علي أحمد محمد الرازحي ، دار الحكمة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ٨٥ .

الشروط الأخرى كثيراً ما تتوافر في العديد من الأشراف الزيديين الذي قد يدعون الإمامة في حال اقتصارها على باقي الشروط فقط ، وعليه يبقى اختيار الإمام في كثير من الأحيان مرهوناً بأن يكون الإمام عالماً ، مجتهداً ، أكثر رأيه الإصابة ، فهذه – بلا شك – تحتاج إلى امتحان لإثباتها ، وللتمييز من هو أعلى درجة في الاجتهاد^(١) والعلم وحسن الرأي من بين الداعيين للإمامة .

ومن خلال بحثنا هذا ، تبين لنا عدم الالتزام بهذه الشروط في مواضع عديدة منها : ما ذكره ابن حاتم^(٢) من أن الأشراف الزيديين بعد وفاة الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين محمد اجتمعوا حول من يخلفه للإمامة ، وأنه اتفق رأي بعضهم على إقامة إبراهيم بن تاج الدين أحمد ، بينما اشترط البعض الآخر خضوعه للمناظرة والامتحان^(٣) للتأكد من توافر شروط الإمامة فيه ، ولا سيما ما يتعلق منها بالعلم والاجتهاد ، فلما سمع منهم الأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة هذا القول ، عمد إلى سيفه وأقسم بالله لئن تأخر عن مبايعته أحد ليضربن عنقه ، حينها بايعوه طائعين وكارهين^(٤) ، دون إجراء الامتحان الخاص بشروط الإمامة .

ومع أننا لا نستطيع الجزم بأحقية الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين بالإمامة من عدمها ، أو توافر شروطها فيه من عدمها ، إلا أن واقع الحال يقول أنه تم فرضه بالقوة ولم يتم الالتزام بشروط الإمامة الزيدية عندما تم اختياره ، وهذا ولا شك مثل بادرة خطيرة في تاريخ الزيدية التي كانت مناظرات اختيار الإمام ومحاوراتها تطول أشهراً^(٥) ، ويشترك فيها مئات العلماء والفقهاء والشيوخ^(٦) ، ويُسأل فيها عن

(١) ذكر الإمام عز الدين أن القاضي عبد الله بن حسن الدواري قال : " إذا اتفق رجلان في شرائط الإمامة ولم يكن أحدهما أكمل من الآخر في شيء منها ، ولا سبق بدعوة ولا عقد ، فأولاهما بالإمامة أكثرهما فهماً " . انظر : العناية التامة ، ق ٢٢ .

(٢) السمط ، ص ٤٠٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠٧ .

(٤) نفسه والصفحة .

(٥) المحلي ، الحدائق الوردية ، ج ٢ : ٢٨٦ .

(٦) عبد الله بن حمزة (الإمام المنصور بالله) ، الشافي ، تح : مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي ، مكتبة اليمن الكبرى ، صنعاء ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، مج ١ : ج ١ : ٣ ، (مقدمة المحقق) .

مئات (١) ، بل آلاف المسائل (٢) ، للتأكد من توافر شروط الإمامة في الشخص الداعي إليها .

كذلك من المواضع التي تم فيها عدم الالتزام بشروط الإمامة عند الزيدية ، ما حدث بعد وفاة الإمام الناصر صلاح الدين من تنصيب ولده علي إماماً مع عدم توافر شروط الإمامة فيه ، وأهمها الاجتهاد ، حتى إن الفقيه عبد الله بن حسن الدواري وهو من أبرز العلماء و الفقهاء في زمن الإمام الناصر صلاح الدين ، قام بشطب شرط الاجتهاد في الإمام الزيدي من مؤلفاته ، وأجاز إمامة المقلد (٣) ، ليفسح المجال إمام تنصيب علي بن صلاح إماماً للزيدية ، ولذلك أشار الإمام الهادي عز الدين حين قال : " وهذا القاضي على كماله ومحاسن خلاله ... كانت منه هذه الهفوة التي خالف فيها قواعد أهل مذهبه من أعلام العترة وعلماء شيعتهم ... فلما جرت هذه القضية — يقصد قضية تنصيب علي بن صلاح — فتحت باب التنازع والتساهل ونشأت بها مفاصد وانهدمت قواعد ، ولو كان هذا مذهباً للقاضي المذكور منذ ابتداء أمره وقوله واحتوت عليه مصنفاً السابقة لهذه القضية الخارقة لكان الأمر أهون " (٤) .

وفي موضع آخر يقول حول الموضوع نفسه : " فنعوذ بالله من إتباع الهوى ومحبة الدنيا " (٥) .

وبغض النظر عن دوافعه في ذلك ، وهل كان اجتهاداً منه ، أو بُدّل له مالأً من أجله ، إلا أن المسلم به أن هذا التلاعب بشروط الإمامة الزيدية أدى إلى نشوب حرب ضروس بين الإمام المنصور بالله علي بن صلاح المفروض على الإمامة من جهة ، والإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى المستوفي لشروطها والمستحق لها ، وهو الأمر الذي أدى إلى انقسام الأشراف الزيديين إلى فريقين ، كانت نتائجه إضعاف الإمامة والدولة الزيدية معاً .

أما عن أصول الإمامة فلم يتم الالتزام فيما يخص جواز خروج إمامين في وقت واحد بشرط تباعد الأقطار وصعوبة الاتصال فيما بينها ، فالذي تم هو خروج عدة أئمة

(١) ابن فند ، مئثر ، ج ٢ : ٨٤٤ .

(٢) عبد الله بن حمزة ، الشافي ، مج ١ : ج ١ : ٣ ، (مقدمة المحقق) .

(٣) الإمام عز الدين ، العناية التامة ، ق ١٧ .

(٤) المصدر نفسه والورقة .

(٥) نفسه والورقة .

— ولا نقول إمامين — في وقت واحد ، وفي قطر واحد غير متباعد المسافات ولا صعب الاتصال .

وهذا ما أدى إلى الاقتتال والتناحر بين هؤلاء الأئمة وأنصارهم ، كما حدث في سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ^(١) ، بعد وفاة الإمام المهدي محمد بن مطهر من خروج أربعة أئمة وإعلان دعوتهم في أماكن متقاربة ^(٢) ، فكان من البديهي أن تنشب حروب وصراعات بين هؤلاء الأئمة حول أحقية كل منهم بالإمامة ، مما يؤكد حقيقة أن النظرية شيء والتطبيق شيء آخر .

وحتى تتضح الصورة أكثر تكاد تجمع المصادر الزيدية أن أول من دعا بعد وفاة الإمام المهدي محمد بن المطهر هو الإمام علي بن صلاح ^(٣) بن إبراهيم بن تاج الدين ، وأنه أرسل دعوته إلى العلماء في كافة المناطق عارضاً نفسه للامتحان ، فعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان ^(٤) — كما قال — فلما بلغتهم دعوته لم ينظروا فيها نظر التحقيق ، ولا قابلوها بما يجب لها من مراعاة ^(٥) ، وكان الواجب عليهم اختياره فهو أسبق بالدعوة من غيره ^(٦) ، وكلامه داع إلى الصواب ، ومن هنا ثارت الاعتراضات وتأججت نار المنازعات ^(٧) ، بعد أن تم تجاهله والالتفات إلى غيره ممن دعا بعده .

٤ . غياب نظم سياسية تنظم عملية انتقال الإمامة :

رغم إدعاء الزيدية بوجود آلية واضحة تبين كيفية انتقال الإمامة من شخص إلى آخر ، والتي تتمثل في أنه وبعد غياب الإمام القائم لأي سبب كان ، يحق لكل من يرى في نفسه أهلية لتولي أمر الإمامة أن يدعو الناس إلى نفسه ، فإذا كان أهلاً لتوليها ولم يوجد غيره ، ولم يكن ثمة مانع ، فإن بيعته واجبة ، باعتبار أن المصلحة تقتضي ملئ الفراغ في السلطة ، فإذا وُجد غيره ممن رشح نفسه أو رشحه غيره ، يجب

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١١ . وعند الجنداري في سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م . انظر : الجامع الوجيز ، ق ٩٣ ب .

^(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٥٣ .

^(٣) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٦٩ . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٧١ . ابن المظفر : الترجمان ، ق ١٤٤ .

^(٤) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٩٣ . المهلا ، مطمح الآمال ، ص ٢٥١ .

^(٥) ابن المظفر : الترجمان ، ق ١٤٥ . الحبسي ، تنمية الإفادة ، ق ٤٧ .

^(٦) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٧٠ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٩٣ .

^(٧) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٧١ . ابن المظفر : الترجمان ، ق ١٤٥ . الحبسي ، تنمية الإفادة ، ق ٤٧ .

الاجتماع إمام مجموعة من العلماء وأهل الحل والعقد لنتم المفاضلة بينهما ، وتعيين الأولى منهما لقيادة الأمة ^(١) ، فأنا لم نرَ هذه الآلية تطبق عملياً خلال فترة البحث التي غطت سنوات حكم تسعة عشر إماماً ^(٢) ، إلا في حالتي تنصيب كل من الإمام المهدي أحمد بن الحسين سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ هـ ^(٣) ، والإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي في سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م ^(٤) ، أما بقية الحالات فلم يتم فيها التقيد بهذه الآلية ، والأسباب — كما نعتقد — تكمن في عدم وجود هيئة تشريعية (أهل الحل والعقد على سبيل التمثيل) مهمتها اختيار الإمام ، وسلطة تنفيذية (قوة مركزية) مهمتها تطبيق ما يتفق عليه العلماء حول الإمامة ، وغياب الوعي بين العامة لمثل هذه النظرية ، وهو ما أدى في كثيرٍ من الأحوال إلى تعارض الأئمة ، كما حدث بعد وفاة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، حين قام ثلاثة أئمة في وقت متقارب أولهم : الإمام الحسن بن وهاس الحمزي الذي قام في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م ، بدعمٍ من الأشراف الحمزيين في ظفار ، وثانيهم : الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين محمد الذي دعا في سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م ، وبيعه علماء صعدة وشيعتها وثالثهم : الإمام الداعي إلى الله يحيى بن محمد السراجي الذي دعا لنفسه في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م في منطقة المغرب وحضور وبدعمٍ من الأشراف القاسميين . وفي حالة أخرى مشابهة تمت مبايعة أربعة أئمة في سنة واحدة بعد وفاة الإمام المهدي محمد بن مطهر في سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م ، وهم الإمام علي بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين في بلاد شطب من أعمال السودة ، والإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة في صنعاء ونواحيها ، والإمام الوائِق المطهر بن محمد بن المطهر في بلاد حجة والمغرب ، والإمام أحمد بن علي الفتحي في بلاد سفيان .

وإذا كنا قد نتفهم ما يدعيه بعض الباحثين من أن بعد المناطق عن بعضها البعض وصعوبة الاتصال فيما بينها ، قد عرقل تطبيق هذه الآلية ^(٥) ، فأنا لن نتفهم

^(١) حميد الدين : عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات ، مركز الرائد للدراسات والبحوث ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ١٤١ .

^(٢) نظر الملحق رقم (١) .

^(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٧ أ .

^(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأملني ، ج ٢ : ٥٢٤ .

^(٥) حميد الدين ، الزيدية ، ١٤١ — ١٤٢ .

أن لا تطبق في الإقليم الواحد ، بل وفي المدينة الواحدة ، كما كان الأمر بعد وفاة الإمام الناصر صلاح الدين ، عندما اجتمع العلماء في مكانين مختلفين في صنعاء ، ليختار كل منهما أماماً يرتضيه للزيدية ، فاجتمع بعض العلماء في مسجد جمال الدين ^(١) ليتوج اجتماعهم باختيار الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، واجتمع آخرون في قصر المدينة ^(٢) لاختيار الإمام المنصور بالله علي بن صلاح خلفاً لوالده ^(٣) .

٥. الخلاقات مع القبائل :

نظراً لوجود قوتين رئيسيتين تقاسمتا السيطرة والنفوذ في اليمن ، ممثلتين بالدولة الزيدية التي تسيطر على معظم مناطق اليمن الأعلى ، والدولة الرسولية التي تسيطر على اليمن الأسفل وبعض مناطق اليمن الأعلى ، كان من المستلم به أن تنقسم القبائل اليمنية بين هاتين القوتين ، فكانت القبائل في صعدة والجوف ونجران تخضع للدولة الزيدية ، وكانت القبائل في صنعاء وذمار واليمن الأسفل تخضع لبني رسول ^(٤) .

وبناءً على ما أسلفنا ، شاركت هذه القبائل بقوة في تلك الصراعات التي كانت تحدث بين هاتين الدولتين ، وكان لها دور فعال وحاسم فيها . من ذلك ما قام به أهل الصيد ^(٥) من قتلهم للإمام المهدي أحمد بن الحسين في معركة شولبة ^(٦) ، التي دارت رحاها بين هذا الإمام والأشراف الحمزيين بقيادة الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة – المدعوم من قبل الرسوليين – والذي كان جُلّ عسكره من أهل الصيد وبني زهير ^(٧) ، وهذا يدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن هناك خلاقات ما ، كانت بين هذه القبائل من جهة وبين الإمام المهدي من جهة أخرى ، جعلتهم في المحصلة

^(١) نظر لوحة رقم (٤٣) .

^(٢) نظر اللوحات رقم (٨) ، (١٧) .

^(٣) نظر فيما سبق ، ص ١٦٤ .

^(٤) هذا فيما يخص مناطق النفوذ التقليدية .

^(٥) الصيّد : بطن من خارف من قبيلة حاشد ، وبلاد الصيد متصلة بالبون ، ومن قراها كانط وناعط . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٨٥ ، (حاشية المحقق) . المقحفى ، معجم ، ص ٤٠٠ .

^(٦) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٢٨ .

^(٧) بنو زهير : من قبائل همدان في أرحب . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٢٨ . المقحفى ،

معجم ، ص ٣٠٤ .

يخرجون للقتال مع الأشراف الحمزيين ضده^(١) ، ومن ذلك أيضاً ما قام به بنو فاهم من أهل حضور يوم أسروا الإمام الداعي إلى الله يحيى بن محمد السراجي وسلموه إلى الرسوليين ، بعد أن بذلت لهم الأموال من أجل القيام بهذا العمل ، فكانت النتيجة أن تم كحل هذا الإمام على يد الأمير الرسولي علم الدين الشعبي^(٢) ، وبكحله يفقد شرطاً رئيساً من شروط الإمامة الزيدية ، ألا وهو أن يكون سليم الحواس ، فيضطر نظراً لذلك إلى التخلي عنها .

وفي موقفٍ مشابه ، كان لقبيلة مذحج المتحالفة مع الرسوليين الدور الأبرز في اقتحام قرية أفق^(٣) في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م ، وهو ما نتج عنه لاحقاً القبض على الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين ، وأسرته حتى سنة وفاته بدار الاعتقال بتعز ، وبهذا الأسر يفقد الإمام المهدي منصب الإمامة ، كونه قد فقد أهم شروطها وهو أن يكون حراً .

وفي السياق نفسه — وكما أسلفنا آنفاً — قام شيخ معبر حمرة بن عمر بالإبلاغ عن مكان وجود الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، والدار الذي كان يقيم فيها ، وهو الأمر الذي أدى إلى القبض على هذا الإمام من قبل عسكر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، قبل أيام قليلة — إذا لم نقل ساعات — من رحيله عن المدينة^(٤) إلى بلاد عنس ، ولولا ما قام به هذا الشيخ لما تم القبض على هذا الإمام بالسهولة والسرعة اللتين تم بهما الأمر .

(١) تذكر المصادر الزيدية أن القبائل سألت الأمير الحسن بن وهام الحمزي والشيخ الرصاص حول ما عندهما من اعتراضات على الإمام المهدي فقالا : " ما لحقكم من الإثم فهو في أعناقنا " . انظر : ابن فند ، مئذ ، ج ٢ : ٨٧٧ . الشرفي ، اللائي ، ج ٢ : ٤٤٦ . فهل يُعقل أو يُصدق أن يكون ما فعلته هذه القبائل من قتال للإمام المهدي بسبب هذا القول !!

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١١١ .

(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٤ .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ١٦٦ .

ولم يقتصر دور القبائل على المشاركة في قتل بعض الأئمة وأسره فحسب ، وإنما تعداه إلى أعمال أخرى لا تقل تأثيراً عن ما سبق ، كقتل (١) وطرده (٢) ولاة وعمال الدولة الزيدية في المناطق المختلفة ، والقيام بالتمردات من حين إلى آخر (٣) ، والامتناع عن دفع الحقوق المستحقة للدولة ، وقطع الطرق ، وغيرها من الأعمال التي ولا شك أسهمت في إضعاف الدولة الزيدية .

٦- جور العمال والولاة :

يعد هذا العامل من الأسباب المهمة التي أسهمت في إضعاف الإمامة الزيدية ، ذلك أن الوالي أو العامل أو غيرهما ممن ينتسبون إلى الدولة لا يكون تعيينهم إلا عن طريق الإمام أو بعلمه ، وهذا يعطي العامة انطباعاً بأن الإمام راضٍ عما يفعله هؤلاء من الظلم والجور ، فينعكس ما يفعله هؤلاء على الإمامة ككل . ولأهمية هذا الأمر ، كثيراً ما تعرض الأئمة للعديد من الانتقادات والاعتراضات من العلماء والفقهاء بسبب توليتهم لمثل هؤلاء الولاة والعمال ، وهذا يدل على إدراكهم لخطورة هذه المسألة على الإمامة الزيدية . ومن ضمن هذه الانتقادات والاعتراضات التي تعرض لها بعض الأئمة ، ما وجه للإمام المهدي أحمد بن الحسين في رسالة بعثها له الفقيه عطية بن محيي الدين محمد النجراتي ، يحذره فيها من تولية الناقص غير المشهود له بالكفاءة ، وأخبره أن

(١) نذكر منها — على سبيل التمثيل — ما قامت به قبائل سنحان حين قتلت والي الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، الفقيه حسام الدين أحمد بن يحيى الزيدي الصعدي . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٩ أ — ٦٩ ب . وما قام به بنو الروبة من قتل عامل الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي على بلاد آس . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٢٥ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٣) لعل أخطرها تلك التي أعقبت وفاة الإمام الناصر صلاح الدين علي بن محمد في سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م . انظر فيما سبق ، ص ١٦٩ — ١٧٠ . ولكنها لم تقتصر على تلك المدة فقط ، بل كانت ملازمة للدولة الزيدية منذ عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين الذي لم يتوان عن قتل الأسرى في هذه التمردات والإجهاز على الجرحى والقتل على النمة في بعض الأحيان ، ولما أعترض عليه في ذلك . قال : " ... والقوم الذي لقيناهم في تلك الحرب ... كانوا شياطين الإنس وفراغنة العرب ودهاه القبائل من خولان ومذحج وهمدان وكان مكرهم شديد وفسادهم عظيم ولوا استولوا على الأمر في تلك الفتنة لأهلكوا الحرث والنسل ... " . انظر : مجموع رسائل ، ص ١٥٤ .

الظلم والجور قد عم البلاد وأهلكها ، وأدى إلى انتقال أهلها وسكانها (١) ، ومع أن الإمام المهدي وغيره من الأئمة استدلوا بما فعله الرسول (ﷺ) من تولية أقوماً وفي الصحابة من هو أفضل منهم (٢) لكي لا يبطل الجمهور من أمور الدين . إلا أن أننا نرى أن تعيينات الولاة خضعت لضرورات سياسية بغض النظر عن الاعتبارات الدينية ، فلا يهم — في نظر الأئمة الزيديين — أن يكون الوالي متديناً ، بقدر ما تهمهم حنكته السياسية وولائه للدولة ، ومن هذا المنطلق أقر الإمام المهدي أحمد بن الحسين — وغيره من الأئمة — بولاية الفاسق ، ودافع عنها ، وبرر وجودها ، وبدلاً من أن يجد العامة حلاً لما يعانونه من ظلم وجور هؤلاء الولاة ، تم التأكيد على ولايتهم من قبل هؤلاء الأئمة ، وعلى المتضررين الصبر إلى ما لا نهاية ، وهو ما لا يطيقه كل الناس .

إن وجود مثل هذا الظلم والجور من العوامل التي ولدت الحقد والبغض في نفوس الكثير من الناس المظلومين على الولاة والعمال والأئمة معاً ، وهو ما دفعهم — بلا شك — إلى التمرد والخروج عن الطاعة ، والتحالف مع الأعداء من الرسولين وغيرهم .

ومع أننا لا نملك الأدلة والشواهد التي من خلالها نستطيع تأكيد ما نزعم ، فإننا نستطيع أن نؤكد على أن العديد من التمردات التي قامت بها الكثير من القبائل هي نتاج طبيعي للظلم والجور التي تعرضت له من قبل عمال الدولة الزيدية وولايتها ، ولعل هذا ما يعلل ما تعرضت له الدولة الزيدية من الفتن والاضطرابات والفوضى بعد وفاة الإمام الناصر صلاح الدين في سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م ، والتي عمت معظم القبائل وشملت مختلف المناطق ، فقد أورد يحيى بن الحسين (٣) في أحداث سنة ٧١١ هـ / ١٣١٢ م ، أن أهل الشرف ملوا ولاية السلطان الرسولي لسوء معاملة عماله وأتباعه في تلك المناطق ، ومالوا إلى الإمام المهدي محمد بن المطهر رغبة منهم في ذلك ، وهو ما أدى في الأخير إلى استيلاء الإمام المهدي على معظم مناطق الشرف الأعلى وبعض مناطق الشرف الأسفل (٤) .

(١) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٢٨ ، ١٦٤ ، ١٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ — ١٦٥ . الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٢٨٤ .

(٣) غاية الأمانى : ج ١ : ٤٨٩ ، أنباء الزمن ، ق ٢٠٠ .

(٤) نظر فيما سبق ، ص ١٤٨ .

ولما كان جور وظلم الولاة والعمال غير مقتصر على ولاة الدولة الرسولية وعمالها ، بل شمل كذلك ولاة الدولة الزيدية وعمالها — كما يتضح من اعتراضات العلماء والفقهاء على الأئمة — فمن المحتمل أن هناك مناطق أخرى مالت عن الدولة الزيدية إلى بني رسول بسبب سوء معاملة ولائها وعمالها في تلك المناطق ، والشيء بنقيضه يذكر .

ثانياً : الأسباب الاقتصادية :

١. قوة اقتصاد الدولة الرسولية :

تعد الدولة الرسولية من أغنى الدول المستقلة التي ظهرت في اليمن عموماً ، نظراً لسيطرتها على أهم الموانئ اليمنية كميناء عدن و الشحر وغيرهما ، وازدهار حركة التجارة فيها ، وتعدد مواردها المالية . لذلك تمتعت هذه الدولة بقوة اقتصادية استمدتها في بادئ الأمر من الدولة الأيوبية في اليمن ، ثم نمتها وطورتها لتشكّل عصب قيامها ونهضتها ، ومما لا شك فيه أن هذه القوة التي تمتعت بها هذه الدولة خلال عهودها الأولى كانت من أهم العوامل التي ساعدت في كثير من الأحيان في حسم صراعاتها مع مختلف الأطراف كالأشراف الزيديين والولاة المتمردين والقبائل الخارجة عليها.

ومع أن هذا الزعم لا يحتاج إلى دليل لإثباته ، وإثبات أنه من أهم العوامل التي أدت إلى إضعاف الإمامة الزيدية ، إلا أننا نستطيع من خلال بعض المعطيات التاريخية في تلك المدة أن نؤكد عليه ، من ذلك قول الملك المظفر لواليه على صنعاء — يومها — الأمير علم الدين الشعبي : " يا علم الدين قد تكاثفت الأموال وامتألت الخزائن ولا راحة للملوك إلا بالإنفاق ، فاختر المحطة ، أما على ثلا وأما على ظفار " (١) .

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٧٩ — ٣٨٠ . ابن الأنف ، نزهة الأفكار ، ق ٧٩ ب . مع العلم أن ظفار وثلا كانت — آنذاك — من أهم المعامل الزيدية ، ويسقطها تسقط دولتهم . وهذا ما أكده ابن حاتم بقوله — تعليقاً على ما أرسله الملك المظفر لواليه علم الدين — : " ... وبلغ هذا الأشراف ، فنزل بهم من الغم والهم ما لم يستطعوا الصبر عليه ، وأيقنوا أنهم بعد فوات ثلا صانرون إلى البلاء ... " . انظر : السمط ، ص ٤٠٦ .

وبناءً على ما تقدم ، فإن شأن المال في الصراعات والحروب بين الدول شأنٌ عظيم ، لا يستقيم أمر العسكر بدونه ، وذلك ما أدركه ملوك الدولة الرسولية واستخدموه في صراعهم مع الأشراف الزيديين وأئمتهم .

أما عن أشكال استخدام هذا المال فأتخذ عدة أشكال ، لعل أبرزها شراء الحصون من الأشراف الزيديين ، فنظراً للقوة الاقتصادية التي كانت لدى الدولة الرسولية ، توافرت لديها الكثير من الأموال التي استطاعت عن طريقها شراء العديد من الحصون المهمة عسكرياً ، والتي قد يصعب أو يتعذر السيطرة عليها بالقوة العسكرية . ولأننا لا نستطيع حصر كل الحصون التي قام ملوك الدولة الرسولية بشرائها ، نظراً لكثرتها نكتفي بذكر بعض منها للتدليل على هذا المعنى ، من ذلك ما قام به الملك المظفر حين اشترى حصني عزان والمصنعة في اليمن الأعلى وهما من أمنع الحصون في تلك الجهات ، بثلاثين ألف دينار من صاحبيهما الشريفين عبد الله بن يحيى بن حمزة و محمد بن حاتم العباسي ^(١) ، وفي المدة ذاتها قام هذا الملك بشراء حصن اللجام من آل الأمير سليمان بن موسى الحمزي ^(٢) .

وفي السياق نفسه ، اتفق الملك المؤيد مع الأشراف الحمزيين على شراء حصن تلمص — في صعدة — بخمسين ألف دينار ^(٣) ، ولولا ما حل باليمن في تلك المدة من القحط العظيم ، لتم البيع والشراء ^(٤) .

ومما هو جديرٌ بالإشارة هنا ، أن شراء الحصون من أصحابها قد لا يكون بالمال في بعض الأحيان ، وإنما من خلال الدعم العسكري بالسلاح والخيول والرجال وهو ما يتطلب إنفاق الأموال الكثيرة وإن بشكل مختلف ، كما كان حال الملك المظفر يوم سيطر على حصن الميفاع من الأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٢ — ٤٥٣ .

^(٢) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ١٧١ .

^(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٣٢ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٨٢ .

^(٤) لم يقتصر الأمر على شراء حصون الأشراف الزيديين فحسب ، بل تعداه إلى شراء غيرها من الحصون المهمة بغض النظر عن ملاكها ، ولعل أهم هذه الحصون : حصن ذي مرمر الذي اشتراه الملك المظفر من بني حاتم بستة وعشرين ألف دينار ، وكان قد عرض عليهم قبل ذلك مائتي ألف دينار فلما رفضوا أجبرهم على بيعه بالثمن المذكور آنفاً ، بعد حصارٍ شديدٍ لهم ، لم يسعهم بعده إلا القبول ببيعه بأي ثمن . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٥٦ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٤٧ .

وحصن تعز صعدة من الأمير عز الدين محمد بن أحمد ، مقابل أن يمدّهما بما يحتاجانه لقتال الأمير صارم الدين داؤد (١) .

وكأسلوب آخر — يعتمد على المال — في تعامل الدولة الرسولية مع الأشراف الزيديين ، عمدت هذه الدولة إلى استغلال الخلافات التي قد نشأت بين هؤلاء الأشراف لتستميل فريقاً منهم بالمال ، ويكون هذا الفريق في العادة هو الفريق الأضعف والأكثر ميلاً لتقبل المساعدة من الفريق الآخر ، فمثلاً كان مقدار ما أعطاه الملك المظفر للأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة في حربه ضد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ثلاثمائة ألف دينار (٢) ، بينما كان عطاء الأمير جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي من الملك ذاته ، مقابل التحالف مع الرسوليين سبعين ألف دينار (٣) ، وعطاء الأمير علي بن وهاس الحمزي ثلاثة وعشرين ألف دينار (٤) . كذلك كان الحال مع الأشراف الحمزيين من آل سليمان بن موسى (٥) ، وهم أحوال الإمام المهدي إبراهيم بن تاج محمد ، حين بذل لهم الملك المظفر الأموال الجمة ليتخلوا عن مناصرته في معركة أبق (٦) ، وهذا ما أكده الإمام المهدي حين قال — شعراً — وهو في الأسر (٧) :

نوابب الدهر في أفعالها العجب	والحرب لفظ ومعنى لفظه الحربُ
كيوم حدة والأبطال عابسة	من الهزاهز والشعبي مضطربُ
حتى إذا خان بعض الأهل موثقه	وغرّه فضة السلطان والذهبُ
أبدى شقاقاً وأخفى منه معظمة	وجاءنا الغدر لا من حيث نحتسبُ (٨)

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٣٦ — ٥٣٧ .

(٢) مائة قبل معركة الحصبات . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٤٥ . ومائتان حين زاره في زييد . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١٦ .

(٣) الخزرجي ، العسجد ، ق ٢٩٠ .

(٤) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٩ ب .

(٥) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٠٤ .

(٦) انظر فيما سبق ، ص ١٢٧ .

(٧) الشرف اللاكئ ، ج ٢ : ٤٧٨ .

(٨) لم يقتصر تقديم الأموال من قبل الدولة الرسولية لمحاربة الأئمة الزيديين على الأشراف المنلوئين لهم ، بل تعداه إلى تقديم هذه الأموال إلى القبائل كما كان الحال مع بني فاهم حين قبضوا على الإمام الداعي يحيى بن محمد السراجي . انظر فيما سبق ، ص ١١١ .

ولم يقتصر هذا الأمر على الملك المظفر دون غيره من ملوك الدولة الرسولية ، بل توارثه هؤلاء الملوك ، فيُذكر أن الملك المؤيد منح الأمير إدريس بن علي بن عبد الله الحمزي سبعة آلاف دينار ^(١) ، ووهب الملك الأشرف إسماعيل ، الأشراف الحمزيين – بعد زيارتهم له في سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٨ م – ستة وخمسين ألف درهم ^(٢) وفي سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م أمر الملك ذاته بأن يُعطي للأمير عبد الله بن إدريس بن علي الحمزي سبعين ألف درهم ^(٣) ، بينما أنعم الملك الناصر أحمد بن إسماعيل على الأشراف الحمزيين برئاسة الشريف المنتصر ^(٤) في سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ، بمائة ألف دينار ^(٥) ، وعلى الأمير إدريس بن عبد الله بن إدريس الحمزي ومن جاء معه في سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م ، بما يساوي المائتي ألف دينار من الخلع والحلي والذهب والفضة والخيل ونحوها ^(٦) ، وهكذا كان الحال مع معظم ملوك الدولة الرسولية الذين سعوا من خلال هذا العطاء المالي إلى أن يكسبوا هؤلاء الأشراف والأمراء ، وأن يجعلونهم حلفاء لهم ، لا أعداء ، ولم يكن ذلك إلا على حساب الدولة الزيدية التي عانت الكثير من الضعف بسبب الانقسام الذي أحدثه بنو رسول بأموالهم بين الأشراف الحمزيين من جانب ، وبقية الأشراف الزيديين من جانب آخر .

ومن الأساليب الأخرى التي تعامل بها الملوك الرسوليون مع الأشراف الزيديين المنشقين عن الدولة الزيدية ، وكان له ابلغ الأثر في إضعافها ، توليتهم على بعض المناطق الخاضعة للدولة الرسولية ، والتي من خلالها يتم تأمين المكانة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهم ، مما يجعلهم أكثر ولائاً للرسوليين ، وأكثر عدائاً للدولة الزيدية ، ولنا في تولية الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة ، و الأمير إدريس بن علي بن عبد الله الحمزي ، و الأمير عبد الله بن وهاس على مدينة القحمة ،

^(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٣٢٦ .

^(٢) الخزرجي ، المسجد ، ق ٤٥١ .

^(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٢٣٨ .

^(٤) لم استدل على أسم هذا الشريف كاملاً ، وكل ما ذكر عنه ، أنه من الأشراف الحمزيين ، وكان يسكن صعدة . انظر : ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٨٨ ، (حاشية المحقق)

^(٥) المصدر نفسه والصفحة .

^(٦) مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

من قبل ملوك الدولة الرسولية خلال الأعوام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م ^(١) ، ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م ^(٢) ، ٧١٤ هـ / ١٣١٥ م ^(٣) ، دليل على ذلك .

ومن هذه الأساليب أيضاً التشريف المعنوي لهم ، الذي يُعبر عنه بحفاوة الاستقبال من قبل الملك الرسولي . فقد روى ابن حاتم ^(٤) أن الملك المظفر — يوم استقبل الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة بزييد — خرج بنفسه للقائه ، وحشد العساكر من أوب حتى سدت الفضاء وأنهم — أي الأشراف الحمزيين — قُوبلوا بالإتحاف والإكرام حتى إن الملك المظفر أمر أن تحمل لهم الإقامات مدة مسيرهم إلى المدينة ، وبعد وصولهم إليها ضربت لهم الخيام والمطابخ مدة إقامتهم فيها .

ويندرج تحت مسمى حفاوة الاستقبال ما يقوم به العسكر الرسولي من ضرب للطبخانة ^(٥) ورفع الأعلام عند قدوم الشخص الزائر ، وهو ما يُعرف اليوم بالاستقبال الرسمي الذي يدل على المكانة الرفيعة والأهمية الكبيرة للشخص الزائر ، إذ لا تضرب الطبخانة ولا ترفع الأعلام في الدولة الرسولية إلا لمن عظمت مكانته بالنسبة لهم ^(٦) .

ولما كان الأمراء من الأشراف الزيديين ولا سيما المتحالفين مع الدولة الرسولية في زيارات متكررة لملوك هذه الدولة ، كان هؤلاء الملوك يأمرون بضرب الطبخانة ورفع الأعلام لإضفاء طابع التكريم والتقدير لهم ، ولذلك حرص هؤلاء الأمراء على علاقاتهم الحميمة بالدولة الرسولية التي وهبتهم ما لم يجدهم عند أئمتهم

^(١) ابن الديبع ، قرّة العيون ، ص ٣٢٣ . يحيى بن الحسين ، غية الأمانى ، ج ١ : ٤٤١ .

^(٢) الحمزي : كنز الأخبار ، ص ١٢٦ .

^(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٤١٠ .

^(٤) السمط ، ص ٣١٢ .

^(٥) الطبخانة : وتعني بيت الطبل والأبواق وتوليعها من الآلات ويشرف عليها أمير يعرف بأمير علم ويقف عليها عند ضربها ، كما يتولى أمرها حتى في السفر . القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ : ١٣ .

^(٦) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٤١٠ . ويختلف عدد أحمال الطبخانة المضروبة وعدد الأعلام المرفوعة من شخص إلى آخر حسب مكانته ومركزه بالنسبة للدولة الرسولية التي يعود إليها الأمر في تحديد عدد هذه الأحمال والأعلام . انظر : الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٢٦ .

وفي دولتهم ^(١) ، فكان ذلك مما عمق الصدع والانقسام في الدولة الزيدية وأسهم في أضعافها .

وكأسلوب أخير انتهجته الدولة الرسولية في صراعها مع الدولة الزيدية - بعد فشل أساليبها الأتفة - لجأ الملوك الرسوليون إلى تجهيز الحملات العسكرية لإخضاع الأشراف الزيديين ، ولا شك أن القيام بمثل هذه الحملات التي يقودها الملك في أحوال كثيرة تحتاج إلى الأموال الطائلة التي يتم من خلالها تسليح العسكر والإنفاق عليهم ، وضمان دعم القبائل ، وغيرها من الأمور التي لا غنى عن وجود المال لتحقيقها وهزيمة الدولة الزيدية .

ولما كانت الدولة الرسولية من القوة الاقتصادية بمكان ، فقد تمكنت في أحوال كثيرة من القيام بهذه الحملات دون صعوبات تذكر. بل وسعت إلى الإنفاق بسخاء على جندها وعسكرها ؛ لأن ملوكها يعلمون أن لا فائدة ترجى من الأموال إذا سقطت الدولة ، وأن الدولة هي مصدر هذه الأموال .

وعملاً بهذا المبدأ ، أنفق هؤلاء الملوك الأموال الجمة في صراعهم مع الأشراف الزيديين وأئمتهم ، وكانت أول هذه الحملات التي ترجمت هذا المعنى ، هي تلك الحملة التي قام بها الملك المنصور بالله نور الدين عمر بن علي بن رسول في سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م ، على بلاد الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة ، بعد أن نقض الصلح مع الدولة الرسولية بمحاولته الفاشلة للسيطرة على حصن كوكبان وباستيلائه على جبل منابر ^(٢) ، فجهز الملك المنصور حملة مكونة من ستين ألف راجل وأنفق عليها الخزائن ، وأتلف الذخائر ، وكانت أكياس الدراهم تصب بين يديه كما تصب أعدال الطعام ^(٣) ، فاستطاع بفضل هذه الأموال أن يستولي على حصن

^(١) وفي السياق ذاته يذكر الخزرجي أن الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة وصل إلى الملك المؤيد في زبيد في سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م وأن الملك أكرمه وتُحفه وعظمه وأنعمه ثم توجه به إلى بحر الأهواب على ساحل زبيد وأركبه خلفه على الفيل عند دخول الغارة ثم اصطحبه للنزهة والفرجة في قصور ثعبات . فرأى ملكاً كبير وجنة وحرير . كما يذكر أيضاً أن الأمير عبد الله بن علي بن وهاس الحمزي نزل إلى الباب السلطاني في عهد الملك المؤيد فرفعت له الطبخانة والأعلام . انظر : العقود ، ج ١ : ٣٨٢ ، ٤١٠ . ولا شك أن لكل ذلك تأثير في نفوس الأشراف الزيديين ولا سيما أعيانهم وأمرائهم الذين بيدهم الحل والعقد .

^(٢) انظر فيما سبق ، ص ٥٦ .

^(٣) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

منابر والعديد من الحصون في حجة وبلاد المغرب التي كانت ملكاً للأمير عماد الدين ومما لا شك فيه أنه لولا وجود هذه الأموال لما استطاع الملك المنصور أن يجهز حملة بهذا الحجم ، ويضم إلى صفوفه ستين ألف مقاتل جُلهم من القبائل التي ذهب بلبها بريق الذهب، وكما فعل الملك المنصور مع الأمير عماد الدين ، فعل الملك المظفر الشيء نفسه مع الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين ، يوم تغلب على معظم مناطق اليمن الأعلى وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على ذمار ، فجهز له حملة كان على رأسها وأنفق في العسكر كما لم يفعل أحد من قبله ، حتى إنه أنفق في يوم واحد على هؤلاء العسكر نفقتين ، الأولى في صدر النهار دراهم من فضة ، والثانية في آخره دنائير ذهب^(١) ، حتى قال أحدهم : " والله ما صلح قول القائل :

أنا الجارُ لا زادي بطيِّ عليهم ولا دون مالي في الحوادث بابُ .

إلا على الملك المظفر " ^(٢) ، كل ذلك حتى يضمن النتائج المرجوة من هذه الحملة ، ويضمن نجاحها والانتصار على الإمام المهدي إبراهيم ، وهو ما تحقق له بفضل هذه الأموال .

ومهما يكن النقص الحاد ، الذي واجهناه في المعلومات حول ما كان يصرف من الأموال على هذه الحملات عند تجهيزها ، ولا سيما الموجهة منها ضد الدولة الزيدية ، فأنا نستطيع أن نكون تصوراً عن القوة الاقتصادية للدولة الرسولية وقدرتها على تجهيز هذه الحملات ، من خلال ما جادت به المصادر ، التي وصفت الأموال الطائلة التي صرفت على الحملة الرسولية في عهد الملك المظفر ، للقضاء على تمرد

سالم بن إدريس الحبوضي^(١) ، في ظفار الحبوضي^(٢) ، إذ شرع هذا الملك في تجهيز المراكب والشيناني^(٣) ، وشحنها بالشحن العظيمة من أنواع الزاد ، كالتنمور ،

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٢٧ .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٧٤ .

(٣) كان سبب هذا التمرد على ما ذكرته المصادر التاريخية من أن أهل حضرموت تعرضوا لمجاعة عظيمة بسبب القحط الذي حل بهم ، وكانوا يهلكون ، فذهبوا إلى سالم بن إدريس — صاحب ظفار الحبوضي —

والحبوب ، والحوائج خانة^(٤) ، ثم السلاح كالقسي^(٥) ، والزرد^(٦) ،
والخوذ والترؤوس ، والسيوف ، و القنا^(١) ، والبيض^(٢) والمجانيق^(٣) وحجارتها

يطلبون منه المساعدة لدفع الجوع عن أنفسهم وعرضوا عليه حصونهم في تلك الجهات . وتوسلوا إليه بأصهار له وأصدقاء من أهل حضرموت ، فخرج إلى حضرموت وأخذ في شراء الحصون منهم الواحد تلو الآخر مستغلاً حاجتهم للمال حتى استولى على معظم مناطق حضرموت باستثناء تريم التي وصلتها المساعدة من الدولة الرسولية ، وبعد عودته من حضرموت إلى ظفار ، مال أهل حضرموت ميلاً واحدة على حصونهم واستعادوها ، وهو ما أصاب صاحب ظفار بالأسف والغم على ما ضيعه من الأموال في شرائها ، وبالتزامن مع ذلك قام الملك المظفر بإرسال سفير من قبله إلى ملوك فارس ومعه أموال وهدايا عظيمة ، وخلال الطريق بحراً صرفته الريح عن مساره ورمته به إلى ساحل ظفار ، فقبض عليه سالم بن إدريس وصادر ما كان معه من الهدايا والأموال ، وظن أن في ذلك تعويضاً له على ما ضيعه من الأموال في شراء حصون حضرموت ، ولما راسله الملك المظفر في أمر السفير والأموال تنكر له في ذلك ، وأغار على سواحل عدن بالتحالف مع صاحب الشحر ، مما أغضب الملك المظفر وجعله يسير إليه هذه الحملة . انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٥٠٥ - ٥١٠ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(١) ظفار الحيوضي : مدينة على ساحل حضرموت ، فيما بينها وبين عمان ، إختطها أحمد بن محمد الحيوضي سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م . المقحفى ، معجم ، ص ٤٢٣ .

(٢) الشواني : جمع شينة أو شيني وهي السفينة الحربية الكبيرة . انظر : عليان ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول ، ص ١٨٠ . العسيري ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ، ص ٢٤٧ .

(٣) الحوائج خانه : تعني بيت الحوائج واللوازم العينية التي تصرف لمطبخ السلطان وأرباب الدولة . انظر : الحسيني : الحسن بن علي الشريف ، نبذ من كتاب ملخص القطن والألباب ومصباح الهدى للكتاب ، نح : طلال جميل الرفاعي ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ٥٧ .

(٤) القسي : مفردهما قوس وتجمع أقواس وقياس وأقياس . انظر : عبد الغني محمود عبد العاطي ، أبو فراس بن دعثم وكتابه السيرة المنصورية ، ص ٢٦٢ .

(٥) الزرد : كلمة فارسية تعني اللباس الذي يلبسه المقاتل تحت الملابس الخارجية ، ويصنع من حلق فولاذية صغيرة متداخلة مع بعضها البعض . انظر : ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٤٢ ، (حاشية المحقق) . الزبيدي : محب الدين محمد بن محمد مرتضى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٠٦ هـ ، ج ٢ : مادة زرد . عليان ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول ، ص ١٩٧ .

(٦) القنا : رماح ذات أسنة طويلة . انظر : عليان ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول ، ص ١٩٦ .

(٧) البيضة : تسمى خوذة إذا صنعت من الجلد ، أما إذا صنعت من الحديد فتسمى بيضة ، وتستخدم لحماية الرأس في أثناء الحروب . مؤلف مجهول ، نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد

وآلتها ، فضلاً عن العسكر والخيول والبغال حتى إنه رسا في البحر ألف قطعة^(٤) ، والقطعة عبارة عن الجوالق العظيمة من أنواع الشحن الكبيرة^(٥) ، وتم تزويد هذه الحملة بالطباخين والخبازين وأصحاب الحلوى وأرباب الحرف والأشغال وكل ما تحتاج إليه^(٦) . فإذا كان هذا حال الحملة الرسولية لقمع تمرد يبعد مئات الكيلومترات ويتمتع بالقوة والمنعة فلا أسهل عليها من قمع تمردات الأئمة الزيديين التي لن تحتاج لمواجهتهم لمثل هذه الحملات الكبيرة .

٣ . ضعف الموارد المالية في الدولة الزيدية :

ذكرنا آنفاً أن قوة الدولة الرسولية اقتصادياً كانت من أهم الأسباب التي أسهمت في إضعاف الإمامة الزيدية ، وأن بني رسول بإمكاناتهم المادية تمكنوا من شراء الحصون وإرسال الخزائن ودعم المنشقين عن الدولة الزيدية وتجهيز الحملات العسكرية ، ولذلك كله تمكنت الدولة الرسولية من الانتصار على أئمة الزيديين في أحوال كثيرة . ويبدو أن ما ساعد بني رسول في تحقيق أهدافهم إلى جانب القدرات الاقتصادية الكبيرة التي كانت لديهم ، ما كانت تعانيه الدولة الزيدية من أزمات اقتصادية خانقة ، جعلتها ضعيفة أمام الرسوليين ، ومما لا شك فيه أن من أهم الأسباب التي أدت إلى هذه الأزمات هو ضعف الموارد المالية في الدولة الزيدية ، والفارق الكبير بين موارد هذه الدولة ونفقاتها ، فالموارد المالية المتمثلة في غنائم الحروب والخراج والمتحصلات من الواجبات الشرعية كالزكاة والفطرة والجزية وغيرها من الموارد ، تكاد لا تكفي لتغطية جزء يسير من احتياجات الدولة ونفقاتها^(١) ، ولو كانت هذه الموارد تكفي لما اضطر الأئمة الزيديون المتعاقبين على فرض أشكال أخرى من

المظفري الوارف ، تح : محمد عبد الرحيم جازم ، المعهد الفرنسي للأثار والعلوم الاجتماعية ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م ، ج ١ : ٥٧ ، ٢٩٠ .

^(٧) المنجنيق : آلة حربية من آلات الحصار تصنع من الخشب ومؤلفة من دفتين قائمتين بينهما سهم طويل له راس ثقيل وذنب خفيف ، في نهايته كف توضع فيها الحجر المقنوفة بعد جذبها إلى الأسفل ثم ترسل فتتطلق باتجاه هدفها . انظر : الخطيب ، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، ص ٤١٠ .

^(٨) ابن حاتم ، السمط ، ص ٥١١ .

^(٩) حتى الأقمشة بمختلف أنواعها كالبنديقي والسوسي والموصلي والزبيدي تم توفيرها في هذه الحملة .

انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٥١١ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢١١ .

^(١٠) المصادر نفسها والصفحات .

^(١١) الوزير ، كاشفة ، الغمة ، ق ٣١٢ .

الموارد المالية على الناس كالمعونة وغيرها من أنواع الضرائب غير الشرعية ، حتى وصل الأمر إلى الاستعانة بأموال الفقراء والمساكين المنصوص عليها في القرآن من أموال الصدقات (٢) .

ويبدو - أيضاً - أن ضعف الصناعة والتجارة - الداخلية والخارجية - في الدولة الزيدية كان من أهم العوامل في ضعف الموارد المالية فيها ، فضلاً عن قلة الأموال المتحصلة من الخراج نظراً لقلة المساحات المزروعة في اليمن الأعلى مقارنة بنظيرتها في اليمن الأسفل ولا سيما في تهامة ، كما أن افتقار الدولة الزيدية للموانئ البحرية أثر تأثيراً كبيراً على الصناعة فيها من جهة ، والتجارة مع العالم الخارجي من جهة أخرى ، الأمر الذي عرقل انتعاش هذه المجالات الاقتصادية المهمة ، ولنا في الدولة الرسولية الدليل على ذلك .

ونظراً لعدم توافر هذه المقومات الاقتصادية في الدولة الزيدية ، عانت من أزمات مالية أدت في كثير من الأحيان إلى الاستدانة من الأطراف الأخرى لتغطية هذا العجز ، حتى آل الأمر ببعض الأئمة أن يُؤسروا أو يُتوفوا وهم مدينون لغيرهم بهذه الأموال ، كما حدث مع الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين أحمد الذي استدان أموال كثيرة في حربه مع الدولة الرسولية ، فلما أُسر في معركة أفق ، أمر الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى المرتضى قبائل خولان بتسليم ما عليها من الحقوق الواجبة للدولة ، لقضاء ديونه التي كفله فيها السيد مفضل بن منصور بن محمد العفيف (٣) .

وفي السياق نفسه ذكر الإمام عز الدين أنه لما توفي جده الإمام الهادي علي بن المؤيد ، سار والده إلى الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وكان يومها بحجة ، وسلم له ما تركه الإمام الهادي من الحصون ، واستشاره في الديون التي مات وهي عليه ، استدانتها للدولة . فأمر الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى قبائل خولان بتسليم واجباتها لقضائه (١) .

وقد يعتقد البعض أن هذه الأزمات هي أزمات آنية مر بها بعض الأئمة ، إلا أننا ومن خلال مطالعتنا لعدد من سير الأئمة وأخبارهم ، لمسنا مثل هذا الأمر عند كل

(١) يحيى بن حمزة (الإمام المؤيد بالله) ، مشكاة الأنوار للسالكين مسالك الأبرار ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٤) (ضمن مجموع كتب ورسائل) ، ق ٦٩ .

(٢) الجنداري ، الجامع الوجيز ، ق ٨٧ ب .

(٣) ابن فند ، مئثر ، ج ٣ : ١١٠٤ .

منهم ، وإن لم يصل الحال بهم إلى ما وصل إليه مع الإمامين المهدي إبراهيم والهادي علي ، فهذا الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة يتعرض للانتقادات والاعتراضات بسبب أخذه للأموال المفروضة للفقراء والمساكين من أموال الصدقات لأنه بحاجة لها ، ولأنه لم يجد سبيلاً آخر لتحصيلها ، ولشدة أزمته وضيق حاله ، انشأ رسالة بهذا الشأن قال فيها :

" ... أعلم أن قوام أمر الإمامة إنما يكون بتقوية الجند والعساكر ... والعساكر لا تنمو صورهم إلا بالأرزاق ، والرزق لا يكون إلا من جهة الرعية والتجار وتأديّة واجبات الأموال ... فصورته لا تتقام إلا بإحراز الأموال ، ولا يكون له شوكة ولا قوة على كل ظالم إلا بهذا ، فإذا خلا بيت المال عن المال وكانت يد الإمام صفراً ، ضعف الجند والديوان والعساكر ، ومع ضعف العساكر يضعف الأمر ويهون ، ولا يمكنه تغيير المنكر ولا كف الظلمة ... عن ظلم الخلق ... " (١) .

ولما كان هذا الأمر من الأهمية بمكان ، أشار الإمام عز الدين (٢) إلى أنه ليس كل إمام يتمكن من إعطاء الضعفاء والمساكين حقهم ، فكم من إمام لا يتمكن من مواسة فقير واحد ، فضلاً عن أن يواسي كل فقير (٣) .

وروى ابن فند (٤) أنه لما كثرت الفتن وعظمت المحن في أول دولة الإمام المهدي علي بن محمد داخل أهل صعدة فتور وملل ، وادعى بعضهم على بعض أنه لم ينفق على قدر حاله وماله ، فاضطربت أمور العسكر وانقطع عنهم بعض ما يحتاجونه لأنفسهم ، فلم يتمكن الإمام مما يقيم به العسكر (٥) .

وعلى الرغم من التوسع الكبير الذي شهدته الدولة الزيدية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، والتطور الملحوظ في مختلف المجالات ، فإن ذلك لم يكن إلا بصعوبات مادية كبيرة واجهها هذا الإمام ، فقد أورد ابن المظفر (٦) أن القاضي فخر الدين عبد الله بن حسن الدواري أرسل إلى الإمام الناصر يطلب مالاً ،

(١) مشكاة الأنوار ، ق ٦٩ .

(٢) العناية التامة ، ق ٤٨ .

(٣) عن هذا الموضوع ، انظر فيما سيأتي ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٤) مآثر ، ج ٢ : ١٠١١ .

(٥) عن هذا الموضوع ، انظر فيما سيأتي ، ص ٣٠٤ .

(٦) الترجمان : ق ١٥٥ .

فرد عليه الإمام الناصر بالاتي : " ... ونحن نُعرف المقام الغالي إنا في هذه المدة في مشاق متكاثفة ومتاعب مترادفة ، يضيق لها النطاق ... ولكننا نمضي بصبر أمر من العلقم وأحرق من سم الأرقم ... ولقد أنفقنا في هذه الحركة - غزوة حرص - ما لا يمكن حصره في هذه الورقة ، وما ذلك إلا عن مشقة ... وديون مترادفة ... ولا بد للناس من مطالبهم وإلا بطل نفعهم وظهر صرهم ... " (٢) .

٣. الأعباء المالية على العامة في الدولة الزيدية :

أ. المعونة :

لما كانت الموارد المالية للدولة الزيدية غير كافية لتغطية تكاليف الحروب التي خاضتها مع الدولة الرسولية ، لجأ أئمة هذه الدولة إلى ابتكار وسائل جديدة يؤمنوا من خلالها موارد مالية يستطيعوا بوساطتها مواصلة هذه الحروب والاستمرار فيها ، ومن ضمن هذه الوسائل ما أحدثه الإمام المهدي أحمد بن الحسين يوم قرر شراء حصن براش من الأمير أسد الدين محمد بن الحسن الرسولي بخمسمائة ألف درهم وعشرون ألف (٣) ، وعُرف لاحقاً بالمعونة التي اشترقت من قول الله تعالى : " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " (٤) ، وتعني معاونة الإمام في بعض الأمور التي لا يستطيع بمفرده القيام بها . مثل شراء الحصون وتجهيز الجيوش ، ويبدو أن الإمام المهدي استلهم هذا الأمر مما فعله الرسول (ﷺ) يوم جهز جيش العسرة إلى تبوك (١) ، لأنه لم يكن متعارفاً عند الأشراف الزيديين حتى ذلك الحين .

(١) المصدر نفسه والورقة .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٨٩ .

(٣) المئدة : الآية ٢ .

(٤) سمي هذا الجيش بهذا الاسم نظراً للعسرة والمشقة التي واجهها الرسول (ﷺ) في تجهيزه ، فقد كان ذلك الزمان (٩ هـ / ٦٣٠ م) ، زمان عسرة على الناس ، والحر فيه شديد ، والجذب أشد ، واجتمع مع الرسول ما يقرب من ثلاثين ألفاً لغزو بلاد الروم وفيهم الكثير ممن لا يستطيع تجهيز نفسه بالراحة والزاد ، فحث الرسول (ﷺ) أهل الغنى على النفقة في سبيل الله وكان عثمان بن عفان (رضي الله عنه) أكثر من أنفق على ذلك بألف دينار وتسعمائة وخمسين بغيراً وخمسين فرساً حتى قال الرسول فيه : " ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم " . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٥ : ٣ - ٥ . المباركفوري : صفي

وبالنظر إلى الوضع الاقتصادي المتردي الذي كان يعاني منه العامة في اليمن الأعلى ، ولا سيما في تلك المناطق الخاضعة للدولة الزيدية ، نجد أن هذه المعونة شكلت عبئاً ثقيلاً على كاهلهم إذا أخذنا بعين الاعتبار استمرارها خلال عهود الأئمة المتعاقبين ، وشمولها لمعظم الناس حتى الأراذل والأيتام ، والحكم بوجوبها من قبل الأئمة ، مما جعلها مع مرور الزمن تكتسب صفة الشرعية^(٢) وهي غير ذلك ، ولأجلها تعرض بعض الأئمة لانتقادات شديدة ، وعلى رأسهم الإمام المهدي أحمد بن الحسين^(٣) الذي اعترض عليه بعض الفقهاء في أخذها^(٤) . ومع أن الإمام المهدي

الرحمن ، الرحيق المختوم بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر ، ط ٤ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ، ص ٤٣٦ .

(١) كانت المعونة في بادئ الأمر تقتصر على الحالات التي يحتاج فيها الإمام إلى الأموال كسراء بعض الحصون كما كان الحال في قضية شراء حصن براش صنعاء أو لتجهيز الحملات . ثم أصبحت تدفع بشكل مستمر ومنتظم كالتقالات في الأسواق ، والجلانث والضرائب غير الشرعية على أهل التجارات والصناعات ثم تم إكراه أهل الزرائع على دفع أكثر مما يتوجب عليهم من زكاة أموالهم المنصوص عليها في سنة رسول الله (ﷺ) .

(٢) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٦٨ .

(٣) استند هؤلاء الفقهاء في ذلك إلى بعض الأحاديث النبوية التي تمنع أخذ أموال المسلمين بدون وجه حق ، ومنها ، قول رسول الله (ﷺ) : " المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، والتقوى ههنا - وأشار بيده إلى القلب - وبحسب أمريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم " . انظر : الطبراني : أبو القاسم سليمان بن أحمد ، المعجم الكبير ، حققه وخرج أحاديثه : حمدي عبد المجيد السلفي ، مطبعة الزهراء ، الموصل ، ط ٢ ، ١٩٨٣ م ، ج ٢٢ : ٧٤ (١٨٣) . وقوله (ﷺ) : " أيها الناس ، أسمعوا قولي ، فإني لا أنري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، بهذا الموقف أبداً ... إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا - يوم النحر - في شهركم هذا - ذي الحجة - في بلدكم هذا - مكة - " . انظر : البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، الجامع = الصحيح المسند من حديث رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ج ١ : ٥٥ (١٠٥) . ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجه ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ج ٢ : ١٠١٥ (٣٠٥٥) . الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى ، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ، تح : كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت ، ج ٤ : ٤٠١ (٢١٥٩) . تح : إبراهيم عطوه عوض ، دار الحديث ، القاهرة ، د . ت ، ج ٤ : ٤٦١ (٢١٥٩) .

رد عليهم بالاستشهاد بعدد من الآيات القرآنية^(١) التي رأى فيها ما يبيح له أخذ الأموال من الناس خارج الحقوق الشرعية الواجبة عليهم^(٢) ، إلا أن ذلك لم يقنع الكثيرين منهم ، لما فيه من المشقة والعبء على الناس .

وبين معترض على المعونة ومقر لها ، استمرت معاناة الناس منها ، وازدادت مكابدهم من أجل تحصيلها ، وهو ما جعل كثيراً من الناس ينفرون عن الإمامة الزيدية ويتمردون عليها في بعض الأحيان ، ويتحالفون مع أعدائها من الرسولين نكايه بها ، ولعل أوضاعهم الاقتصادية تتحسن بفعل ذلك .

ب. الضيافات :

هي شكل من أشكال الأعباء المادية التي عانى منها العامة في ظل الدولة الزيدية ، بالنظر إلى حجمها من حيث عدد الضيوف ومدة إقامتهم التي قد تطول إلى عدة أشهر ، ومقدار ما يُستهلك فيها من الأطعمة ونحوها ، وهذا بلا شك يمثل عبئاً مادياً لا يستطيع الكثيرون تحمله ، ولنتضح الصورة أكثر نذكر ما أورده صاحب الكنز في مؤلفه ، من أن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وبعد خروجه من السجن في صنعاء ، توجه إلى هجرة معين بالقرب من ثلا ، وأن شيخ ثلا داود بن الفهد استقبله في هذه المنطقة وضيّفه مدة إقامته هناك ، ثم يروى أن مقدار ما ذبح من الأنعام خلال تلك المدة قد وصل إلى أربعمئة رأس من الغنم^(١) ، وما بين الخمسين إلى الستين رأس من البقر^(٢) .

^(١) من هذه الآيات - على سبيل التمثيل - قول الله تعالى : " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " . التوبة : الآية : ٤١ . وقوله سبحانه ، على لسان ذي القرنين عندما طلب من الناس المعونة لبناء السد : " ... قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا " . الكهف : الآيات " ٩٥ - ٩٦ .

^(٢) مجموع رسائل ، ص ١٦٩ .

^(١) قد يقول قائل أن في ذلك نوعاً من المبالغة ، ولكنه قد يعدل عن قوله هذا إذا علم أن راوي هذه القصة هو ابن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، وبالتالي هو معاش لهذا الحدث وليس ناقلاً له .

^(٢) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٥ ب

وبناءً على ما تقدم ، نستطيع التأكيد أن مقدار ما ذبح من الأنعام سواء الغنم أو البقر لم يكن من حر مال الشيخ داؤد بن الفهد ، وأنه وحسب الأعراف القبلية المتعارف عليها في اليمن إلى اليوم ، قد تم توزيعها على أفراد القبيلة أو حتى القبائل المجاورة ، المهم أن يتم إكرام الضيف على أكمل وجه .

وإذا لم يكن فيما رواه صاحب الكنز من ضيافة شيخ ثلا للإمام المهدي ما يدل على ما نزع ، فقد أورد المؤلف ذاته أن الإمام المهدي ظل أياماً في الجنات في دار بني عجلان^(٣) ، وأن بعض عساكره كانوا حاطين على أهل الضير^(٤) ضيوفاً ، ففتبروا عن إطعامهم حتى إن امرأة رجل من كبارهم جمعت ما في بيتها من سلاح العسكر وعدتهم ورمتها من أعلى الدار^(٥) ، تعبيراً عن تذمرها من وجودهم وتخلصاً من العبء المادي الذي يمثله وجود هؤلاء العسكر في الدار^(٦) .

وإذا كانت هذه المرأة قد وجدت سبيلاً للتعبير عن نفسها وعن معاناتها ومعاناة أسررتها في ظل وجود هؤلاء العسكر ضيوفاً عليهم ، فكيف يستطيع الرجال التعبير عن أنفسهم ولا سيما وأن الأعراف القبلية تلزمهم إكرام ضيوفهم حتى يرحلوا . وعليه نستطيع القول أن هذه الضيافات كانت من أهم الأعباء المادية التي دفعت العديدين للتمرد على الدولة الزيدية وهو ما أدى إلى أضعافها .

ج . العقوبات المالية على القبائل :

هي نوع آخر من الأعباء المالية التي تفرضها الدولة الزيدية على القبائل المتمردة عقاباً لها على تمردها وخروجها عن الطاعة^(١) ، وتتفاوت هذه العقوبات

(٣) لم استدل على نسبهم ومواضعهم في كتب الأنساب والمعجم .

(٤) الضير : قرية في شمال شرق الجنات بمسافة (ثلاثة كيلو مترات) ، تتبع عزلة الجنات بمحافظة عمران . انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ١٤٧ ، (حاشية المحقق) .

(٥) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٧١ ب .

(٦) هذا ما يعرف بالحطاط . انظر فيما سيأتي ، ص ٢١٧ .

(٧) يستند الأئمة الزيديون في مسألة العقوبة بالمال لياً كان الخطأ فيها إلى عدد من الآيات القرآنية ، منها : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ

باختلاف وتفاوت التمرد والعصيان ، وعادة ما تكون كبيرة تعجز القبيلة عن دفعها فتشفع الشفاعات لدى الإمام حتى يخفصها ، الأمر الذي يضطر الإمام إلى تقسيطها لفترات طويلة من الزمن . ومع أنه من المفترض أن تكون هذه العقوبات رادعة للقبائل عن القيام بأي تمردات أخرى ، إلا أنها — على ما يظهر — كانت مصدراً من مصادر التمردات القبلية ، ولم تكن في يومٍ من الأيام علاجاً ناجعاً لها ، فدفع القبيلة لهذه الأموال لن يكون إلا على حساب أفرادها ، واقتطاعاً من أقواتهم ، ولذلك فهم يعانون الأمرين من أجل توفيرها ، وفي كل الأحوال ، يسهم هذا الأمر في نفور القبائل أكثر عن الدولة الزيدية ويجعلها أكثر اقتناعاً بضرورة التمرد عليها عندما تكون الأوضاع موالية لذلك ، لأن الولاء المفروض عليها من قبل الدولة عن طريق العقوبات والرهائن وغيرهما ، هو ولاء شكلي يزول بزوال أسبابه .

ولتوضيح أثر هذه العقوبات في القبائل وما تعانیه منها ، نذكر عدداً من العقوبات التي فرضت على بعض القبائل ، إذ ذكر السيد شرف الدين (٢) أن الإمام المهدي أحمد بن الحسين فرض ثمانين ألف درهم على قبيلة سنحان بعد قتلها لواليه الفقيه حسام الدين الصعدي ، وأن أهل مأرب تضرعوا إليه ، واستعطفوه ليعفوا عنهم — بعد أن أعلنوا ولائهم للخلافة العباسية — ودفعوا له الأموال الجلييلة بغية ذلك (٣) .

ومن الجدير بالذكر ، أن العقوبات المالية على القبائل لم تقتصر على دفع الأموال فحسب ، بل تعدتها إلى أنواع أخرى من العقوبات التي لا تقل قسوة عن ذلك ، من ذلك تجويعها وحصارها اقتصادياً من خلال قطع أسواقها مع القبائل

نُوا عَدَلٌ مُنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ" . المائدة الآية : ٩٥ . وعلى ما فعله الرسول (ﷺ) بمانع الصدقة الذي حكم عليه بأخذ نصف ماله من غير توقف في حاله ، وعلى ما فعله علي بن أبي طالب (ﷺ) في قضية المحتكر حين أحرق نصف ماله وأخذ النصف الآخر . انظر : عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل ، ج ١ : ٢١٣ — ٢١٤ . أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٥٩ .

(١) سيرة المهدي ، ق ٧١ أ .

(٢) المصدر نفسه ، ق ٨٠ أ — ٨٠ ب .

الأخرى^(١) ، ومنعها من عمليات البيع والشراء ، ولنا في ما فعله الإمام المهدي أحمد بن الحسين مع قبيلة يناعة مثلاً على ذلك^(٢) .

ومن أشكال العقوبات المالية التي ظلت الدولة الزيدية في اليمن تمارسه على القبائل حتى أواخر عهدها – ونحن نؤكد أنها كانت تمارسه أيضاً في فترة موضوع البحث^(٣) – ما يعرف بالحطاط أو التنافيذ^(٤) ، ومعنى الحطاط الإباحة المطلقة للجيش على القبائل بصورة تجعل العسكر يتصرفون في منازل أفراد القبائل وكأنهم أصحابها وأسيادها المطاعون^(٥) . أما عن كيفية الحطاط فإنه عندما تعلن أي قبيلة الخروج عن طاعة الدولة وتشتهر تمرداً عليها ، فإن الدولة تأمر الجيش بالحطاط على أقرب قبيلة مجاورة لهذه القبيلة المتمردة ، عقاباً لها على هذا الجوار ، وعلى هذه القبيلة المسالمة أن تزود الجيش بكل ما يحتاجه من مأكّل ومشرب ومسكن خلال مدة صراعه مع القبيلة المتمردة ، وإذا شعر قائد الجيش بتبرم هذه القبيلة أو سخطها من ذلك ، أنزل بها من العقاب ما تكون به عبرة لغيرها^(٦) .

أما التنافيذ فلا فرق بينهما وبين الحطاط إلا في كون العسكر الحاطين على القبائل ، جاءوا لقبض الحقوق الواجبة للدولة وإجبار أفراد القبائل على ذلك^(١) ، وعلى هذه القبائل أن توفر المأكّل والمشرب والمسكن لهؤلاء العسكر خلال مدة إقامتهم في

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٠ ب .

(٢) المصدر نفسه ، ق ٧١ أ .

(٣) لنا في قصة المرأة التي ألفت سلاح عسكر الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى من أعلى دارها ، دليلاً على ذلك ، ويؤكد المرتضى هذا الرأي عندما قال بعد حادثة المرأة : " ... فوصل أهلها معتذرين وأقاموا حطاطهم إقامة حسنة " . انظر : الكنز ، ق ٧١ ب .

(٤) سلطان ناجي ، التاريخ العسكري لليمن (١٨٣٩ – ١٩٦٧ م) ، دار العودة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٨ م ، ص ١٢٣ . مجهول ، صفحات مجهولة من تاريخ اليمن ، ص ٤٧ . الشرجي : قائد نعمان ، القرية والدولة في المجتمع اليمني ، دار التضامن ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م ، ص ١٧٨ .

(٥) سلطان ناجي ، التاريخ العسكري لليمن ، ص ١٢٣ .

(٦) المرجع نفسه والصفحة .

(٧) سؤل الإمام المنصور عبد الله بن حمزة عن حكم إكراه الناس على الضيفة ، وهل يجوز للعسكر ذلك . فأجاب أنه إذا جاز للإمام أخذ الأموال من الناس لصالح الأمة إكراهاً ، جاز له أيضاً إكراههم على ضيافة العسكر ولا سيما منهم جامعي الصدقة . عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل ، ج ١ : ٢٠٨ – ٢١٠ .

القبيلة لقبض هذه الحقوق ، وسواء كان حطاط العسكر على القبائل من أجل قمع القبائل المتمردة أم من أجل قبض الحقوق ، فإن توفير هذه القبائل لهؤلاء العسكر الطعام والماء وحتى المسكن يشكل عبئاً مادياً على هذه القبائل ، بل إن الجرأة قد تبلغ ببعض العسكر إلى الإطّلاع على عورات النساء ومطاردتهن وإجبارهن في بعض الأحيان على ممارسة الفاحشة ، ولا سيما في حالات غياب صاحب الدار^(٢) .

ومن أشكال العقوبات المالية أيضاً ، ما تقوم به الدولة عند محاولاتها القضاء على التمردات القبلية من عقر للزروع ، وهدم للدور ، وردم للآبار ، مما يهدد هذه القبائل في وجودها ، ويجعلها في حالة عداة مستمر مع من قام بهذه الأفعال في حقها^(٣) .

٤. الكوارث الطبيعية والأوبئة :

إذا أخذنا بعين الاعتبار ما يعانيه الناس من الأعباء المادية المتمثلة في الضرائب والحقوق الشرعية والضيافات والعقوبات المالية ، نستطيع أن ندرك مقدار المعاناة التي قد تتضاعف عند حدوث الكوارث الطبيعية والأوبئة ، والتي لا شك ستؤثر سلباً في الدولة أياً كانت هذه الدولة .

وحتى نوضح تأثير هذه الكوارث والأوبئة على الدولة الزيدية ، علينا أن نستعرض بعض من هذه الكوارث ، لنبين مدى الضرر الحاصل على هذه الدولة جرائها ، ورد في سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين في حوادث سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٨ م^(١) ، أن اليمن الأعلى تعرض لحالة من الجذب والقحط نتيجة لانقطاع تساقط الأمطار ، وأنه نتيجة لذلك مات الكثير من الناس في نمار وصعدة والجوف والمغرب وحجور وبلاد خولان القبلية ونجران والتهائم ، وأن الأسعار وصلت إلى أرقام يعجز معها الناس عن الشراء ، فصار الصاع النبوي من البُر ستة دراهم ، والشعير بأربعة دراهم ، والذرة بعشرة دراهم ، ورأس البقر بخمسمائة درهم ، والشاة بخمسين درهم ،

(١) انظر : سلطان ناجي ، التاريخ العسكري لليمن ، ص ١٢٣ . وهذا أمر غير مستغرب نظراً للاحتكاك المباشر بين هؤلاء العسكر وأهل الدار بما فيهم النساء هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار صغر مساحة الدار في تلك المدة . كما إننا لا نستبعد أن تكون مثل هذه المضايقات هي الدافع وراء ما قامت به المرأة في منطقة الضير باليون ، إضافة إلى جانب الأعباء المادية .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٧٤ .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١١٥ ب .

والرطل من السمن والسليط بسنة دراهم^(٢) ، وهي أسعار باهظة جداً ، إذا علمنا أن راتب الجند في جيش الدولة الزيدية - آنذاك - يتراوح ما بين الخمسة إلى العشرين ديناراً^(٣) ، أي ما يعادل العشرين إلى الثمانين درهماً^(٤) ، وهي ولا شك رواتب ضئيلة بالمقارنة بين ما يحتاجه الناس وما وصلت إليه الأسعار ، ولذلك عجزوا عن شرائها ، فآل بهم الحال إلى أكل الدواب والحمير^(٥) والكلاب والسباع^(٦) ، وأنواع من الأرواث والتراب والأشجار التي لا تؤكل^(٧).

ولم يقتصر الأمر على الجوع وقلة الطعام وارتفاع الأسعار وحسب ، وإنما انقطعت المناهل^(٨) وُعدم الماء في كثير من البلاد ، بعد أن ارتفعت أسعاره إلى سبعة دراهم لحمل الإنسان منه ، ودرهم واحد لشربة الماء^(٩) ، ونظراً لذلك خلت بعض البلدان من أهلها ، وصار الأموات صرعى في الشوارع والسكك^(١٠) .

وتزامناً مع هذا الأمر نشبت الحرب بين الإمام المهدي أحمد بن الحسين والأشراف الحمزيين الذين ضاقت بهم الأحوال من كل جانب ، ولم يجدوا بداً من حسم صراعهم معه ، بالاستعانة بالأموال التي قدمت لهم من أجل هذا الغرض . ومما لا شك فيه أنه كان للمائة ألف درهم المظفرية التي أرسلها الملك المظفر للأمير شمس الدين أحمد ، أثر السحر على القبائل وعلى غيرها من الأشراف ، فانضمت للفريق المناوئ للإمام المهدي ، وذلك ما نتج عنه لاحقاً مقتل هذا الإمام في غيل شوابة وهو يدافع عن زرعها ، الذي كان في ذلك الحين أعلى من الذهب^(١) .

(١) الشرفي ، اللالكئ ، ج ٢ : ٤٤١ .

(٢) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٧٨ .

(٣) لأن الدينار يساوي أربعة دراهم مهدية . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٩ أ . الشرفي ، اللالكئ ، ج ٢ : ٤٢٢ .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٧ . الشرفي ، اللالكئ ، ج ٢ : ٤٤١ .

(٥) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٢٢ .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١١٥ ب .

(٧) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٤٣ ، أنباء الزمن ، ق ١٦٦ .

(٨) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١١٨ ب .

(٩) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٧ . الشرفي ، اللالكئ ، ج ٢ : ٤٤١ .

(١٠) لأنه لم يكن في بلاد الأشراف زرع إلا في شوابة . انظر : الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٠٤ .

وفي حالة مشابهة ، مرت الدولة الزيدية بحالة من القحط العظيم في سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م ^(٢) ، فمات نتيجة لذلك آلاف من الناس ، ومن المؤكد أن هذه المجاعة كان لها تأثير مباشر في الحرب التي كانت قائمة بين الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين والدولة الرسولية ، وأنه كان للأموال التي أنفقها الملك المظفر في هذه الحرب على العسكر والقبائل والأشراف الحمزيين على حدٍ سواء ، الأثر الأكبر في حسم هذه الحرب لصالح الدولة الرسولية ^(٣) .

وفي سنة ٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م ^(٤) ، شهدت الدولة الزيدية مجاعة من نوع آخر ، لم يكن الجذب والقحط هما السبب فيها ، وإنما كان الجراد الذي أكل المزروعات في مختلف مناطق اليمن الأعلى ، فتضرر الناس كثيراً من هذا الأمر ، وتكرر الأمر ذاته في سنة ٨٢٤ هـ / ١٢٤١ م ، إذ ارتفعت الأسعار فيها ارتفاعاً عظيماً ، وجاع الناس جوعاً شديداً ^(٥) .

أما فيما يتعلق بالأوبئة فقد تعرضت اليمن خلال مدة موضوع البحث للعديد منها ، والتي هلك بسببها الكثير من الناس ، ولكن أشهرها على الإطلاق ، ذلك الطاعون الذي عم معظم أرجاء اليمن ، فانتشر في بادئ الأمر في اليمن الأسفل ، ثم واصل انتشاره إلى مناطق اليمن الأعلى ، وخلال عامي ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م ، ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م ^(٦) ، قضى على عشرات الآلاف من الناس ، والذين كان من ضمنهم ثلاثة من الأئمة الزيديين وهم : الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، والإمام المنصور علي بن صلاح ، وولده الإمام محمد بن علي بن صلاح ، الذي لم يكمل أربعين يوماً في الإمامة الزيدية ، ليلحق بوالده بسبب هذا الوباء ، ويؤول الأمر

^(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٨٨ . مجهول ، تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٤٠ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ١ : ٤٥٨ .

^(٢) انظر فيما سبق ص ١٢٧ .

^(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٥٧ .

^(٤) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٣٧ .

^(٥) لم يكن هذا الطاعون هو الوباء الوحيد الذي تعرضت له اليمن في ذلك الحين ، فقد سبق وأشرنا إلى وفاة الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة وأخويه موسى والحسن وجماعة من الأشراف من بني وهاس الحمزيين والشيخ الرصاص وكثير من الناس قبلهم وبعدهم ، ولا شك أن هذه الوفيات كانت = بسبب وباء انتشر بين الناس في ذلك الحين وإن لم يكن بالخطورة ذاتها التي كان عليها طاعون سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م . انظر فيما سبق ، ص ١٠٨ .

من بعد إلى زوجته الشريفة فاطمة بنت الحسن بن صلاح ، التي أسهمت بشكل أو بآخر في إضعاف الإمامة الزيدية كما أسلفنا^(١).

ثالثاً : الأسباب المذهبية :

١. التكفير بالموالاة :

المقصود به ، تكفير من يوالي الرسوليين أو يوالي حلفائهم ، واستند الأئمة في هذا الأمر إلى قول الله تعالى : " لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... " ^(٢) ، والموالاة هي الموالاة والمخالفة ، ومع أن باب التكفير ضيق ومضطرب ، والنظر فيه دقيق ومورده الشرع ، ولا ينبغي أن يقدم عليه أحد إلا بمسلك شرعي ، ولا مجال للظن فيه ^(٣) ، إلا أن العديد من الأئمة الزيديين تمادوا فيه ، وكفروا كل من يخالفهم من أهل المذاهب الأخرى ، ثم غلوا أكثر حتى كفروا كل من تربطه علاقة حميمة بالرسوليين من الأشراف الزيديين وغيرهم من القبائل .

ويعد الإمام المهدي أحمد بن الحسين من أبرز هؤلاء الأئمة الذين مارسوا مثل هذا النوع من التكفير ، وله في ذلك أمثلة كثيرة منها ما يخص الأشراف ، ومنها ما يخص القبائل ، ومنها ما يخص الأفراد المعينون بأسمائهم .

أما فيما يخص الأشراف ، فقد ذكر السيد شرف الدين أن الإمام المهدي تشاور مع العلماء والفقهاء في أمر الأشراف الحمزيين — بعد الذي فعلوه في بلاد حجة والمغرب — وقال لهم في معرض حديثه : " لا يسعني عند الله إلا محاربتهم ، فهم اليوم أضر على المسلمين من الغز ... هذا مع أنه قد صح عندي أن حكمهم اليوم وحكم الغز واحد ... " ^(٤) ، وهو بلا شك يكفر الغز (الرسوليين) .

^(١) انظر فيما سبق ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

^(٢) المجادلة : الآية : ٢٢ .

^(٣) يحيى بن حمزة ، مشكاة الأنوار ، ق ٧٠ .

^(٤) سيرة المهدي ، ق ٥١ أ .

وأما ما يخص القبائل ، فقد سأل السيد شرف الدين ، الإمام المهدي عن اعتقاده في قبيلة سنحان المتحالفة مع الرسولين فرد عليه بالقول : " هم كفار بلا خلاف لموالاتهم للغز والباطنية ويجوز قتلهم ... " (٢).

وأما ما يخص الأفراد ، فقد قال الإمام المهدي - في معرض جواب أرسله إلى الشيخ عطية بن محيي الدين محمد النجراني (٣) ، بعد أن اعترض عليه الأخير بما حل بأموال وأملاك الشيخ ابن زيدان في صعدة من المصادرة والتخريب - : " وأما مال ابن زيدان وما وقع فيه من الاستهلاك بالأخذ والخراب ، فنحن ... أعلم بابن زيدان منك ، فقد تحققنا من الكفر الصريح - بمواليته للأشراف المنشقين عن الإمام - الذي لا تصح معه منه قربه ، ولا يتقبل معه حسنة ، وولده وأصحابه كلهم تابعون لأمره ، موالون له على ما فعله... " (٤) .

وتمادياً في هذه المسألة ، عد الإمام المهدي أحمد بن الحسين كل من يخالط هؤلاء ويعيش معهم ، داخلاً في فتوى تكفيرهم ، لأنه وبعد أن سُئل عن بعض من تعرضت أملاكهم للخراب والدمار وليس لهم ذنب في دخول الأمير شمس الدين والأمير أسد الدين محمد إلى صعدة ، وليست لهم علاقة بالرسولين أو الأشراف المتحالفين معهم ، أجاب بأن هؤلاء هم الجناة على أنفسهم (٥) بوجودهم بين من يعدمهم كفار ، وكان الواجب عليهم الهجرة (١) إلى أي مكان آخر ، ولأنهم لم يهاجروا وفضلوا البقاء معهم ، أصبحوا كالموافق والموالي لهم ، وهذا يذكرنا بما فعله الإمام المنصور

(١) المصدر نفسه ، ق ٧٠ أ .

(٢) هو الشيخ عطية بن محيي الدين محمد بن أحمد النجراني ، الصعدي ، من كبار علماء الزيدية في ذلك الحين ، مفسر وفقهه ، ولد في سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م في نجران وعاش بمدينة صعدة ، اعترض على الإمام المهدي أحمد بن الحسين في عدة مسائل منها : أخذ المعونة ، وتولية الناقض ، والتفاوت في الرواتب بين الجند ، وغيرها من المسائل ، فر من صعدة بعد دخول عسكر الإمام المهدي إليها في سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م ، وتوفي في سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م ، له العديد من المؤلفات في الفقه وغيره أهمها : " البيان في التفسير " ، " المذاكرة في الفروع " ، " الجامع لقواعد دين الإسلام " ، " تنبيه المتدربين في فقه الأئمة الراشدين " وهي شرح منظوم درر القلائد ونكت الفرائد لصالح بن منصور الكوفي . انظر : أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٥١ ، (حاشية المحقق) . إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ٦٨٠ - ٦٨١ .

(٤) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٥٨ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٥ ب .

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٥ ب .

بأنه عبد الله بن حمزة يوم أعلن ردة المطرفية وكفرها (٢) ، ثم تمادى في الأمر حتى كفر بالإلزام من لم يقل بتكفير المطرفية أو تعايش بينهم أو تعامل معهم .

إننا حين نتحدث عن التكفير بالموالاة لا نعني التكفير بحد ذاته ، فلو اقتصر الأمر على الفتوى بالتكفير لهان ، فهذا أمر متعارف عليه منذ زمن طويل وحتى اليوم ، ولكننا حين نشير إلى هذا النوع من التكفير أو غيره ، نقصد ما يترتب عليه من استحلال للدماء واستباحة للأعراض ومصادرة للأموال والأموال ، لأن الكافر المقاتل في الشرع لا حرمة له (٣) ، فيقتل إن ظُفر به وتسبى ذريته وتصادر أملاكه . وإذا كنا سنتفهم تكفير الإمام للرسوليين بسبب الاختلافات السياسية فيما بينهم ، فإننا لن نتفهم تكفيره لغيره من الأشراف والقبائل والأفراد لمجرد موالاتهم للرسوليين واختلافهم معه ، ووجه عدم التفهم في هذه المسألة يعود إلى عدة أمور :

أولاً: إن ما يترتب على تكفير الرسوليين محدود الآثار والنتائج لأن كل طرف منهما في بلاده وحدوده المتعارف عليها التي يمكنه أن يلجأ إليها عند تأزم الأمور بين الطرفين واشتدادها (٤) .

ثانياً: إن الإمام المهدي وغيره من الأئمة لم يراعوا عند إطلاق مثل هذه الفتوى تقارب البلاد وتداخلها بين الأشراف الزيديين والقبائل ، كما لم يراعوا الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمر بها القبائل والتي جعلتها مضطرة في كثير من الأحيان إلى التحالف مع الرسوليين .

ثالثاً: إن الإمام المهدي أحمد بن الحسين أسهم بتشدده هذا في إحداث انشقاق وانقسام بين الأشراف الزيديين أنفسهم من جهة ، والقبائل من ورثهم من جهة أخرى ، وهو الانقسام الذي ذهب ضحيته هو ذاته في معركة شوابة (٥) .

٣. الخلافات مع أهل المذاهب الأخرى :

إذا كانت علاقة الأشراف الزيديين فيما بينهم يشوبها الكثير من التعقيد الذي أدى في نهاية المطاف إلى حد تكفير بعضهم لبعض بالإلزام والموالاة وما إلى ذلك من

(١) انظر فيما سبق ، ص ٣٣ - ٣٥ .

(٢) عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل ، ج ١ : ٩٧ .

(٣) هذا إذا استثنينا عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي الذي امتدت دولته إلى مناطق واسعة من الدولة الرسولية في اليمن الأسفل .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

أشكال التكفير ، فكيف كانت علاقتهم مع غيرهم من أهل المذاهب الأخرى ولا سيما أهل السنة والباطنية .

إن من أهم العوامل التي ذُكرت للنهوض بأعباء الإمامة الزيدية ، ما يخص انتشار البدع ، وتسلب أهل المذاهب الرديئة على أهل الإسلام ^(١) ، والمقصود بأهل المذاهب الرديئة — من وجهة النظر الزيدية — هم أهل السنة أو كما يسمونهم أهل الجبر ^(٢) والتشبيه ^(٣) أو المجبرة والمشبهة ^(٤) ، فضلاً عن الباطنية (الإسماعيلية) المنتشرة في بعض مناطق اليمن .

فقد روى السيد شرف الدين إن الإمام المهدي أحمد بن الحسين قال يوم أعلن دعوته من ثلا : " ... قد علمتم حال هذه المذاهب الرديئة من الجبرية والباطنية خاصة وكيف قويت شوكتهم وعلت كلمتهم ووقرت جماعتهم ، ومادون اختلال أمورهم وذهاب جمهورهم ، إلا لطف الله تعالى وتعام هذه الدعوة الشريفة ... والجد في المعاضدة والمناصرة ، فقد كانت المطرفية أعظم منهم شأنًا وأشمخ بنياناً ، فلطف الله سبحانه بقيام الإمام المنصور بالله ... ففرق جمعهم وهدم ربوعهم والرجاء في الله تعالى أن يصير مذهب الباطنية كذلك " ^(١) .

أ - أهل السنة :

^(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٢٣ أ .

^(٢) مع أن أهل السنة لا يقولون بالجبر ، أي أن الإنسان مجبور على أفعاله ، بل يقولون أن للإنسان إرادة ومشينة مرهونة بإرادة ومشينة الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . عن هذا الموضوع ، انظر : ابن عثيمين : محمد بن صالح ، شرح الأصول الثلاثة ، دار البصيرة ، الإسكندرية ، د.ت ، ص ٨٨ — ٩٠ . السلطان : عبد العزيز محمد ، مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ، الرياض ، ط ١٣ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ٤٧ — ٤٨ .

^(٣) يدعي الزيدية أن أهل السنة يشبهون الله بغيره من المخلوقات حين يقولون أن الله وجهاً وبيدين وأرجلاً وغيرها من الصفات التي وردت في الكتاب والسنة ، وهم ينزهون الله عن ذلك ، ويؤولونها بمعاني أخرى بينما يصر أهل السنة على هذه الصفات بما يليق بمقام الله جل في علاه ، ويؤكدوا على عدم التشبيه بينها وبين صفات بقية المخلوقات . للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر : ابن عثيمين : محمد بن صالح ، القواعد المثلى في أسماء الله وصفاته الحسنى ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م . المسند : صالح علي ، كتاب صفات الله عز وجل ، دار المدني ، جدة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

^(٤) يحيى بن حمزة ، مشكاة الأنوار ، ق ٧١ . ابن فهد ، مئثر ، ج ٢ : ١٠٣٢ .

^(١) سيرة المهدي ، ق ٣٦ ب — ٣٧ أ .

اتسمت علاقة الأئمة الزيديين مع أهل السنة - من الشوافع على وجه الدقة - بطابعين :

الأول : سلمي ، اقتصر على المراسلات المتبادلة بين الطرفين ، والتي عادة ما يتم فيها محاولة استمالة أهل السنة من قبل هؤلاء الأئمة لينضموا لركب الإمامة الزيدية ، ويتركوا الجبر والتشبه ، والسبب في سلمية هذا الطابع هو تباعد البلاد وعجز الأئمة الزيديين عن فرض معتقداتهم على هؤلاء بالقوة ، لذلك لجأوا إلى هذا السبيل .

ومن مظاهر هذا الطابع ما قام به الإمام المهدي أحمد بن الحسين يوم أرسل دعوته إلى التهائم والبلاد الشافعية في المغارب من المخلافة^(٢) ولاعتين وحرار^(٣) وملحان^(٤) وتلك النواحي^(٥) ، ووصول الفقيه نجيب الدين سليمان بن محمد الشاوري في جماعة من علماء الشافعية إليه لمبايعته واعتقاد مذهب أهل العدل^(٦) والتخلي عن المذهب الشافعي^(١) . ومن مظاهره أيضاً ذلك الكتاب الذي أرسله الإمام المهدي أحمد

(١) المخلافة : هي المقاطعة الواقعة قبالة حجة منها : نجرة (التي منها قراضة) ، وبنى العصري وحصن حقييل ، وشطر من بني العوام ، ولاعة والشغادرة . المقحفي ، معجم ، ص ٥٩٦ .

(٢) حرار : أحد نواحي محافظة صنعاء إلى الغرب منها بمسافة (٨١ كيلو متراً) ، كانت وما تزال مركز الباطنية في اليمن وهي تنسب إلى حرار بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد ... بن حمير بن سبأ . المقحفي ، معجم ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) ملحان : جبل منيع في بلاد المحويت يطل على تهامة ويرتفع عن سطح البحر بنحو (٢٣٩٠ متراً) وهو مقابل خفاش إلى ناحية الغرب ، وينسب إلى ملحان بن عوف بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر . المقحفي . معجم ، ص ٦٥٨ .

(٤) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٣٧ أ .

(٥) العدل : مبدأ من المبادئ الدينية الرئيسة عند الزيدية ، ويعني بالنسبة لهم بأن الله عادل غير جائر ، لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يعذبها إلا بذنبها ، لم يمنع أحد من طاعته ، بل أمره بها ، ولم يدخل أحد في معصيته ، بل نهاه عنها ، وتستند الزيدية في هذا المبدأ إلى قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " . النحل : الآية : ٩٠ . وبناءً عليه فأفعال العباد مردودة عليهم والجزاء من جنس العمل فإن خيراً فخير وإن شراً فشر لأن الله يقول : " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ " ، فصلت : = الآية : ٤٦ . انظر : يحيى بن الحسين ، المجموعة الفاخرة ، ص ٨٠ - ٨٢ . العمرجي ، الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي ، ص ١٩٤ .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٣٧ أ .

بن الحسين إلى الشيخ أبو الغيث بن جميل الملقب بشمس الشمس (٢) في تهامة ،
والذي قال فيه : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا
اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا
اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (٣) . وقبل إيراد جواب الشيخ أبو الغيث على هذا الكتاب
نوضح ما يلي :

أولاً : إن هذا الكتاب يتناقض مع ما جاء في إعلان دعوة الإمام المهدي والذي توعد
فيها أهل السنة والباطنية بكسر الشوكة وإسقاط الكلمة وذهاب الجمهور .

ثانياً : إن الإمام المهدي بدأ كتابه بقول الله تعالى : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ " مع أن هذه
الآية نزلت في اليهود والنصارى ، ولا يدخل المسلمون فيها ، وهذا يعطي انطباعاً بأن
الإمام المهدي لا يعتقد إسلام بقية المذاهب لأنه يكفرهم ، ولذلك ختم كتابه بقول الله
تعالى : " فَإِن تَوَلَّوْا — أي لم يطيعوه — فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " ، وكأنه يقول
وغيرنا غير مسلمين ، وهذا لا يجوز عند إرسال كتاب تطلب فيه من الآخرين أن
يتبعوك .

ثالثاً : إن الإمام أرسل هذا الكتاب إلى هذا الشيخ تحديداً طمعاً في ميله إليه ، وبالتالي
ميل أهل تهامة من خلفه ، لأن هذا الشيخ مسموع القول هناك ، مقبول الإشارة ، كما
بلغ الإمام (٤) .

أما فيما يخص رد الشيخ على الكتاب فكان مخيباً لآمال الإمام المهدي ، حيث
أكد بأنه لا يحق لأحد أن يشهر سيفه على غيره من أجل مذهبه ، وتعلل له بقلة الفراغ
والاشتغال بالعلم (٥) .

ولم تقتصر المراسلات بين الأئمة الزيديين وعلماء أهل السنة على الإمام
المهدي أحمد بن الحسين ، بل تعدتها إلى غيره من الأئمة ، فهذا الإمام المؤيد بالله
يحيى بن حمزة يتلقى كتاباً من الفقيه شهاب الدين أحمد بن علي الشافعي التهامي ،

(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) آل عمران : الآية : ٦٤ .

(٣) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٠٨ .

(٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

يشكو له فيه من أن الشيعة - الزيدية - في المنطقة التي يسكنها يؤذوا ويكفروا معتققي المذهب الشافعي السني ، حتى المقلدين الضعفاء منهم ^(١) ، فرد عليه الإمام بأنه لا يكفر معتققي المذهب الشافعي ولا يوافق من يكفرهم ، ولكنه عقب على ذلك بالقول : " ... أن الجبر - أي المذهب السني بحسب اعتقاد الزيدية - وإن لم يكن كفراً عندنا ، فإنه إثم عظيم ... وللإمام أن يقتلهم على هذه العقيدة ... وإن لم يكفرهم ، لأن هذا الاعتقاد سيء ومنكر عظيم وله - أي للإمام - قتل الناس حتى يتركوا المنكرات ويحملهم على سلوك طريقة الوسطى " ^(٢) .

ولم يكتفِ الإمام المؤيد بذلك ، بل قال بحق الإمام في قتلهم حتى بالتأويل ولا يُعترض عليه في ذلك ^(٣) ، وهذا موقف يدعو إلى الدهشة والاستغراب من هذا الإمام ، فهو لا يكفرهم ، ولكنه يجيز للإمام قتلهم ، لا لأنهم كفار ، ولكن لأن الجبر من وجهة نظره إثم عظيم يستحق القتل عليه ، وكأنه بذلك يُشرع لحد جديد من الحدود الإسلامية ، جعل من الجبر خطيئة يعاقب مرتكبها بالقتل .

وفي عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي توسعت الدولة الزيدية بشكل لم يسبق له مثيل ، وضمت إلى حدودها مناطق من تهامة يدين أهلها بالمذهب السني ، فكثر الطلاب من الشافعية على أبواب الإمام الناصر وكانوا فيما مضى منقبضين عن أبواب الأئمة السابقين ، فلما اتصلت بهم جنود الإمام الناصر صلاح الدين ، وتواترت به الأخبار ، وصلوا إليه طالبين العطايا والهبات ^(٤) .

ووصلت العلاقة ذات الطابع السلمي بين الأئمة الزيديين وبعض من أهل السنة إلى ذروتها في عهد الإمام المنصور بالله علي بن صلاح الذي استتاب الفقيه أبو الحسن علي بن يحيى العمراني على إحكام صنعاء والقضاء فيها ^(٥) ، فصار بباب

(١) يحيى بن حمزة ، مشكاة الأثرار ، ق ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ق ٧١ .

(٣) نفسه .

(٤) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٣٠٤ .

(٥) البريهي : عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، طبقات صلحاء اليمن المعروف بـ : تاريخ البريهي ، تح : عبد الله محمد الحبشي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ص ٢٣ .

الإمام المنصور هو المشار إليه حتى عينه وزيراً في دولته ، مع علمه بأنه شافعي المذهب ، وعلمه باعتراض الزيدية على ذلك (٢) .

الثاني : حربي ، ومن مظاهره ما فعله الإمام المهدي أحمد بن الحسين مع أهل مأرب يوم غزاهم بألف وأربعمائة فارس (٣) ، والسبب في ذلك اعتقادهم بمذهب أهل السنة ، وهذا ما يفهم من سيرة الإمام التي ورد فيها أن أهل مأرب — بعد غزوهم — تضرعوا للإمام وطلبوا عفوه ، ودخلوا في مراسمه وامتثلوا لأحكامه ، وقطعوا ذكر الخلفاء من بني العباس في الخطبة ، وامتثلوا بمذهب العدلية ، وأذنوا بحي على خير العمل (٤) .

ونظراً للتداخل بين المذهبيين السني والزيدي في عهد الإمام الناصر صلاح الدين ، الذي وصلت دولته إلى مناطق أهل السنة في تهامة ، تعددت المناظرات والمحاورات والمجادلات بين علماء هذين المذهبين ، فظهرت بوادر أزمة حقيقية بسبب تجاذب الناس في تلك المناطق بين ناصح لهم بالبقاء على المذهب السني الشافعي ، وبين مغريهم باعتناق المذهب الزيدي ، فانقسم الناس نتيجة لذلك بين هذين المذهبين ، مما أدى إلى احتكاك مذهبي مباشر قابل للاشتعال في أي لحظة .

ومع تأرجح العامة بين المذهبين السني والزيدي ، قرر الإمام الناصر التدخل بنفسه لفرض المذهب الزيدي في بعض هذه المناطق ، متعللاً ببعض الأمور التي يرى فيها مروفاً عن الدين ، فتذكر المصادر (٥) أنه قصد بني شاور (٦) ، في شهر رجب من سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م ، وأنه أوقع بأهلها وقعة شديدة ، وقتل الفقيه أحمد بن زيد الشاوري ، ثم علل البعض (٧) ذلك ، بأن أهل تلك الجهات كانوا من معتقلي المذهب الشافعي ، ثم إنهم انتقلوا إلى المذهب الزيدي ، وأن بعضاً ممن بقي على المذهب الشافعي ، كانوا يجتمعون في ليلة النصف من شعبان ، فيقع خلال ذلك اختلاط فاحش بين الرجال والنساء ، ولذلك أوقع بهم الإمام الناصر ، ثم تضيف معللة سبب

(١) المصدر نفسه والصفحة .

(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٠ أ .

(٣) المصدر نفسه ، ق ٨٠ أ — ٨٠ ب .

(٤) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٢٢١ — ٢٢٢ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٦ .

(٥) بنو شاور : أحد مخاليف لاعة وبلاد قراضة . انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٦ .

(٦) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

قتل الفقيه الشاوري بأنه كان ينههم عن ترك المذهب الشافعي ، واعتناق المذهب الزيدي .

أما الشرفي (١) ، فيذكر أن السبب في قتل هذا الفقيه هو وجود كتاب ينسب إليه ، يستهزئ فيه بالأئمة الزيديين وبالمذهب الزيدي على وجه العموم ، وأنه نظراً لهذا الكتاب واستناداً إلى ما جاء فيه ، تطاول العوام من الجبرية – يقصد أهل السنة – على مذهب العدل والتوحيد – يقصد الزيدية – بل إن بعضهم حاول قتل بعض الفقهاء من الزيدية تأثراً بذلك (٢) .

وقبل أن نعلق على بعض ما أوردنا سالفاً ، نورد أهم ما جاء في هذا الكتاب ، والذي نرى أنه السبب وراء مقتل هذا الفقيه : قال الفقيه أحمد بن زيد الشاوري في كتابه :

" معاشر المسلمين ...

ماهذه العقائد التي اتبعوها وما هذه المذاهب التي ابتدعتها ... هل استخففتكم بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) واستهزأتكم بمذاهبكم مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي هو على الكتاب والسنة ... فتمسكوا أيها الناس بمذاهبكم وارجعوا إليه ... ولا يهولنكم كلام أهل البدع ... ولا دعاوهم الباطلة ... وأعلموا أيها الناس إن هؤلاء المبتدعة – الزيدية – ابتدعوا أشياء اتبعوا فيها أهوائهم ... وأضافوا ذلك إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام ونسبوا مذهبهم إلى زيد بن علي (ؑ) وأنه ... بريء منهم ومن مذهبهم ... وأعلموا أن أهل هذا المذهب شرذمة قليلة أصله في المشرق وأن مذهب أهل السنة هو الذي عليه الجم الغفير من لدن الرسول (ﷺ) وأهل بيته وأصحابه والخلفاء الراشدين والعلماء والأئمة ... معاشر المسلمين ...

أعلموا أنه لا يمكن استقصاء شبههم ... في مثل هذه الورقة ولا يتسع ذلك إلا – في – كتاب مستقل . وسأكشف شيئاً من الذي يتمسكون فيه ... قال تعالى : " اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ " (١) .

(١) اللآئى ، ج ٢ : ٣٤٠ – ٣٤١ .

(٢) المصدر نفسه والجزء ، ق ٣٤٢ .

(٣) الصافات : الآية : ٩٦ .

وهؤلاء يقولون : خلقنا الله ولم يخلق أعمالنا .
والله تعالى يقول : " وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ " (٢) .
وهؤلاء يقولون : نعمل ما نشاء وإن لم يشاء الله .
والله تعالى يقول : " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ " (٣) .
وهؤلاء يقولون : نحن نخلق أعمالنا .
والله تعالى أنزل فريضة الجمعة في كتابه العزيز (٤) .
وهؤلاء ضيعوا فريضة الله ورسوله (ﷺ) .
والرسول (ﷺ) أمرنا بالجماعة في الصلاة .
وهؤلاء تركوها .
والله تعالى يقول : " وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ " (٥) .
وهؤلاء يقولون : رضي الله عن جماعة ولم يرض عن جميعهم .
والرسول (ﷺ) شهد للعشرة (ﷺ) بالجنة (٦) .
وهؤلاء قالوا : ما نشهد إلا لأهل البيت وحدهم .
والله تعالى أتى على كافة السابقين في الإسلام وشرط على التابعين أن يتبعوهم
بإحسان وأن يتبعوهم بالدعاء لهم والترضي عنهم .
وهؤلاء يسبوهم ويلعنونهم (١) .

(١) الإنسان : الآية : ٣٠ . التكوير : الآية : ٢٩ .

(٢) الزمر : الآية : ٦٢ .

(٣) قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " الجمعة : الآية : ٩ .

(٤) التوبة : الآية : ١٠٠ .

(٥) العشرة هم : أبو بكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ، علي بن أبي طالب ، الزبير بن
العوام ، طلحة بن عبيدالله ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الرحمن بن عوف ، أبو عبيدة عامر بن الجراح ،
سعيد بن زيد . انظر : البخاري ، الجامع الصحيح ، ج ٣ : ٥ - ٣٦ . الزبيدي : أحمد بن عبد
اللطيف ، مختصر صحيح البخاري ، دار السلام ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ،
ص ٦٨٧ - ٧٣٢ . خالد محمد خالد ، رجال حول الرسول ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، د . ت ،
ص ١١٦ ، ٣٥٨ ، ٤٦٧ .

وأعلموا أن محبة هؤلاء المبتدعة لأهل البيت كمحبة اليهود فإن اليهود قالت الملك لا يكون إلا في آل داؤد ...

وهؤلاء قالوا : إن الإمامة لا تكون إلا في آل علي بن أبي طالب عليه السلام .

والرسول (ﷺ) قال : " الأئمة من قريش " (٢) .

واليهود يؤخرون الصلاة حتى خروج وقتها ...

وهؤلاء كذلك .

والله تعالى ورسوله (ﷺ) أمرنا بإقامة الصلاة في وقتها .

وهؤلاء خالفوا ...

واليهود تبغض جبريل عليه السلام ويقولون هو عدونا ... وفرقة من هؤلاء قالت إن

جبريل غلط بالوحي من علي إلى محمد ويبغضونه لذلك ...

واليهود والنصارى قالوا : " لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى " (٣) .

وهؤلاء قالوا ... من أرد أن ينظر إلى أهل الجنة فليُنظر إلى من كان على مذهبنا ...

وفي بعض الأخبار – وما زال الحديث للشاوري – روي عن الرسول (ﷺ) أنه قال

لعلي (ﷺ) ذات يوم : يا علي أنت في الجنة ثلاث مرات وسيأتي بعدي قوم يقال لهم

الرافضة فإذا لقيتهم فأقتلهم فإنهم مشركون : قالوا يا رسول الله ما علامتهم . قال لا

يرون جمعة ولا جماعة ويسبون أصحابي (١) ... " (٢) .

انتهى أهم ما جاء في كتاب الفقيه الشاوري ، واستناداً إلى ذلك نوضح الآتي :

(١) الغالب في فرق الزيدية أنهم لا يسبوا أو يلعنوا أصحاب الرسول (ﷺ) ، وإن كانوا يخطنون بعضهم ويفسقون البعض الآخر ، ولكن فيهم فرقة تسب الصحابة وتلعنهم وتدعى الجارودية ، نسبة إلى أبي الجارود زياد بن المنذر العبدي ، ولذلك يعدها البعض من فرق الرافضة وليست من الزيدية بسبب هذا الأمر . انظر : النوبختي ، فرق الشيعة ، ص ٥٥ . البغدادي : عبد القاهر بن طاهر ، الفرق بين الفرق ، دار الآفاق ، الجديدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٣٩ هـ / ١٩٧٣ م ، ص ٢٢ . الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ : ١٦٣ – ١٦٤ . الأكرع : إسماعيل ، الزيدية نشأتها ومعتقداتها ، ص ٨٤ . حسن خضير أحمد ، قيام الدولة الزيدية في اليمن ، ص ١٣٣ – ١٣٤ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٥ : ٢٦٤ .

(٣) البقرة : الآية : ١١١ .

(١) لم استدل على هذا الحديث في كتب الصحاح والسنن ، ويبدو أن لا أصل له .

(٢) الشرفي ، الآلئ ، ج ٢ : ٣٤٣ – ٣٤٧ .

أولاً : إن سبب ما قام به الإمام الناصر صلاح الدين من غزو بني شاور وقتل الفقيه الشاوري عائد إلى هذا الكتاب الذي أسلفنا ، ولم يكن كما زعم البعض من اجتماع ليلة النصف من شعبان وما ينتج عن ذلك من اختلاط الرجال والنساء ، لأن هذا السبب لم يُذكر إلا لتبرير ما قام به الإمام الناصر ، ولتشويه صورة أصحاب المذهب الشافعي في تلك المناطق .

ثانياً : إن ما جاء في هذا الكتاب لا يعدو أن يكون جزءاً من المناظرات والمجادلات التي كانت دائرة بين علماء وفقهاء المذهبين السني والزيدي ، نظراً لتأرجح الناس في تلك المناطق بينهما .

ثالثاً : إن علماء وفقهاء المذهب الزيدي في منطقة بني شاور وغيرها من تلك الجهات عجزوا عن مجاورة هذا الفقيه وأمثاله ممن يدعون إلى التمسك بالمذهب الشافعي والتحذير من الانتقال إلى المذهب الزيدي ، ولذلك اضطر الإمام الناصر صلاح الدين إلى التدخل بنفسه لحسم هذا الصراع الفكري عن طريق القوة العسكرية ، وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على ضعف الحجة وقلة الحيلة لدى فقهاء وعلماء الزيدية في تلك المناطق .

رابعاً : إن ما فعله الإمام الناصر سابقة خطيرة في العلاقة بين أنصار المذهب الزيدي وأهل السنة ، وكان الأمر قبل ذلك يقتصر على أن يأمر الإمام بعض العلماء أو الفقهاء بالرد على مثل هذا الكتاب وتنفيذ ما جاء فيها ، حتى يتضح للعوام المحق من المبطل والصادق من الكاذب ، بل إن البعض من الأئمة الزيديين تولوا بأنفسهم الرد على مثل هذه الدعاوى من خلال مؤلفاتهم^(٢) .

خامساً : إن هناك خطأ واضحاً من قبل الفقيه الشاوري بين الشيعة الأمامية والشيعة الزيدية ، فهو لا يفرق بينهما وينسب أشياء تُنسب إلى الشيعة الأمامية على الزيدية^(١) وهذا مما لا يصح من أمثاله .

(٢) انظر كتاب الشافي للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة الذي رد فيه على الرسالة الخارقة للعالم السني أبي عبد الله محمد بن مالك بن أبي القبانل الحمادي صاحب كتاب : " كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة " .

(١) من الأمثلة على ذلك القول أن الزيدية من الروافض وهذا غير صحيح البتة ، فالزيدية تختلف اختلافاً جذرياً عن الرافضة ولا تربطها أي علاقة معها سوى إنها من فرق الشيعة ، أما في باقي المسائل الرئيسية والفرعية فالفرق شاسع بينهما ، وللإطلاع على هذه الفروقات والاختلافات بين الفرقتين . انظر :

وأخيراً علينا أن نشير إلى دور وأثر المساجلات الشعرية ذات الطابع الديني في إذكاء مثل هذه الصراعات ، نذكر منها على سبيل التمثيل ، تلك القصيدة التي أنشأها شاعر من شعراء الملك الأفضل الرسولي يقال له محمد بن الراعي كرد على قصيدة أرسلها فقيه شافعي لحقته معرة وظلم من نواب الملك إلى الإمام المهدي علي بن محمد ، يشكو له فيه ما لحقه من الغبن ويحرض الإمام على قتال هذا الملك (٢) .

ويبدو أن الإمام المهدي علي بن محمد لم يكن مستعداً لمثل هذا القتال بسبب مرضه وما ترتب على ذلك ، مما حدا بابن الراعي إلى أن يوبخ هذا الفقيه ويستهزئ بالإمام المهدي ، وقد كانت قصيدته تلك في منتهى التحدي والاستخفاف ، وهو — مما لا شك فيه — قد ترك أثراً بالغاً في نفس الناصر صلاح الدين قبل أن يكون إماماً ، وجعله يتذكر كل بيت فيها خلال صراعه مع الرسوليين سياسياً و مذهبياً ، قال ابن الرعي في قصيدته :

قفي قبل التفريق يا أماما	نطارحك التحية والسلاما
فبي شوق إليك ولي فؤاد	مذاب قد غدا بك مستهاما
ومما أضرم الأحشاء آت	حكى لي عن أخي حمق كلاما
لمعتوه تخيل من أصاب	أراد بدينه يُعطي حطاما
تبصر في أمورك واختبرها	وسل إن شئت ترفدك الكراما
فأما من سألت فغير شيء	إمام الغي لم يُشبع طعاما
وكيف يجود من عضت عصاه	كلاب الحي أو يعطي المراما
وأعجب منك إذ حركت شخصاً	يريد لنفسه منا ذماما (١)
وكيف يطيق أم من ذاك يقوى	يمس بكفه منا حطاما
وفي أقطارها ملك كريم	حماها أن تنال وأن تُراما
وقلت الشافعيين أقتطعهم	وأوسعهم ذماماً واحتراما (٢)

عبد الله بن حمزة ، العقد الثمين في أحكام الأئمة الهاديين ، تح : عبد السلام بن عباس الوجيه ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م ، (الكتاب كاملاً) . محمد الخضر ، نظرة الإمامية الأثنا عشرية إلى الزيدية بين حقيقة الأمس ونقبة اليوم ، تقديم : محمد بن محمد المهدي ، مركز الإيمان ، إب ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م ، (الكتاب كاملاً) .

(١) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠١٧ - ١٠١٨ .

(٢) في هذا البيت إشارة إلى أن هذه القصيدة قيلت بعد مرض الإمام المهدي علي بن محمد بالفالج .

أهل السنة البيضاء سناما	أبى الرحمن إلا أن تراتا
ويمنع أن نهان وأن نضاما	وفضل الشافعي يذب عنا
لبيع الشافعية قد أقاما	ألم تر أن في ثعبات ملكاً
على أبواب صدتكم قياما	عدمنا خيلنا إن لم تروها
يقود الخيل والجيش الهماما	تسير إمام ملك شافعي
ويلقى الذل من مدح الإماما .	ومن مدح الملوك ينال عزاً

ومع أن الإمام الناصر صلاح الدين استطاع قمع أهل السنة في بني شاور وقتل الفقيه الشاوري ، إلا أن ذلك نتج عنه بغضاً ونفوراً عن المذهب الزيدي في تلك المناطق ، وزاد معتقي المذهب الشافعي نظراً لذلك ، وهذا ما أكده صاحب الكنز وهو يعدد كرامات الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى حين قال : " ... ورابعها ما ظهر وأشتهر من قضية الأعجم من بني شاور ... وذلك أنه لما وصل - الإمام المهدي - جهتهم ، وتوجه نحو الشرق ، وهم شافعية يبغضون الزيدية ، ولا سيما وكان وصوله عقيب قتل الفقيه أحمد بن زيد ، وكانت قلوبهم مجروحة من الزيدية بسبب ذلك ... " (٣) .

وللتعبير عن هذا الجرح الذي حل بالشافعية في بني شاور من الإمام الناصر ، انشأ فقهاؤهم العديد من القصائد التي رثوا فيها الفقيه أحمد ، وهجوا الإمام الناصر ، ولعل أبرزها ، تلك التي أنشأها الفقيه شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقرئ (١) والتي قال فيها :

أراني الله رأسك يا صلاح	تداوله الأسنة والرماح
لقد أطفأت للإسلام نوراً	يضيء العلم منه والصلاح
فتكت بأحمد فأنهد ركن	من الإيمان ، وانقرض السماح
فلا تفرح بسفك دم ابن زيد	فما يرجى لقاتله فلاح

(١) ابتداءً من هذا البيت سيظهر بوضوح أثر التعصب المذهبي في الصراع الذي كان قائماً بين الدولتين الزيدية والرسولية . ففيه قال : " وقلت الشافعيين " ثم قال : " لأهل السنة " ، " وفضل الشافعي " ، " لبيع الشافعية " ، " ملك شافعي " ، وكان الصراع الذي كان قائماً هو صراع مذهبي وحسب ، وليس سياسياً بالدرجة الأولى ، تغذية نزعات مذهبية لا يمكن إغفالها .

(٢) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٧١ أ .

(٣) الأكوخ ، هجر ، ج ١ : ١٥١ - ١٥٣ .

فليس له سوى الباري نصير
أراني الله دورك خاليات
قتلت الصائمين وهم سجود
وما كانوا بعلمك أهل حرب
ألا شلت يمينك يا صلاح
يلقبك الجهول صلاح دين
ولا عضد يعد ولا سلاح
على عرصاتها تسفي الرياح
يواجون الإله ، لهم نواح
ولا فيهم فتى فيه كفاح
وعجل يومك القدر المتاح
وأنت له فساد لا صلاح .

ب - الباطنية (الإسماعيلية) :

إذا كانت العلاقة بين الدولة الزيدية وأهل السنة اقتصررت في أسوء الأحوال على ما فعله الإمام المهدي أحمد بن الحسين مع أهل مأرب ، والإمام الناصر صلاح الدين في بني شاور ، فإن العلاقة بين الدولة الزيدية والباطنية أكثر تعقيداً بسبب تقارب البلاد بينهما ، إذ أنه من المعلوم إن مناطق اليمن الأعلى تنقسم مذهبياً الى قسمين : زيدي وإسماعيلي - باطني - والأخير يحظى بدعم قبيلة همدان وعلى رأسها سلاطين بني حاتم ، وحتى ينفذ الإمام المهدي أحمد بن الحسين ما سبق وأعلنه في بدايات دعوته ، من القضاء على أصحاب المذاهب الرديئة من الجبرية والباطنية ، وخص بالذكر الفرقة الباطنية التي تمنى من الله أن يصير أمرها إلى ما صار إليه أمر الفرقة المطرفية ، بدأ إمامته بالحرب على الباطنية في ضروان ^(٢) ، وضيعان ^(٣) ، والسيئة ^(١) ، وقرضة ، واستمر في حربها طوال مدة إمامته في أرياب ، وكحلان الحداد ، وبلاد مسور ^(٢) ، وغيرها من المناطق .

^(١) ضروان : بلدة غربي رحابة ، وبالقرب من الخشب تتبع ناحية همدان . انظر : الشرفي ، اللألي ، ج ٢ : ٣٦٩ . المقحفي ، معجم ، ص ٤٠٧ .

^(٢) ضيعان : بلدة غربي وادي ضهر ولا تبعد كثيراً عن صنعاء . انظر : الشرفي ، اللألي ، ج ٢ : ٣٧٠ .

^(٣) السيئة : حصن بين كوكبان والاهجر من بلاد بني الزواحي . انظر : الشرفي ، اللألي ، ج ٢ : ٣٧٠ .
وسيئة : بلدة من عنس إلى الجنوب الغربي من ذمار بمسافة (٣٠ كيلو متراً) . المقحفي ، معجم ، ص ٣٤٣ .

^(٤) مسور : اسم مشترك بين عدد من الأماكن في اليمن منها : مسور المنتاب : وهي ناحية تابعة لمحافظة صنعاء مركزها الرئيس بيت عذاقة وتتبعها عدد من العزل أهمها : جبل مسور وبني سعد ، وهي منسوبة إلى مسور بن عمرو بن معدي كرب بن شرحبيل بن ينكف . المقحفي ، معجم ، ص ٦٢٣ .

ولأننا لا نستطيع التحدث عن الباطنية من دون الحديث عن سلاطين بني حاتم الهمدانيين ، فلابد لنا من التعرض للعلاقة التي كانت بين الدولة الزيدية وهؤلاء السلاطين ، وبداية هذه العلاقة ما كان بينهم وبين الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، الذي ازداد نفوذ وقوة بعد مقتل الملك المنصور نور الدين عمر بن رسول ، ولذلك لم يجد هؤلاء السلاطين ومن خلفهم همدان بدأً من الدخول في بيعته والانصياع لأمره .

ونظراً للخلاف الذي حدث بين الإمام المهدي والأشراف الحمزيين بقيادة الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة على ولاية صنعاء وغيرها من الأمور ، وجد هؤلاء السلاطين ضالتهم ، وأعلنوا الخلاف عليه ولاسيما بعد حادثة قتل الإمام لرجلين من همدان على تهمة قتل ، تقول همدان أنها من غير بيعة .

ولأننا قد تناولنا هذه العلاقة عند حديثنا عن الإمام المهدي أحمد بن الحسين^(٣) ، نكتفي بالإشارة إلى أن سلاطين بني حاتم وبعد خلافهم على الإمام ، خرجوا من صنعاء إلى حصن ذي مرمر واجتمعوا فيه بكبار الباطنية وعلى رأسهم في ذلك الحين الداعي حسين بن علي بن الأنف ، وأنهم اتفقوا على مباغته الإمام وهو في صنعاء وقتله أن استطاعوا ذلك ، على أن يكون هذا الأمر بالتنسيق مع الأشراف الحمزيين وبقايا الرسولييين في اليمن الأعلى وعلى رأسهم آنذاك الأمير أسد الدين محمد بن الحسن ، فلما اعترض الأمير شمس الدين أحمد على تلك الخطة عدلوا عن ذلك^(٤) .

وكما كانت الباطنية حريصة على قتل الإمام المهدي ، كان هذا الإمام حريصاً على اجتناب أمرهم ، حتى إنه عقد صلح مع معظم الأطراف خلال مدة إمامته ، كالملك المظفر والأمير أسد الدين والأشراف الحمزيين وغيرهم ، إلا أنه لم يعقد أي صلح أو هدنة مع الباطنية ، بل إنه كان يستثيهم من أي صلح يعقده مع الآخرين^(٥) .

ومع أن الأمير أسد الدين كان يصر على دخول أحلافه من همدان في أي صلح يعقده مع الإمام المهدي ، إلا أن الأخير يصر أيضاً على استثناء من كان منهم يدين بالمذهب الباطني ، وكان يؤكد بأنه ليس لهؤلاء إلا السيف^(٦) ، أما من كان منهم على

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٧٦ .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٧٧ . وأرجع إلى اعتقاد الشامي بأن محاولة قتل الإمام المهدي أحمد بن الحسين من الحشاشين ما هي إلا مؤامرة باطنية حتمية . نظر : تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٠٢ .

(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٠٥ ب.

(٦) المصدر نفسه والورقة .

المذهب الزيدي فلا اعتراض عليه ، وهذا يدعوننا إلى القول أنه ليست كل همدان تدين بالمذهب الباطني ، وإن كان أغلبهم كذلك ، كما أنه ليس كل سلاطين بني حاتم يدينون بالمذهب نفسه ، وإن كان معظمهم كذلك ، ولذلك كان الإمام المهدي يستثني من حربه مع هؤلاء السلاطين ، السلطان علي بن سعيد بن حاتم ، لأنه كما — يقول السيد شرف الدين (٣) — متمسك بدينه أي بالمذهب الزيدي ، و كان الإمام يأمر أمراؤه وعسكره باحترامه وعدم التعرض لأمواله عند محاربة بني حاتم (٤) .

لقد كان الإمام المهدي أحمد بن الحسين من أشد الأئمة الزيديين على الباطنية ، حتى إننا نستطيع أن نلمس هذه الشدة من خلال سطور سيرته التي تزخر بألفاظ اللعن والوعيد لكل من يدين بهذا المذهب ، ولما كانت مسور أحد الجهات التي تشتهر بوجود الباطنية فقد كانت هدفاً من أهدافه ، ولذلك أمر الأمير علم الدين أحمد بن القاسم بن جعفر في سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥٢ م (٥) بقبض حصونها ، وكانت في مجملها تخص الباطنية ، فتمكن هذا الأمير في مدة وجيزة من السيطرة عليها وإجبار أهلها على دفع الأموال الكثيرة عقاباً لهم على مخالفتهم للإمام (٦) .

إن التشدد الذي انتهجه الإمام المهدي حتى مع الشيوخ من الباطنية ، يجعلنا نتصور كيفية تعامله مع البقية الذين ولا شك عانوا الأمرين في عهده وكان لهم من النكال ما لا يوصف .

ومع الضعف الذي أصاب الدولة الزيدية بعد مقتل الإمام المهدي وتغلب الرسوليين على مناطق اليمن الأعلى ، أصبحت الباطنية في تلك الجهات أكثر أماناً بتحالفهم مع الدولة الرسولية ، و أصبحت علاقتهم بالدولة الزيدية أخف وثيرة من ذي

(٣) نفسه ، ق ٥٨ ب .

(٤) نفسه ، ق ٦١ أ

(٥) نفسه ، ق ٧٧ أ

(٦) لعل أهم ما يلفت الانتباه في هذا الشأن ، ما أورده السيد شرف الدين من أن الإمام المهدي كان قد نفى رجلاً من كبار الباطنية وأهم مراجعهم في تلك الجهات ويدعى حارث بن سلمه من بني أعشب وكان قد جاوز الثمانين من عمره ، وعندما وصل هذا الشيخ إلى الشرف الأسفل قاصداً تهامة ، عرفه أنصار الإمام هناك ، فقبضوا عليه ومعه ولده وساروا بهما حتى مروا بشاهق ، وعلى حين غفلة من الحراس رمى الولد بنفسه ، وعندئذ شددوا الحراسة على الشيخ ، الذي وُصف بشيئة الطغيان وقرين الشيطان وحين وصلوا به إلى الإمام أمر مملوكاً تركياً بقتله ، وعقب السيد شرف الدين على ذلك بالقول : " وعجل الله بروحه إلى النار " . انظر : سيرة المهدي ، ق ٧٧ ب .

قبل ، ولا سيما مع انشغال الأشراف الزيديين وأئمتهم بالحرب مع الدولة الرسولية ، والحرب فيما بينهم البين . ومع ذلك نذكر بعضاً من المحاولات التي قام بها بعض الأئمة الزيديين للقضاء على الباطنية ، من ذلك ما قام به الإمام المهدي محمد بن المطهر من خراب بلاد الباطنية القريبة من صنعاء ^(١) ما عدا الحصون ، واستيلائه على قلعة طيبة في وادي ضهر ، وما نتج عن ذلك من شراء الداعي الباطني – آنذاك – علي بن إبراهيم بن الأنف للحصون المنيعة وفي مقدمتها كوكبان لتعزيز قوته العسكرية في مواجهة الدولة الزيدية ^(٢) . ومن ذلك ما قام به الإمام المؤيد يحيى بن حمزة عندما حارب همدان الإسماعيلية في وادي ضهر ^(٣) ، إلا أنه ونظراً لطول القتال وتتابع الحروب مل الناس هذه الحالة وجنحوا إلى الصلح ^(٤) .

وبلغ الصراع أوجه بين الطرفين في عهد الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ، عندما تألبت الباطنية في عراس وكحلان وأرياب وآل حجاج على قتله ، بعد أن أرسلوا إليه كتاباً يطلبون منه الوصول إليهم لقبض بلادهم ، ولولا استماتة أصحابه في الدفاع عنه ومقتل العديدين منهم لقتل ^(٥) ، ولذلك أولى الإمام المنصور بالله اهتماماً خاصاً بمحاربة الباطنية في كل مناطق اليمن الأعلى ، حتى تمكن في سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م ^(٦) ، من محاصرتهم في معقلهم الحصين ذي مرمر لمدة سنة وثلاثة أشهر ، ولعل ذلك ما يفسر القصيدة التي أرسلها الداعي ابن الأنف إلى الإمام المنصور بالله ، والتي قال مطلعها :

ألا هل فتى مثل السمؤال ^(١) يوجد يناط به حبل العهاد ويعقد ^(٢) .

ويبدو أن هذه الأبيات قد وجدت صداها في نفس الإمام المنصور بالله ولا سيما بعد الذي حل بالعسكر من التعب والفتور ؛ نظراً لطول الحصار ، فهم بعقد صلح مع

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأملني ، ج ١ : ٤٩٩ .

^(٢) يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ، ق ٢٠٧ .

^(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأملني ، ج ٢ : ٥١١ .

^(٤) المصدر نفسه والجزاء والصفحة .

^(٥) نظر فيما سبق ، ص ١٧٣ .

^(٦) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠٥٨ .

^(١) لعله يقصد السمؤال بن عاديا صاحب حصن تيماء قبيل الإسلام .

^(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠٥٩ .

الباطنية في الحصن المذكور ، يُرفع بموجبه الحصار عنهم ، إلا أنه غير رأيه بعد أن حذره أحد فقهاء الزيدية من عواقب رفع الحصار^(٣) .

ونتيجة لهذا التحذير استمر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح في محاصرة ذي مرمر حتى سقط في شهر شعبان من سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م^(٤) ، ولم يكتف الإمام بذلك بل واصل قتال الباطنية في بيت غفر وجربان^(٥) وغيرهما .

ومهما يكن ما قام به الإمام المنصور بالله علي ، وغيره من الأئمة ، إلا أنهم لم يتمكنوا من استئصال شأفة الباطنية من اليمن^(٦) - وإن حدوا من انتشارها - ومما لا شك فيه أن هذا الصراع المستمر - آنذاك - أسهم في إضعاف الدولة الزيدية التي تعدد أعدائها ، وتعددت جبهات قتالها .

رابعاً : الأسباب الاجتماعية :

١. التحاسد بين الأشراف الزيديين :

الحسد مرض اجتماعي ونفسي خطير ، معناه تمنى زوال النعمة عن الغير لمجرد زوالها ، ونستطيع تعريفه بعبارة أخرى بأنه تمنى الشر للغير ، لأن زوال النعمة لا يكون إلا بشر . ولذلك كان خطره عظيماً على المجتمعات الإنسانية كافة منذ

(٣) كان هذا التحذير على شكل شعر وصله من الفقيه أحمد بن قاسم الشامي يقول فيه :

ما أنت أول من أراد رحيلاً	عن فرقة لا يهتدون سبيلاً
قد هم غيرك بالرحيل فلامه	قوم وحمل الذم كان ثقيلاً
أترى جنود الله قد حشدت إلى	ذمرمر يأتون جيلاً جيلاً
لجهاد أكفر فرقة في رأسه	قد بدلوا دين الهدى تبديلاً
قد أيقنوا بالموت في ذرواته	لما رأوا فيه الطعام قليلاً
أعمارهم مقرونة بنفاده	فإذا انقضى لم يرتجوا تمهيداً
فأصبر فعند الصبر نصر عاجل	وأجعله في كل الأمور جميلاً .

انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠٥٩ - ١٠٦١ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٦٧ .

(٥) جَرَبَان : قرية من بلاد همدان إلى الشمال من صنعاء بمسافة (١٨ كيلو متراً) . المقضي ، معجم ، ص ١٣١ .

(٦) بدليل وجودهم فيها إلى اليوم في حراز وغيرها من المناطق .

الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالحسد يفرق بين الأخ وأخيه والمرء وصاحبه ، ولنا في قصة الأخوين قابيل وهابيل ، ويوسف وإخوته ، دليل على ذلك (١).

ويستشف من العديد من النصوص سواء كانت نصوصاً شعرية أم رسائل متبادلة بين الإشراف الزيديين ، أن آفة الحسد قد لعبت دوراً في تأجيج الصراعات والنزاعات بينهم ، فالإمامة لديهم كمنصب سياسي وديني عبارة عن مجموعة من الإغراءات المادية والمعنوية ، التي يتناهاها أي شريف له ولقومه المندرجين تحت لوائه ولما كانت الإمامة مخصصة لشخص واحد ولا تستوعب أكثر من ذلك ، كان الصراع عليها شديداً ومحتتماً ، والفائز بها لا بد وأن يكون له حساد قد يتمكنون في حال من الأحوال من انتزاعها منه وإن لم تأل إليهم .

وحتى لا يكون الحديث على وجه العموم نورد بعض ما جاء في المصادر التاريخية والذي من خلاله نستطيع تأكيد ما ندعو إليه :

مر بنا عند الحديث عن مفهوم الوراثة عند بعض الزيدية قول الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن في الأشراف الحمزيين :

هم حسدونا إرثنا من جدودنا ضللاً وأرباب الرئاسة تحسد (٢) .

وركزنا فيما سبق على كلمة " إرثنا " لأنها المطلوبة في السياق حينذاك ، أما الآن فمطلوب التركيز على كلمتي " حسدونا " في صدر البيت ، " وتحسد " في عجزه . فيبدو أن الحسد لدى الأشراف الحمزيين من أن تؤول الإمامة إلى آل الهادي بعد أن كانت في آل عبد الله بن حمزة ، هو ما جعل هؤلاء الأشراف يقصون الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن عن الإمامة ، وحتى نميز بين ما أسلفنا من القول بمفهوم الوراثة وبين الحسد في ذلك ، نستطيع القول أن إقصاء الإمام المعتضد بالله من خلال إقامة

(١) قال تعالى : " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ " . المائدة : الآيات : ٢٧ - ٣٠ . وقال تعالى في قصة يوسف : " لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَبِّينَ . إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ " . يوسف : الآيات : ٧ - ٩ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٨٨ .

الأمير عز الدين محمد بن عبد الله بن حمزة محتسباً على الزيدية على أمل أن يصير إماماً في المستقبل القريب هو ما قصدناه بمفهوم الوراثة ، أما أن يتم استمرار إقصاء هذا الإمام بعد وفاة الأمير عز الدين في سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م ، ودون أن يقيموا إماماً أو محتسباً عليهم ، فهذا مما لا شك فيه يندرج تحت مصطلح الحسد ، وقد يتداخل مفهوم الوراثة مع الحسد في مثل هذه الحالة .

وتجلى الحسد بين الأشراف الزيديين في أبهى صورته في ذلك الصراع الدامي الذي دارت رحاه بين الإمام المهدي أحمد بن الحسين والأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة ، بل إن كلا الطرفين صرح بوضوح أن من أهم الأسباب في هذا الصراع هو الحسد ، لذلك قال الأمير شمس الدين في قصيدته الشهيرة " لعل الليالي " :

ونحن نطول الناس عزاً وتنتهي إلى الأفق أيدينا ونحن قعود
إلى أن دعا داع إلى البغي للورى وأعلن منها كاشح وحسود ^(١) .

فرد عليه الشاعر أحمد بن أسعد الزيدي وهو من شيعة الإمام المهدي بالقول :

تبدل شمس الدين بعد يقينه من الريب مالا يرتضيه مجيد
ولما دعا داع إلى الحق صادق سرت فيه أضغان له وحقود
ووالى عليه الكافرين ولم يزل لكل إمام كايده وحسود ^(٢) .

ولم يقتصر اتهام الأمير شمس الدين بالحسد على الشاعر أحمد بن أسعد الزيدي ، بل إن الإمام المهدي نفسه اتهمه بهذا الأمر في رسالته المسماة : " حليفة القرآن " ، حين قال : " وهم — أي الأشراف الحمزيين — مرة ينتقصون الإمام والإمامة ، ومرة يقولون : نحن أولى بالزعامة ، ومرة يصدون عن أمر الله ويبغونها عوجاً ، ومرة يكتبون سلطان اليمن نظماً ونثراً ويلتمسون لديه فرجاً ونصراً ، بغياً وحسداً " ^(١) . ثم ذكر قول الله تعالى : " أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا " ^(٢) .

^(١) ابن أبي الرجال ، مطلع البدر ، ج ١ : ١٢٨ .

^(٢) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٣٠ .

^(٣) مجموع رسائل ، ص ٩٨ .

^(٤) النساء : الآية : ٥٤ .

وفي موضع آخر من الرسالة ذاتها قال الإمام : " وكانوا مرة يسلقوننا بالسنة حداد وتارة ينظروننا بأعين الحساد " (٣) .

وفي موضع ثالث قال الإمام مخاطباً الأشراف الحمزيين : " ... فقد كنتم أهل هذه الدولة من قبل قيامنا ... فلما قام الإمام قلتم نحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، فكنتكم كالملا من قوم موسى حذوا النعل بالنعل والقذة بالقذة " (٤) .

وذكرت المصادر التاريخية حال بعض الأئمة الزيديين مع الحسد وأنه من أهم الأسباب في فشلهم وأقول دعوتهم ، ومنهم الإمام الداعي إلى الله يحيى بن محمد السراجي الذي قام في نواحي حضور وأجاب دعوته خلق كثير من الناس فحسده (٥) بقية الأشراف بسبب التروؤس عليهم ، ولا نستبعد أن يكون لهذا الحسد دور في ما حل بالإمام السراجي من الأسر والكحل على يد الرسوليين .

وأخيراً قال الجندي في معرض حديثه عن الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ما نصه : " ... ولولا حسد الأشراف له لاستقام إماماً فإن الإجماع منعقد على صلاحه لذلك " (٦) .

٣ . نظام الرهائن :

الرهان نوعان :

أ . الرهان الشرعي : وهو المقصود من قول الله تعالى :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ... " (١) .

وجاء في الحديث عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت : " توفي رسول الله (ﷺ) ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير " (٢) .

(٣) مجموع رسائل ، ص ٩٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٥) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٦٦ . ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٤٤ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٤٩١ .

(٦) السلوك ، ج ٢ : ٣٠٨ .

(١) البقرة : الآيات : ٢٨٢ - ٢٨٣ .

والمقصود من الرهان سالف الذكر هو الرهان المادي مقابل (الدين) أو أي شيء مادي آخر ملموس كالبضائع ونحوها ، وهذا الرهان يجوز شرعاً بنص الكتاب والسنة .

ب . الرهان غير الشرعي : وهو كذلك لأن المرهون فيه هو الإنسان ، ووجه عدم المشروعية فيه هو تعرض حياة الإنسان للخطر والهلاك في حال عدم الالتزام بما رُهن عليه ، وينقسم هذا الرهان أيضاً على قسمين :

• **الرهان المؤقت :** وهو أن يتم رهن إنسان معين ، كرهن الوالد لولده أو الأخ لأخيه مقابل شيء معين من المال أو نحوه ، وعند تأدية هذا المال يُطلق المرهون .

• **الرهان الدائم :** هو الرهان لضمان الطاعة والولاء وسنأتي على ذكره .

وبالعودة إلى موضوع البحث وجدنا أن الرهان غير الشرعي بنوعيه كان موجوداً في اليمن الأعلى والأسفل في مدة موضوع البحث ، وتمت مزاولته بشكل واسع النطاق من قبل كل الأطراف .

وعلى الرغم من خطورة الرهان المؤقت على حياة الإنسان ، فإنه لم يكن ذا تأثير كبير على الحياة السياسية – آنذاك – وكان متعارفاً عليه نظراً لعدم وجود آلية أخرى بديلة في التعامل بين الأطراف المختلفة ، واقتصر الأمر فيه على الحالات الآتية :

* الرهان مقابل سلامة الأرواح ، كأن يرهن الإنسان ولده ضماناً لسلامة إنسان آخر جاء لمقابلته ولقائه^(١) ، ولا سيما في حالات عقد الصلح والمناظرات والمفاوضات ، فإذا تم المقصود من اللقاء وعاد كل طرف إلى محل إقامته بسلام أطلقت الرهينة التي

^(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، تح : محب الدين الخطيب وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ج ٢ : ٢١١ (٢٥١٣) . النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف الدين ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، أوضح معاني أحاديثه : مصطفى محمد عمارة ، رقمه وعلق عليه : محمد سعيد كوكي ، بيروت ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ، ص ٢٣٠ . محمد فؤاد عبد الباقي ، اللؤلؤ والمرجان فيما تفرق عليه الشخان ، دار الحديث ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ج ٢ : ١٢٤ (١٠٣٣) .

^(١) انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٨٥٥ . ومما لا شك فيه أنه كان متعارفاً عليه في مدة موضوع بحثنا .

تكون في العادة في مكان محايد عند طرف ثالث^(٢) ، وعادة ما يفرض مثل هذا النوع من الرهان على الأقوياء المنتفذين الذين يُخاف من بطشهم وجبروتهم .

* الرهان مقابل تسليم الدروب أو الحصون^(٣) أو المدن .

* الرهان مقابل تأدية العقوبات المالية التي تفرض على القبائل لفترات زمنية طويلة^(٤) .

أما الرهان الدائم فهو الرهان الذي فرض على القبائل اليمينية لضمان ولائها وطاعتها^(٥) لطرف من الأطراف .

ونظراً لتقاسم السلطة والنفوذ على أرض اليمن بين الدولتين الزيدية والرسولية ، نتج عن ذلك انقسام القبائل بين مؤيدة لهذه ومؤيدة لتلك ، ونتيجة لحالة الصراع المستمر بين هاتين الدولتين كانت العديد من هذه القبائل تخضع للطرف المعادي ، وحتى يتم ضمان ولائها وطاعتها ، وأن لا تقوم بأي تمردات أو اضطرابات ، يتم أخذ الرهائن منها ، وغالباً ما يكونوا من أبناء الشيوخ والأعيان وأصحاب القرار في القبيلة ولنا أن نتصور الموقف الذي لا تحسد عليه بعض هذه القبائل عندما تسلم رهائن على الطاعة لكلا الطرفين ، الزيدي والرسولي ، ولا سيما تلك القبائل التي يُعرف عنها التغير المستمر في المواقف ، فتارة توالي الأشراف الزيديين ، وأخرى توالي الرسوليين ، بحسب ما تمليه المصلحة العليا للقبيلة ، وحسب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتغيرة التي تمر بها الدولتان ، فهي في صف المنتصر في كل الأحوال ، وهذا ما يزعزع الثقة بها ويجعلها مضطرة لتقديم الرهائن لضمان ثبات مواقفها تجاه هذه الأطراف .

ومع ما صادفناه من انعدام في المعلومات حول أحوال هؤلاء الرهائن ، في مدة موضوع البحث ، فأنا نستطيع استنتاج بعضاً منها بالاستعانة ببعض المراجع الحديثة ، فقد أورد القاضي إسماعيل بن علي الأكوغ^(١) وثيقة تاريخية يمكننا الاعتماد عليها في هذا الشأن ، وهي عبارة عن رسالة موجهة من أمير القصر

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٣ ب .

(٢) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٧٨ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٨٢ .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٧١ أ .

(٤) نظر على سبيل التمثيل : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٠ ب .

(٥) هجر ، ج ٣ : ١٧٢٢ - ١٧٢٥ .

إسماعيل بن الإمام يحيى بن حميد الدين ، إلى أخيه القاسم وزير الصحة في الدولة
الزيدية في اليمن (١٣٣٧ - ١٣٨٢ هـ / ١٩١٨ م - ١٩٦٢ م) ، قال فيها :

" سيدي الأخ سيف الإسلام وزير الصحة العمومية حفظكم الله
وصل إلى أخيكم الأمر الشريف ... للقيام بإجراء بعض الأمور ... إلا أنه توجد
نقاط هامة يجب النظر فيها وهي :

أولاً: الرهائن يبقى الواحد منهم ... في الحبس بزنة ^(١) وصمطة ^(٢) ... لا يعرف
الصابون ، ولن يعرفها ، وإذا تمزقت رقعها حتى يتكون منها جراثيم فتاكة ^(٤) تفتك به
فتكاً ذريعاً ، ويكون لبسها ووجودها شراً مستظيراً .

ثانياً: إذا كان - يوم - تغسيل الثياب فسيبقى أكثر الرهائن عراة ^(٥) مدة التغسيل ^(٦)
إذ يلزم غسلها كلها دفعة واحدة وإلا عاد الأمر كما كان ... وأيضاً يلزم أن لا ترجع
إليه الزنة حتى يستحم صاحبها وإلا فاثأر العرق المتعسكر ... سرعان ما يصير قملاً .
ثالثاً: الرهائن ... لا يملكون إلا بدلة واحدة وهي بدلة الحبس ، فإذا فرضنا غسلها
ويبقى - المرهون - عارياً مدة الغسيل ، فالوسخ الذي بالزنة لا يذهب بل سيعود قملاً
بدل الذي ماتت ، ولا يمكن تكثير الغسل إلا في الشهر مرة واحدة ، وفي هذا الوقت
تتولد فيه أسود ضوار " ^(١) .

فإذا كانت هذه هي حالة الرهائن في الدولة الزيدية في القرن العشرين الميلادي
فبإمكاننا أن نتصور حالة هؤلاء الرهائن في القرن الثالث عشر ، أي قبل ما يقرب من
الستمائة سنة ، إنها ولا شك حالة لا يمكن وصفها أو تخيلها ، كما أنها بلا شك أيضاً
كانت سبباً من أسباب ضعف الإمامة الزيدية التي فشلت في كسب ثقة القبائل من خلال
ما تقدمه لها ، لا من خلال ما تأخذ منها ، فلجأت لكسب هذه الثقة إلى هذا الأسلوب
الذي لم يمنحها سوى ثقة مؤقتة لا يمكن بأي حال من الأحوال الاعتماد عليها ، فبمجرد

^(١) الزنة : هي ما يعرف خارج اليمن بالجلابية أو الدشداشة أو القميص .

^(٢) الصمطة : هي ما يوضع فوق الرأس من الثياب وتعرف في بعض الدول العربية بالشماغ .

^(٤) نظراً لبسها المتواصل .

^(٥) وهذا يدل على أن معظم الرهائن من صغار السن .

^(٦) لأن كل رهينة لا يملك غير الثوب الذي يغطي جسمه .

^(١) الأكوغ ، هجر ، ج ٣ : ١٧٢٢ - ١٧٢٥ .

ضعف هذه الإمامة لأي سبب كان ، تهب هذه القبائل لتخليص رهائنها والانتقام من مرهونيههم ، وعليه لم تكن هذه القبائل في يوم من الأيام سنداً حقيقياً للدولة الزيدية بقدر ما كانت مardاً وضع في قمقم ، ينتظر أقرب فرصة للخروج والانطلاق .

لقد كان الأجدر بالأشراف الزيديين وهم في مقدمة من عانى من هذا الأمر من قبل الرسوليين أن يلغوه من قاموسهم وأن يبحثوا عن سبل أخرى تكفل لهم الوثوق بالقبائل والركون إليها حتى في أحلك المواقف ، دون اللجوء لهذا الأسلوب . أليس أميرهم صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة القائل للملك المظفر :

أعاتبه في الهجر أم لا أعاتبه وأصبر حتى يرعوي أم أجاتبه
فمن مبلغ عني إلى الملك يوسف أبي عمر معطي الجزيل وواهبه
ومالي قول مسخط غير أنني أذكره الخط الذي هو كاتبه
فشفع أباتا في بنيه فاتيه شفيعك في الذنب الذي أنت كاسبه (٢) .

طالباً منه إطلاق ولده محمد المرهون لديه في حصن الدملوة (٣) .

ويبدو أن الأوضاع السياسية — آنذاك — قد صوغت وبررت أخذ الرهائن ، وبالتالي أصبح موضوع الرهائن شيئاً مألوفاً رغم آثاره وأفرازاته المستقبلية ، التي لم تقتصر على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فحسب ، بل يحق لنا أن نتصور حجم المعاناة وحجم الأثر النفسي الذي سينعكس بكل تأكيد في تصرفات الناس وسلوكياتهم وطرق تفكيرهم ومعيشتهم ، وتجعلهم يعكرون صفو الدولة التي ترتعن أولادهم كما كدرت حياتهم بارتهانهم .

لقد كان لنظام الرهائن الذي فرضته الدولة الزيدية على القبائل آثاره النفسية والاجتماعية في هذه القبائل التي فضل بعضها حياة التشرد و الترحال هرباً من مثل هذه الأوضاع ، كما إنه علينا أن لا نتجاهل المعاناة النفسية والعصبية لأولئك الرهائن الذين عادة ما يكونوا في سن صغيرة لا تتجاوز سن البلوغ ، ولنا أن ندرك ذلك الحقد والكره الذي يكنه هؤلاء الأطفال لمرتهنيههم ، وكيف يكبر معهم هؤلاء ليترجم مستقبلاً إلى نزعات وأعمال عدوانية ضد من ارتهانهم ، كما يجب الأخذ بعين الاعتبار ذلك الخوف والاضطراب النفسي الذي يلزم الآباء والأمهات طيلة مدة ارتهان أولادهم التي

(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ٢٥٤ . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٥١ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأملني ، ج ١ : ٤٦٩ .

عادة ما تطول . كذلك علينا أن ننوه إلى أن هذا النظام لم يقتصر على طفل واحد من الأسرة الواحدة ، لأنه كان يتم تبديل الرهائن بشكل منتظم ومستمر ، فيحل الأخ محل أخيه مدة من الزمن ثم يليه الأخ الثالث وهكذا ، وهذا يعني أن ضرر هذا النظام كان يشمل أكبر عدد من الأطفال في ذلك الحين ولا سيما من أولاد الشيوخ والأعيان والذين سيكون لهم تأثير سياسي في المستقبل المنظور .

٣. تعالي الإشراف على بقية فئات المجتمع :

ذكر ابن الأنف عبارة قال أنها مشهورة ومعروفة بين الجمهور في اليمن — آنذاك — تقول : " أن الشريف إذا جاع تضرع وإذا شبع ترفع " (١) .

ومع أن هذه العبارة ليست ما لفت انتباهنا إلى هذا الموضوع ، إلا أن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن الأشراف عامة في كل مكان وزمان يعتقدون في أنفسهم الأفضلية على بقية طبقات المجتمع ، وذلك لانتسابهم إلى الرسول (ﷺ) من ابنته فاطمة الزهراء زوج الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ) ، وهو بلا شك نسب رفيع يتشرف به أي إنسان ، ولكن علينا قبل هذا أن نتذكر قول الله تعالى :

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (٢) .

وقول الرسول (ﷺ) : " من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه " (١) .

واستناداً إلى ما ذكرنا لا يكون الانتساب إلى الرسول (ﷺ) سبباً للتشريف في كل الأحوال ، وإلا لكان أقرب الناس إليه وهو عمه أبو لهب أولى بهذا الأمر من غيره ، ولكن ذلك لم يشرفه عند الله وعند الناس نظراً لسوء عمله .

أما الاعتقاد بالأفضلية لمجرد الانتساب للرسول (ﷺ) فقط ، فهذا مما جعل الأشراف الزيديين في اليمن وغيرها يعيشون في عزلة فرضوها على أنفسهم ، وبالتالي فشلوا في الاندماج بالمجتمع الذين هم جزء منه ، ومما نعتقده أن فشلهم الاختياري هذا ، كان سبباً من أسباب ضعف الإمامة الزيدية في اليمن .

(١) روضة الأخبار ، ص ١١١ .

(٢) الحجرات : الآية : ١٣ .

(٣) النووي ، رياض الصالحين ، ص ١٢٨ .

وقد اتخذت أشكال العزلة والتمييز التي فرضها الأشراف على أنفسهم عدة أشكال :

أ - التمييز الظاهري : وهو أن يتخذ الأشراف هيئة ومظهر مختلف عن بقية فئات المجتمع تمييزاً لهم عن غيرهم ، ومع أننا لا نملك ما يؤكد زعمنا هذا - في مدة موضوع البحث - إلا أن هذا الأمر كان متعارفاً عليه قبل هذه المدة^(٢) وحتى اليوم^(٣) .

وتأسيساً عليه نستطيع أن نؤكد أن ذلك كان مألوفاً في المدة التي نحن بصدد دراستها ، فقد روى ابن دعثم^(٤) أن الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة أمر أحد أمرائه بالتوجه إلى درب آل الهادي في الججب ، وأن هذا الأمير أمر الأشراف في هذا الدرب بحلق رؤوسهم لأنهم سلكوا مسلك العامة في تطويل شعورهم ، ومن هنا يتضح أن حلق الشعر كان ولا يزال من المظاهر المتعارف عليها بين الأشراف عموماً^(٥) .

ب - التمييز الاجتماعي : وهو أن يتخذ هؤلاء الأشراف عادات وتقاليدها تختلف عن العادات والتقاليد المتعارف عليها عند بقية فئات المجتمع ، ومع أن هذه العادات والتقاليد تختلف نسبياً من فئة إلى أخرى ومن منطقة إلى غيرها ، إلا أن الأشراف الزيديين ينفردون بعادات وتقاليدها لا يشتركون فيها مع أحد . من ذلك مثلاً : أنهم لا يقبلون مالاً من أحد في مناسبات الزواج وحالات الوفاة ، مع أنه ليس مال صدقة ، ويحبذون القوائد للتهنئة في مناسبات الزواج ، والرثاء في حالات الوفاة^(٦) .

(١) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٧٧٩ .

(٢) أبو غانم : فضل علي أحمد ، البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغيير ، مطبعة الكاتب العربي ، دمشق ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٢١٣ .

(٣) السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٧٧٩ .

(٤) يتميز الأشراف اليوم عن غيرهم من بقية فئات المجتمع من الناحية المظهرية بأنهم يرتدون القميص (القفطان) ذي الأكمام الطويلة والعمامة البيضاء ذات الشكل المستدير وبوضع الجنبية (الخنجر) إلى الجهة اليمنى من البطن على العكس من بقية فئات المجتمع الأخرى . نظر : أبو غانم ، البنية القبلية في اليمن ، ص ٢١٣ .

(٥) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٤١٤ .

كذلك يختلف هؤلاء الأشراف عن غيرهم من فئات المجتمع في عدم الزواج من غيرهم ^(٢) وفي طريقة تربية النشء ومظاهر الاحتفال بالأعياد وغيرها من المظاهر الاجتماعية التي تبعدهم عن هذه الفئات وتعزلهم .

ج .. التمييز بالسكن : وهذا تمييز واضح وجلي باتخاذهم دروب لهم لا يخالطهم فيها أحد كدرب آل الهادي والدرب المنصوري ودرب الأشراف القاسميين وغيرها من المناطق والدروب التي تشتهر بهؤلاء الأشراف ، ولا يقبلوا أن يسكن معهم أحد من غير الأشراف ^(٣) .

^(١) أدى هذا الأمر إلى ارتفاع نسبة العنوسة في أوساط هؤلاء الأشراف وضعف نسلهم وقلة أعدادهم .

^(٢) انظر تخطيط مدينة صنعاء عند ابن مجاور ، صفة بلاد اليمن ، ص ٢٠٥

الفصل الرابع

**المظاهر الحضارية في
الدولة الزيديّة .**

إذا كان بعض الباحثين^(١) ينفي عن الدولة الزيدية في اليمن المظاهر الحضارية بدعوى فقر هذه الدولة وضعف مواردها المالية ، وبحجة أن هذه الدولة لم تعرف الاستقرار ، الذي يعد شرطاً أساسياً في قيام الحضارة ، فضلاً عن تركزها في المناطق الجبلية الصعبة ، مما أدى إلى عزلتها وعدم اختلاطها بالدول الأخرى ذات الحضارات المتطورة ، ناهيك عن أن الإمام الزيدي كان ينظر إلى هذه المظاهر على أنها من قبيل الترف ، فلم يسعَ إلى إيجادها وتطويرها أسوة بالدول الأخرى ، فإن هذا القول مجانب للصواب . وحتى نبين عدم دقة هذا الرأي علينا توضيح بعض المسائل المتعلقة بهذا الشأن :

أولاً : صحيح أن فقر الدولة الزيدية شكل عقبة أمام تطورها حضارياً ، إلا أن ذلك لم يمنع قيام مثل هذه المظاهر ، والدليل على ذلك العديد من الآثار التي خلفتها هذه الدولة ، والتي لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا هذا ، كالجوامع ، والحصون ، والمدن ، والمسكوكات ، هذا إذا استثنينا الكم المهول من المخطوطات التي تناولت مختلف العلوم الدينية والدينية .

ثانياً : إن نفي هذه المظاهر عن الدولة الزيدية بدعوى عدم الاستقرار الذي يعد شرطاً أساسياً في قيام الحضارة ، يستدعي نفي هذه المظاهر عن كل الدول التي عاصرت الدولة الزيدية ، والتي كانت في صراع مستمر معها ، وأبرزها الدولتان : الأيوبية والرسولية ، وهذا غير صحيح ، فالدولتان الأيوبية والرسولية تعدان من أكثر الدول المتطورة حضارياً في تاريخ اليمن .

ثالثاً : إن القول إن تركز الدولة الزيدية في المناطق الجبلية الصعبة أدى إلى عزلتها وعدم اختلاطها بالدول الأخرى يحتاج إلى تصويب ، فكثير من المظاهر الحضارية التي شهدتها الدولة الزيدية مستوحاة من الدولتين الأيوبية والرسولية^(٢) ، بل إن بعض المظاهر العمرانية في الدولة الزيدية تأثرت بالطابع العباسي والسلجوقي^(٣) .

رابعاً : ليس هناك ما يدل على أن الأئمة الزيديين كان ينظرون إلى مظاهر الحضارة على أنها من قبيل الترف ، فالشواهد التاريخية تدل على أن الأموال كانت هي العقبة

(١) العسيري ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ، ص ١٥ - ٢١٦ .

(٢) على سبيل التمثيل ، انظر فيما سيأتي ، ص ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٣ .

(٣) الأكوغ ، هجر ، ج ٣ : ١٢٨٤ .

الوحيدة أمام القيام بالعديد من المظاهر الحضارية ، وفي حال توافرت هذه الأموال لم يكن الأئمة الزيديون يتوانون عن القيام بها ، والدليل على ذلك النهضة العمرانية التي شهدتها الدولة الزيدية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي وغيره من الأئمة .

أولاً : المظاهر السياسية والإدارية :

١ . نظام الحكم (الإمامة) :

نظام الحكم في الدولة الزيدية في اليمن نظام إسلامي مبني على الشورى والبيعة في اختيار الإمام في إطار الدعوة العامة ^(١) ، ولا تكون إلا للأكثر حزماً ، وعزماً ، وبلوغاً ، في العلوم الشرعية الإسلامية ، سواء فيما يتعلق بالشؤون الدينية أم الدنيوية ^(٢) . لكن علينا قبل هذا ، أن نوضح المعنى اللغوي والقرآني والاصطلاحي لكلمة (الإمامة) التي هي الأساس الذي يقوم عليه نظام الحكم في الدولة الزيدية .

الإمامة لغة : هي التقديم ، وعليه فإن الإمام في اللغة هو المقدم سواء كان مستحقاً للتقدم أم غير مستحق ^(٣) ، والأصل القرآني لها هو قول الله تعالى : " وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ " ^(٤) ، وقوله سبحانه في عباد الرحمن : " وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا " ^(٥) .
أما في الاصطلاح : فهي الولاية على الأمة والتصرف في أمورها ^(٦) .

(١) الفضيل : يحيى بن عبد الكريم ، من هم الزيدية ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ، ص ٦٩ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

(٣) عبد الجبار بن أحمد ، شرح الأصول الخمسة ، تعليق : أحمد بن الحسين بن أبي هاشم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ، ص ٥٠٩ .

(٤) البقرة : الآية : ١٢٤ .

(٥) الفرقان : الآية : ٧٤ .

(٦) عبد الجبار بن أحمد ، شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٠٩ . الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت ، ص ٥ .
بن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مج ٣ : ج ٤ : ٨٧ .

وبناءً على هذا ، تكون الدولة الزيدية – بالمفهوم المعاصر – دولة " رئاسية " ، " انتخابية " ^(١) ، ورئيس الدولة فيها هو الإمام الشرعي الحائز على بيعة (تصويت) الأغلبية من أهل الحل والعقد التي تتأكد من استيفائه لشروط الإمامة وأحقيته بها عن غيره ، في حال وجود أكثر من شخص يدعي لنفسه هذا الحق ^(٢) . والإمام في الدولة الزيدية لا يستطيع أن يتصرف تصرفاً منافياً للشريعة الإسلامية التي هي بمثابة الدستور التي يلجأ إليه الإمام في تسيير شؤون دولته ، فلا يبت في أمر من الأمور إلا بالشرع ^(٣) ، وعليه حماية حقوق الأفراد والجماعات في دولته وحماية مصالحهم ، ولو تعارض ذلك مع مصالحه الشخصية ^(٤) ، كما أن للإمام صلاحيات واسعة تخوله تعيين الوزراء ، والأمراء ، والولاة ، والقضاة ، والمحتسبين ، وغيرهم من الموظفين في الدولة أو عزلهم ، وإليه يرجع كل هؤلاء في حال استشكلت عليهم بعض الأمور .

٣. الوزارة ^(٥) :

على الرغم من قدم وظيفة " الوزارة " التي تعود إلى آلاف السنين ^(٦) ، إلا أن الدولة الزيدية في اليمن لم تعرف هذه الوظيفة بشكلها الرسمي إلا في عهدها المتأخرة . وأول إشارة إلى الوزارة في الدولة الزيدية وردت عند بعض المؤرخين الذين أشاروا إلى اتخاذ الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، الشريف محمد بن

^(١) الفضيل ، من هم الزيدية ، ص ٦٩ .

^(٢) حميد الدين ، الزيدية قراءة في المشروع ، ص ١٤١ .

^(٣) الفضيل ، من هم الزيدية ، ص ٧٠ .

^(٤) المرجع نفسه ، ص ٧١ .

^(٥) منصب الوزارة منصب شرقي قديم ، وعلى الرغم من أنه كان معروفاً منذ ما قبل الإسلام إلا أنه لم يسند إلى أحد في أول قيام الدولة الإسلامية ، ووجد في الدولة الأموية من حيث التسمية دون الاختصاص وأول من أسند إليه هذا المنصب بصفة رسمية من المسلمين هو أبو سلمة الخلال في عهد الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح . انظر : العسيري ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ، ص ٢١٢ . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية (تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية) ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، ص ٣٨٥ .

^(٦) قال تعالى على لسان نبيه موسى (عليه السلام) : " ... رَبُّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي ... " . طه : الآيات : ٢٥ – ٢٩ . وقال سبحانه : " وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا " . الفرقان : الآية : ٣٥ .

المفضل العفيف وزيراً له ^(١) بعد أن تخلى الأخير عن فكرة الدعوة لنفسه ، ووقف إلى جانب الإمام المنصور ، وأزر دعوته في ابتدائها ، فكان هذا المنصب نظيراً لهذا الموقف ^(٢) .

ويبدو أن هذا المنصب لم يكن سوى منصب تشريف وليس له أي تأثير سياسي في الدولة الزيدية ، فمن خلال بحثنا في السيرة المنصورية ، لم نجد ما يدل على أي دور لهذا الشريف (الوزير) في الدولة ، وكل ما ذكر عنه أن الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة وواه (وقش) ^(٣) ، وأن دوره اقتصر على الولاية فيها ، وتخفيف التوتر في العلاقة بين الإمام و المطرفية . وهذه — مما لا شك فيه — ليست من مهام الوزير بالمصطلح المتعارف عليه ، فالوزير لا بد له من الإقامة مع رئيس الدولة (الإمام) ، في مركزه ، وتتحدد مهامه الأساسية في مساعدة الرئيس في إدارة شؤون الدولة ، والإشارة عليه بما يراه صحيحاً ومناسباً ، بل إنه قد يقوم ببعض مهام الرئيس في حال انشغاله أو غيابه ، وهذه لم تتوافر في الشريف العفيف ، ولذلك قلنا إن إطلاق هذا اللقب عليه إنما كان من باب التشريف ولم يكن منصباً إدارياً في الدولة ^(٤) .

أما أول ظهور رسمي لمنصب الوزارة في الدولة الزيدية ، فكان في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ^(٥) الذي اتخذ من السيد الهادي بن إبراهيم

(١) الجرافي ، المقنطف ، ص ١٨٣ . الأكوغ ، هجر ، ج ٤ : ٢٣٥٣ .

(٢) المراجع نفسها والصفحات .

(٣) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٨٧ — ٨٨ .

(٤) كذلك كان الحال مع القاضي ابن أبي النجم الذي كان وزيراً للإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين محمد ، و قُتل وهو يدافع عنه يوم كان محاصراً في حصن أفق من قبل الشغاليت الرسولية . نظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٩٦ .

(٥) كان بالإمكان ظهور الوزارة — رسمياً — كمنصب إداري في الدولة قبل عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد ، إلا أن ضعف الإمامة الزيدية ، وعدم الاستقرار السياسي في الدولة حالاً دون ذلك . علماً بأن الوزارة في الدولة الزيدية لم تكن وزارة تفويض ، بمعنى أن يتصرف الوزير في شئون الدولة دون الرجوع إلى الإمام ، وإنما وزارة تنفيذ ، فهي مقيدة ومقتصرة على تنفيذ أوامر الإمام بعد إسداء النصح له والمشورة في الأمور المستشكلة .

وزيراً^(١) له ، وحتى لا يُظن بأن ذلك لم يكن إلا لقباً للسيد الهادي بن إبراهيم ، لأنه من نسل الشريف محمد بن المفضل العفيف^(٢) الملقب بالوزير سالفاً ، نوضح ما يلي :
أولاً : إن السيد الهادي بن إبراهيم وإن كان من نسل الشريف محمد بن المفضل العفيف الوزير ، إلا أنه كان أيضاً وزيراً بصفة رسمية إدارية في الدولة ، والدليل على ذلك أنه سُمي بـ : " ذي الوزارتين " ^(٣) ، لأنه تقلد منصب الوزارة خلال عهدي الإمامين الناصر صلاح الدين محمد ، وولده الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ^(٤) .

ثانياً : إن السيد الهادي بن إبراهيم لم يكن الوزير الوحيد في عهد الإمام الناصر صلاح الدين ، فالمتتبع لسيرة الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى يلحظ – ولأول مرة – في المصادر الزيدية كلمة " الوزراء " ^(٥) ، في أكثر من موضع ، وهي كلمة لم تكن تستعمل من قبل في هذه المصادر .

ثالثاً : قد يُفهم أو يُظن أن كلمة الوزراء هي مرادفة لكلمة الأمراء ، فتطلق على الأمراء أيضاً من باب التفضيم ، وهذا غير صحيح ؛ لأن المصادر الزيدية تؤكد على أن الكلمتين لا تحملان المعنى نفسه ، وأن الإمارة شيء ، والوزارة شيء آخر ^(٦) .

ومع أننا لم نتمكن من الاستدلال على معلومات تفصيلية حول وظيفة الوزارة في الدولة الزيدية ، إلا أننا تمكنا من الإطلاع على بعض الدلائل التي تؤكد استمرارها كمنصب رسمي فيها ، ومن ذلك ما ذكره البريهي ^(٧) ، من أن الإمام المنصور بالله علي بن صلاح عين الفقيه أبا الحسن علي بن يحيى العمراني وزيراً له بعد وفاة السيد الهادي بن إبراهيم في سنة ٨٢٢ هـ / ١٤٢٠ م ، وأنه ظل في هذا المنصب حتى سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م ، وهي السنة التي توفي فيها هو والإمام المنصور بالله علي بن صلاح بسبب الطاعون ^(٨) .

(١) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٩ .

(٢) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ١١٨١ .

(٣) البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ١٩ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة .

(٥) فطر : المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٥٩ – ٥٩ ب .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٣٨ .

(٧) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

ومع انتقال الإمامة إلى الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد ، اتخذ السيد محمد بن عبد الله الهادي وزيراً له (١) ، ثم عزله ، وولى بدلاً عنه يحيى الكراز (٢) ، وكان إلى جانبه في الوزارة رجل يدعى محمد بن إبراهيم السادوي (٣) .

٣. صاحب الباب (الحاجب) :

سبق وأن عرفنا صاحب الباب بأنه من يقف بباب السلطان يبلغه أخبار الرعية ، ويأخذ لهم الإذن منه بالدخول (٤) ، وقد يطلق عليه في بعض المصادر اسم الحاجب المستمد من الحجاب . لقوله تعالى : " وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ... " (٥) . وقوله سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ... " (٦) . وقوله جل في علاه : " وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ " (٧) .

ومما لا شك فيه أن هذا المنصب كان مألوفاً في الدولتين الأيوبيه (٨) والرسولية (٩) ، ولم يكن مألوفاً في الدولة الزيدية حتى أواخر عهد الإمام المنصور بالله

(١) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٩٣٥ .

(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٧٧ .

(٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ١١٢٢ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمل ، ج ٢ : ٥٧٧ .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٢٤ . ويروى أن الخليفة عمر بن الخطاب (ؓ) لما قدم إلى الشام ، تلقاه معاوية بن أبي سفيان (ؓ) - وكان يومها والياً على دمشق - في موكب عظيم ، ولما دنا من الخليفة ، قال له : أنت صاحب الموكب ، قال نعم يا أمير المؤمنين ، قال : هذا حالك مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك ، قال معاوية : هو ما بلغك ، وعلل الأمر بأن للروم البيزنطيين جواسيس كثر في الشام ، ويجب أن يُظهر لهم من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ، فلم يوافقه الخليفة ، ولم ينهه . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٨ : ١٢٣ . ونظراً لهذه الحادثة يعتقد بعض المؤرخين أن معاوية ابن أبي سفيان هو أول من أدخل الحجة أو منصب الحاجب إلى الدولة العربية الإسلامية ، ولم يكن قبل ذلك معروفاً كمنصب رسمي فيها . انظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١٣٨ .

(٥) الأعراف : الآية : ٤٦ .

(٦) الأحزاب : الآية : ٥٣ .

(٧) الشورى : الآية : ٥١ .

(٨) ابن حاتم ، السمط ، ص ١٤٨ .

(٩) الخزرجي ، العقود ، ج ٢ : ٤٧ .

عبد الله بن حمزة ، فقد روى ابن دعثم ^(١) أن الأمير شمس الدين يحيى بن أحمد الهادوي جاء إلى دار الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بالدرب الجديد في صعدة ، فلما وصل إلى الباب وقف قائماً معتمداً بجنبه على الجدار ، وسأل الإذن ليدخل على الإمام ، والناس يدخلون ويخرجون من أمامه من دون إذن ، وحين أشار عليه بعضهم بالدخول أسوة بالبقية أصر على الإذن أولاً .

ونستدل مما سبق أنه لم يكن لدى الإمام المنصور بالله من يقف على بابه وينظم عملية الدخول والخروج من عنده ، ونظراً للفوضى التي قد تنتج عن مثل هذا الأمر اتخذ الإمام بواباً على داره ، وهذا ما نستدله مما رواه ابن دعثم ^(٢) أيضاً من أن الشريف حاتم بن علي القاسمي جاء إلى الإمام في بعض الأيام يريد الدخول ، وكان الإمام بداره بقرية حوث ، وعلى شغل في تلك اللحظة ، فمنعه البواب من الدخول حتى يستأذن له ، فعاد هذا الشريف من حيث أتى غاضباً على الإمام ومخالفاً له بسبب ما فعله البواب ، ولأن الأشراف الزيديين غير متعودين على هذا الأمر من قبل ، فقد نتج عنه العديد من المشكلات ، وتعرض العديد من الأئمة للانتقادات والاعتراضات بسببه فهذا الإمام المهدي أحمد بن الحسين وهو يعدد المخالفين عليه يخصص الخامس منهم بالقول : " وأما الخامس وهو الشاكي من سدة باب أو سدة بواب ... وغلظة الحجاب ... " ^(٣) ، ولا يساورنا شك في أنه كان يقصد بهذا القول الشريف المرتضى بن مفضل بن منصور وأمثاله ، وذلك أن هذا الشريف جاء إلى الإمام وطلب الإذن بالدخول ، وكان الإمام في ذلك الحين متوجهاً للصلاة ، فتأخر عليه رجوع الإذن من الإمام ، مما جعله يرجع من عنده غاضباً مما حدث ، وينضم إلى جملة المخالفين عليه من الإشراف الحمزيين وغيرهم ^(٤) .

ولتدارك الآثار المترتبة على وجود صاحب الباب في الدولة الزيدية ، أخذ الأئمة يعللون وجود هذا الأمر ، حتى يتعود عليه من يجهل أهميته ، وأول من كانت له المبادرة في ذلك الإمام المهدي أحمد بن الحسين الذي وضع في الرسالة " **الزاجرة لصالح الأئمة عن إساءة الظن بالأئمة** " ، بأنه لا يمكن للإمام قضاء حاجات الناس

^(١) السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٤٠٤ .

^(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

^(٣) مجموع رسائل ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

^(٤) نظر : يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٤٣٩ .

دفعة واحدة ؛ لأنهم يتمانعون ويتدافعون ، ولا سيما مع عدم الكفاءة من أصحاب الإمام وقلة المعاونة منهم ^(١) ، ولذلك لا بد من وجود صاحب الباب الذي ينضم للإمام دخولهم عليه الواحد تلو الآخر وخروجهم من عنده بعد قضاء حوائجهم ، وكذلك كان للإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي نصيب من هذه الانتقادات بحجة أن صاحب الباب يمنع الناس من الشكاية للإمام ويعزلهم عنه ^(٢) ، فرد الإمام الناصر من خلال وزيره السيد الهادي بن إبراهيم بأن الحجابة تجوز شرعاً بنص الكتاب والسنة واستدل على ذلك ببعض الآيات القرآنية منها : قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ " ^(٣) . وقوله عز وجل : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ... " ^(٤) . وقوله سبحانه : " إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " ^(٥) .

أما الدليل من السنة النبوية فهو أن رسول الله (ﷺ) كان له حاجب أو صاحب باب ، وهو أنس بن مالك الذي كان يأخذ الإذن من الرسول (ﷺ) للذين يودون رؤيته ومقابلته ، حتى إنه أرجع علي بن أبي طالب (ﷺ) مرتين قبل أن يأذن له الرسول (ﷺ) بالدخول ^(٦) .

واستناداً إلى ما تقدم ، نستطيع القول أن صاحب الباب أو الحاجب لم يُعرف في الدولة الزيدية في اليمن إلا في أواخر عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة الذي — ولا شك — استلهمه من الأيوبيين في اليمن ، ثم تبعه بعد ذلك الأئمة الزيديون الذين عاصروا الدولة الرسولية .

(١) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٣٠ .

(٢) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٢٤١ .

(٣) النور : الآيات : ٢٧ — ٢٨ .

(٤) الأحزاب : الآية : ٥٣ .

(٥) الحجرات : الآيات : ٤ — ٥ .

(٦) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٣١ . الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٢٤٣ .

وقبل أن نختم هذا الموضوع علينا أن نؤكد على أن صاحب الباب أو البواب كان في بادئ الأمر شخص ينظم عملية دخول الناس إلى الإمام وخروجهم من عنده ، ولا سيما في عهود الأئمة الزيديين الأوائل الذين عاصروا الدولة الرسولية ، ومع مرور الزمن أصبح لهذا المنصب أهمية كبيرة مكنت بعض الحجاب من الوصول إلى الوزارة (١) .

٤. الحِسْبَة :

الاحتساب لغة له عدة معان :

المعنى الأول : الاحتساب وهو طلب الأجر من الله تعالى تصديقاً لقول الرسول (ﷺ) : " من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " (٢) .

المعنى الثاني : الاحتساب ورد بمعنى الإنكار ، يقال احتسب فلان على فلان ، أي أنكروا عليه قبح عمله ، ومنه جاء مفهوم المحتسب (٣) .

أما الاحتساب اصطلاحاً ، فهو القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤) . ونحن نستطيع القول إن الاحتساب هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طلباً للأجر من الله تعالى ، وخوفاً من عقابه ، تصديقاً لقول الله جل في علاه : " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (٥) ، وقوله : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

(١) نظير : البريهي ، طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٣ .

(٢) البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، ج ١ : ١٩ . ابن حجر : أحمد بن علي ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تح : عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م ، ج ١٥ : ٦٠٨ .

(٣) الزبيدي : محب الدين محمد بن محمد مرتضى ، إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، د . ت ، ج ٧ : ٤ - ١٠ . النونو ، نظام الحسبة عند الزيدية ، ص ١٠٥ - ١١٠ .

(٤) الأطروش : الحسن بن علي (الإمام الناصر للحق) ، الاحتساب ، تح : عبد الكريم أحمد جديان ، مكتبة التراث الإسلامي ، صعدة ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ، ص ٣٨ . ابن تيمية : أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم ، الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، تح : إبراهيم رمضان ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ م ، ص ١٥ ، ٢٤ . ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١ م ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٥) آل عمران : الآية : ١٠٤ .

عَنِ الْمُنْكَرِ ... " (١) ، وقوله : " لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " (٢) ، وقوله : " الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ " (٣) .

وأول من قام بوظيفة المحتسب في الدولة الإسلامية هو الرسول (ﷺ) فقد صح عنه أنه كان يجول في الأسواق ويتفقدتها ، وأنه مر يوماً على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال لصاحب الطعام ما هذا ؟ فقال : أصابته السماء — أي المطر — يا رسول الله ، فقال الرسول (ﷺ) : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس (٤) ، ثم قال : من غشنا فليس منا (٥) . وهذا يدل أن الرسول (ﷺ) كان يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى في الأسواق ، ومن هذا الدور جاء مفهوم المحتسب الذي أخذت به الدولة الزيدية منذ ابتدائها واستمر باستمرارها ، حتى إن بعضاً من الأئمة الزيديين قاموا بهذا الدور قبل توليهم الإمامة ، وأبرز هؤلاء الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة الذي ظل محتسباً للزيدية من سنة ٥٨٣ هـ — / ١١٨٨ م (٦) ، إلى سنة قيامه في ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م (٧) .

وللمحتسب في الدولة الزيدية أهمية كبيرة من الناحية السياسية ، فهو يعد في المرتبة الثانية بعد الإمام (٨) ، ويقوم بالمهام ذاتها الذي يقوم بها الإمام في حال غيابه ، باستثناء مهام أربع ، هي جمع الصدقات ، وإقامة الحدود ، وإقامة الجمع ، وسد الثغور (تجيش الجيوش) (٩) .

(١) آل عمران : الآية : ١١٠ .

(٢) المائدة : الآيات : ٧٨ — ٧٩ .

(٣) الحج : الآية : ٤١ .

(٤) النووي ، رياض الصالحين ، ص ٥٧٩ .

(٥) ابن تيمية ، الحسبة في الإسلام ، ص ١٧ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ١ : ٣٢٩ — ٣٣٠ . النون ، نظام الحسبة عند الزيدية ، ص ٨٢ .

(٧) فظن فيما سبق ، ص ٢١ .

(٨) النون ، نظام الحسبة عند الزيدية ، ص ١٥١ .

(٩) المرجع نفسه ، ص ١٥٢ .

ونظراً للتوسع الذي شهدته الدولة الزيدية فيما بعد أصبح لزاماً على هذه الدولة أن تعين المحتسب في كل المناطق التي تدين بالولاء لها ، حالها في ذلك كحال تعيين الولاة والقضاة وجامعي الحقوق وغيرهم ، مع التأكيد على حصر مهمة المحتسب في الأسواق فقط .

وإذا كنا لا نستطيع الخوض في حيثيات هذه الوظيفة بالنسبة للدولة الزيدية موضوع البحث ، فأنا نستطيع الجزم بوجودها فيها ، من خلال بعض النصوص التي جاءت في هذا المعنى ، ومنها : ما ورد في سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين من أن الإمام وبعد دخوله الأول إلى صنعاء في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م ، رتب الحفظة والمحتسبين على قوائين صنعاء ^(١) ، ومنها أيضاً ، ما ذكره السيد شرف الدين ^(٢) من أن الإمام المهدي أحمد بن الحسين أمر بحبس الشيخ عبد الله بن أحمد الربيب ؛ لأنه تولى أمر الحسبة في صعدة نيابة عن الإشراف الحمزيين المنشقين عن الدولة — آنذاك — والمتحالفين مع الرسولين .

ولأهمية أمر الحسبة في الدولة الزيدية ، وأهمية مركز المحتسب فيها ، كانت الشورى هي الأساس في اختيار المحتسب ، ولا سيما في المدن الكبيرة كصعدة ونجران وغيرها ، وهذا ما يفهم من رسالة الشيخ محيي الدين عطية بن محمد النجراني إلى الإمام المهدي أحمد بن الحسين الذي أوضح له فيها أنه لم يتم البت في موضوع الحسبة في صعدة ، وأنه مازال في طور المراجعة والتشاور ^(٣) .

ويبدو أن الخلاف كان محتتماً حول هذا الموضوع ، مما اضطر الإمام المهدي إلى تأجيله والبت فيه فيما بعد ، ولذلك قال الإمام في معرض رده على هذا الشيخ : " ... فأما قولك ... وصدر الكل من المجلس والحسبة غير ثابتة بل هي موقوفة على المراجعة ، فما الحسبة ... تثبت بتثبيت أحد من الخلق ، ولا تحتاج إلى أهل الحل والعقد ... لأن الخلق كلهم لا يجتمعون على ذلك أبداً ... وقد شك الناس في رسول الله (ﷺ) ، فما انهدمت بذلك نبوته ، ولا زالت بالشك فيه ولايته ... " ^(٤) .

^(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٠ أ .

^(٢) المصدر نفسه ، ق ٩٥ ب .

^(٣) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٥٧ .

^(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .

ومع أننا لم نستدل على معلومات حول موضوع الحسبة في العهود التي تلت عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، إلا أن ذلك لا ينفي وجود هذا المنصب في هذه العهود ، بل إن بعض الأئمة كانوا يقومون بهذا الدور وهم على رأس السلطة في الدولة الزيدية ، فقد ذكر يحيى بن الحسين ^(١) أن الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي كان شديد الإنكار على المفسدين ، حتى إنه كان يخرج في بعض الليالي ومعه بعض أصحابه المتكبرين ، فيتفقد أحوال الناس ، ويقيم الحد الشرعي على كل من يستحقه .

أما مهام المحتسب فهي :

- أ — إصلاح كل ما يمارسه الناس في حياتهم اليومية ، فأى شيء يضر الناس فإن على المحتسب إزالته ^(٢) ، بل إنه كان للمحتسب في الدولة الزيدية صلاحيات واسعة تمكنه من إمضاء الأحكام الفورية في الأسواق دون الرجوع إلى الوالي أو القاضي ، ولهذا نقول بأن هذا المنصب كان مستقلاً تماماً عن القضاء والولاية .
- ب — تفقد المكيال والميزان ^(٣) ، ومنع الغش والتدليس في البيع والشراء .
- ج — المحافظة على نظافة المساجد ، ومنع الناس من البيع والشراء فيها ، ومن اتخاذها قبوراً ^(٤) .
- د — منع الاختلاط بين الرجال النساء في الأسواق والطرقات ^(٥) .
- هـ — إلزام أهل الذمة بوضع الزنار ، ومنعهم من ركوب الدواب بسرج كما يفعل المسلمون ^(٦) .
- و — منع النجارين من صنع النرد ، والشطرنج ، والأزلام ، والتمائيل ، وآلات الطرب والغناء .

^(١) غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٨ .

^(٢) الشجاع : عبد الرحمن عبد الواحد ، النظم الإسلامية في اليمن ميلاداً ونشأة ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ٣٧ . شمسان : إيمان أحمد ، اليمن في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٠٣ هـ) ، دار الثقافة العربية ، الشارقة ، جامعة عدن ، ط ١ ، ٢٠٠١ م ، ص ٢٢٨ .

^(٣) الأطروش ، الاحتساب ، ص ٤٢ .

^(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

^(٥) نفسه ، ص ٤٨ .

^(٦) للإطلاع على بقية مهام المحتسب . انظر : المصدر نفسه ، ص ٣٨ - ٧٤ .

- ز — منع البائعين عن التحالف وقت البيع ، وعن النداء بصوت مرتفع في أثناء بيعهم ، وعن بيع الأمور المحرمة كالخمر ونحوه ، ومعاقبة المخالفين .
- ح — منع بائعي اللحم وأصحاب السمك عن بيع الأشياء المنهي عن بيعها .
- ط — نهي الطحانيين أن يطحنوا الطعام إلا بأجر معلوم ، وأن يأخذوا من الطعام المطحون شيئاً ، وإلزام الخبازين بتنقية الحنطة والشعير ونحوهما قبل الخبز .
- ي — منع النخاسين عن بيع المغني والمغنية ، ومن يعلم فسادهم ، ونفيهم من البلاد في حال وجودهم .

٥. الولاية :

قسمت مناطق اليمن الخاضعة للدولة الزيدية إلى ولايات (وحدات إدارية كبيرة) ، يتولى الإمام — كما أسلفنا — تعيين الولاة عليها وتكون في معظم الأحيان من نصيب أبناء الإمام ، وإخوته ، وأقاربه ، ومن يثق بهم من أصحابه ، نظراً لأهمية مثل هذه المناصب التي تعد من الدعائم الرئيسة التي تقوم عليها الدولة ، ثم يقوم الولاة بتكليف من الإمام بتعيين من يروونه مناسباً على الحصون ، والهجر ، والدروب ، والبلدان الصغيرة (وحدات إدارية صغيرة) . وقد وثق لنا بعض الأئمة مثل هذا الإجراء في العهود التي أعطيت لهؤلاء الولاة ، والتي من خلالها استتجنا أهم الشروط الواجب توافرها عند تعيين الولاة أو العمال ، وفي مقدمتها ^(١) :

- أ — أن يكون الوالي أو العامل متديناً ، ورعاً ، عالماً ، فأن لم يكن كذلك ...
- ب — أن يكون من أهل الأمانة والثقة ، فأن لم يكن ...
- ج — أن يكون مخلصاً في ولاءه للدولة .

ولأنه من غير الممكن إيجاد العدد المطلوب من الولاة والعمال في كل مناطق الدولة بالشروط السالفة ، اضطرت الدولة الزيدية في أحوال عديدة إلى تولية من لا تتوافر فيهم هذه الشروط ^(٢) — أو ما يعرف في بعض المصادر الزيدية ^(٣) بـ : " ولاية الفاسق أو الناقص " ولاستدراك هذا الأمر ، وضمان ولاء الولاة ، اتبعت الدولة الزيدية أمرين :

(١) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٤ — ١٤٨ .

(٢) نظر فيما سبق ، ص ١٩٩ .

(٣) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٢٨٠ — ٢٨١ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٥١١ .

أ - تقسيم الولاية إلى قسمين : ولاية عامة ^(١) ذات صلاحيات واسعة لمن تتوافر فيهم شروطها ، وولاية خاصة محصورة بأمر معينة لغيرهم ممن يُشك في ولاءه .

ب - اتباع نظام المراقبة ^(٢) لتصرفات الولاية ^(٣) ، حتى لا يسيئوا للدولة بنهب أموالها ، والأساءة لرعيها ، والاستفراد بحصونها وبلدانها .

وعادة ما يحظى شيوخ القبائل والأعيان وغيرهم من الإشراف بالمناصب في الولاية ، وذلك لما يتمتعون به من نفوذ وقوة تأثير على الناس في مناطقهم تمكنهم من القيام بالمهام المناطة بهم بكل يسر وسهولة ، ومع ما أسلفنا يحتفظ الإمام لنفسه بالسلطة المطلقة التي تمكنه من فرض ما يراه مناسباً في أنحاء الولايات التي يسيطر عليها ، أو أن يعزل أو يعاقب من يخطئ ، أو يكون غير أهل للولاية ، والعقاب إما أن يكون بالحبس ، وإما بالغرامة وأخذ المال ، وقد يكون بالأدب (الجلد) ، بحسب الخطأ والجرم المرتكب ^(٤) . وعموماً يمكننا توضيح التقسيم الإداري في الدولة الزيدية من خلال ذكر بعض الولاة الذين تقلدوا مناصب الولاية في مدة موضوع البحث .

(١) يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ١٨٦ .

(٢) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٤ ، ١٤٨ .

(٣) كان هذا النظام معمولاً به منذ عهد الخلفاء الراشدين ، ولنا في قصة الخليفة عمر بن الخطاب (ؓ)

وواليه على دمشق معاوية بن أبي سفيان (ؓ) دليل على ذلك ، انظر فيما سبق ، ص ٢٥٦ .

(٤) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٦٥ .

اسم الإمام	اسم الوالي	مكان الولاية
المهدي أحمد بن الحسين .	الأمير الحسن بن محمد بن إبراهيم القاسمي ^(١) .	صنعاء .
	الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة .	ظفار .
	الفقيه حسام الدين أحمد بن يحيى الصعدي ^(٢) .	بلاد سنحان .
	الأمير سليمان بن يحيى ، و يليه أخوه الأمير إبراهيم بن يحيى ^(٣) .	الظاهر .
	الشيخ منصور بن محمد الحميري .	ثلا و البلاد الحميرية .
	الشيخ منصور بن إبراهيم بن حجاج و يليه محمد بن عمر الحوالي ^(٤) .	حصن الظفير .
	الشيخ فخر الدين عمرو بن علي الوهبي ^(٥) .	حصن حلب .
	الأمير محمد بن فليحة ^(٦) .	حصن الزاهر .
	السلطان عفيف الدين الحسن بن إسماعيل الشهابي ^(٧) .	حصن القفل .
	الأمير علم الدين أحمد بن القاسم ^(٨) .	بلاد مسور .
الشريف المفضل بن منصور العفيف ^(٩) .	وقش .	
الأمير يعقوب بن سنقر ^(١٠) .	حصن الكميم .	

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٩ ب .

(٢) المصدر نفسه ، ق ٦٩ أ .

(٣) نفسه ، ق ١٠٩ ب .

(٤) نفسه ، ق ٤٩ ب ، ٦٧ أ .

(٥) نفسه ، ق ٦٧ أ .

(٦) نفسه ، ق ٩١ ب .

(٧) نفسه ، ق ٧٩ أ .

(٨) نفسه ، ق ٧٧ أ .

(٩) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ١١٤٣ - ١١٤٤ .

(١٠) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٩ ب .

اسم الإمام	اسم الوالي	مكان الولاية
المؤيد بالله يحيى بن حمزة .	الفقيه نجم الدين قاسم بن عبد الله (١) .	حصن بكر .
	الفقيه أحمد بن علي الفضلي (٢) .	ثلا .
المهدي علي بن محمد .	الأمير الأسد بن إبراهيم الكردي (٣) .	نمار .
	الأمير محمد بن ميكائيل (٤) .	حصن المفتاح .
	الشريف يحيى بن محمد بن أبي القاسم (٥) .	حصن ظفار .
الناصر صلاح الدين محمد بن علي .	السيد القاسم بن يوسف (٦) .	بلاد آنس (٧) .
	إدريس بن أحمد الفضيلي (٨) .	حصن المنقذة (٩) .
	الشيخ أبو بكر بن محمد السيري (١٠) .	بعدان (١١) .
	الشريف المطهر بن محمد بن المطهر (١٢) .	دروان حجة .
	أبو ثور محمد بن حسن (١٣) .	الشحر .

(١) يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ق ١٨٦ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١٧ .

(٤) المصدر نفسه والجزء ، ص ٥٢٨ .

(٥) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٦٠ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٧) آنس : بلد واسعة من أعمال نمار إلى الجنوب الغربي من صنعاء بمسافة (٦٠ كيلو متراً) ، مركزها ضوران ، وتشمل على عدة مخاليف أهمها : مخاليف أسعد ، ومخلاف الشرق ومخلاف ابن حاتم ومخلاف حمير ، ومخلاف بني خالد ومخلاف المنار وغيرها . انظر : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٦٣ ، (حاشية المحقق) .

(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٠ .

(٩) المنقذة : عزلة من عنس وأعمال نمار ، ومن قراها : يفاع ، قباتل ، رخمة ، شوكان ، المواهب ، غيرها من القرى . ومنقذة أيضاً قرية من مخاليف بعدان . المقحفي ، معجم ، ص ٦٦٩ .

(١٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٤ .

(١١) بعدان : جبل مشهور يطل على مدينة إب من ناحية الشرق ينسب إلى بعدان بن جشم بن عبد شمس بن وائل ... بن الهميسع بن حمير . المقحفي ، معجم ، ص ٨٤ .

(١٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٨ .

(١٣) ابن الوزير ، الفضائل ، ق ٢٤٢ .

اسم الإمام	اسم الوالي	مكان الولاية
المنصور بالله علي بن صلاح (١)	الأمير إبراهيم بن يحيى (٢) ، والأمير محمد بن الحسن الحارثي المذحجي (٣) ، والمملوك قاسم بن عبد الله سنقر (٤) .	صنعاء .
	الشيخ محمد بن علي المرهبي (٥) ، والشيخ عبيدة بن ثامر (٦) .	رداع .
	حسن بن علي الطاهر (٧) ، وزيد الهني (٨) .	صعدة .
	صالح بن مرزوق (٩) .	حضور .
	الفهد الفضلي (١٠) ويحيى بن كابس الجنبي (١١) .	حصن عفار .
	الشيخ علي بن سعيد (١٢) .	السؤد .
	الفقيه أحسن بن إسماعيل (١٣) .	أعمال ذمار .
	الفقيه محمد بن علي (١٤) .	حصن كُبه ومغارب ذمار .

(١) يعد معظم ولاية الإمام المنصور بالله علي بن صلاح ولاية لأبيه الإمام الناصر من قبله باستثناء من تم

تعيينهم بعد التمردات التي أعقبت وفاة الإمام الناصر .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٠ .

(٣) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٨١ - ٨٨٢ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٦٢ .

(٥) المصدر نفسه والجزء ، ص ٥٤١

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٤٨ .

(٧) نفسه ، ص ٥٤٦ - ٥٤٧ .

(٨) نفسه ، ص ٥٥١ .

(٩) نفسه ، ص ٥٤٣ .

(١٠) نفسه ، ص ٥٤٧ .

(١١) نفسه ، ص ٥٦٢ .

(١٢) نفسه ، ص ٥٥٣ .

(١٣) نفسه ، ص ٥٥٦ .

(١٤) نفسه ، ص ٥٥٧ .

اسم الإمام	اسم الوالي	مكان الولاية
المنصور بالله علي بن صلاح .	داؤد الظربوه ^(١) وولده إدريس ^(٢) .	ثلا .
	داؤد بن الطهيف ^(٣) .	مدع .
المهدي صلاح بن علي بن أبي القاسم	زيد بن قاسم بن سنقر ^(٤) .	صنعاء .
	إبراهيم بن قاسم بن سنقر ^(٥) .	نمار .
	علي بن مظفر الأسدي ^(٦) .	ثلا والعروس .
	داؤد بن عباس بن كامل ^(٧) .	حصن شمسان .

أما مهام الوالي فقد لخصها الإمام المهدي أحمد بن الحسين في أحد عهوده لأحد ولاته حين قال : " ... فإذا قدمت ... إلى عمك ، وموضع ولايتك ، دعوت الناس قبل كل شيء إلى طاعة الله تعالى ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والقيام بما افترض الله سبحانه بعد ذلك من الواجبات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وبعد ذلك تأمرهم بتسليم حقوق الله تعالى من أموالهم على وجهها من غير أن يخلو شيء ، ومن غير أن تطلب منهم سوى ما يجب عليهم ... هذا في واجبات الأموال وهو العشر مما أخرجت الأرض ... وزكاة المواشي وهي البقر والغنم والإبل ... وزكاة أموال التجارة ... ومن امتنع عن ذلك أخذ منه ومثله ، عقوبة في منع ما يجب عليه من حق الله تعالى ... ثم بعد ذلك تمنعهم من التظالم ، والتهاجر والفساد في الأرض فمن ظلم غيره قمت مع المظلوم حتى تستوفيه حقه ... وحقرت الظالم وأدبته ... حتى يرجع إلى الحق ... ومن فعل معصية من معاصي الله مما يوجد الحد ، سألت أهل المعرفة ممن هو في جهنك من أهل الثقة والأمانة والعلم بحكمه ، فإن استحق الجلد جلده ، وإن

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٨ .

(٢) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٧١ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٦٩ .

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٤٨ .

(٤) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٦) نفسه ، ص ٣٣ .

(٧) نفسه ، ص ٥٣ .

استحق القطع قطعت يده بعد التبصر في أمره ... وإذا استحق القتل ... قتلته ... وعند وصول الجهات تأمر لمن يصلح للقضاء ممن قد صار في يده منا ولاية ذلك ، فتثبت أمره ، وتشد أزره ، وتعرفه أنك ... قائم معه على ما حكم به وأنفذه ... وتأمره أن يولي الأوقاف ، والوصايا ، والمناهل ، والمساجد ، والطرق ، والفقراء ، ويصلح ذلك وأنت القائم معهم بما يجب ، وما كان من أوقاف مصرفها بيت المال ، كان ذلك عندك محفوظاً حتى نعلمك كيفية صرفه .

ومتى قبضت هذه الواجبات المأخوذة من الناس أخرجت ربعها وميزته ، وأحطت علماً بما في الجهة من الأيتام والضعفاء والفقراء والمساكين أهل الحاجة فأعطهم على قدر ما يحتمله حالهم ... والثلاثة الأرباع تصرفها فيما قد تحملت أمره عنا من الخيل ... لا يطلبون منا بعد ذلك شيئاً في وقت حرب ولا سلم ... " (١) . هذا بالإضافة إلى كونه عيناً على عمال الحصون في ولايته (٢) .

٦. الإقطاع (٣):

كان الإقطاع نوعاً من أنواع الولاية في اليمن منذ الفتح الأيوبي لها (٤) ، إلا أن هذا النوع لم يُمارس — بالمعنى المتعارف عليه — في الدولة الزيدية إلا في وقت متأخر من هذا الفتح ، ونظراً للتأثير السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، الذي كان للدولة الرسولية على الأشراف الزيديين ودولتهم ، لتنتقل هذا النوع من الولاية إلى الدولة الزيدية مع أشياء كثيرة استمدها هؤلاء الأشراف من الرسوليين .

(١) مجموع رسائل ، ص ١٤٢ — ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .

(٣) كلمة إقطاع هي مصدر أقطع ، يقال أقطعه أرض كذا يقطعه إقطاعاً ، واستقطعه إذا طلب منه أن يقطعه والقطيعة الطائفة من أرض الخراج ، وجمعها إقطاعات . انظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٣ : ١١١ . الفيبي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٣٨ .

(٤) ورثت الدولة الأيوبية نظام الإقطاع عن الدولة الزنكية في بلاد الشام ، وعمل صلاح الدين الأيوبي على تطبيقه في مصر منذ أن استقل بحكمها بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م ، ومع الفتح الأيوبي لليمن انتقل هذا نظام مع الأيوبيين إليها . انظر : العسيري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ، ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

ولعل أول بوادر هذا التأثير ظهرت مع تلك العلاقة التي ربطت بين الأشراف الحمزيين والملك المظفر الرسولي ، والتي على إثرها تم إقطاع الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة مدينة القحمة (١) ، كعادة الرسوليين في تسيير شؤون دولتهم .

ومع أننا لا نمتلك معلومات تفيد بوضوح لانتقال الإقطاع إلى الدولة الزيدية في عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، إلا أن هناك إشارات تاريخية وردت في رسائل هذا الإمام توضح معرفته به (٢) ، واستدلاله بشرعيته بما فعله الرسول (ﷺ) حين أقطع الأبيض بن حمّال (٣) جبل الملح بمأرب ، ولأنه من باب الإقطاع ، قال بعض الصحابة للرسول (ﷺ) أعلمت ما أقطعتة؟! قال : لا : قالوا : أقطعتة العد الذي لا ينفذ ، فرجع عن ذلك (٤) .

كما ورد في رسائل الإمام المهدي ما يفيد تطبيقه لهذا النوع من الولاية في دولته ، ففي معرض رده على من اعترض عليه وزعم بأنه نقض العهود والوعود التي قطعها على نفسه بتولية الأشراف الحمزيين على بعض المناطق والإقطاعات ، قال : " ... فأما الولايات والإقطاعات وما يجري مجراها فليست بعقود عند من عقل الصواب وفهم مضمون ما انطوت عليه السنة ونطق به الكتاب ... " (٥) .

وإذا كان الأمر كما أسلفنا في عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، فإنه أصبح أكثر وضوحاً في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، فقد ورد في رسالة بعثها هذا الإمام إلى القاضي عبد الله بن حسن الدواري قال ، وهو يوضح ما يعانيه من

(١) الخزرجي : العقود ، ج ١ : ١١٨ .

(٢) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٠٩ .

(٣) هو الأبيض بن حمّال بن مرشد المأربي السبأي ، سمي بهذا الاسم لأنه كان يحمل الديات والمغارم عن قومه . انظر : يحيى بن الحسين ، غلية الأماني ، ج ١ : ٧٠ - ٧١ . الفيفي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٢٤٠ .

(٤) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٠٩ . والقصة تجدها عند : ابن ماجة ، السنن ، ج ٢ : ٢٢٨ (٢٤٧٥) . أبو داود ، ج ٣ : ١٧٥ (٣٠٦٤) .

(٥) مجموع رسائل ، ص ١٠٩ . كما ورد في أحد عهوده لأمير من أمرائه ما يشير إلى ذلك أيضاً حين قال : " ومتى قبضت هذه الواجبات من الناس أخرجت ربعها وميزتها ... والثلاثة الأرباع تصرفها فيما قد تحملت أمره عنا من الخيل ، وهي عشرون فرساً أجوداً ... وأربعون راجلاً ... لا يطلبون منا بعد ذلك شيئاً في وقت حرب ولا سلم " . انظر : مجموع رسائل ، ص ١٤٤ . وهذا هو الإقطاع بعينه .

أزمات مالية : " ... وفي هذا الزمان كثرت الوفود من كل جهة في كل وقت بحيث لا تخلوا ساعة في الأغلب عن وافد ، منهم من يرى الفرس والحمل والألف والكسوة لا تقوم به ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من يطلب مع الوفادة إقطاع البلاد ... " (١) .

وروى يحيى بن الحسين (٢) أن الوثائق بالله المطهر بن محمد بن المطهر قدم إلى الإمام الناصر صلاح الدين محمد ، وأن الإمام أكرمه غاية الإكرام ، وأقطعه بلداً لم يسمها وأعطاه حصن دروان حجة ، وهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الإقطاع طبق في الدولة الزيدية إلى جانب الولاية ، التي كانت الأساس في إدارة شؤون الدولة .

ومن الجدير بالذكر أن مهام المقطع لا تختلف كثيراً عن مهام الوالي الإداري ، ويظل الفارق الجوهرى بين المنصبين هو أن الوالي يولي أهمية أكبر للشؤون السياسية والأمنية في منطقة ولايته ، بينما يركز المقطع على الأمور المالية ليؤدي ما فرض عليه من التزامات للدولة ، ويجمع بينهما الاهتمام بالشؤون العسكرية من إعداد الجند ، وتجهيزهم بالأسلحة والخيول ، وتوفير المرتبات لهم (٣) .

٧. القضاء :

للقضاء أهمية كبيرة في تاريخ الدول والشعوب ، وفي بقاء هذه الدول وازدهارها أو إخفاقها ، ومن المسلم به أن العدل من الدعائم المهمة التي تقوم عليها الدول ، فإن كان الأساس متيناً ، استمر البناء بنجاح ، وإذا كان العكس ، فسرعان ما ينقض البناء على صاحبه ، ويبدو أن الأئمة الزيديين كانوا مدركين لهذه الحقيقة ، فعملوا بمقتضاها وحاولوا جاهدين أن يكون العدل هو الأساس الذي تقوم عليه الدولة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وعملوا على اختيار من يرونه مناسباً للقضاء ، ومن تتوافر فيه الصفات التي تؤهله لهذا المنصب ، حتى يحسن الأداء والعمل ، فتستقر الأوضاع في المناطق التي تدين بالولاء للدولة الزيدية .

إن المتتبع للنظام الإداري الذي تتبعه الأئمة المتعاقبون يلحظ بوضوح دقة هذا التنظيم ، فالأئمة لم يكتفوا بتعيين المحتسبين والحفظة في مختلف المناطق ، بل عينوا قضاة يلتجئ إليهم المتنازعون في القضايا الكبيرة ، كالقتل ، والسرقه ، والصراع على

(١) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٨٧ .

(٢) غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٨ .

(٣) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٤ .

الأراضي والأموال ، وغيرها من القضايا التي يتطلب الأمر فيها إماماً تاماً بالأحكام الشرعية ، ووقتاً كافياً للبت فيها .

ولعل أبرز ما يمكننا ذكره في هذا السياق ، هو ذلك التطور الذي شهده النظام القضائي في الدولة الزيدية ، والذي تم على أساسه تقسيم القضاء على مراتب :

الأولى : ما يصدره القاضي من أحكام في منطقة موضوع التخاصم .

والثانية : ما يصدره القاضي في أقرب منطقة لمنطقة موضوع التخاصم .

والثالثة : ما يصدره الإمام في القضية ذاتها .

وعلى أساس هذا التقسيم أصبح بإمكان أحد المتخاصمين إذا لم يقتنع بما أصدره القاضي في المنطقة التي يسكن بها ، أن يستأنف الحكم عند أقرب قاض مجاور لمنطقته ، وإذا لم يقتنع أحد المتخاصمين بالحكم الثاني ، يحال الأمر برمته إلى الإمام للحكم فيه نهائياً حكماً لا رجعة فيه ولا استئناف ؛ لأن الإمام في هذه الحالة يعد بمثابة قاضي القضاة ، وعلى المعارض من المتخاصمين على الحكم في أي من مراتبه تحمل نفقات القضاء حتى يتم البت في القضية .

ولنا في قصة التحاكم التي حدثت بين شخص يدعى يوسف الصلاحي وامرأته على الدار بعد طلاقهما ^(١) دليل على ذلك ، فقد أصدر القاضي في ثلا - منطقة التخاصم - الفقيه أحمد بن علي الفضلي بكل الدار للزوج ^(٢) ، فلم ترضَ الزوجة بهذا الحكم والتجأت إلى الفقيه جمال الدين أحمد بن سليمان ، الذي حكم بثلاث الدار لها والثلاثين للزوج ، فلم يقتنع الزوج بالحكم الثاني وقصد الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ليفصل بين الحكمين ، فنقض الإمام المؤيد الحكم الثاني ، وصادق على الحكم الأول الذي أصدره القاضي في ثلا ^(٣) .

ولأهمية القضاة في الدولة الزيدية عموماً ، استعان الأئمة الزيديون بعدد كبير منهم في إدارة شؤون الدولة ، فكان من المؤلف أن يكون القاضي والياً ، أو محتسباً ، أو مدرساً ، أو جامعاً للحقوق ، أو أميراً ، و وصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة ، وقد يجمع القاضي بين بعض هذه المناصب في المناطق الصغيرة التي يستطيع وحده القيام بها ، فيكون هو الوالي ، والقاضي ، والمحتسب ، والمدرس في الوقت ذاته .

(١) يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه والورقة .

(٣) نفسه .

وللتدليل على ما ذكرنا نورد أسماء بعض القضاة الذين شاركوا في إدارة الدولة
الزيدية خلال مدة موضوع البحث ومنهم :

اسم الإمام	اسم القاضي	مكان القضاء
المهدي أحمد بن الحسين .	القاضي أحمد بن سليمان العنسي (١) .	صنعاء .
	القاضي الحسن بن أبي البقاء بن صالح بن يزيد التهامي (٢) .	بلاد عنس .
المؤيد بالله يحيى بن حمزة .	القاضي يوسف بن محمد الأكوخ (٣) .	صنعاء .
	القاضي نجم الدين قاسم بن عبد الله (٤) .	حصن بكر .
	القاضي أحمد بن علي الفضلي (٥) .	ثلا .
المهدي علي بن محمد .	القاضي عيسى بن محمد بن أحمد المذحجي (٦) .	نمار .
الناصر صلاح الدين محمد بن علي .	القاضي الحسن بن محمد بن الحسن النحوي (٧) .	صنعاء .
	القاضي عبد الله بن حسن الدواري (٨) .	صعدة .
المنصور بالله علي بن صلاح .	القاضي علي بن صالح الجرعي (٩) .	صنعاء .
	القاضي أحمد بن حابس (١٠) ، تلاه عليها القاضي أحمد بن عبد الله الدواري (١١) .	صعدة .

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٩ ب .

(٢) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٢٩٥ .

(٣) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١١٧٨ .

(٤) يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ١٨٥ - ١٨٦ .

(٥) المصدر نفسه ، ق ١٨٦ .

(٦) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٤٠ .

(٧) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٣٣٩ .

(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٣٨ .

(٩) المصدر نفسه والجزء ، ص ٥٥١ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٥٥٦ .

(١١) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٣١ .

وتُسنَد إلى القاضي المهام الآتية (١) :

أ - إقامة الجمعة والأذان ، والصلاة بالناس ، وإزالة الفساد والبدع والخرافات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ب - حل القضايا العالقة بين الناس فيما يتعلق بالزواج ، والطلاق ، وقسمة المواريث ، والقصاص ، والحدود الشرعية على مستحقيها .

ج - تزويج من لا ولي لها من النساء ، أو غاب وليها فوق ثلاثة أيام من دون أن يعرف حاله .

د - تعيين من يقوم بمصالح الأيتام ، والفقراء ، وذوي الحاجة .

هـ - الاهتمام بشؤون المساجد ، والمناهل ، والطرقات ، والأوقاف .

ولضمان نزاهة القضاء في الدولة الزيدية حذر الأئمة ، القضاة من حضور ولائم الخصوم (٢) ، حتى بعد البت في قضاياهم وجعلوا لهم مرتباً يقوم بهم ويسد حاجتهم ، وهذا ما أشار إليه الإمام المهدي حين قال : " وجعل له ... أن يأخذ أجره عمله مما يجوز لمثله من الأشراف ، من خراج أو خمس أو شيء يؤخذ من غير الزكاة ، فإنها محرمة على بني هاشم ... " (٣) .

أما تطبيق أحكام القضايا في الدولة الزيدية فكانت تتم وفق الشريعة الإسلامية ، وتتراوح عقوباته بين القصاص في القتل والجروح - إلا من عفا - والقطع للشارق ، والجلد للزاني غير المحصن ، فإن كان محصناً رجم ، يراعى في ذلك التبصر في إصدار هذه الأحكام وتنفيذها .

ونظراً للأحداث السياسية التي شهدتها الدولة الزيدية كانت الحاجة إلى السجن في تزايد مستمر ، فخصّصت أماكن في القصور لهذا الغرض ، وفيها تم سجن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (٤) ، والإمام المهدي صلاح بن علي بن محمد بن أبي القاسم (٥) ، كما خصّصت أماكن أشد تضييقاً للغرض ذاته في الحصون ، كالسجن

(١) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٣ - ١٤٤ . يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ١٨٥ .

(٣) مجموع رسائل ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٤٧ .

(٥) المصدر نفسه والجزء ، ص ٥٧٤ .

الذي احتجز فيه الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان في حصن الربيعة غربي نمار ، وهو سجن كما وصفه ابن الأنف من دخله " لا يرجى له الخلاص ولا يجد سبيلاً إلى المناص " (١) .

كما استعملت الحصون للغرض ذاته في عهد الإمام المهدي صلاح بن علي بن محمد الذي صادر من أهل صعدة أموال جملة (٢) بحجة المعونة في القتال ، وكانت عقوبة من يعترض على ذلك أو يمتنع عنه ، السجن في حصن المنصورة بصعدة ، ولما قيل له إن المنصورة قد امتلأت ، قال لهم احبسوهم في الحصون الأخرى (٣) . وإلى جانب السجن وإقامة الحدود الشرعية ، كانت هناك أنواع أخرى من العقوبات التي لم تكن معروفة في الدولة الزيدية ، والتي يبدو أن الأشراف الزيديين استلهموها من الرسولين كالسمل ، والشنق (٤) ، وذلك ما أثار العديد من الاعتراضات على بعض الأئمة الذي طبقوا هذا الأمر (٥) .

٨ - ديوان الإنشاء والبريد :

قليلة هي المعلومات التاريخية في المصادر التي تشير إلى هذا الأمر وتتناوله ، إلا إننا تمكنا من خلال هذه المعلومات من الاستدلال على وجود هذا الديوان في الدولة الزيدية ، ومع أن هذا المظهر الإداري لا يحتاج إلى أدلة لإثباته بحكم الضرورة الملحة لوجوده ، إلا أن الكم المهول من المخطوطات التي يعود تاريخها إلى مدة موضوع البحث ، والتي تتناول العديد من المواضيع ، كالسير ، والتراجم ، والعلوم الفقهية ، والمؤلفات في علم الكلام ، والرسائل المتبادلة ، تدل على وجوده ، كما أن حرص الأئمة الزيديين على أن تدون سيرهم يجعل من وجود هذا الديوان أمراً لا بد منه .

واستناداً إلى ما تقدم ، يمكننا القول إن السيد شرف الدين يحيى بن القاسم الحمزي هو القائم بأعمال ديوان الإنشاء في عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، وأن السيد الهادي بن إبراهيم الوزير هو القائم بأعماله في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، وأن أخاه محمد بن إبراهيم الوزير هو القائم بأعمال هذا الديوان

(١) روضة الأخبار ، ص ٣٩ .

(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٧ .

(٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٤) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٥١٠ .

(٥) المصدر نفسه والجزء والورقة .

في عهد الإمام المنصور بالله علي بن محمد ، يساعدهما عدد من الكتاب الذين أسندت إليهم مهمة كتابة رسائل الإمام إلى مختلف الأطراف ، الحلفاء منهم والأعداء .

وباستعراض مختصر لعدد من المؤلفات التي لا زال بعضها موجوداً ، نستطيع

الاستدلال على وجود هذا الديوان وأهمها :

أ — سيرة الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى المرتضى ، وولده الإمام المهدي محمد بن المطهر للناصر بن أحمد بن الإمام المطهر .

ب — سمط اللآل في ترجمة الواثق بالله لمجهول .

ج — النبذة اليسيرة من سيرة الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة لعبد الله بن الهادي بن يحيى بن حمزة .

د — مجموع كتب ورسائل الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة .

هـ — كاشفة الغمة عن حسن سيرة إمام الأئمة للهادي بن إبراهيم الوزير .

و — الحسام المشهور في الذب عن الإمام المنصور لمحمد بن إبراهيم الوزير .

ز — كنز الحكماء للحسن بن أحمد بن يحيى المرتضى .

ح — سيرة الإمام علي بن المؤيد بن جبريل لمحمد بن عز الدين المفتي .

ط — سيرة الإمام المتوكل على الله المطهر بن سليمان لمجهول .

فهل يمكن أن تكتب كل هذه المؤلفات التي هي قليل من كثير بدون وجود ديوان للإنشاء والبريد ، سيما وأن هذه المؤلفات اعتمدت على رسائل ومكاتبات لهؤلاء الأئمة مع جهات داخلية وخارجية ، علماً أن القائم على هذا الديوان في عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة هو كاتب سيرته (أبو فراس بن دعثم) (١) .

(١) عبد الغني محمود عبد العاطي ، أبو فراس بن دعثم وكتابه السيرة المنصورية ، ص ٢٣١ . الميسري ،

الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ص ١٢٠ .

٩. ديوان الوقف^(١) والوصايا :

لأن الأوقاف في الدولة الزيدية كثيرة^(٢) ، وشملت كل المناطق الخاضعة لها دون استثناء ، ولأن الأئمة وأزواجهم^(٣) كانوا في مقدمة المتصدقين بها ، كان من الأهمية بمكان أن تهتم الدولة الزيدية بإنشاء ديوان خاص بها ، يكون على رأسه شخص من أهل التدين والأمانة ، وهذا ما أشار إليه الإمام المهدي أحمد بن الحسين في عهد لأحد ولاته حين قال : " ... عند وصول الجهات تأمر لمن يصلح للقضاء ... وتعرفه أنك ... قائم معه على ما حكم به وأنفذه ... وتأمره أن يولي الأوقاف والوصايا ... " ^(٤) ، وقد يُجمع لهذا الشخص - إذا كان كفوًا - رئاسة ديوانين الأنشاء والوقف معاً ، وهذا ما يؤكد البريهي وهو يترجم للفقير جمال الدين محمد بن إبراهيم الخولاني المشهور بالساودي ، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للإمام الناصر بن محمد حين قال : " ... توفي هذا المقرئ سنة إحدى وستين وثمانمائة في دولة الإمام الناصر

(١) الوقف في اللغة : الحبس والمنع ، يقال وقفت الدار أي حبستها في سبيل الله ، وتحببب الشيء أن يبقى أصله ويُجعل ثمره في سبيل الله ، وهو نوعان : وقف أهلي ، وهو ما تكون منافعه للأولاد والأحفاد أو الأقارب ، ووقف خيري ، وهو ما تصرف منافعته على جهة بر لفئة من فئات المجتمع ، كالمدارس والمساجد والأرضي وغيرها . الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، مادة : وقف . الفيقي ، الدولة الرسولية في اليمن ، ص ٣٠٥ .

(٢) من خلال الزيارة الميدانية التي قمنا بها لمدينتي ثلا وصنعاء القديمة ، لاحظنا كثرة المساجد فيهما التي تعد بالعشرات ، بحيث لاتخطو خطوات قليلة إلا وتجد مسجداً صغيراً أو كبيراً ، وبالسؤال عن هذه المساجد التي يعود تاريخ أنشاء العديد منها لمدة موضوع البحث ، تبين لنا أن معظمها وقفاً لله من بعض المحسنين ، والتي لازالت تحمل أسماء بعضهم ، كمسجد نبهان ، ومسجد حمدين ، ومسجد سعيد (في مدينة ثلا) ، ومسجد داؤد بن المكين ، ومسجد الفليحي ، ومسجد موسى (في صنعاء القديمة) . وإلى الأوقاف في الدولة الزيدية أشار الدكتور عبد الرحمن حسن جار الله في ترجمته للسيد محمد بن الهادي بن يحيى بن حمزة حين قال : " وهو من أهل الفضل والعلم ... قدم من حوث إلى ثلا ... وعمر فيها قبة فريدة في بناءها وزخرفتها ... وقد أوقف عليها أراض كثيرة ... " . انظر : ثلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٠٦ .

(٣) من الجدير بالذكر أن العديد من هذه الأوقاف لازال قائماً حتى اليوم ، ويستفاد من ريعها ومنافعها ، ونذكر على سبيل التمثيل ، (سبيل الأبهري) في صنعاء القديمة التي يعود الفضل في ابتداء حفرها - وغيرها من الآبار - إلى السيدة فاطمة بنت الأسد الكردي زوج الإمام الناصر صلاح الدين محمد . انظر : ابن الوزير ، الفضائل ، ق ٢٤٤ .

(٤) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

بن محمد ، وقد كان مُكرماً له مفوضاً إليه كتابة الإنشاء وأمر الوقف والوصايا ...^(١) كما يذكر المؤلف نفسه في ترجمة الفقيه الكاتب أبي الحسن علي بن يحيى العمراني الذي أصبح فيما بعد وزيراً للإمام المنصور بالله علي بن صلاح ما نصه : " ... وبرع في فن الكتابات للإنشاء واستنابه الإمام ... علي صلاح على أحكام صنعاء ومعظم بلده وحوائح ولده ... " ^(٢) . وهذا يدل على الأهمية التي كانت لكتاب الإنشاء والوقف ، والتي جعلت بعضهم يتقلد منصب الوزارة ، كالسيد الهادي بن إبراهيم وأخيه محمد ، والفقيهين الخولاني ، والعمراني ، وغيرهم ، وإن خفيت علينا أسماؤهم ^(٣) .

١٠. جمع الحقوق :

تعد هذه الوظيفة من الوظائف القديمة التي عرفتھا الدولة الإسلامية في ابتداء عهدها ، وذلك لأهميتها الاقتصادية الكبرى بالنسبة للدولة ، فقد جاء الإسلام بتشريعات ومصطلحات لم تكن موجودة من قبل في المجتمع الجاهلي ، مثل الخراج ، والزكاة ، والجزية ، وغيرها . وكان لا بد أن يتولى هذه المهمة أشخاص يقومون بجمع هذه الحقوق لبيت مال المسلمين ، ويطلق عليهم " جامعو الحقوق المستحقة " . وقد تطور هذا النظام بشكل كبير بعد الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام ، والعراق ، ومصر ، وغيرها من البلدان التي تشتهر بالخيرات الوفيرة في مجال الزراعة ، والتجارة ، والصناعة ، واتساع الضياع والأموال ، وكلها تجب فيها أموال مستحقة للدولة ، فكان لا بد من إيجاد نوع من التخصص الإداري والتنظيمي لهذا الأمر بوصفه مورداً مهما من الموارد المالية في الدولة .

أما الدولة الزيدية في اليمن فقد حاولت تأصيل هذه التشريعات ، بل وأضافت إليها مصطلحات أخرى ، كالمقتالات في الأسواق ^(٤) ، والمعونة في القتال والضرائب على أرباب التجارات والصناعات ، مما جعلها في حاجة ملحة لأشخاص ذوي خبرة يقومون بهذه المهمة ، ولا ضير أن يقوم بهذه المهمة الوالي ^(٥) أو القاضي ^(٦) أو

^(١) طبقات صلحاء اليمن ، ص ٢٤ .

^(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

^(٣) نفسه ، ص ٢٣ - ٢٤ .

^(٤) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٣١٣ . الشرفي اللاكئ ، ج ٢ : ٥١٠ .

^(٥) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٤ .

^(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٧٧ أ .

المحتسب أو غيرهم ، إذا كانت المنطقة صغيرة المساحة ، بشرط أن يكون من أهل الأمانة ، والثقة ، والديانة ، حتى تتمكن الدولة من جمع أكبر قدر من هذه الحقوق ، دون الأخذ منها بغير أمر أو إذن الإمام أو من ينوب عنه .

وحتى لا يكون الحديث على وجه العموم ، نورد بعض الأمثلة التي تؤكد وجود

هذا الأمر :

أولاً : مر بنا في موضوع شراء الإمام المهدي أحمد بن الحسين لحصن براش صنعاء من الأمير الرسولي محمد بن الحسن ، أن قيمة هذا الحصن كانت خمسمائة ألف درهم مهدي وعشرون ألفاً^(١) ، ولكن الإمام لم يستطع تدبير هذا المبلغ من خزانة الدولة ، فأمر أن يوزع هذا المبلغ على الناس في المناطق التي تسيطر عليها الدولة الزيدية^(٢) ، والتي تم حصرها بصعدة ونواحيها ، ونجران والظاهر الأعلى والأسفل ، وبلاد ذيبان^(٣) ، والجوف الأعلى والأسفل ، ومأرب ، والمغرب ، والشرف الأعلى والأسفل ، والمخلاة ، ولاعة ، وحجة ، وبلاد حمير ، والطرف ، وذمار ، وصنعاء ونواحيها ، ومقرئ^(٤) ، وبلاد خولان ، وألهان^(٥) ، وكان نصيب كل فرد بالغ متمكن أربعة دراهم مهدي حتى من أموال الأيتام والأرامل ، وحكم بوجود ذلك^(٦) . فكيف سيتم جمع هذا المبلغ من هؤلاء الناس؟! وفي كل هذه المناطق المذكورة؟! الجواب ولا شك ، أن للإمام في كل هذه المناطق من يختص في القيام بمثل هذه المهام حتى يتم جمع المال وإرساله إليه في أسرع وقت ممكن ، وبصورة منتظمة ، وغير هذا الرأي يخالف المنطق والمعقول .

(١) انظر فيما سبق ، ص ٨٩ .

(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٢ ب .

(٣) ذيبان : قبيلة معروفة في بلاد أرحب وذيبيان أيضاً قرية في حوث من عزلة ذي عيد . المقحفي ، معجم ، ص ٢٦٢ .

(٤) مقرئ : هو الاسم القديم لما يدعى اليوم مخلاف المنار من آنس ومغرب عنس من بلاد نمار . الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٤ : ٧١٧ ، (حاشية المحقق) . المقحفي ، معجم ، ص ٦٥٢ .

(٥) ألهان : جبل في آنس ، نسبة إلى قبيلة الهان من ولد الهان بن مالك بن زيد بن أوسله بن ربيعة بن الخيار ... بن قحطان . المقحفي ، معجم ، ص ٥٣ .

(٦) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٣ .

ثانياً : أن الدولة الزيدية وصلت بنفوذها في بعض مراحلها إلى بعض مناطق الحجاز شمالاً ، ولا سيما في عهد الإمامين المهدي أحمد بن الحسين ، والناصر صلاح الدين محمد بن علي ، فقد ورد في سيرة الإمام المهدي أنه عيّن في بعض مناطق الحجاز الولاية ، والقضاة ^(١) ، وتأسيساً عليه يرجح أن يعين هؤلاء الأئمة جامعي الحقوق المستحقة – وغير المستحقة – للدولة في تلك المناطق أيضاً . كما جاء في السيرة ذاتها أن القاضي نجم الدين يحيى بن عطية بن أبي النجم قدم إلى الإمام المهدي من الحجاز بأموال كثيرة ^(٢) من البر ، والنذر ، والزكاة ، ونحوها ، وهذا يدل على أن هناك من يقوم بمهمة جمع هذه الأموال من تلك المناطق بمعرفة الإمام و موافقته .

وذكر يحيى بن الحسين ^(٣) ناقلاً عن السيد الهادي بن إبراهيم الوزير ما معناه ، أنه خطب للإمام الناصر صلاح الدين محمد في ينبع ^(٤) ، و تهامة ، و الشحر والصفراء ^(٥) ، وحلي ^(٦) ، والخطبة دليل البيعة والولاء مع ما يترتب على ذلك من تسليم الحقوق الواجبة – وغير الواجبة – للجهة المدان لها ، ونظراً لبعده هذه المناطق عن مركز نفوذ الدولة الزيدية ، فلا شك من وجود من يقوم بجمع الأموال لها في تلك المناطق .

ثالثاً : ورد في سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين أسماء بعض من قام بمثل هذه المهمة ، كالقاضي علي بن ناصر بن عبد الفاضل ^(٧) ، الذي تولى استخراج الأموال

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٤ أ .

(٢) المصدر نفسه ، ق ٥١ أ .

(٣) غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٧ .

(٤) ينبع : اسم لمدينتين في أرض الحجاز ، الأولى تسمى ينبع النخل أو النخيل ، لكثرة النخيل فيها ، وهي تقع إلى الغرب من المدينة المنورة ، والثانية تسمى ينبع البحر ، لأنها تقع على ساحل البحر الأحمر إلى الغرب من ينبع النخيل . انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٩٧ . محمد سيد نصر وآخرون ، أطلس العالم ، مكتبة لبنان ، بيروت ، د . ت ، ص ١٩ .

(٥) الصفراء : قرية فوق ينبع مما يلي المدينة ، تقع في وادي الصفراء ، وهو واد كثير النخيل والزراعة . انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٨٦ ، ٣٣٧ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٧ ، (حاشية المحقق) .

(٦) حلي : وادي مشهور من أودية تهامة عسير وفي طرفه مدينة تنسب إليه تعرف بحلي بن يعقوب التي تقع على ساحل البحر الأحمر . انظر : الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ٤٤ ، (حاشية المحقق) . الأكوغ : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ١٠٣ .

(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٧٧ أ .

وجمعها من عوام الباطنية في بلاد مسور كعقوبة لهم على مخالفة الإمام ، والشريف محمد بن مسلم بن هاشم بن حمزة بن مظفر العلوي ^(١) ، الذي كانت مهمته جمع الحقوق الواجبة للدولة في حوث وجهاتها ، وذكر الوجيه ^(٢) في ترجمته للهادي بن يحيى بن الحسين بن علي ، أنه كان يجمع الأموال من بلاد الأهنوم و خولان للإمام المهدي علي بن محمد .

١١ . الجيش :

ينقسم الجيش في الدولة الزيدية من الناحية العسكرية والإدارية على سبعة أقسام :

أ . الفرسان :

هم الأكثر حظوة في الجيش ، والأكثر تأثيراً في ميدان المعارك ، والأعلى رتبة بعد الحرس الخاص بالإمام .

ب . الرماة :

أما الرماة بأنواعهم المختلفة ، كرماة الرماح ، والحراب ، والسهام ، وغيرهم ، فقد كانوا يشكلون جزء مهماً من الجيش في الدولة الزيدية ، وإليهم أشار السيد شرف الدين ^(٣) ، برماة القسي الفارسية ، حين تحدث عن تعدد الجيش في عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، ومقدار ما في عهده من الحصون .

ج . المشاة :

هم حماة الحصون ، وأصحاب الكمان ، وحراس الطرقات ، إلا أنهم يشتركون في المعارك أيضاً كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، ويمثلون الأغلبية في الجيش .

د . الحرس الخاص :

هو من الأقسام المستحدثة في الدولة الزيدية ، ولم يكن معروفاً قبل المدة التي نحن بصدد دراستها ، ولأنه كذلك ، تعرض بعض الأئمة للانتقادات بسببه ، بحجة أنه يمنع الناس من الاقتراب من الإمام والتسليم عليه ، ويستعملون في ذلك الشدة والغلظة ^(٤) ، فرد على هذه الاعتراضات السيد الهادي بن إبراهيم الوزير نيابة عن

^(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٠٩ ب - ١١٠ أ .

^(٢) أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٧٥ .

^(٣) سيرة المهدي ، ق ١١٨ ب .

^(٤) كاشفة الغمة ، ق ٢٥٨ .

الإمام الناصر صلاح الدين محمد ، بالاستدلال أن رسول الله (ﷺ) وسلم كان له من يمنعون الناس عنه عند التدافع والتزاحم ، خوفاً عليه من الإصابة بمكروه (١) ونحوه ، ولذلك لا ضير من أن يتخذ الإمام من يحمونه من الناس ، أو ممن يريد أن يلحق به سوء ، ولا سيما في خضم الصراع مع الدولة الرسولية التي تضررت كثيراً بوصوله إلى الحكم ، ومع أن السيد الهادي قد رد على هذا الشأن ، إلا أنه يجب التنويه إلى أن أصحاب الرسول (ﷺ) لم يكونوا حراساً بالصفة الرسمية التي كان عليها حراس الإمام الناصر ، وإنما كانوا يقومون بذلك تطوعاً من تلقاء أنفسهم ، ولم يأمرهم الرسول (ﷺ) بذلك ، أما حراس الإمام الناصر فكانوا ممن يتقاضون رواتب نظير ما يقومون به ، بل إن بعضهم كان يلبس الحرير (٢) ، وهذا أن دل على شيء ، فإنما يدل على المكانة الرفيعة التي كانت لهؤلاء العسكر ، الذين يُعدون النخبة في الجيش الزيدي .

هـ . الجواسيس والعيون (٣) :

أدركت الدولة الزيدية منذ ابتداء عهدها في اليمن الأهمية العسكرية الكبيرة للجواسيس والعيون في الحروب والصراعات ، فعملت على الاهتمام بهذا القسم من الجيش ، وتطويره ، واستغلاله في الصراع مع الآخرين .

وتزخر المصادر التاريخية بذكر هؤلاء الجواسيس والعيون — دون تعيينهم — في مختلف المراحل ، ولمعظم الأطراف المتصارعة ، فهذا السيد شرف الدين (٤) يذكر أن بعض الجواسيس من أهل صعدة أرسلوا إلى الأشراف الحمزيين أن المدينة قاب قوسين أو أدنى من السقوط ، بسبب اضطراب أهلها ، ومخالفتهم للإمام المهدي ، وهذا ما أدى فعلاً إلى سقوط المدينة بأيديهم . وهذا يحيى بن الحسين يؤكد وجود الجواسيس في جيش الإمام الناصر صلاح الدين حين قال : " ولم يبرح (الإمام الناصر) يرسل

(١) كاشفة الغمة ، ق ٢٦٢ .

(٢) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٥١٠ .

(٣) الجاسوس : لغة مأخوذ من قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ... " . الحجرات : الآية : ١٢ . ويعني اصطلاحاً استراق السمع ، ونقل الأخبار من شخص إلى آخر ، ومن جماعة إلى أخرى ، بدون علم المتجسس عليه ، والهدف من ذلك إلحاق الضرر به ، أو الحذر منه . انظر : الإمام عز الدين ، العناية التامة ، ق ٤٣ .

(٤) سيرة المهدي ، ق ٩١ ب .

العيون والجواسيس إلى محطة ابن حنجر حتى أتوه بخبر افتراق عسكره " (١) ، وفي موضع آخر يقول : " وكان الإمامان (المهدي أحمد بن يحيى المرتضى والهادي علي بن المؤيد) قد جعلاً عيوناً يأتون إليهما بالأخبار عن علي بن صلاح الدين ، ومن يقدم من جهته " (٢) .

ولعل أهم الأدوار التي قام بها الجواسيس في تاريخ الدولة الزيدية ، ما قام به شيخ معبر حمرة بن عمر حين أرسل إلى الإمام المنصور بالله علي بن صلاح بأن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى موجود في معبر في قلة من الرجال (٣) ، وهو ما أدى إلى أسر الإمام المهدي علي يد عسكر الإمام المنصور بالله علي بن صلاح . وبالمقابل نستطيع القول إن الصراع الذي كان بين الإمام المنصور بالله علي بن صلاح والمهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، حُسم بسبب الجواسيس ، وإن إخفاق جواسيس الإمام المهدي بعودتهم إلى معبر في الليلة التي قدم فيها عسكر الإمام المنصور ، هو الذي أدى إلى أسره بالدرجة الأولى .

وبناءً على ما تقدم ، يمكننا القول أن مهام الجاسوس هي :

- استبراء الطرقات التي يسلكها الإمام في سفره ، وفي حضره ، في سلمه ، وفي حربه .
- التوغل في صفوف الأعداء ، وكشف أسرارهم ، وإرسالها إلى الجهة المعنية .
- الكشف عن الجواسيس من الخصوم المحتملين في صفوف الدولة ، والتخلص منهم .
- بث الدسائس والمكائد في صفوف الأعداء .

و. أصحاب الطبخانة والأعلام :

هو أيضاً من الأقسام المستحدثة في الدولة الزيدية ، والتي لم تكن معروفة قبل عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، ومما لا شك فيه أنه استمدتها من الرسوليين ، بعد أن رأى مالها من تأثير نفسي في نفوس العسكر والمقاتلين في أثناء

(١) غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٢٥ .

(٢) غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٥٥ .

(٣) نظر فيما سبق ، ص ١٦٦ .

الحرب خاصة ، وفي أوقات السلم عموماً ، ولا سيما خلال الاستعراضات العسكرية وعند قدوم الزوار .

وتُسند إلى أصحاب هذا القسم من العسكر مهمة ضرب الطبول التي تهتز لها الأرض خلال استعراض العسكر ، أو في أثناء التوجه إلى القتال ، ضرباً يتناسب ويتناسب مع سيرهم وخطواتهم ، ويثير في نفوسهم الحماس والإقدام ، ويزيل منها مهابة الأعداء ، ويبث في قلوب الأعداء الخوف والرعب ، ولعل ذلك ما أشار إليه الشيخ علوان الجحدري حين قال لقومه بعد أن دب فيهم الذعر والخوف ، نظراً لسماعهم طبليخة العسكر الرسولي : " يامزحج لا تفزعوا فإنما هي جلود بقر " (١) .

وإدراكاً من الإمام الناصر صلاح الدين لأهمية هذا الأمر ، سعى إلى تطويره إلى الحد الذي جعله عرضة للانتقادات من بعض العلماء والفقهاء ، الذين رأوا في وجود المزمارة في الطبليخة أمراً منافياً لأحكام الشريعة الإسلامية (٢) ، لأنه من المعازف المنهي عنها ، إلا أن الإمام الناصر أصر على موقفه وأبقاه في الطبليخة . أما رفع الأعلام فيعبر بها ، وبأحمال الطبليخة عن الأهمية السياسية والعسكرية للشخص المرفوعة له .

ز . المتطوعون (٣) :

ويتكون هذا القسم من أقسام الجيش الخمسة — سالف الذكر — فقد يكون المتطوع فارساً ، أو راجلاً ، أو حارساً ، أو جاسوساً ، أو حاملاً للطبليخة أو العلم ، إلا أن ما يميزه عنهم ، أنه يعمل من دون راتب معين (٤) ، بخلاف أصحاب الجرايا والديوان

(١) الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٣٩ .

(٢) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٣٢٦ .

(٣) الأصل في التطوع ، قول الله تعالى : " ... فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ... " . البقرة : الآية : ١٨٤ .

وقوله سبحانه : " الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ... سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ " . التوبة : الآية : ٧٩ ، ومع أن هاتين الآيتين ، نزلتان في الصيام و الصدقة ، إلا أن التطوع

يشمل كل عمل فيه خير ، ولا يبتغي صاحبه أجراً من أحد عليه ، بل يريد المثوبة من الله .

(٤) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٥٩١ .

والرتب الذين خصص لهم راتب شهري ^(١) نظير أعمالهم ، ودافع التطوع في هذه الحالة أحد أمرين :

إما أن يتطوع المتطوع في الجيش الزيدي جهاداً في سبيل الله — حسب اعتقاده — إيماناً منه بأن الرسوليين وحلفاءهم كفار يجب قتالهم والقضاء عليهم . والأمر الآخر وهو المعتاد بين المتطوعين ، أن ينخرط المتطوع في الجيش الزيدي رغبة في الغنائم بالدرجة الأولى وطمعاً في العطايا والهيئات ، مع التأكيد على أن الدولة غير ملزمة له بأي التزامات مادية ، والأمر برمته يعود إلى الحروب ونتائجها .

أما بالنسبة لعدد الجيش في الدولة الزيدية فأمر لا يمكن التكهّن به ، ليس لكثرتّه ، وإنما لعدة أسباب أهمها :

أ — أن هذا الجيش يتكون من جموع القبائل الموالية للدولة الزيدية ، وأعداد هذه الجموع متفاوتة وغير ثابتة ، وتتغير من حين لآخر نظراً لعدة عوامل أهمها :

- أن هذه القبائل اتخذت هذا الجيش مورداً اقتصادياً ، ومصدراً للرزق تنقّت منه عند حلول الجذب والجفاف وانعدام الزراعة ، وذلك عبر ما يوفره ديوان الجند من جرايا ورواتب ، إضافة إلى ما توفره الحروب من غنائم ، ولا سيما فيما يتعلق بالمتطوعين ، وفي هذه المدة تكون أعداد هذه الجموع من القبائل كبيرة في الجيش . فإذا حلت الأمطار ، وكثر الزرع ، تفرقت هذه الجموع كل إلى جهته لممارسة الزراعة التي توفر لهم ما يحتاجون إليه دون تعريض أنفسهم للخطر والهلاك بسبب الحروب والقتال ، وعندئذ تقل أعداد هذه الجموع ، وعليه لا يمكن الاعتماد على تعدادها في الجيش ، نظراً لهذا الأمر .
- أن بعض هذه القبائل كثيرة التذبذب في مواقفها وفي ولاءاتها ، فتارة تكون في صف الدولة الرسولية ، وأخرى في صف الدولة الزيدية ، بل إن بعضها يغير ولاءه في أتون المعارك ^(٢) ، ولذلك لا يمكن الاعتماد على هذه القبائل عند تعداد الجيش في الدولة الزيدية .

ب — اعتماد الجيش في الدولة الزيدية في بعض مراحلها على فرق متمردة من الجيش الرسولي ، انضمت إليه بحثاً عن الأمان والحماية من الدولة الرسولية ، وبمجرد زوال

(١) انظر فيما سيأتي ، ص ٣١٠ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٤٠ .

أسباب التمرد والخلاف ، تعود هذه الفرق إلى أحضان دولتها ، تاركة الدولة الزيدية وجيشها — وإن كان هناك بعض الاستثناء في ذلك — وقد سبق ومر معنا كيف تمكن الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين من السيطرة على صنعاء في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م ، بفضل المماليك الأسيديّة المخالفين للملك المظفر ^(١) ، وبمجرد وفاة الأمير علم الدين الشعبي الذي كان السبب الرئيس في خلافهم مع الملك المظفر ، عاد معظم هؤلاء المماليك إلى خدمة الدولة الرسولية ، وكذلك كان الأمر مع الأكراد الذين خالفوا الملك المؤيد في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م ^(٢) ، بسبب الأمير ظغريل وانضموا إلى الإمام المهدي محمد بن المطهر ، وبعد مقتل الأمير ظغريل ، وزوال أسباب الخلاف مع الملك المؤيد ، عاد هؤلاء الأكراد إلى خدمة دولتهم الرسولية .

ج — أن الأشراف الزيديين أنفسهم انقسموا على قسمين ، فمنهم من أزر الدولة الزيدية وناصرها ، ومنهم من تمرد على الأئمة وخالفهم ، وقد سبق وأشرنا إلى الخلاف الذي خاضه الأشراف الحمزيون مع عدد من الأئمة .

وعلى كل حال ، يمكننا من خلال بعض النصوص التي وردت في سير بعض الأئمة أن نقول : أن عدد الفرسان في جيش الدولة الزيدية وصل — أحياناً — إلى ألف وأربعمائة فارس ^(٣) ، فضلاً عن الآلاف من المشاة ، وهو عدد كبير بالمقارنة مع الدولة الزيدية في عهد الإمام المنصور عبد الله بن حمزة ، الذي لم يتجاوز فرسانه مائتي فارس ^(٤) .

لقد كان للخيل في جيش الدولة الزيدية أهمية كبيرة ، ولاسيما في المناطق الجبلية الوعرة التي يصعب فيها التنقل من مكان إلى آخر راجلاً ، ولذلك كانت أثمانها مرتفعة في الأحوال العادية ، ويرتفع هذا الثمن في أثناء الحروب والصراعات التي تستهلك فيها هذه الخيول ، وتصبح الحاجة إليها أكثر من أي وقت آخر .

(١) نظر فيما سبق ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) نظر فيما سبق ، ص ١٥٠ .

(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٠ أ .

(٤) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٢٤٤ . الميسري ، الإمام المنصور بالله عبد الله بن

حمزة ، ص ١١٦ .

ويجدر بنا أن نشير في هذا السياق إلى اهتمام الدولة الزيدية بالخيل ، و حرصها على أن تكون لابسة للدروع ^(١) ، التي تحميها من الإصابة في المعارك ، شأنها في ذلك شأن الكثير من الفرسان الذي يرتدون مثل هذه الدروع ، ومما لا شك فيه أن الدولة الزيدية استلهمت هذا الأمر من الأيوبيين الذين أدخلوه إلى اليمن مع فتحهم لها ، وإن لم تساعد الإمكانيات المادية على توافر مثل هذه الدروع لكل الخيول . ومع ذلك التطور الكبير الذي شهدته الدولة الزيدية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، بلغ الاهتمام بالخيل أقصى درجاته ، مما جعل هذا الإمام عرضة للانتقادات والاعتراضات ، التي كان في مقدمتها استكثاره للخيل دون الحاجة لها ، وتلبيسها الحرير ، وتقليدها قلاند من الفضة و الذهب ^(٢) ، فردّ السيد الهادي بن إبراهيم على استكثار الخيل ، بأن ذلك يدخل في قول الله تعالى : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لِأَنْ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ " ^(٣) . والدليل من السنة ، أن الرسول (ﷺ) كانت له أفراس كثيرة ولم يعب عليه أحد ذلك ^(٤) .

أما تلبيس الحرير للخيل وتقليدها قلاند الذهب والفضة ، فأمر لا شيء فيه ؛ لأن الخيل خارجة عن الحديث الذي حرم فيه الرسول (ﷺ) لبس الحرير والذهب ، فالمقصود من هذا الحديث ، الذكور من المسلمين ، ولم يذكر الرسول (ﷺ) الخيل في ذلك ^(٥) .

ومن المسائل التي تدل على الأهمية التي كانت للخيل في الدولة الزيدية ما ورد على لسان الإمام الناصر صلاح الدين في معرض جوابه على القاضي عبد الله بن حسن الدواري ، وهو يعلل الأزمة المالية التي يعاني منها ، حين قال : " ... وقد وقع مرض في خيل — العسكر — فمات منها إلى الآن قدر مائة أو يزيد ... — وقلّت —

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٠ أ . يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ٢٠٣ .

(٢) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٢٧٥ — ٢٧٧ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٥١١ .

(٣) الأنفال : الآية : ٦٠ .

(٤) كاشفة الغمة ، ق ٢٧٦ .

(٥) المصدر نفسه ، ق ٢٧٧ .

أثمان الخيل إلى مائة أوقية^(١) ، والفرس الجيد إلى ثلاثمائة أوقية ... " (٢) ، وليس لهذا النص إلا دلالة واحدة وهي أن موت هذا العدد من الخيول كان بمثابة خسارة اقتصادية كبيرة للدولة الزيدية ، التي كانت — على ما يبدو — تعدها مورداً من مواردها المالية ، وإلا ما وجه خسارة الإمام الناصر في رخص ثمن الخيل ، إن لم تكن كذلك بالنسبة إليه .

أما مهام الجيش في الدولة الزيدية فتتجدد — إلى جانب مقاتلة الأعداء والدفاع عن الأرض — في المحافظة على الأمن والمصالح العامة للناس ، ومحاربة أهل الفساد وقطاع الطرق ، وفي تنفيذ كل ما يصدر عن الإمام ، أو الوالي ، أو القاضي ، أو المحتسب ، فكان بمثابة الأداة التنفيذية لهذه القرارات ، والمهمة الأبرز له ، هي إلزام الناس دفع الحقوق المستحقة للدولة ، ومعاقبة كل من يمتنع عن ذلك .

١٣ . الاستحكامات الدفاعية في الدولة الزيدية :

تشمل العمارة العسكرية في الدولة الزيدية العديد من العناصر الدفاعية التي اعتمدت عليها الدولة في الدفاع عن أراضيها ومناطق نفوذها ، وأهم هذه العناصر :

أ . المداخل :

تضم المدن والحصون في الدولة الزيدية العديد من المداخل الرئيسية والفرعية ، وتكون هذه المداخل موزعة توزيعاً هندسياً متناسقاً يُنظم ويُسهل عمليات الدخول والخروج من الحصن أو المدينة ، ولا سيما في أثناء الحرب والحصار .

(١) الأوقية : أربعون درهماً بقلعة الإسلام ، والقفلة : درهم تام الوزن لا نقص فيه ولا زيف . انظر : الكرملی : آنتاس ماری ، النقود العربية وعلم النميات — رسائل في النقود للبلاذني والمقرئزي والذهبي ، مطبعة إلياس الحديثة ، القاهرة ، ١٩٣٩ م ، ص ١٠ ، ١٥١ . تول : كرستوفر ، مصطلحات عربية في المعايير والأوزان من كتاب الجوهريتين العتيقتين للهمداني ، ضمن كتاب : " أوراق في تاريخ اليمن وأثاره — بحوث ومقالات " ، ترجمة : يوسف محمد عبد الله ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٤١٧ . وجاء عند الخزرجي أن الأوقية عشر قفال بالختم المصري . انظر العقود ، ج ٣ : ٣٠٦ .

(٢) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٥ .

ومهما يكن من أمر القوة والمنعة الكبيرة التي تتصف بها الأبواب الموضوعة على هذه المداخل ^(١) ، والتي يحمل كلُّ منها اسماً يختص به ^(٢) ، فإن أهم ما لفت نظرنا في هذه الاستحكامات ما يعرف في العمارة الإسلامية بالمدخل المنكسر أو المزور ، أو المنحني ، أو يو العطف ، أو ذي المرفق ^(٣) .

وسمي هذا المدخل بهذه الأسماء ؛ لأن تصميمه يجعل الداخل إليه ينعطف يساراً أو يميناً مرة واحدة أو أكثر ليصل إلى داخل المدينة أو الحصن ^(٤) . وهذا النوع من المداخل وجدناه في حصن ثلا الذي يضطر الراغب في دخوله أو اقتحامه إلى المرور بثلاثة مداخل كلها منكسرة ، والأخيران ^(٥) يضيقان كلما اقتربت من الحصن ، والسبب في ذلك — كما نظن — هو منع الصعود إلى الحصن بأعداد كبيرة ، فيضطر العدو إلى التقدم بأعداد قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وبالتالي يسهل اصطيداهم والتخلص منهم الواحد تلو الآخر ، وخاصة عند انعطافهم للدخول ، وهذا يجعل من عملية الاستيلاء على الحصن عملاً صعباً إن لم نقل مستحيلاً . ويبدو أن هذا الأمر هو ما مكن أهل ثلا من الصمود في وجه الرسوليين طيلة مدة حكمهم لليمن الأعلى ، بما فيها مدة حكم الملك المظفر أقوى ملوكهم .

كذلك من الاستحكامات الدفاعية التي تتعلق بالمدخل في الدولة الزيدية ما يعرف أيضاً بالمدخل الموروب ^(٦) ، الذي يمكن عدّه حلقة الوصل بين المدخل المباشر والمدخل المنكسر ، إذ أن فتحة الباب في الأصل مباشرة ^(٧) ، ولكن البرجين اللذين يكتنفان المدخل ^(٨) يتقدمانه ، وفي الوقت ذاته يبرزان عنه ، وقد نتج عن هذا البروز

(١) نظر لوحة رقم (٢٠) .

(٢) توجد في مدينة ثلا — على سبيل التمثيل — أربعة أبواب أبرزها بوابة الأمير محمد بن الهادي أو كما يسميها الأهالي بوابة ابن الهادي ، وبوابة المحاميت .

(٣) الحداد : عبد الله عبد السلام صالح ، الاستحكامات الحربية بمدينة زبيد منذ نشأتها وحتى نهاية الدولة الطاهرية (٢٠٤ — ٩٢٣ هـ / ٨١٩ — ١٥١٧ م) دراسة أثرية ومعمارية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٣٠٠ .

(٤) المرجع نفسه والصفحة .

(٥) نظر لوحات رقم (٢) ، (٢١) .

(٦) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٣٣ .

(٧) نظر لوحة رقم (٣) .

(٨) نظر لوحة رقم (٤) .

نطاق مكشوف ، ولأن البرج الأيمن يبرز قليلاً عن مستوى بروز البرج الأيسر ، وفي الوقت نفسه يميل نحوه ، فقد اختفى النطاق والباب خلف البرجين ، مما يضطر المهاجم أو الداخل إلى النطاق الذي يتقدم الباب إلى أن يميل يميناً وشمالاً ، وهذا الانحراف أعطى لهذا النوع من المداخل درجة دفاعية كبيرة تفوق درجة المدخل المباشر ، ولكنها في الوقت نفسه أقل من درجة المدخل المنكسر ^(١) ، ولا سيما إذا تعددت انكسارات هذا الأخير ، ولكي تعوض الدولة الزيدية هذا النقص في الدرجة الدفاعية – فيما يتعلق بالمدخل الموروب – قامت بتزويد الأبراج بعناصر دفاعية مكملة لها ، وأهمها السقاطات والمزاغل (المرامي) ^(٢) التي تجعل من السهولة إصابة المهاجم من الجانبين ، ومن الأمام ، والخلف ، ومن الأعلى . فتصبح منطقة النطاق بين البرجين كالكمين المنصوب للأعداء .

وهذا النوع من المداخل وجدنا نموذجاً مثالياً له في بوابة الأمير محمد بن الهادي ^(٣) في مدينة ثلا ^(٤) . ويبدو أن الهدف الرئيس من هذا المدخل هو منع محاولة العدو تحطيم البوابة الخشبية للحصن أو المدينة ، وبالتالي تصعب عملية الدخول إليهما ؛ لأن المدخل لو كان مباشراً لكانت عملية تحطيم البوابة أسهل من ذلك .

كما كان كل مدخل من هذه المداخل يغلق بباب خشبي كبير ^(٥) ذي مصراعين يُدعمان من الداخل بكتلة خشبية أو أكثر تمتد أفقياً خلف الباب بحيث يُغيب طرفها داخل فتحات في عضادتي الباب ^(٦) .

(١) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٣٤ .

(٢) لظر لوحة رقم (٥) .

(٣) ينسب هذا الأمير إلى الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ، توفي في سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٦ م ، ودفن في مدينة ثلا .

(٤) لظر لوحة رقم (٤) .

(٥) لظر لوحة رقم (٣) .

(٦) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٣٥ .

ب . الأبراج :

البرج بالضم يعني الركن أو الحصن ^(١) ، وبرج الحصن ركنه ، وجمعه بروج أو أبراج ^(٢) ، والبرج كل ظاهر أو مرتفع ، ومنه بروج سور المدينة أو الحصن ، وسميت البروج بروجاً لظهورها وبيانها وارتفاعها ^(٣) ، وبروج سور المدينة والحصن هي بيوت تبنى على السور يتجمع فيها الجنود للدفاع عن السور ، وتتوزع هذه الأبراج على سور المدينة أو الحصن وتشكل جزءاً منه ، وتكون المسافات فيما بينها متناسقة بحيث يرى من كل برج ، البرج الذي يليه يميناً وشمالاً ، وتسهل مشاهدة أي إشارة أو علامة صادرة عن هذه الأبراج ، وخلال زيارتنا الميدانية لبعض المواقع العسكرية في الدولة الزيدية أمكننا تمييز ثلاثة أنواع من هذه البروج :

• الأبراج المستطيلة ^(٤) : وتتخذ هذا الشكل طويلاً لرؤية أبعد مسافة يمكن

الوصول إليها بالنظر من أعلى نقطة في الحصن ، وعادة ما تكون هذه الأبراج مقامة على أعلى قمة من قمم الجبل المقام عليه الحصن تحديداً ، وعددها في العادة لا يزيد عن واحد أو اثنين ، بحسب مساحة الحصن واتساعه ، وتكون وظيفتها الرئيسية هي المراقبة فقط .

• الأبراج الدائرية ^(٥) : وتحيط بالحصن والمدينة معاً ، وهي جزء من

السور المقام عليهما ، ويعول عليها كثيراً في صد هجمات العدو ومحاولاته تسلق السور أو اختراقه ، ونظراً لارتفاعها ، وتحصيناتها ، وإشرافها على مساحات مفتوحة ، يتمكن المتمركزون عليها من الدفاع عن الحصن أو المدينة بكل يسر وسهولة ، وهذا ما يفسر صمود العديد من هذه المدن والحصون لشهور عديدة ، بل لسنوات ، ولذلك يلجأ الأعداء في مثل هذه

^(١) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مادة : برج .

^(٢) الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، ترتيب مختار الصحاح ، تح : شهاب الدين أبو عمر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، مادة : برج .

^(٣) عبده علي عبد الله ، الدر النضيد في تحديد معالم وأثار مدينة زبيد ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٤٨٥ .

^(٤) نظر لوحة رقم (١٩) .

^(٥) نظر لوحات رقم (٥) ، (٦) .

الأوضاع إلى مداومة الحصار على هذه المدن والحصون لعلهم ينجحون به فيما عجزوا عنه بالقوة العسكرية .

• **الأبراج المربعة (الثكنات) (١)** : وتكون وظيفتها هي الوظيفة ذاتها التي تقوم بها الأبراج الدائرية ، إلا أن الفرق بينهما يكمن في أن الأبراج المربعة تبنى على هيئة غرف للسكن الدائم ، ويتم إنشاؤها مع كل زاوية قائمة من زوايا سور المدينة أو الحصن ، وتستخدم بشكل رئيس أيضاً كنقطة مراقبة دائمة يتم من خلالها الإبلاغ عن أي تحركات مريبة في الجهة التي تشرف عليها هذه الأبراج ، ليتخذ أصحاب المزاغل والأبراج الأخرى مواقعهم ، ويستعدوا لخوض المعركة في الجهة المستهدفة .

ج . الأسوار (٢) :

يعد السور الاستحكام الحربي الأول عند الدفاع عن المدن والحصون ، ولأهمية هذا الأمر تُسور بعض المدن الاستراتيجية في اليمن بأكثر من سور . ومع أننا لم نطلع على بعض المدن في الدولة الزيدية التي حظيت بمثل هذا الأمر ، إلا أن الكثير من المدن في مناطق أخرى شهدت ذلك ، نذكر منها على سبيل التمثيل مدينة زبيد (٣) . ونظراً للطبيعة الجبلية للمناطق التي كانت خاضعة للدولة الزيدية ، فإن الغالب على أسوارها البناء بالحجارة الصلبة (٤) ، وبارتفاع عالٍ يصعب معه التسلق . ولأن معظم هذه المدن كانت تقام عند سفوح الجبال أو على مرتفعاتها ، كانت أسوارها تشكل

(١) الثكنة في اللغة هي مركز الأجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم ، وتتكون من حجرة صغيرة تعرف باسم حجرة الرماية ، وهي مخصصة مع الأبراج لإقامة الجند ، وفي الوقت ذاته للدفاع عن الحصن أو المدينة وتحتوي كل حجرة على فتحات خلفية للتهوية ، وفتحة مزغل أمامي ، بالإضافة إلى حمام للجند . انظر : الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ . وانظر لوحات رقم (٧) ، (٨) .
وفضلاً عن هذه الأبراج هناك نوع رابع منها وهي الأبراج نصف الدائرية أو الأسطوانية التي وجدناها في سور قصر صنعاء (قصر السلاح) ، إلا أننا غير متأكدين من تاريخ إنشاء هذه الأبراج وإن كان الغالب عليها أنها تعود لفترة موضوع البحث . انظر لوحة رقم (١٧) .

(٢) انظر لوحات رقم (٨) ، (٩) ، (١٥) .

(٣) عبده علي عبد الله ، الدر النضيد ، ص ٤٨٣ .

(٤) فضلاً عن الأحجار استعمل اللبن في بناء أسوار المدن في الدولة الزيدية ، ولنا في صعدة مثال على ذلك ، انظر : الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٥٠ ، ٥٥٦ ، شكل رقم (١٣٥) .

جزءاً لا يتجزأ من أسوار الحصون المقامة على قمم الجبال ، وقد تكون في بعض الأحيان وحدة منفصلة إذا كانت بعيدة عن هذه الجبال .

د. المزاغل (١) :

المزغل بهذا اللفظ لم يرد له تعريف في اللغة العربية ، لكنه يرد بلفظ المرامي (٢) . والمزاغل من الناحية المعمارية هي فتحة لرمي السهام على هيئة شق مربع أو مستطيل رأسي في وسط السور – ارتفاعاً – ضيق من الخارج ومنتسع من الداخل لتسهيل حركة المدافعين (٣) ، وتنتشر هذه المزاغل بمسافات متفاوتة على سور المدينة أو الحصن ، وتقوم بمهمة الدفاع عن السور والمدينة و الحصن في الجهات التي تبعد عنها الأبراج ، فهي بمثابة أبراج مصغرة حجماً ونوعاً ، لا يتم التمرکز فيها ولا تستعمل إلا في أوقات الحروب وأثناء المعارك ، ووظيفتها الحربية لا تقل أهمية عن تلك التي تقوم بها الأبراج ، إلا أنها لا تستخدم للمراقبة نظراً لقلّة ارتفاعها وصعوبة البقاء فيها لفترات طويلة مقارنة بالأبراج . وقد وجدنا هذا النوع من الاستحكامات الدفاعية في المدن والحصون التي كانت تخضع للدولة الزيدية .

د. السقاطات (٤) :

هي فتحات بأعلى الأسوار أو المداخل على وجه التحديد ، يستعملها المدافعون في إلقاء المواد الحارقة ، والأحجار ، والسهام ، على كل من يحاول اقتحام الحصن أو المدينة (٥) ، وتختلف عن المزاغل في ارتفاعها ، واتساعها ، وبروزها عن السور ، ويمكننا – إن صح التشبيه – أن نشبهها بالمشربيات في المنازل والعمائر المنتشرة في صنعاء القديمة (٦) ، مع الأخذ بعين الاعتبار الفرق في الوظيفة ، والحجم ، والمساحة . أما عن شكل هذه السقاطات فقد تكون نصف دائرية ، وقد تكون مستطيلة ، أو مربعة ، أو ثلاثية الأضلاع (٧) ، بحسب الحاجة الهندسية والموقع المقام عليه .

(١) نظر لوحة رقم (٩) .

(٢) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٥٧ .

(٣) المرجع نفسه والصفحة .

(٤) نظر لوحات رقم (٥) ، (٦) .

(٥) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٦٢ .

(٦) نظر لوحة رقم (١٠) .

(٧) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٦٢ .

ومن الجدير ذكره هنا ، تداخل الاستحكامات الدفاعية المستعملة في المدن والحصون مع بعضها البعض ، فقد يكون — على سبيل التمثيل — المزغل جزءاً من تركيبية البرج (١) ، وقد تكون السقطة كذلك (٢) ، ويقابلها أن البرج ذاته جزء لا يتجزأ عن تركيبية السور (٣) ، كما هو الحال مع الأبواب والمداخل ، ولذلك فعملية التفريق بينهما تكون بانفراد إحداهما عن الآخر بميزة تختص به ولا توجد عند غيره .

و . الأحواض المائية (٤) :

من الأمور التي كانت تثير الاستغراب ، صمود بعض الحصون في أعالي الجبال لعدة شهور — إن لم نقل سنوات — وكان مصدر هذا الاستغراب ، الكم المهول من الاستعداد الذي يقوم بها أهل هذه الحصون لمواجهة الحصار . ومع زيارتنا الميدانية لحصن ثلا ، زال هذا الاستغراب ، وعلمنا ما جهلنا . ففي هذه الحصون التي تقام على رؤوس الجبال ينحت الصخر ويفتت ، ليتم إنشاء أحواض مائية كبيرة جداً (٥) تمتلئ بالمياه تلقائياً عند نزول الأمطار ، وما يكاد الماء ينفذ منها حتى تمتلئ مرة أخرى .

وإذا كان الإنسان قد فكر منذ القدم في الاستفادة من مياه الأمطار بإقامة السدود والخزانات المائية على سطح الأرض ، فإن إقامة مثل هذه الأحواض على قمم الجبال أمر يثير الدهشة ، ويوجب التقدير والاحترام لكل من قام بهذا العمل ، مع التأكيد على كثرة مثل هذه الأحواض (٦) ، واختلاف إجمالها ، وتفرق مواقعها ، والطرز المعماري لها ، الذي يجعل من أمر الاستفادة من مياهها أمراً في غاية السهولة ، نظراً لوجود الدرج المنحوت في الصخر نزولاً إلى قاعها .

كما يجب علينا هنا ، التنويه إلى أمرين وهما : إن هذه الأحواض ليست جديدة على الدولة الزيدية ، فقد تم التعرف على أحواض مماثلة لما وجدنا في حصن ثلا — مع الفارق في المساحة والارتفاع — في حصن ظفار نيبين (٧) ، الذي أنشأه الإمام

(١) انظر لوحات رقم (٥) ، (٦) .

(٢) انظر لوحات رقم (٥) ، (٦) .

(٣) انظر لوحات رقم (٦) ، (٧) ، (٨) .

(٤) انظر لوحة رقم (١١) .

(٥) انظر لوحة رقم (١١) .

(٦) انظر لوحات رقم (١٢) ، (١٣) ، (١٦) .

(٧) انظر : الميسري ، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ص ٢١٥ ، لوحة رقم (١٤) .

المنصور بالله عبد الله بن حمزة في مستهل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، ويبدو أن الحاجة المتزايدة للمياه هي التي أدت إلى الزيادة في عمق هذه الأحواض ومساحتها ، وهذا يدفعنا إلى القول إن هذه الأحواض الكبيرة لم تنشأ على مرحلة واحدة وبالصورة التي رأيناها ، وإنما على عدة مراحل وفي فترات زمنية متفاوتة . والأمر الثاني أن وجود هذه الأحواض لم يقتصر على الحصون فقط ، وإنما تعداه إلى بعض المدن التي تفتقر للآبار والمياه الجوفية وتعاني مشكلات عدة بسبب النقص في المياه .

ز. الخنادق :

الخندق في اللغة هو الحفر حول أسوار المدن ^(١) ، ومعنى خندق حوله ، أي حفر خندقاً ^(٢) ، وقد استخدم الخندق عنصراً دفاعياً منذ أقدم العصور ، وكان أول من استخدمه في التاريخ الإسلامي الرسول (ﷺ) ، عندما أحاط جزءاً من المدينة بخندق عمقه عشرون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ^(٣) ، بإشارة من الصحابي الجليل سلمان الفارسي ، ثم شاع استعمال الخندق كتحصين دفاعي في بقية أجزاء الدولة الإسلامية فيما بعد .

والدولة الزيدية في اليمن كانت من ضمن من استعمل هذا الاستحكام ضد أعدائها ، فقد ورد في السيرة المنصورية أن الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة حفر خندقاً ما بين حصن ظفار والأكمة المتصلة به ^(٤) . ومع أننا لم نستدل على ما يؤكد استخدام هذا الاستحكام في موضوع بحثنا ، إلا أننا لا نستبعد هذا الأمر ، بل إننا نؤكد عليها وإن كان بحدود ضيقة ، والسبب في ذلك الطبيعة الجبلية الوعرة للمناطق التابعة للدولة الزيدية التي تجعل من عملية حفر الخندق حولها أمراً في غاية الصعوبة .

^(١) عبده علي عبد الله ، الدر النضيد ، ص ٤٨٦ .

^(٢) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مادة : خندق .

^(٣) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٥٤ .

^(٤) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٤٨٤ .

م . مخازن الحبوب والأسلحة^(١) :

من الاستحكامات الدفاعية التي اعتمدت عليها الدولة الزيدية أيضاً في الدفاع عن مدنها وحصونها ، إنشاء مخازن للحبوب والأسلحة تكفي لفترات طويلة ولا سيما في أثناء الحصار ، ولضمان صلاحية هذه الحبوب والأسلحة ، وعدم تلفها بسبب الحرارة والرطوبة والأمطار وغيرها من عوامل التعرية ، تم نحت مخازن في بطون الجبال المقامة عليه الحصون ، وبوجود هذه الكميات من الحبوب والأسلحة إلى جانب الأحواض المائية والاستحكامات الدفاعية الأخرى ، يصبح أمر اقتحام الحصون مستحيلاً .

١٣ . أنواع الأسلحة :

إلى جانب الأسلحة التي كانت معروفة من قبل في الدولة الزيدية ، كالعرادات والمناجيق ، والبيض ، والغوامر^(٢) ، والقياس ، والزرد ، والطوارق ، والنشاب^(٣) ، والجفاني^(٤) ، والشروخ^(٥) ، والسيوف ، والرماح ، والخناجر ، عرفت الدولة الزيدية أسلحة أخرى لم تكن تستعملها من قبل ، منها على سبيل التمثيل : الزحافة^(٦) ، وهي بيت من الخشب يحتوي فيه المقاتلون ويكون سيره على عجل ، وتحمل فيه جذوع الأشجار الكبيرة التي تستعمل لعبور الخنادق والحفر ، وعادة ما تستعمل هذه الزحافة في اقتحام الحصون ، وعلى الرغم من الإخفاق الأول الذي رافق استعمال هذه الزحافة^(٧) ، إلا أنه بالتأكيد تم تلافي الأخطاء التي تم ارتكابها عند صنعها في المرة الأولى ، حتى تكون أكثر فاعلية .

(١) نظر لوحة رقم (١٤) .

(٢) الغوامر : نوع من الدروع التي تقي الأجسام . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٥٩٢ ، (حاشية المحقق) .

(٣) النشاب : هي السهام أو النبل والثلاث مسميات لشيء واحد . عبد الغني محمود عبد العاطي ، أبو فراس ابن دعثم وكتابه السيرة المنصورية ، ص ٢٦٢ .

(٤) الجفاني : ربما كانت مشتقة من الجفن الذي هو غمد السيف . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٥٩٣ ، (حاشية المحقق) .

(٥) الشروخ : الشرخ هو النصل الذي لم يسن بعد ولم يركب عليه قائمة والجمع شروخ . . عبد الغني محمود عبد العاطي ، أبو فراس ابن دعثم وكتابه السيرة المنصورية ، ص ٢٦٢ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٣٣ .

(٧) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

ونظراً للصراع المحتدم والطويل الذي خاضته الدولة الزيدية مع الرسوليين ، تعرف الأشراف الزيديون على أنواع من الأسلحة والأساليب في القتال لم يعهدوها من قبل ، وكما استلهم هؤلاء الأشراف أشكالاً من النظم السياسية ، والإدارية ، والاقتصادية ، والعسكرية من الرسوليين في دولتهم الزيدية ، نستطيع القول أنهم استعملوا هذه الأنواع من الأسلحة ، وهذه الأساليب في القتال فيما بعد ، وإن لم نحصل على معلومات من المصادر التاريخية تؤكد زعمنا هذا ، ومن ذلك :

أ. حُفر السفافيد (١) :

وهي حفر طول الواحدة منها قامة رجل ، وعرضها ذراع ونصف ، يوضع فيها ثلاثة أسياخ حديد منصوبة ، طول الواحد منها ذراع ونصف ، ومطعم بالسّم ، وتسمى بـ : " السفافيد " ، وتستخدم هذه الحفر ككائن للخيول والعسكر ، ومفعولها في حماية المدن من أفضل ما يكون ، ولا سيما مع جهل الخصم بأماكنها (٢) .

ب. الحسكة (٣) :

وهي قطعة من الحديد ، لها أربع أشواك ، إذا أُلقيت على الأرض ، وقفت على ثلاث ، وبقيت الرابعة منتصبة ، تنتظر ضحيتها بعد إخفائها في التراب ، وطول الشوكة الواحدة إصبع ، وتطعم بالسّم لضمان النتائج المرجوة منها ، وتستعمل هذه الحسكة في الطرقات الضيقة التي لا غنى للخصوم عن عبورها ، أو التي يُستدرجوا إليها (٤) .

ج. الدبابيس :

وهي آلة من آلات الحرب تشبه الإبرة ، وتصنع من عود طوله نحو مترين من الخشب ، في أحد طرفيه رأس من الحديد (٥) ، ولضمان فاعليتها أكثر ، تُزود بمواد

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

(٢) استعمل هذه الأسلحة أمير حرض الرسولي عزيز الدين الطنبغا ، لصد الهجوم الذي قام به الأمير صارم الدين دلود بن عبد الله بن حمزة على المدينة ، نصره لامرأة الشريف أبي سفين الذي قُتل زوجها على يد الأمير عزيز الدين ومماليكه . انظر القصة كاملة عند ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٣٢ - ٤٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٣٨ .

(٤) نفسه ، ص ٤٣٨ .

(٥) الملك المظفر : يوسف بن عمر ، المخترع في فنون من الصنع ، تح : محمد عيسى صالحية ، مؤسسة الشراع العربي ، الكويت ، ١٩٨٩ م ، ص ١٣٢ وما بعدها .

مشتعلة لإحراق الأحرار ، وإخافة الخيول في المعارك ، وتسمى عندئذ ، دبائيس النفط (١) .

ثانياً : المظاهر الاقتصادية :

١. الموارد المالية :

أ. الخراج :

يقصد بالخراج ، الضريبة السنوية المفروضة على الأراضي الزراعية التي تم فتحها عنوة ، وبقيت في أيدي أهلها ، أو التي صُولح عليها أهلها (٢) بمقدار معين من حاصلاتهم الزراعية (٣) .

ومع أن اليمن أرض عشرية (٤) ، لأن أهلها دخلوا الإسلام طواعية — باستثناء نصارى نجران (٥) — ولا يؤخذ منهم أكثر من العشر أو نصف العشر ، فإنه ورد في رسائل بعض الائمة ما يدل على أنهم أخذوا الخراج من غير أهله (٦) ، فهذا الإمام

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٤٤٠ . ابن الأثف ، روضة الأخبار ، ص ٥١ .

(٢) أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم ، الخراج ، تح : محمود الباجي ، دار أبو سلامة للطباعة والنشر ، تونس ، ط ١ ، ١٩٨٤ م ، ص ٦٢ .

(٣) صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٥ م ، ص ٣٥٧ .

(٤) الشجاع ، النظم الإسلامية ، ص ٦٤ ، ٧٢ . وكان ذلك حسب التعاليم الإسلامية التي التزم بها الخلفاء الراشدون خلال عهودهم الأربعة ، أما بعد ذلك ولا سيما في عهد الدولتين الأموية والعباسية وما تزامن معها من ظهور الدويلات المستقلة في اليمن ، فخرجت اليمن عن كونها أرضاً عشرية إلى أرض خراجية . انظر : البيضاني : إيمان محمد عوض ، الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في اليمن في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٢ م ، ص ١٩٨ .

(٥) الشجاع ، النظم الإسلامية ، ص ٦٤ .

(٦) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٧ . كما ورد في معرض رد الإمام المهدي أحمد بن الحسين على الشيخ محيي الدين عطية النجرائي قوله : " فأما حديث الصاعنين وأهل العرضى ، فذلك مما لا نرجع إلى الشيخ ولا إلى سواه فيه ؛ لأنه مما يرجع إلى نظرنا ومعرفتنا ، ونحن اسكناهم الجهة ، وجعلنا لهم خمس ما يحصل من زرائع الرعية ... " . انظر : مجموع رسائل ، ص ١٦٢ . وهذا الخمس ليس من الزكاة ؛ لأن الزكاة على الزرائع أعلاها العشر ، وأنها نصف العشر ، والخمس أكثر من العشر ، وبالتالي فهو أقرب ما يكون إلى الخراج منه إلى الزكاة ، وهذا ليس بمستغرب ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الخراج مُورس على أرض اليمن منذ الخلافة الأموية كما أسلفنا .

المهدي أحمد بن الحسين الذي أفتى بأن الغز (الرسوليين) ومن حالفهم كفار ، يطبق أحكام دار الكفر (الحرب) عليهم ^(١) ، ويستولي على أراضيهم وضياعهم ، ويستدل في ذلك بقول الله تعالى : " ... وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا " ^(٢) ، مع أن هذه الآية نزلت في اليهود ^(٣) ، إلا أنه كما يبدو لا فرق بين اليهود من جهة و الرسوليين وحلفائهم من جهة أخرى في نظر الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، ولعله من المهم في هذا السياق أن نورد بعض ما يؤكد ما أشرنا إليه ، من ذلك قول الإمام المهدي في جوابه على الشيخ عطية النجراني : " ... يجوز الأخذ من المعاون للخروج إلى ديار الكافرين — يقصد الرسوليين — في اليمن كله ؛ لأنها دار إسلام ظهر عليها الكفر ، فوجب إزالتها على وجه الدفع للكفر عن دار الإسلام ... " ^(٤) ، وفي خلافه مع الشيخ نفسه ، حول ما يستفتح من بلاد الكفار (الرسوليين) هل يكون فيناً للمسلمين كافة ، كأموال الخراج أم غنيمة ، أجاب الإمام بقوله تعالى : " وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ... " ^(٥) ، فجعل المأخوذ غنيمة للآخرين وعليهم الخمس فيه ^(٦) .

يفهم مما سبق ، أن كل الأراضي التي استولت عليها الدولة الزيدية من الرسوليين بدون قتال ، كانت تعد أراضي خراجية تطبق عليها أحكام الخراج ، وكذلك الحال بالنسبة للأراضي التي يتصالح أهلها مع الدولة الزيدية على مقدار معين من حاصلاتهم ، يؤدونه كل سنة .

ولأن المتحصل من الحقوق الشرعية المستحقة للدولة الزيدية ، كالزكاة بمختلف أشكالها ، لا يفي بمتطلبات الدولة الزيدية ، ولا سيما العسكرية ، باعتراف الأئمة الزيديين أنفسهم ، ابتكر هؤلاء الأئمة أشكالاً من الضرائب على أهل الزراعات

^(١) عن هذه الأحكام ، انظر فيما سيأتي ، ص ٣٠٨ .

^(٢) الأحزاب : الآية : ٢٧ .

^(٣) الجلالين : محمد بن أحمد و عبد الرحمن بن أبي بكر ، تفسير الجلالين مزيلاً بكتاب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٤٢١ .

^(٤) مجموع رسائل ، ص ١٧٢ . وهذا القول صريح بتكفير الرسوليين ومن حالفهم .

^(٥) الأنفال : الآية : ٤١ .

^(٦) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٧٣ .

والصناعات ، تعادل في مفهومها الخراج ، وإن لم تسمَّ كذلك ، فأصبح يؤخذ من أهل الزراعة أكثر مما يجب عليهم في زكاة أموالهم ، وفرضت ضرائب في الأسواق تسمى قتالات على أهل التجارة والصناعة ، مما أثار حفيظة بعض العلماء والفقهاء وجعلهم يتساءلون حول مشروعية ذلك ، ويبقى الجواب عند الأئمة الزيديين واحداً ، وهو أن الحقوق الشرعية لا تكفي للدفاع عن الدين (المذهب) والدولة ، فأصبح وجود هذه الضرائب ضرورة ملحة لا غنى عنها ، وإن لم تكن مشروعة .

وعلى الرغم من ندرة المعلومات عن عوائد الخراج في الدولة الزيدية ^(١) ، وهل كان يؤخذ عيناً أم نقداً ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد على أن هذا المورد كان المورد الرئيس لهذه الدولة ؛ لأن العديد من الحروب التي شهدتها هذه الدولة سواء بين أبنائها من الأشراف الزيديين أم مع أعدائها من الرسوليين وغيرهم ، كانت حروباً اقتصادية الهدف منها هو الاستحواذ على الخراج من المناطق المتنازع عليها ، فهذا الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة وبعد نجاحه في التخلص من الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، يشترط للموافقة على إمامة الحسن بن وهاس أن تقسم صعدة وبلادها على قسمين : قسم للأمير شمس الدين وأخوته ، والآخر للحسن بن وهاس وشيعته ، ونظراً لعدم الالتزام من قبل آل الإمام عبد الله بن حمزة بهذا الاتفاق ، وتدخلهم المستمر في البلاد المخصصة للحسن بن وهاس ، اضطر الأخير إلى خوض حرب مع الأمير صارم الدين داؤد بن عبد الله بن حمزة ، كانت نتيجتها هزيمته وأسرته في ظفار لمدة عشر سنوات ^(٢) .

^(١) يبدو أن تغلب مفهوم الخراج على مصلح الزكاة ولجوء الحكام إليه سواء من الزيديين أو الرسوليين يعزى إلى عدة أسباب أهمها :

أ - قلة الأموال المتحصلة من الحقوق الشرعية كالزكاة ونحوها يقابله الحاجة الماسة للمال من قبل كل الأطراف نظراً لحالة الحرب المستمرة آنذاك .

ب - ظهور الإقطاع في اليمن واستخدامه كأسلوب في الإدارة والولاية حتى في الدولة الزيدية وهو - أي الإقطاع - يعتمد أولاً وأخيراً على مفهوم الخراج حتى يتمكن المقطع من جني الأموال المستحقة عليه للدولة ، فضلاً عن الإرباح المتوقعة له من هذا الأمر .

ج - اعتبار الأراضي المستولى عليها من قبل كل الأطراف غنائم يجب تقسيمها أو أراضي خراج يصالح أهلها على مقدار معين من محصولها الزراعي .

^(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٠٩ .

ومن الحروب التي كان الخراج هو السبب الرئيس فيها ، تلك الحرب التي نشبت بين الأمير صارم الدين داؤد ، وابن أخيه الأمير عز الدين محمد بن أحمد ، بعد ذلك الاتفاق الذي عقده الأميران مع الملك المظفر ، والذي نص على أن يُعطى المظفر ربع الخراج المتحصل من بلاد صعدة ، ونظراً لرفض الأمير صارم الدين أن يجعل هذا المقدار من نصيبه في بلاد صعدة ، أو أن يتقاسمه مع الأمير عز الدين ، اضطر الأمير عز الدين إلى خوض حرب مع عمه ، استحوذ على إثرها بالكامل على خراج مدينة صعدة وبلادها ، باستثناء ما جعل للملك المظفر فيها ^(١) .

وفي نص يتيم ذكره ابن حاتم ، استطعنا تقدير مقدار الخراج المتحصل من البلاد الخاضعة للدولة الزيدية في أوج ضعفها ، وذلك حين قال : " ... واستقوت شوكة الأمير داؤد — بالمماليك — الأسدية ، واستخدمهم ... وصار يستخرج بهم الحقوق ، وكان يتردد ما بين صعدة ، وظفار ، والظاهر ، وجمع أموالاً جمّة إلى نحو ثلاثمائة ألف دينار " ^(٢) .

وبناء على ما تقدم ، نستطيع تقدير مقدار الخراج المتحصل من البلاد الخاضعة للدولة الزيدية في أوج قوتها ، بأضعاف أضعاف هذا المبلغ ، ولا سيما خلال عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، الذي وصلت دولته إلى مناطق وبلاد في اليمن الأسفل تشتهر بالزراعة وغيرها من أنواع الخيرات ، ولا سيما إذا أكدنا على أنها تعد أراضي خراجية من وجهة نظر الأئمة الزيديين كما أسلفنا .

ب. البر والنذور :

البر هو كل عمل فيه خير يقصد به وجه الله تعالى والتقرب إليه ، قال تعالى :
" لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

^(١) انظر فيما سبق ، ص ١٢٠ .

^(٢) السمط ، ص ٥٠٣ . وهو ما يعادل ضعفي الخراج المتحصل عليه من أصحاب النخيل في اليمن في عهد الملك العزيز طغتكين بن أيوب . انظر : العسيري ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ، ص ٢٤٢

وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ " (١) .

فيقال دينار بر ، أي دينار صدقة ، يتقرب بها العامة إلى الله بإعطائها الأئمة من آل البيت ، طالبين الخير والبركة التي تحل عليهم نظراً لهذا الفعل حسب اعتقادهم والأئمة بعد ذلك يصرفونها في وجوها الشرعية ، أو ما يروونه مناسباً (٢) .
أما النذر : فهو إخراج المال إلى الغير على جهة القرية (٣) ، ويكون مشروطاً بتحقيق مطلب معين ، كأن ينذر الإنسان أن يتصدق بكذا من المال أو نحوه إذا رزقه الله الولد ، أو شفاه من مرض ، وغيرها من المطالب ، وقد يكون النذر غير ذلك ، قال تعالى حاكياً عن مريم بنت عمران : " فَكَلِمِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا " (٤) . وقال عز وجل : واصفاً حال الأبرار " إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ؕ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ؕ يُوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا " (٥)

ومع أنه قد يُستغرب من أن يمثل هذا الأمر مورداً من الموارد الرئيسية في الدولة الزيدية ، إلا أن الذي يفهم من سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين يؤكد ذلك ، فقد ذكر السيد شرف الدين (٦) أنه لم يمض شهر على حصار الإمام المهدي لحصن مدع ، إلا واجتمعت له من الأموال ما يزيد على ثلاثين ألف درهم ، جاءت بها قبائل قدم (٧) من المغرب ، وبنو شاور ، والسلطين من آل محمد بن حسين من

(١) البقرة : الآية : ١٧٧ .

(٢) انظر على سبيل التمثيل : المحلي ، الحقائق الوردية ، ج ٢ : ٢٧٧ . السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٨ ب .

(٣) أحمد بن يحيى المرتضى (الإمام المهدي) ، البحر الزخار الجامع لمذهب علماء الأمصار ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٢) ، ج ٣ : ٣٣٩ ب (كتاب النذر) .

(٤) مريم : الآية : ٢٦ .

(٥) الإنسان : الآيات : ٥ - ٧ .

(٦) سيرة المهدي ، ق ٤٩ أ .

(٧) قُدم : بطن من همدان ، من ولد قُدم بن قادم بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد ، وإليه تنسب بلاد قُدم (قُدم) جنوبي حجة . المقحفي ، معجم ، ص ٥١٧ .

مسور، كَبِرٍ، ونذرٍ، ومعونة، في سبيل الله وأن الإمام لم يكن معه قبل ذلك من المال إلا اليسير .

وفي موضع آخر من السيرة نفسها، روى السيد شرف الدين (١) أن الإمام المهدي جهز أمراؤه إلى ذيبين، وأسرَّ إليهم بمحاصرة حصن ذروة، ومحاربة الأمراء الحمزيين، وأنه أعطاهم مالا كثيرا من الدراهم الملكية والدنانير، وصلت إليه من مكة وأرض الحجاز، كَبِرٍ، ونذرٍ. وفي موضع ثالث ذكر أن الإمام المهدي يوم حط في أسفل شوابية وصله شيوخ الأهنوم وحجور (٢) وتلك النواحي، وسلموا له جملة من النور والبر، قدره بعض من كان مع الإمام بخمسة آلاف درهم (٣)، وغير ذلك من الشواهد (٤).

ج. المعونة :

وهي نوعان : الأول المعونة المفروضة أو الواجبة، وقد تم الحديث عنها عند تناول الأعباء المادية التي فرضت على العامة، ومثلت سببا من الأسباب الاقتصادية التي أسهمت في إضعاف الدولة الزيدية، وضربنا مثالا على هذا النوع عندما تطرقنا لقضية شراء الإمام المهدي أحمد بن الحسين لحصن براش صنعاء من الأمير الرسولي محمد بن الحسن (٥).

والنوع الثاني : وهي المعونة الطوعية، التي تكون برضى الناس ورغبتهم، دون إلزام من أحد، ومثال ذلك ما أورده ابن فند (٦) حين ذكر كثرة الفتن والمحن التي حدثت في أول دولة الإمام المهدي علي بن محمد، وما حل بأهل صعدة من الفتن

(١) سيرة المهدي، ق ٥١ أ .

(٢) حَجُور : بطن من همدان، ينسب إلى حجور بن أسلم بن عليان بن غريب بن جشم بن جبران بن نوف بن همدان وحجور بلدة من سراة قُدم حجة . الحجري، مجموع، مج ١ : ج ٢ : ٢٤٠ . المقحفي، معجم، ص ١٧٠ .

(٣) السيد شرف الدين، سيرة المهدي، ق ١٧٩ أ .

(٤) نظر : المصدر نفسه، ق ٥٨ ب، ٩٠ ب، ٩٤ ب،

(٥) سبق وأشرنا أن الأئمة الزيديين أولوا الآية الكريمة : " ... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " . المائدة : الآية : ٢ . على أنها تكليف شرعي واجب على الناس، إلا أنه من الجدير بالذكر هنا، أنه قد يتداخل مال المعونة (الطوعية) بالنذر والبر، استناداً إلى الآية السالفة، والأساس في التفريق بينهما هو النية .

(٦) مآثر، ج ٢ : ١٠١١ - ١٠١٢ .

والممل ، وإدعائهم على بعضهم بالتقصير في الإنفاق ، فتضررت أمور العسكر ، وانقطع عنهم بعض ما يحتاجونه لأنفسهم ولأسرهم ، فاشتغل خاطر الإمام المهدي لذلك ، ولم يتمكن من تحصيل الأموال ، فطلب من القاضي جمال الدين علي بن محمد بن هبة الدواري أن ينشئ قصيدة يحرض فيها الناس على الجهاد ، ويحثهم على الإنفاق ، فأنشأ القصيدة المطلوبة ، وأنشدها في محفل من كبار أهل صعدة ، وكبرائهم ، ورؤسائهم ، فبكى عند سماعها جماعة من القوم ، وتعاهدوا فيما بينهم على بذل الأموال ، وألزموا أنفسهم دفع مائة ألف درهم للإمام ، قسموها عشرة أقسام : النصف منها تكلفة الفقهاء من آل الهبي ، وعشرة آلاف على بني جُميع الطائي ، وآل النزاري ، وآل عليان ، وعشرة آلاف على أهل درب الإمام ، والفقهاء قاسم بن قرة ، وعشرين ألف على آل فند ، وآل الظاهر ، وآل الزويد ، وعشرة آلاف على آل عيسى ومن في جانبهم والحدادين .

د . المصادر :

المقصود بها تلك الأموال ، والزروع ، والضياع ، والأمالك ، التي تستولي عليها الدولة الزيدية من المخالفين لها ، والمنشقين عنها ، والمصادر التاريخية زاخرة بذكر هذه المصادر من مختلف الأطراف ، إلا أن ما يهمنا هو ما يختص بتلك التي قامت بها الدولة الزيدية ، ومثلت مورداً من مواردها المالية ، فقد صادر الإمام المهدي أحمد بن الحسين يوم دخل صنعاء للمرة الأولى في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م ، دور الرسوليين وأملاكهم ، وضياعهم ، وحوانيتهم و صوافيهم ، وكذا من حالفهم من الباطنيين ^(١) ، فجعل لنفسه الدار السلطانية التي كانت للملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول ، وتحفظ على قصر الأمير أسد الدين محمد بن الحسن ، وأعطى الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة قصر الأمير فخر الدين أبي بكر بن الحسن بن رسول ، ومنح الشيخ الرصاص دار كبير الباطنية ، وعدد من الضياع ، والحوانيت ، و الصوافي في جهات صنعاء ، وفرق الآخر على المقدمين والخواص ^(٢) .

(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٥٩ ب - ٦٠ أ .

(٢) المصدر نفسه والورقات .

وفي خطوة مماثلة قام الإمام المهدي أيضاً بمصادرة أملاك وأموال ابن زيدان وأولاده وأتباعه في صعدة ؛ لأنه كما زعم كافر مرتد – بتحالفه مع الرسولين – ومن كان كذلك كان بمنزلة من لا وارث له ، ومصرف ماله وأملاكه إلى بيت المال ، وأولاده وأتباعه كذلك ، لأنهم تابعون لأمره ، موالون له على فعله (١) .

ومن أشكال هذا المورد أيضاً ، ما قام به الإمام المهدي صلاح بن علي بن محمد بن أبي القاسم ، وزوجته الشريفة فاطمة بنت الحسن بن صلاح الدين ، حين صادرا من أهل صعدة أموالاً جمّة (٢) لقتال الإمام الناصر بن محمد ، حتى إنهما أخذتا أموالاً كان قد أوصى بها آل زيدان لمسجد الذهب ، ومسجد زيدان في صعدة ، فلم يمنع ذلك من مصادرتها (٣) .

هـ. الزكاة :

الزكاة هي الصدقة ، والصدقة هي زكاة ، يفترق الاسم ، ويتفق المسمى (٤) ، قال تعالى : " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (٥) ، وهي مقدار معلوم يؤخذ من أغنياء المسلمين ويرد إلى فقرائهم ، وتجب في النقد من الذهب والفضة ، وفي عروض التجارة ، وفي السائمة من الإبل والبقر والغنم ، وفي المعادن كالحديد ونحوه ، وتقوم الدولة بجمعها ممن وجبت عليهم ، ثم تصرفها في جوهها الشرعية (٦) .

وقد اتخذت الزكاة في الدولة الزيدية عدة أشكال :

- **العشر** : وتؤخذ على الحبوب بأنواعها ، كالبر والشعير والذرة والجلجلان ، وعلى الفواكه ، كالكروم والتفاح والرمان والخوخ والسفرجل والتوت وغيرها ، وعلى الخضروات بمختلف أنواعها ، من كل قليل أو كثير ، بشرط أن تكون سقيت بمياه الأمطار ، لا يعتبر في ذلك نصاب ، ولا يراعى بلوغ قدر معلوم .
- **نصف العشر** : وتشمل كل المحاصيل سائلة الذكر عندما تسقى بمياه الآبار .

(١) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(٢) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣٧ . ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٧ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥٧ .

(٤) إيمان بيضاني ، الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية ، ص ١٥٨ .

(٥) التوبة : الآية : ١٠٣ .

(٦) العسيري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

• **ربع العشر** : ويؤخذ على الذهب والفضة بعد صياغتها كحلي ، أو سكهها نقداً وعلى الأنعام بشرط أن تكون سائمة الكلاً ، حتى تقل مؤونتها ، ويتوافر درها ونسلها ، وأن يحول عليها الحول ^(١) ، وأن تكون قد بلغت النصاب الذي تؤخذ الزكاة عليه ^(٢) . ويستثنى من ذلك الهرمة ، والحوامل والعوامر والعوامل ^(٣) ، ويحدد النصاب في الأنعام كالآتي :

في الإبل إذا بلغت الخمس ، ويكون مقدار الزكاة فيها شاة ^(٤) .

وفي البقر إذا بلغت ثلاثين ، ويكون مقدار الزكاة فيها تبيعاً ^(٥) .

وفي الأغنام إذا بلغت أربعين ، ويكون مقدار الزكاة فيها شاة ^(٦) .

وليس على الخيل زكاة ^(٧) .

أما الذهب فنصابه عشرون مثقالاً بمثاقيل الإسلام ، ويجب فيه ربع العشر أو ما يعادل نصف مثقال ^(٨) .

وأما الفضة فنصيبها مائتا درهم بوزن الإسلام ، ويجب فيها ربع العشر أو ما يعادل خمسة دراهم من المائتين ^(٩) . كما يؤخذ ربع العشر زكاة على عروض التجارة .

^(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨١ .

^(٢) مالك : أبو عبد الله مالك بن أنس الإمام ، الموطأ ، تح : عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار القلم ، بيروت ، ط ١ ، د . ت ، ص ١١٤ . أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٢ .

^(٣) أحمد بن يحيى المرتضى ، البحر الزخار ، ج ١ : ١٠١ ب ، (باب زكاة المواشي) .

^(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٨ - ٧٩ .

^(٥) مالك ، الموطأ ، ص ١١٩ ، (باب صدقة البقر) .

^(٦) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٠ - ٨١ . أحمد بن يحيى المرتضى ، البحر الزخار ، ج ١ : ١٠٣ أ ، (باب ما يجب في المواشي) .

^(٧) مالك ، الموطأ ، ص ١١٨ ، أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٠ .

^(٨) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٣ .

^(٩) المصدر نفسه والصفحة . إيمان بيضاني ، الحياة السياسية والمظاهر الاجتماعية ، ص ١٨١ . كما يدخل في مفهوم الزكاة ما يعرف بالفطرة أو زكاة الفطر وهي ما ينفقه الصائم في اليومين الأخيرين من شهر رمضان وقبل خروج الناس إلى صلاة العيد تزكية لصيامه من اللغو والرفث ومقدارها صاع من التمر أو الشعير أو الزبيب وتجذب على كل مسلماً حراً أو عبداً ، ذكراً أو أنثى ، صغيراً أو كبيراً . انظر : مالك ، الموطأ ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، (باب زكاة الفطر) . إيمان بيضاني ، الحياة السياسية والمظاهر الاجتماعية ، ص ١٥٩ .

• **الخمس** : ويؤخذ على المعادن المختلفة إذا كانت بكميات كبيرة ، كالحديد ، والفضة ، والملح ، وغيرها ، وكلها كان لها وجود في الدولة الزيدية ، فالفضة كانت تستخرج من بلاد المعدن ^(١) ، وبعض جهات صعدة ، والملح كان يستخرج من مأرب ^(٢) ، والحديد ^(٣) من المعادن التي تشتهر جبال بني جماعة ^(٤) في صعدة ، وبلاد خولان بوجوده .

و. الغنائم :

الأصل فيها قول الله تعالى : " وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ... " ^(٥) وقوله سبحانه : " وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ... " ^(٦) ، وتعريفها ، هي ما أصابه المسلمون من أعدائهم أهل الحرب بالقوة والقهر والقتال ، وإن لم تكن كذلك وأخذت بدون قتال كانت فيئاً .

ومهما يكن وجه عدم مشروعية هذا المورد بالنسبة للدولة الزيدية ، حاله في ذلك حال بعض الموارد الأخرى ، فإنه كان من الموارد الرئيسة فيها ، وذلك لأن الأئمة الزيديين كانوا يعدون الرسولين وحلفاءهم من الكفار ، تطبق عليهم أحكام دار

^(١) المعدن : بلاد سميت بذلك لاستخراج معدن الفضة منها وهي بوادي الرضاض ، وكانت حدا بين نهم من همدان ومرهبة ومراد وبلحارث وخولان العالية . انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٥٤ . ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٧٥٦ - ٧٥٧ ، (حاشية المحقق) . وكانت الدولة الزيدية تأخذ الخمس على الفضة من مستخرجها . انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ١٣٨ .

^(٢) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٣٧٩ . أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٠٩ .

^(٣) ظهر الحديد لأول مرة بكميات كبيرة في الدولة الزيدية في عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٠٩ . وكان الإمام المنصور يأخذ الخمس كزكاة على مستخرجيه . انظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٧٦٦ .

^(٤) بنو جماعة : بطن من خولان بن عمرو بن الحاف ، لهم بلاد واسعة من أعمال صعدة تعرف ببلاد بني جماعة . الحجري ، مجموع : مج ١ : ج ١ : ١٩١ . المقفي ، معجم ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

^(٥) الأنفال : الآية : ٤١ .

^(٦) الفتح : الآية : ٢٠ .

الحرب (١) ، بما فيها الغنائم والسبي والفيء ، والمطالع لسير بعض هؤلاء الأئمة يلحظ بوضوح هذا الأمر ، فلا تكاد تخلو سيرة من هذه السير من ذكر السبي والغنائم التي كان الأشراف وغيرهم من القبائل المتحالفة معهم يعولون عليها كثيراً في النفقة على أنفسهم وأهليهم ، ولا سيما في زمن الجذب والجفاف وانعدام الزراعة .
وبالاستناد إلى الفتاوى التي أطلقها الأئمة في تكفير المنشقين عنهم والرسوليين والباطنيين ، تم إضفاء صفة الشرعية على هذا المورد ، وأصبحت الحروب والمعارك مصدراً للرزق أكثر من أي شيء آخر .

أما عن نوعية هذه الغنائم ، فعادة ما تكون قطعان من الإبل أو البقر أو الغنم (٢) أو الأثاث ونحوها ، بل قد تكون من الإماء والعبيد (٣) والأموال والذهب والفضة .
وبعد جمع الغنائم تقسم على خمسة أخماس استناداً إلى الآية السابقة ، أربعة أخماس منها توزع على المقاتلين الذين لهم الفضل الأول في الحصول عليها ، ويقسم الخمس الأخير خمسة أخماس (٤) أيضاً : الخمس الأول للإمام وأهل بيته ، والثاني لذوي القربى من أهل الإمام ، والثالث لليتامى والمساكين ، والرابع والخامس لابن السبيل والمنقطع عن بلده ، أما أخماس المقاتلين فتقسم في العادة سهران للفارس وسهم للرجل .

ز. الجزية :

الأصل فيها قول الله تعالى : " قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ " (٥) ، واستناداً على الآية الكريمة تفرض الجزية على

(١) دار الحرب : هل كل أرض ظهرت فيها خصلة من خصال الكفر المعلوم بالأدلة ، ولا تأثير للأرض في إيجاب الحكم أو نفيه ، فمكة المكرمة والمدينة المنورة كانتا دار حرب قبل الفتح والهجرة ، وإنما الأصل ظهور خصال الكفر من عدمها ، وتجرى عليها أحكام دار الكفر والردة ، من قتل المقاتلة ، وسبي الذراري والنساء ، ومصادرة الأموال ، واسترقاق الأسرى . انظر : عبد الله بن حمزة ، مجموع رسائل ، ج ١ : ٩٣ - ٩٤ .

(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ١٧٠ أ .

(٣) المصدر نفسه ، ق ٩٥ أ .

(٤) الجلالين ، تفسير الجلالين ، ص ١٨٢ .

(٥) التوبة : الآية : ٢٩ .

أهل الكتاب (الذمة) من اليهود والنصارى لإيجاد نوع من التوازن والتكافؤ بين المسلمين والذميين ، فكما فرضت الزكاة على المسلمين ، فرضت الجزية على أهل الذمة مقابل الحماية والأمن لهم ^(١) ، وكلاهما – أي اليهود والنصارى – كان له وجود في المناطق التي تسيطر عليها الدولة الزيدية ^(٢) ، فقد كان النصارى يسكنون نجران ^(٣) ، وكان اليهود يسكنون صعدة وصنعاء وذمار وغيرها من المناطق . ولنا في ما ذكره السيد شرف الدين ^(٤) من وجود اليهود بصعدة ، واشتهارهم بصناعة الخمر دليل على ذلك .

كذلك ورد ذكر اليهود عند ابن الأنف ^(٥) الذي أكد دورهم في سيطرة الإمام الناصر بن محمد على صنعاء في سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م ^(٦) .

م . العقوبات المالية على القبائل :

شكلت العقوبات المالية التي تفرضها الدولة على القبائل المتمردة عليها ، عقاباً لها على تمردها وخروجها عن الطاعة ، نوعاً من العقوبات الاقتصادية المكلمة للعقوبات العسكرية ، ومورداً مالياً لا يستهان به ، يماثل ما يتحصل لها من الغنائم . أما هذه العقوبات فتفاوتت باختلاف التمرد والعصيان ، فكلما زاد حجم التمرد وخطره ، زادت العقوبات المالية المفروضة على القبائل ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها ما فعله الإمام المهدي أحمد بن الحسين حين فرض على قبيلة سنحان أن تسلم ثمانين ألف درهم مهدية ^(٧) ، عقوبة لها على مساندتها لابن جعدان في تمرده . ومنها

^(١) إيمان بيضاني ، الحياة السياسية والمظاهر الاجتماعية ، ص ١٩١ .

^(٢) ظهرت الديانة اليهودية في اليمن في عهد دولة حمير القديمة ، حين اعتنقها الملك الحميري أسعد الكامل ، وانتشرت بشكل واسع عندما أجبر الملك ذو نواس الناس على اعتناقها ، وبسبب تعصبه لليهودية ، وما حل بأصحاب الأخدود من النصارى – المذكورين في القرآن – غزا الأحباش اليمن في القرن السادس الميلادي ، وتعصبوا للديانة النصرانية . نظر : الحميري : نشوان بن سعيد ، ملوك حمير وأقبال اليمن ، تح : علي بن إسماعيل المؤيد ، إسماعيل بن أحمد الجرافي ، دار الكلمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٧٣ – ١٧٦ .

^(٣) ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ، ص ٢٠٩ . الشجاع ، النظم الإسلامية ، ص ٧١ – ٧٢ .

^(٤) سيرة المهدي ، ق ٩٢ ب .

^(٥) روضة الأخبار ، ص ٤٢ .

^(٦) نظر فيما سبق ، ص ١٨٣ .

^(٧) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٧١ أ .

ما فعله الإمام نفسه مع أهل مارب بعد غزوه لهم ، وما سلموه له من الأموال العظيمة عقوبة لهم على ميلهم لبني العباس السُّنَّيين ^(١) ، و منها ما فعله كذلك مع الباطنية في بلاد مسور حين قبض منهم ألوفاً من الدراهم عقاباً لهم على مخالفته ^(٢) .

٣. النفقات :

أ. رواتب الجند :

تعد رواتب الجند ، المصرف الرئيس للموارد المالية في الدولة الزيدية ، ويبدو أن الأئمة الزيديين استمدوا هذا الأمر من الدولتين الأيوبيه والرسولية ، وتختلف هذه الرواتب من شخص إلى آخر ، فأقل ما يُعطى الجندي في الدولة الزيدية في عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين خمسة دنانير ، وأعلاهم راتباً عشرين ديناراً ^(٣) ، كلٌ حسب منزلته ونفعه ، وقد علل الإمام المهدي هذا التفاوت في الرواتب بقوله : " فأما الإعطاء من هذه الأموال ، والمنع في الكثرة والقلّة ، فلا شك أن أحوال الناس تختلف ، فمنهم من ... يسد مسد اثنين أو ثلاثة أو أربعة ، بشرط أنه يُعطى ما يأخذ اثنان أو ثلاثة أو أربعة ، فأعطيناه هذا القدر ... " ^(٤) . وأضاف أن بعضهم يُزاد له في الراتب والعطاء إلقاء لشره وضرره ، حتى لا يميل إلى الأعداء بسبب المال ^(٥) . وبعضهم لعلو منزلته التي يكون لها تأثير في الدفاع عن الدين ^(٦) أو كبير جماعة يصلح أمرها بصلاحيته ^(٧) . ولأن الحقوق الشرعية المستحقة للدولة الزيدية لا تفي برواتب هؤلاء الجند ، اضطر الأئمة الزيديون إلى مطالبة الناس بالمعونة التي اكتسبت مع مرور الوقت صفة الشرعية والاستمرارية ، وذلك ما لم يطقه الناس ، وجعل العلماء والفقهاء يعترضون على هذا الأمر ، بحجة أن طلب المعونة يجب أن يتلازم مع نشوب الحروب ، أما فيما عدا ذلك فيجب التخفيف على الرعية ^(٨) وإلغائها ، فرد الإمام المهدي أحمد بن الحسين

(١) نظر فيما سبق ، ص ٢١٦ .

(٢) نظر فيما سبق ، ص ٢٣٧ .

(٣) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٧٨ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه ، ص ١٧٠ .

(٧) نفسه ، ص ١٧٧ .

(٨) نفسه ، ص ١٨٠ .

على هذا الاعتراض بأن رواتب الجند والديوان لا تتوقف بتوقف الحرب ، لأنهم معدون بالجريّة لكل الشهور (١) ، سواء كانت الحرب قائمة أم متوقفة .

أما عدد من تصرف لهم هذه الرواتب في عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، فقد ذكر السيد شرف الدين (٢) أن عددهم ألف ومائة ، فيهم مائة ونيف من رماة القسي الفارسية ، ويتوزع كل هؤلاء على تسعة وعشرين حصناً (٣) كانت تحت سيطرة الدولة الزيدية آنذاك .

وكما تعرض الإمام المهدي للاعتراضات بسبب المعونة وما شابها ، تعرض الإمام الناصر صلاح الدين للأمر نفسه ، بل ونُكر له الإمام المهدي أحمد بن الحسين وكرمه وعطاياه العظيمة ، فرد الإمام الناصر بالقول : " أن الإمام — المهدي — لم يكن يجومك على أحد من الجند هذه الجوامك التي في زماننا — أي زمن الإمام الناصر — ولا كان في وجهه من الحصون ما في وجوهنا ، فإن حصون المسلمين وعهدهم التي لزمنا القيام بها قدر خمسمائة حصن ، لكل حصن رتبة وجوامك ... " (٤) .

ب . تجهيز الحملات العسكرية :

روى السيد شرف الدين (٥) ، أنه سأل الإمام المهدي أحمد بن الحسين عن مقدار ما أنفق خلال شهر واحد على إحدى الحملات العسكرية ، فأجاب بأنه أنفق نيفاً وثلاثمائة ألف درهم .

وسأل السيد الهادي بن إبراهيم الوزير ، الإمام الناصر صلاح الدين عما أنفقه خلال حصاره على قلعة طيبة معقل الباطنية ، فقال : " هو شيء لا يمكن حصره ... و هو شيء لا يصدقه إلا من شاهده ، ولعل الإنفاق في هذا المدة كل شهر أربعة آلاف أوقية " (٦) .

(١) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٨٠ .

(٢) سيرة المهدي ، ق ١١٨ ب .

(٣) شرويد : عبد الرحمن أحمد أحسن ، نسمات العبير من حياة الإمام أبي طير أحمد بن الحسين ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ، ص ٢٧ .

(٤) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٨٠ .

(٥) سيرة المهدي ، ق ٤٣ ب .

(٦) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٣٠١ .

وفي رد للإمام الناصر صلاح الدين على القاضي عبد الله بن حسن الدواري بعد أن طلب منه مالا ، قال : " ... ولقد أنفقنا في هذه الحركة المباركة - غزوة حرص - مالا يمكن حصره في هذه الورقة " (١) .

وبناء على ما تقدم ، فإن تجهيز الحملات العسكرية سواء ضد الرسولين أو الباطنيين أو القبائل المتمردة ، من أهم النفقات التي أرهقت خزينة الدولة الزيدية ، والتي اضطر معها بعض الأئمة إلى الاستدانة للقيام بها كما سبق وأشرنا إلى ذلك عند الحديث عن ضعف الموارد المالية للدولة الزيدية (٢) .

ج . العطايا والهبات :

ويأتي الإمامان المهدي أحمد بن الحسين والناصر صلاح الدين محمد في مقدمة الأئمة الذين اشتهروا بها ، فقد رُوي أن الإمام المهدي ما كان يعد الدراهم ، بل يعطيها من غير عد (٣) ، وأنه أعطى الشاعر قاسم بن علي بن هتيمل ثلاثة آلاف درهم ، وثلاثين من الخيل ، ومائتي فرجة ثياب ، قُدر ذلك مع الدراهم بعشرة آلاف درهم (٤) . هذا لشاعر واحد ، ومن أجل ذلك تعرض هذا الإمام للانتقاد اللاذع من بعض العلماء الذين حرّموا أخذ المعونة من الناس وصرفها كهبة للمادحين أو من أجل المباهاة والصيت (٥) ، ومع أن الإمام رد على ذلك بجواز فعل ذلك إذا كان فيه صلاح للإسلام والمسلمين ، فإن ذلك لم يقنع الكثيرين ، وفي الوقت نفسه استمر الإمام المهدي في سياسة العطايا والهبات التي بلغت كما يقال ألفاً وستمائة فرس (٦) ، وهي أموال عظيمة بالنظر إلى قيمة الفرس في تلك المدة وأهميتها العسكرية ، كذلك أعطى رجلاً من كبار العرب اثني عشر ألف درهم (٧) ، وهذا المبلغ كبير جداً إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد الزعامات القبلية آنذاك .

(١) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٥ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٢١٠ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٩ .

(٤) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٦٥ .

(٥) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٧٠ .

(٦) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٨٠ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٦٥ .

(٧) الحبسي : تنمة الإفادة ، ق ٤٥ . ثم يعقب على ذلك بالقول : " ولقد كان الطالب يطلب منه الشيء فيضاعف ما طلب الأضعاف الكثيرة " . المصدر نفسه والورقة .

أما الإمام الناصر صلاح الدين فتسهب المصادر في وصف كرمه وعطائه ، ومن ذلك على سبيل التمثيل ، أنه خرج من صنعاء يوماً لأداء صلاة الجمعة بمسجد سناع ، وبعد الصلاة جلس على ربوة ، واستدعى الوافدين من كل جهة ، وأعطاهم كل ما طلبوا ، وأوصى لهم بالصلاة العظيمة كل إلى بلده ، حتى لم يبق أحد إلا وناله من العطاء ^(١) . أما عن ماهية هذا العطاء فأقل ما يُعطى للوافد فرس وحمله ، وألف من الدراهم وكسوة ، ناهيك عن أن بعضهم لا يقتنع بالوفود إلى الإمام مرة في السنة ، بل قد يأتيه مرتين ^(٢) ، وهذا ولا شك شكل مصرفاً من مصارف الموارد المالية في الدولة الزيدية التي كثر الوافدون إلى إمامها ، ولا سيما في عهد الإمام الناصر الذي وصلت الدولة في عهده إلى أقصى اتساعها ، وجاءه الوافدون حتى من المناطق الشافعية ^(٣) .

ويدخل في معنى العطايا والهبات ، ما ينفقه الأئمة الزيديون على السلاطين والشيوخ والأمراء ممن يُخاف شقاقهم ، أو من عُرفوا في المصادر الزيدية ^(٤) بـ : " المؤلفلة قلوبهم " ^(٥) ، تأسياً بما كان يفعله الرسول (ﷺ) مع الزعامات القبلية من قریش وغيرها ، حديثي العهد بالإسلام ، كأبي سفيان بن حرب (رضي الله عنه) وغيره — آنذاك — لترغيبهم في الإسلام ، وضمنان ولاءهم ^(٦) .

ومهما يكن من أمر ندرة المعلومات في هذا الشأن ، فأنا عثرنا على بعض النصوص التي تؤكد هذا المعنى ، من ذلك ما ذكره السيد شرف الدين حين قال : " ... وبلغني أن — الإمام المهدي — أعطى الشيخ أحمد بن محمد الرصاص دار الكبير من كبار الباطنية مزخرفة بالذهب ، وأعطاه من الضياع والحوائيت والصوافي في تلك

^(١) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٣٠٣ .

^(٢) ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٥٥ .

^(٣) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٣٠٤ .

^(٤) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٣٩٢ ، ٤١٨ . السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٠ أ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٥١١ .

^(٥) أخذ هذا المصطلح من القرآن الكريم ، وتحديداً من قوله الله تعالى : " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " . التوبة : الآية : ٦٠ .

^(٦) نظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٤ : ٣٧٤ .

النواحي ما قُدر مبلغ قيمته ثلاثون ألف دينار " (١) ، ويبدو أن هناك من اعترض على ذلك تلويحاً أو تصريحاً ، فأضاف السيد شرف الدين بالقول : " ... وكنت أسمع — الإمام — يشير إلى أنه — أي الشيخ الرصاص — من جملة المؤلفات " (٢) .

وفي موضع آخر من سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، ذكر أن السلطان الليث بن عمران سعى إلى الإفساد في بلاد الإمام ، وتحالف مع الرسوليين ، وأن الإمام أمر له بشيء من الصلة النفسية ليتألف قلبه بها (٣) .

ويبدو أن الأئمة الزيديين الذين جاءوا بعد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، استمروا على الأسلوب نفسه ، لأن الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي تعرض لجملة من الاعتراضات كان من ضمنها ، إعطاء الأموال لمن يقال أنهم من المؤلفات قلوبهم (٤) ، مع أن زمن التأليف ذهب إلى غير رجعة بعد قيام الدولة الإسلامية وعزة الإسلام والمسلمين ، ولهذا أشار الإمام عز الدين بن الحسن بعد ذلك ، حين قال : " ... ومما يغلط فيه على الإمام ، استنكار كثير من الممتزين لما يصرفه ... على المؤلفين ... واعتقاد التفريط فيه ، وقد يقول قائلهم كانت عطية فلان الظالم أو الفاجر — كذا — ... وهذا من الجهل العظيم بواقع المصلحة الحاصلة من التأليف في الدين ، وكونها أعظم موقفاً من المصلحة الحاصلة بمواساة الفقراء والمساكين ، فإن مواساتهم المصلحة فيها مقصورة عليهم ، لا تتعداهم ، وأما المؤلف ففي إعطائه مصالح — منها — قوة شوكة الحق ، أو حفظ بيضة الإسلام ، أو سد ثغر ، أو دفع شر تخاف على المسلمين — منه — " (٥) .

ويدخل في معناها أيضاً ، تلك الهدايا التي يرسلها الأئمة الزيديون لنظرائهم من الرسوليين وغيرهم ، ولا سيما عند تحسن الأوضاع السياسية بينهم ، ومن ذلك ما فعله الإمام المنصور بالله علي بن صلاح الذي أهدى الملك الأشرف (الثاني) الرسولي إسماعيل بن عباس بن علي بن داؤد خمساً من جيات الخيل ، وخمسة أحمال من الأمتعة

(١) سيرة المهدي ، ق ٦٠ أ .

(٢) المصدر نفسه والورقة .

(٣) المصدر نفسه ، ق ٥٠ ب .

(٤) الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٥١١ .

(٥) العناية التامة ، ق ٥١ .

الرفيعة (١) ، ويبدو أن ذلك كان المتعارف عليه بين غيره من الأئمة والملوك الرسوليين في تلك المدة (٢) .

د. الصدقات :

ومقدراها من حجم الإنفاق ، الربع من الحقوق الشرعية المستحقة للدولة (٣) ، ولا تدخل في ذلك الموارد الأخرى كالمعونة والقتالات وغيرها ، ففي وصية للإمام المهدي أحمد بن الحسين لأحد ولاته أمره فيها بقبض الواجبات الشرعية من الناس ، وإخراج الربع منها كصدقات على الأيتام ، والضعفاء ، والفقراء ، والمساكين من المسلمين من أهل الحاجة كل على قدر ما يحتمله حاله ، وذلك بعد أن يحاط علماً بعددهم وأحوالهم (٤) .

ويبدو أن الربع من الواجبات الشرعية المستحقة للدولة لم يكن كافياً لسد احتياجات هؤلاء الفقراء والمساكين ، فضُوعف نصيبهم من هذه الحقوق إلى النصف (٥) في عهد الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ومن جاء بعده ، والسبب في عدم كفايتها هو إدراج أصناف آخرين إلى جانب الأصناف الثمانية التي نصت الآية الكريمة على استحقاقهم للصدقات (٦) ، كالعلماء والمتعلمين . ومع أن الإمام المهدي أحمد بن الحسين أكد ولاته بأن لا تكون كفايات العلماء وذوي التدين من ربع الصدقات على حساب الضعفاء والأيتام ونحوهم (٧) ، إلا أن ذلك لم يمنع تضرر المنصوص عليهم في الآية الكريمة من ذلك ، لأن كفايات العلماء والمتعلمين لم تكن إلا على حسابهم ، فرفع حق هؤلاء من الصدقات إلى النصف تفادياً لذلك .

ومع عدم كفايتها لسد احتياجات هؤلاء الفقراء والمساكين — حتى بعد زيادتها إلى النصف من مقدار الواجبات الشرعية المستحقة للدولة — فإن الدولة الزيدية كانت

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٥١ .

(٢) فطر : أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .

(٤) نفسه ، ص ١٤٤ .

(٥) يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ١٨٤ .

(٦) الأصناف الثمانية هم : الفقراء ، المساكين ، العاملون عليها ، المؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب (العبيد) ، والغارمون (المدينون) ، وفي سبيل الله (المجاهدون) ، وابن السبيل .

(٧) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٤٨ .

- في كثير من الأحيان تصرف نصيبهم من الصدقات على الشؤون العسكرية^(١) ، وحين اعترض بعض المتضررين على ذلك^(٢) ، وُضعت شروط على تأديتها ، ومنها^(٣) :
- أن هذا الحق – حق الفقراء والمساكين – لا يكون لزاماً على الدولة إلا بعد أن تقبض الحقوق الشرعية الواجبة على الناس لها ، فإذا امتنع الناس عن ذلك وأخذوا من هذه الحقوق سقط تكليف الدولة في ذلك .
 - أن هذا الحق يأتي بعد سد الثغور ، وضبط الأمور ، وإعلاء كلمة الدين ، ولو أدى ذلك إلى موت الفقراء والمساكين بسبب الحاجة والمجاعة ، لأن موتهم لا يتعدى ضرره إياهم ، ولا يؤدي إلى فساد في الدين .
 - أن القيام بهذا الحق يأتي بعد التحقق من حال الدولة وقدراتها المالية ، فكم من إمام لا يتمكن من مواسة فقير واحد ، فضلاً عن أن يواسي كل الفقراء .

هـ . شراء الحصون وعمارتهما :

إن الاهتمام الذي حظيت به الحصون شراءً وعماراً من الأئمة الزيديين لم يكن عفويًا ، وإنما كان ناتجاً عن حاجة ملحة فرضتها الأوضاع في تلك المدة ؛ لأن هذه الحصون كانت بمثابة القواعد العسكرية التي يتم حماية أراضي الدولة من خلالها ، والتي يعد وجودها على منطقة معينة دليل السيادة الكاملة عليها .

وكما اجتهد الرسوليون في شراء هذه الحصون وعمارتها ، فعل الأئمة الزيديون الأمر عينه وإن لم تمكنهم الإمكانيات من مجارة الرسوليين في ذلك ، وحتى نوضح العبء المادي الذي يمثله شراء الحصون وعمارتها كمصرفٍ من مصارف الموارد المالية ، وما تتكبده الدولة في هذا السبيل ، نضرب مثلاً بقضية شراء الإمام المهدي أحمد بن الحسين لحصن براش صنعاء من الأمير أسد الدين محمد بن الحسن^(٤) فقد اشترى الإمام المهدي هذا الحصن بمبلغ خمسمائة ألف درهم وعشرين ألف ، وهو مبلغ عظيم في تلك المدة ، بل إن الموارد المالية للدولة الزيدية في ذلك الحين لم تف بتغطيته ، وعجزت عن توفيره ، مما اضطر الإمام المهدي إلى توزيعه بين رعايا

(١) يحيى بن حمزة ، مشكاة الأنوار ، ق ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه والورقة .

(٣) الإمام عز الدين ، العناية التامة ، ق ٤٨ – ٤٩ .

(٤) نظر فيما سبق ، ص ٨٨ .

دولته ، لإتمام عملية الشراء ، فكان نصيب كل بالغ متمكن من هذا المبلغ أربعة دراهم مهديّة ، حتى من أموال الأيتام والأرامل .

ومع كل ما بذل لتحقيق هذه الغاية ، إلا أن القيمة لم تستكمل ، فقد ذكرت المصادر التاريخية أن من الأسباب التي أدت إلى الخلاف بين الإمام المهدي والأمير أسد الدين ، أن الأخير لم يتسلم من قيمة براش إلا اليسير ، ولم يوفّ حقه ^(١) .

ولا تتوقف عملية الصرف على الحصون على شرائها أو حتى عمارتها ^(٢) ، بل تتعداه إلى شحنها باستمرار بالأطعمة ، والعلف ، والمياه ، والأسلحة ، وهذا ما فعله الإمام المهدي أحمد بن الحسين بعد تسلمه حصن براش ، فقد أمر بشحنه بالبر ، والشعير ، والذرة ، والزبيب ، والجلجلان (السمس) ، والملح ^(٣) ، وهذا ولا شك يحتاج إلى أموال مثلت إلى جانب قيمة الحصن ، مصرفاً آخر من مصارف الدولة الزيدية .

ومع أنه لا تتوافر لدينا معلومات أخرى عن عمليات شراء مماثلة تمت بعد ذلك ، إلا أننا نجزم بحدوثها ، فقد كان هذا الأمر من الأساليب التي يدار بها الصراع بين الدولتين الزيدية والرسولية ، وبالتالي استمرت هذه العملية باستمرار الصراع . وستستمر عملية عمارة الحصون ^(٤) وترميمها وإعادة بنائها ، لأنها الأساس في حسم أي صراع ، وفي بقاء أي دولة ، وهذا لن يتأتى إلا بالأموال الطائلة التي تكلف خزانة الدولة الكثير ^(٥) .

و . بناء القصور والمساجد ونفقاتها :

وهذه أيضاً من المصارف التي خصصت لها الدولة الزيدية نصيباً موفوراً ، ولا سيما في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، الذي شهدت الدولة الزيدية في عهده نشاطاً عمرانياً لازالت آثاره باقية إلى اليوم ، فهذا مسجد القبة (مسجد الإمام صلاح الدين) في صنعاء القديمة ^(٦) ، يُصرف على بنائه ما قدر

^(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٩ أ .

^(٢) المصدر نفسه ، ق ٥١ أ .

^(٣) نفسه ، ق ٨٣ أ .

^(٤) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ١٧٨ .

^(٥) المصدر نفسه والصفحة .

^(٦) انظر : لوحة رقم (٣٢) .

بعشرة آلاف أوقية من الدراهم (الفضة) (١) ، ولم يكتفِ الإمام الناصر بذلك ، بل خصص له بعد بنائه أموالاً عظيمة تقوم به ويمن أقام فيه من العلماء والمتعلمين ، حتى قيل إن هذه الأموال زادت عما خصصت له ، فانتفع بها خلق كثير من أهل صنعاء (٢) .

وكما كان يفعل الإمام الناصر في حياته ، تابعت زوجته فاطمة بنت الأسد ذلك بعد وفاته ، فقامت بعمارة مسجد الأبهري (٣) في صنعاء ، وجعلت له من الأموال ما جعل الإمام الناصر لمسجد القبة (٤) ، وهذا على سبيل التمثيل فقط ؛ لأن المساجد التي عمرت في عهد الإمام الناصر صلاح الدين كثيرة ، وإن لم نحصل على معلومات بشأنها بسبب اندثارها أو خرابها ، ولا سيما منها تلك التي بنيت خارج صنعاء .

كان ذلك فيما يخص المساجد ، أما للقصور فكلفت – هي الأخرى – الدولة الزيدية أموالاً طائلة في عمارتها ، ومثلت إلى جانب المساجد مصرفاً كبيراً من مصارف الموارد المالية ، وخاصة في العهود المتأخرة من تاريخ الدولة الزيدية . ونذكر منها على سبيل التمثيل ، قصر المنصورة في صعدة الذي بناه الإمام المهدي علي بن محمد (٥) ، وقصر ذمار الذي بناه الإمام الناصر صلاح الدين محمد (٦) ، وقصر المعقلي الذي عمره الإمام الناصر أيضاً في ظفار (٧) ، فضلاً عن أعمال الترميم والتوسعة والإضافات التي شهدتها العديد من القصور الأخرى ، كقصر صنعاء (٨) وقصر غمدان ، وغيره من القصور التي كانت تشتهر بها صنعاء آنذاك (٩) .

(١) ابن الوزير ، الفضائل ، ق ٢٤٣ .

(٢) المصدر نفسه والورقة .

(٣) نظر : لوحة رقم (٣١) .

(٤) ابن الوزير ، الفضائل ، ق ٢٤٣ – ٢٤٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ق ٢٤٤ .

(٦) نفسه ، ق ٢٤٣ .

(٧) نفسه ، ق ٢٤٤ .

(٨) أصبح هذا القصر – اليوم – منطقة عسكرية تدعى " قصر السلاح " ، يمنع دخولها أو الاقتراب منها ، أو تصويرها ، وعلى الرغم من كل ذلك تمكنا بصعوبة من التقاط بعض الصور لها من الخارج انظر

لوحة رقم (٨) ، (١٧) .

(٩) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٧ .

٣. الصناعة :

على الرغم من شحة المعلومات في المصادر التاريخية عن الصناعات التي كانت موجودة في الدولة الزيدية موضوع البحث ، فأنا نستطيع أن نعطي صورة عن هذه الصناعات بالاستناد إلى بعض الإشارات التي وردت في هذه المصادر ، وبالإستعانة ببعض المراجع الحديثة التي اختصت بهذا الشأن ، ومن هذه الصناعات :

أ. صناعة البرود^(١) والملابس :

تكاد تكون هذه الصناعة هي الوحيدة التي تم التصريح بها في المصادر التاريخية بالنسبة للدولة الزيدية ، فقد ورد عند ابن فند^(٢) أن بعض السادة وصلوا إلى الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، وطلبوا ثوباً درياً ، وفوطة^(٣) حواشيها حرير ، هدية لبعض مشائخ أنس ، وأن الإمام أمر من يبحث عن ذلك في مخازنه التي للبز ، ثم قال على لسان أحد هؤلاء السادة : " فدخلنا في ذلك المخزن فوجدناه ملأناً بالثياب الدرية وفوط الحرير " (٤) .

وفي السياق نفسه ذكر ابن فند^(٥) أن رجلاً في عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين نزل حجة لعمل فوطة حرير عند بعض أهلها المشهورين بهذا الأمر ، فكان كلما وصل إلى أحد النساجين قال له : " ما نفرغ لك معنا عمل للإمام " ، حتى أحاط بعمال حجة كلهم من النساجين ، فما وجد أحداً فيها إلا ويصنع طلبات للإمام الذي اشتهر بالكرم^(٦) ، وهذا يؤكد أن حجة اشتهرت في ذلك الحين بصناعة البرود والملابس التي كانت ذات جودة عالية ، والتي لولا جودتها لما اهتم الإمام المهدي

(١) البرود : جمع بُرد وطول الواحد منها ثمانية أذرع ، وكان لها شهرة كبيرة في شبه الجزيرة العربية وغالباً ما تصنع من الكتان . العسيري ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ، ص ٢٧٧ . خليفة : ربيع حامد ، الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ١٧٢ .

(٢) مآثر ، ج ٢ : ٨٨٠ .

(٣) الفوط : تصنع من المنسوجات القطنية . انظر : خليفة ، الفنون الزخرفية اليمنية ، ص ١٧٢ .

(٤) مآثر ، ج ٢ : ٨٨٠ .

(٥) المصدر نفسه والجزء ، ص ٨٨٠ - ٨٨١ .

(٦) ورد في المصادر التاريخية أن الإمام المهدي أحمد بن الحسين أهدى الشاعر قاسم بن علي بن هتيمل مانتتي فردة ثياب . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٨٧٩ - ٨٨٠ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٣٦٥ . الحبسي ، تنمة الإفادة ، ق ٤٥ .

بصناعتها في حجة ، ولما أهداها إلى غيره ، كما أن ذلك لا يمنع وجود مثل هذه الصناعة في مناطق أخرى من الدولة الزيدية وإن لم تكن بجودة برود حجة وملابسها .

ب . الصناعات الجلدية :

نتيجة لتوافر إنتاج الجلود في الدولة الزيدية ، ولا سيما جلود الأبقار والأغنام التي كانت تذبح بالعشرات والمئات في الولائم والضيافات والأعياد ^(١) ، اشتهرت بعض المناطق في الدولة الزيدية كصعدة وغيرها بصناعة الجلود ، وذلك بعد دباغتها باستعمال نبات القرض المتوافر هناك بكميات كبيرة ^(٢) ، والذي يستعمل كمادة مزيلة للعفن في هذه الصناعة ، وبعد دباغة الجلود يعاد استعمال هذه الجلود في صناعات مختلفة ، أبرزها صناعة النعال ، والأحذية ، وقرب الماء التي تستعمل لنقل الماء من منابعه وأباره إلى المنازل ، وفي صناعة سروج الخيل والأحزمة ، وغيرها من الصناعات التي يظل في مقدمتها صناعة التجليد ^(٣) للكتب والمؤلفات بهدف حمايتها من التلف ، وبقائها لأطول مدة من الزمن ، والدليل على حرفية هذه الصناعة ودقتها ، بقاء الكثير من المخطوطات التي كتبت في زمن أصحابها ، أو التي نسخت فيما بعد ، إلى يومنا هذا ، والتي يصل عددها إلى المئات إن لم نقل الآلاف ^(٤) .

ج . الصناعات المعدنية :

نظراً لاشتهار المناطق التابعة للدولة الزيدية بوجود العديد من المعادن ، كان من الطبيعي أن تشتهر هذه الدولة بالصناعات المعدنية ، التي شملت صناعة الأسلحة ، وصناعة الحلي ، وصناعة التحف ، وغيرها من الصناعات ، ومع أننا لا نملك معلومات دقيقة وتفصيلية عن هذه الصناعات ، إلا أننا نستطيع استنتاج ذلك بالاستعانة ببعض الإشارات التي وردت في المصادر التاريخية عن هذا الأمر ، والتي في مقدمتها ما تم الاعتراض عليه من قِبل بعض العلماء والفقهاء في عهد الإمام الناصر صلاح

(١) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٥ ب .

(٢) الحجري ، مجموع ، مج ٢ : ج ٣ : ٤٦٨ .

(٣) خليفة ، الفنون الزخرفية اليمنية ، ص ٢٤٢ .

(٤) المرجع نفسه والصفحة .

الدين محمد بن علي ، ولا سيما ما يخص تحلية السيوف والدوى (١) والمجامر بالذهب والفضة (٢) .

• **صناعة الأسلحة :** مع أن صناعة الأسلحة بمختلف أنواعها من السيوف والخنجر والرماح والدروع وغيرها ، لا تحتاج إلى تدليل ، بسبب الحالة المستمرة من الصراع الدائر بين الدولتين الزيدية والرسولية ، وحالة الحرب التي تغذيها دوافع مذهبية وطائفية وقبلية ، ناهيك عن قطاع الطرق وحالات النهب والسلب في ذلك الحين ، إلا أن وصول هذه الصناعة إلى مرحلة طليها وتحليتها بالذهب والفضة ، وزخرفتها بأشكال مختلفة من الزخارف ، يدل على مدى التطور الذي وصلت إليه هذه الصناعات ، والذي جعل منها ، صناعات للمباهاة أكثر من الغرض الذي صنعت من أجله .

• **صناعة الحلي :** هي من الصناعات القديمة في اليمن ، إلا أنها وصلت إلى أوج تطورها في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد ، الذي صنعت في عهده القلائد الكبيرة من الذهب والفضة لأفراسه وخيوله (٣) ، وهذا يدل على رواج هذه الصناعة ، وعلى تخطيها الغرض الذي صنعت من أجله .

٤ . التجارة :

أ . التجارة الداخلية :

نقصد بها التجارة التي كانت تجري بين مناطق اليمن المختلفة ، سواء تلك التي تقع في نطاق الدولة الزيدية ، أم تلك التي تقع في نطاق الدولة الرسولية ، أو بين المناطق في الدولتين معاً .

فنظراً لاختلاف الخصائص الجغرافية والطبيعية بين مناطق اليمن المختلفة ، وتنوعها بين سهول ، ومرتفعات ، وهضاب ، وصحاري ، ومناطق ساحلية ، ومناطق باردة ، وأخرى معتدلة ، وثالثة حارة ، كانت كل منطقة من هذه المناطق تعتمد على المناطق الأخرى في سد احتياجاتها من السلع الزراعية والصناعية ، والتي يتم تداولها عن طريق التجارة بين هذه المناطق ، وشملت هذه التجارة بشكل رئيس الخضروات ،

(١) مفردها مدواة ، وتسمى أيضاً المحبرة ، لأنها تصنع لحفظ الحبر المستعمل للكتابة .

(٢) الوزير ، كاشفة الغمة ، ق ٢٧٢ . الشرفي ، اللآلئ ، ج ٢ : ٥١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ق ٢٧٧ .

والفواكه ، والحبوب بأنواعها ، والحيوانات ، والصناعات اليدوية والحرفية ، ناهيك عن الزيوت ، والملح ، والصابون ، والسمن ، والبهارات ، وغيرها من السلع التي يحتاج الناس إليها بشكل شبه يومي ، والتي يعول عليها آخرون في سد احتياجاتهم من المطالب الحياتية الأخرى ، ولعله من أبرز الدلائل التي تؤكد وجود مثل هذه التجارة ما رواه ابن فند (١) عن قلّة الأسعار التي شهدتها صعدة في عهد الإمام المهدي صلاح بن علي ، والذي شمل أسعار السمن ، والسليط ، والملح ، والحلبة ، والأغنام الحجازية وغيرها ، حتى صارت تلك المدة حالة يُضرب بها المثل في الرُخص .

أما فيما يخص التجارة بين الدولتين الزيدية والرسولية ، فلا شك في وجودها لضرورة وجودها أصلاً ، فكلتا الدولتين تعتمد على الأخرى في توفير ما تفتقر إليه من السلع التي لا تتوافر لديها ، فالدولة الرسولية اعتمدت على الدولة الزيدية – ولا سيما في عهدها المتأخرة وانحسار نفوذها في اليمن الأعلى – في توفير الفواكه التي لا تزرع إلا في المناطق الباردة ، كالعنب ، والتفاح ، والرمان ، والبرتقال ، والسفرجل ، والخوخ ، والمشمش ، والكمثرى ، والأنجاص (٢) ، وغيرها من أنواع الفواكه التي لا تزرع في المناطق الرسولية ، حتى إنه لم تخل مائدة أو سماء رسولي (٣) من هذه الأنواع ، حسب موسمها ، هذا فيما يخص الاستهلاك الداخلي ، أما ما نتاجر به الدولة الرسولية مع العالم الخارجي ، وتعتمد على الدولة الزيدية في توفيره فشمل الجوز ، واللوز ، والزبيب ، والفسق ، والبنّاق ، والملح ، وكانت تصدره إلى مصر ، والهند ، والشام ، وغيرها من البلدان عبر مؤانئها البحرية (٤) .

(١) مآثر ، ج ٣ : ١١٥٨ .

(٢) ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ، ص ١٨٥ .

(٣) الخزرجي ، العقود : ج ٢ : ٢٣٢ ، ٢٣٥ . وإلى ذلك ألمح ابن الأنف حين قال بعد أن أشار إلى الزبيب واللوز الحسن المجلوب من مشارق البلاد في صنعاء ، والذي كان يُرسل هدايا إلى الملوك الرسوليين : " وغير ذلك مما في الجبل – اليمن الأعلى – يُعرف وما يُهدى إلى اليمن – الأسفل – يُستظرف " . انظر : روضة الأخبار ، ص ٣٨ .

(٤) يذكر الدكتور عليان أن السلع اليمنية التي كانت تصدر إلى الخارج في عهد بني رسول هي : الثياب المصنوعة من الحرير والقطن والكتان . انظر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول ، ص ٢٢٠ . فهل يعقل أن تكون هذه البضائع كل ما تصدره اليمن في ذلك الحين إلى العالم الخارجي ؟ نحن لا نظن ذلك ولا سيما مع اشتهاار اليمن عالمياً بمنتجات و سلع أخرى لا نقل شهرة عما نُكر .

واعتمدت الدولة الزيدية على الدولة الرسولية في توفير ، التمر ، والأرز ، والسكر ، والعسل ، والشمع ، والقطن ، والأواني الفخارية والمعدنية ، فضلاً عن الصابون ، والحناء ، والبهارات ، وكانت العديد من هذه السلع مما تستورده الدولة الرسولية من الخارج (١) .

كذلك شملت التجارة المتبادلة بين الدولتين أنواع الحبوب المختلفة ، كالبر والحنطة ، والشعير ، والذرة ، والسمن ، والدخن .

وكنوع من أنواع التنظيم الإداري لهذه التجارة ظهر في الدولة الزيدية ما يسمى بتصنيف الأسواق ، فهذا سوق للحامين ، وهذا للحبوب ، وذلك للمواشي والأغنام ، ورابع لأرباب الحرف ، وهكذا . هذا فيما يخص المدن ، أما المناطق البعيدة عنها ، والتي تقطنها القبائل المتباعدة ، فتم تحديد مكان معين لها ، تجتمع فيه لمزاولة التجارة مع بعضها البعض ، وخصص لكل قبيلة منها ، يوم من أيام الأسبوع أو الشهر يسمى يوم سوقها (٢) ، فيقال اليوم سوق نهم ، أو وادعة ، أو غيرها من القبائل .

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق ، الإشارة إلى أن هذا النوع من التجارة (الداخلية) وفر أموالاً طائلة للتجار ، الذي وصل الحال ببعضهم إلى حد التمكن من تجهيز الجيوش ، وفي مقدمة هؤلاء ابن مداعس (٣) ، أحد تجار مدينة صعدة الذي قتلت أخاه الشريفة فاطمة بنت الحسن (٤) لميله للإمام الناصر بن محمد ، فأرسل إلى

(١) عليان ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ . وتنقسم هذه السلع من حيث أسباب اعتماد الدولة الزيدية على الرسولين في توفيرها على قسمين :

الأول : ما يزرع وينتج في المناطق الحارة والرطبة ، وبالتالي لن تتوافر إلا في مناطق اليمن الأسفل التي تسيطر عليها الدولة الرسولية ، والأمثلة على ذلك : القطن ، والتمر ، والحناء ، والعسل ، وغيرها .

الثاني : ما تستورده الدولة الرسولية من الخارج عبر الموانئ البحرية والتي لا تملك الدولة الزيدية لياً منها ، والأمثلة على ذلك : الأرز ، والسكر ، والشمع ، والأواني الصينية ، والبهارات ، وغيرها .

(٢) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٩٠٠ . وكثيراً ما استغل الأئمة الزيديون هذا الأمر في معاقبة القبائل المتمردة ، بحصارها اقتصادياً ، وقطع أيام سوقها مع القبائل الأخرى . انظر : السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٩٠ ب .

(٣) اسمه عبد الله بن محمد بن علي بن مداعس ، واسم أخيه الذي قُتل حسن . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٧٦ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمان ، ج ٢ : ٥٨٧ .

الإمام الناصر يخبره بمقتل أخيه على يد أعوان الشريفة فاطمة ، ووضح له السبب في ذلك ، وقال له طالباً نجدته ، والأخذ بالثأر له من هذه الشريفة : " سر إلى صعدة وعليّ ما أنفقتَه على العساكر ... من عند خروجك من صنعاء حتى ترجع إليها ، وخذ بثأري من هذه المرأة ، وأملك ما لديها " (١) ، وذلك ما تحقق لاحقاً ، ولم يكن الوعد لمجرد الكلام ، بل كان عن استطاعة ومقدرة وربط للقول بالفعل (٢) .

ويبدو أن ما تدره التجارة على أربابها من أرباح ، جعل بعض الأئمة يتجهون إليها ، ومنهم الإمام محمد بن علي بن صلاح الدين ، الذي وصف بالتاجر كثير المال (٣) ، وكذا كانت زوجته الشريفة فاطمة بنت الحسن .

ب . التجارة الخارجية :

قليلة هي المعلومات التي حصلنا عليها حول هذا النوع من التجارة في الدولة الزيدية ، والسبب في ذلك أن أغلب المصادر التي تناولت هذه المدة ، ركزت على التجارة الخارجية للدولة الرسولية ، التي كانت تسيطر على أهم الموانئ التجارية الواقعة على البحر الأحمر والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، والتي من خلالها تبادلّت التجارة مع العديد من الدول في المشرق والمغرب . بينما أهملت الإشارة إلى هذا النوع من التجارة في الدولة الزيدية .

إن عدم امتلاك الدولة الزيدية لميناء بحري في أي مرحلة من مراحلها السياسية ، لم يشجع على ازدهار التجارة الخارجية فيها ، مع أنه لم يمنع قيامها ، ولا سيما مع الحجاز ، والعراق ، وبلاد الشام ، عن طريق البر ، إذا أخذنا بعين الاعتبار الامتداد الروحي والمذهبي للأئمة الزيديين في أرض الحجاز ، الذين كانت تأتيمهم الحقوق من هناك ، ولذلك مثل الحجاز بالنسبة للدولة الزيدية حلقة الوصل التي تربطها بالعراق من جهة ، وبلاد الشام من جهة أخرى .

واستناداً إلى ما تقدم ، كانت الدولة الزيدية تستورد من هذه المناطق بعض ما يندر وجوده في اليمن ، وتشتهر تلك المناطق بإنتاجه وصناعته ، وبالمقابل كانت تصدر كل ما تشتهر به من صناعات و سلع إلى هذه البلاد ، في إطار حركة تجارية

(١) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٧٤ .

(٢) نظير : المصدر نفسه والصفحة .

(٣) نفسه ، ص ٣٦ - ٣٧ .

وتبادل مستمر ، ولاسيما في مواسم الحج الذي يأتي إليه التجار والعامّة من كل مكان^(١) .

أما عن ماهية البضائع المتداولة ، فلا توجد أشياء محددة يمكننا حصرها ، إلا أن الأمر لا يخلو من التجارة بالأنعام (الإبل ، البقر ، الأغنام) ، وقد سبق وأن أشرنا إلى وجود الغنم الحجازية في سوق صعدة^(٢) عند الحديث عن مدة الرخص التي شهدتها الأسواق في عهد الإمام صلاح بن علي^(٣) ، كذلك لا يخلو الأمر من التجارة بالسلاح نظراً لشهرة اليمن عموماً ، والمناطق الخاضعة للدولة الزيدية خصوصاً^(٤) ، بهذا النوع من الصناعة^(٥) ، فضلاً عن التجارة بالحلي^(٦) ، والملابس ، وبعض الغلات الزراعية كالحبوب وغير ذلك .

ومع اقتناعنا الشديد بحتمية وجود التجارة مع العراق وبلاد الشام ، إلا أننا لم نستدل على ما يؤيد وجهة نظرنا ، باستثناء ما ذكره ابن دعثم^(٧) من وجود بز العراق في اليمن في عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة — المدة التي سبقت موضوع البحث — وباستثناء ما ذكره ابن فند^(٨) من أن الإمام الناصر بن محمد قدّم لأحد الشعراء بزاً هندياً ثقيلاً من أنفاس البزوز ، وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين البز الهندي ، والتجارة مع العراق ، والإجابة أن وصول هذا البز إلى اليمن لن يكون إلا من خلال أحد الأمرين :

(١) لا زال الحج حتى اليوم بالنسبة للكثيرين حتى البسطاء منهم موسم تجارة على الرغم من كل الصعوبات التي وضعت للوصول إلى هناك ومزاولة هذا النشاط .

(٢) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٥ ٨ .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٣٢٢ .

(٤) تعد مدينة صعدة من أبرز المدن في اليمن التي تشتهر بهذه الصناعة ، نظراً لوجود طبقة الحدادين فيها لذلك تتسبب إليها العديد من الأسلحة ، فيقال على سبيل التمثيل ، النصال الصعدية ، والسيوف الصعدية ، وغير ذلك من الأسلحة .

(٥) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع . انظر : شبحه : مصطفى عبد الله ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية العربية اليمنية ، وكالة أسكرين للدعاية والتجهيز الفني ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ١٢٢ — ١٢٦ . خليفة ، الفنون الزخرفية اليمنية ، ص ٦١ — ٦٢ .

(٦) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع . انظر : خليفة ، الفنون الزخرفية اليمنية ، ص ٢٢٧ — ٢٣١ .

(٧) السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٤٧٩ .

(٨) مآثر ، ج ٣ : ١١٩٢ .

الأول : أن يكون مما نتاجر به بلاد الهند مع الدولة الرسولية ، ومنها وصل إلى الإمام الناصر ، وها ما نستبعده بالنظر إلى ضعف العلاقة بين الدولتين الزيدية والرسولية في عهد الإمام الناصر من جانب ، وضعف الدولة الرسولية من جانب آخر .

الثاني : أن يكون من البضائع التي وصلت إلى الدولة الزيدية من الهند عبر العراق ، وهذا ما نؤيده ، وتأسيساً عليه لا نستبعد وصول بضائع أخرى عبر الطريق ذاته ، كما لا نستبعد أن تصل بعض الصناعات المشهورة في الدولة الزيدية ، كالأسلحة ، والحلي إلى الهند مروراً بالعراق أيضاً .

٥ . سك العملة :

نظراً للغش الذي يشوب العملة واختلاف ضروبها في الوزن ، كانت الدولة الزيدية حريصة على تجديد عملتها كلما سمحت لها الأوضاع بذلك ، فتسك عملة جديدة تحمل اسم الإمام الذي أمر بسكها ، ولعله من المهم هنا أن ننوه قبل كل شيء إلى البعد السياسي الذي يتعلق بموضوع السكة ، لأنه — من وجهة نظرنا — العامل الرئيس في ذلك ، فإلى جانب البعد الاقتصادي الذي أشرنا إليه آنفاً ، هناك بعد سياسي لا يمكن إغفاله عند الحديث عن موضوع السكة ، فكما قصدت الدولة الزيدية من سك عملتها تعزيز اقتصادها ، كان هدفها من ذلك أيضاً تأكيد وجودها واستقلالها عن بقية الكيانات والدول الأخرى في اليمن ^(١) .

وبنظرة متمعنة في تاريخ الدويلات المستقلة في اليمن بما فيها الدولة الزيدية يتأكد هذا القول ، فلا تجد دولة من تلك الدول دون أن تجد لها مسكوكات نقدية تحمل أسماء أمرائها وملوكها وحكامها ^(٢) ، بل إن العلامة الأولى التي تدل على استقلال أي من هذه الدول عن الخلافة الإسلامية ، هي سك العملة بأسماء مؤسسي هذه الدول .

^(١) لعل ذلك ما قصده الشاعر حين قال مادحاً الدراهم التي أمر بضربها الإمام المنصور عبد الله بن حمزة :

أمرت بضربهما المخلصين فجاء كمثلهما خالصين
أهانا نفود جنود الضلال وكانا بغيهما شاهدين

نظر : ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ١ : ج ٢ : ٧٢٠ .

^(٢) حول هذا الموضوع ، انظر الكتب الآتية :

Lowick . N . M . *The Mansuri and the Mahdawi Dirham* , N . C , The Royal Numismatic Society , 1983 . Balafier . Mohamed . *Trésors et Collections de Monnaies islamiques des Musées du Yémen* , Thèse de Doctorat , Université de Paris - Sorbonne (Paris IV) , 1994 . Nützel . Heinrich . *Münzen der Rasuliden*

ولذلك كان الكثير من الولاة الذين لديهم نزعات استقلالية يقومون بسك العملة بأسمائهم في أقاليمهم ، في إشارة منهم لغيرهم بتفردهم بالحكم ، ولنا فيما قام به الولاة في عدن وتعز وزبيد وذو جبلة في عهد الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك المعظم توران شاه دليل على ذلك (١) .

والدولة الزيدية في اليمن لا تختلف كثيراً عن سبق ، فأول الخطوات التي قام بها الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بعد تمكنه من تأسيس الدولة الزيدية في المناطق الشمالية كانت سك العملة (٢) من الدنانير الذهب والدرهم الفضة ، والتي كتب عليها (٣) قول الله تعالى : " ... وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا " (٤) ، في إشارة واضحة إلى عدم اعترافه بالخلافة العباسية ، وإعلاناً منه بقيام الدولة الجديدة ذات الأصول العلوية (٥) .

وبالعودة إلى موضوع بحثنا ، ونظراً للصراع الذي حدث على الإمامة عقب وفاة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بين أبناء هذا الإمام ، والإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن ، استمر آل الإمام المنصور في سك العملة باسم والدهم (٦) ، مستغلين في ذلك قوتهم ونفوذهم وتحالفهم مع الرسوليين ، في ظل إمامة المعتضد بالله يحيى بن المحسن ، ومع ما لهذه الخطوة من أبعاد اقتصادية ، إلا أن الأبعاد السياسية

Nebst Einem Abriss der Geschichte Dieser Jemenischen Dynastie / Coins of the Rasulids Comprising A Synopsis of The History of The Yemenite Dynasty ,Translated by Dr . Alferd Kinzelbach , Mainz , 1987 .

الشميري : فؤاد عبد الغني محمد ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً من خلال النقود العربية الإسلامية للفترة ما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين / التاسع والخامس عشر الميلاديين ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .

(١) ابن حاتم ، السمط ، ص ٢٢ .

(٢) الهمداني : أبو محمد الحسن بن أحمد ، الجوهرتين العتيقتين المانتعتين من الصفراء والبيضاء الذهب والفضة ، تح : محمد بن محمد الشعبي ، دار الكتاب ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٣ م ، ص ٦٧ - ٦٨ .
بلغغير : محمد صالح ، الكنز ، مجلة سبأ ، مجلة تاريخية حولية تصدر عن قسم التاريخ كلية الآداب ، جامعة عدن ، العدد العاشر ، ديسمبر ، ٢٠٠١ م ، ص ٢٠ .

(٣) إيمان بيضاني ، الحياة الاقتصادية ومظاهر الحضارة ، ص ٢٣٥ .

(٤) الإسراء : الآية : ٨١ .

(٥) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ٦٢ .

(٦) المرجع نفسه ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

كانت هي الأقوى ، وكان الهدف الرئيس منها هو التأكيد من آل الإمام المنصور بالله على عدم اعترافهم بالمعتضد بالله إماماً على الزيدية .

ولأنه لا يمكن الاستمرار إلى ما لا نهاية في سك العملة باسم إمام قد توفي ، اتجه الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة — الذي كان يفتقر لشروط الحسبة والإمامة عند الزيدية — بعد وفاة أخيه عز الدين محمد والإمام المعتضد بالله يحيى ، إلى تسخير موضوع سك العملة لخدمة أهدافه السياسية ، فأضاف اسمه (أحمد) ، ولقبه (المتوكل على الله) إلى جوار اسم والده على السكة ، مرفقاً إياه عبارة ولي العهد أو ولي عهده ^(١) ، وهي عبارة ليس لها أي مدلول سياسي ؛ لأن ولاية العهد للشخص المعين تُلغى بعد وفاة الحاكم أو الملك ، ويصبح ولي العهد حاكماً أو ملكاً ، كما أنه لا يوجد في النظام السياسي للدولة الزيدية ما يُعرف بولاية العهد ، ومع ذلك ، كان لهذه العبارة مدلولات عديدة أهمها : الإشارة إلى أحقيته بالحكم ^(٢) خلفاً لوالده ، ولا سيما مع غياب الشخص المؤهل لتولي الإمامة في ذلك الحين .

ومع قيام الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، وخلافه مع الأمير شمس الدين ، أصر كل منهما على سك العملة التي تحمل اسمه ، فاستمر الأمير شمس الدين بسك الدرهم المنصوري ^(٣) باسم والده ، وإلى جواره عبارة " أحمد المتوكل على الله ولي العهد " ^(٤) ، في تأكيد منه على عدم الاعتراف بإمامة المهدي أحمد بن الحسين وأحقيته بالحكم ، في حين أمر الإمام المهدي بعد دخوله الأول إلى صنعاء رجلاً من بني مشرع ^(٥) يدعى علي بن الحسن — وهو كما وُصف مشهود له بالثقة والأمانة والتدين ^(٦) — بسك درهم جديد يحمل اسم الإمام المهدي ^(٧) أحمد بن الحسين ، ويحل تدريجياً محل الدرهم المنصوري الذي اعتراه الغش في السكة واختل وزنه ، بعد أن تم خلط الفضة فيه بالنحاس ^(٨) .

(١) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ٧٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

(٣) عن هذا الدرهم ومأثوراته ، انظر شكل رقم (١) ، (٣) .

(٤) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ١٧٩ .

(٥) مَشْرَعَة : بلدة في آسن ، إليها ينسب بنو المشرعي أهل نمار . المقضي ، معجم ، ص ٦٢٧ .

(٦) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٠ أ .

(٧) عن هذا الدرهم ومأثوراته ، انظر شكل رقم (٤) .

(٨) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٠ أ .

ومع ما لهذه الخطوة من أهمية اقتصادية — إن صح ما ذكره السيد شرف الدين من الغش الذي شاب الدرهم المنصوري — فأننا نرى أن لها أبعاداً سياسية لا تقل أهمية عن الأبعاد الاقتصادية ، فاستمرار سك الدرهم المنصوري في عهد الإمام المهدي وفي ظل الخلاف مع الأمراء الحمزيين يقلل من شأن هذا الإمام ويضعف جانبه ، ولذلك أصر على سك الدرهم المهدي ليعطي انطباعاً للآخرين بعكس ذلك ، بل إنه أمر أن يكون وزن درهمه ثلثي قفلة بقفلة الإسلام ، أي أن يكون زائداً على الدرهم المنصوري ^(١) الذي كان وزنه قبل أن يشوبه الغش نصف قفلة ^(٢) ، فأصبح الدرهم المنصوري الذي يتراوح وزنه ما بين (١.٦٣ — ١.٧٣ غرام) ^(٣) ، يقابله الدرهم المهدي الذي يزن (١.٩٤ غرام) ^(٤) ، أي أن الأربعة الدراهم المهدية تساوي خمسة من نظيراتها المنصورية ^(٥) ، وكان هدف الإمام المهدي من ذلك أن ينتشر استعمال الدراهم المهدية على حساب الدراهم المنصورية ، فيقل إقبال الناس عليها ويتجهوا إلى اقتناء الدراهم المهدية ، وبالمقابل حاول الأمير شمس الدين أحمد أن يُبقي على وجود الدراهم المنصورية ، وأن يزيد من سكتها ^(٦) .

وبانتهاء الصراع بين الإمام المهدي والأمراء الحمزيين بمقتل الإمام المهدي ، ظل آل الإمام المنصور يسكون العملة باسم والدهم والأمير شمس الدين أحمد حتى بعد وفاته ^(٧) ، وتوقف سك الدرهم المهدي ^(٨) .

ونظراً للضعف الذي اعتري الإمامة الزيدية بعد ذلك ، ظلت الدراهم المنصورية هي المصدر الوحيد للسكة ^(٩) ، مع غياب إمام قوي يقف في وجه الأمراء الحمزيين والدولة الرسولية معاً ، ولولا التحالف الذي كان قائماً بين الأمراء الحمزيين

^(١) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦٠ أ .

^(٢) ابن دعثم ، السيرة المنصورية ، مج ٢ : ج ٣ : ٧١٧ .

^(٣) Balafier, Mohamed , *Trésors et Collections de Monnaies islamiques des Musées du Yémen* , tome II , p . 242 .

^(٤) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ٧٨ .

^(٥) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٨٢ ب .

^(٦) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ١٧٩ .

^(٧) المرجع نفسه والصفحة .

^(٨) نفسه ، ص ١٨٠ .

^(٩) نفسه ، ص ١٧٩ .

والدولة الرسولية لاختلفى هذا النوع من السكة أيضاً^(١) ، ولا توجه الناس إلى التداول بالدرهم الرسولية ، ولنا في توقف سك الدراهم المنصورية بعد الضعف الذي حل بالأمرء الحمزيين دليل على ذلك ، فأخر درهم منصوري عثر عليه يعود إلى سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٦ م^(٢) ، وكانت الدراهم المنصورية قبل ذلك تسك بنمطين : الأول باسم الإمام المنصور عبد الله بن حمزة وإلى جواره اسم الأمير شمس الدين ولقبه ، والثاني باسم الإمام المنصور وإلى جواره اسم الأمير صارم الدين داؤد ولقبه (المنتصر بالله)^(٣) ، وبعد ذلك انقطع أي أثر للدراهم المنصورية التي تضائل وزن وكمية سكها حتى توقفت تماماً .

ولأن الأشراف الحمزيين رفضوا الاعتراف بإمامة المهدي محمد بن المطهر بعد وفاة والده الإمام المطهر بن يحيى المرتضى ، فمن غير المستبعد قيامه بسك عملة تحمل اسمه ، ولا سيما في السنوات الأخيرة من عهده (٧٢٤ – ٧٢٨ هـ / ١٣٢٤ – ١٣٢٨ م) ، فليس من المعقول أن يستمر التعامل بالدرهم المنصوري في المناطق الخاضعة لسيطرته ، والتي امتدت من صعدة في الشمال إلى صنعاء جنوباً ، إذ لا بد من توفير بديل للناس للتعامل فيما بينهم في أثناء عمليات البيع والشراء .

ونظراً لحالة الصراع والتشرذم التي شهدتها الدولة الزيدية بعد وفاة الإمام المهدي محمد بن المطهر وتعارض الأئمة الأربعة ، فإننا نستبعد أن يكون أي منهم قد قام بسك عملة تحمل اسمه ، والأسباب في ذلك عديدة ، ليس أولها حالة الانتشغال الدائم بالحرب المستمرة بين هذه الأطراف ، ولن يكون آخرها ضعف الإمكانيات المادية اللازمة للقيام بهذا الأمر الذي يحتاج إلى ألوف من قفال الفضة لسك الدراهم ، والتي وإن توافرت فلا شك أنها تستخدم لتمويل الحرب لا لسك العملة .

ومع قيام الإمام المهدي علي بن محمد واجتماع الأشراف الزيديين على إمامته ، أعاد هذا الإمام الأسس الأولى لإعادة تكوين الدولة الزيدية ، وكان من أهم هذه الأسس سك العملة ، التي هي عنوان لكل دولة ، فسك دراهم من الفضة على

(١) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ٧٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٧٩ .

(٣) نفسه ، ص ٧٦ – ٧٧ .

نمطين ^(١) : الأولى : خفيفة ويزن الواحد منها (٠.٩١ غرام) ^(٢) ، والثانية : ثقيلة نسبياً ويزن الواحد منها (١.٥٩ غرام) ^(٣) ، وهي بالنظر لمن سبقها من الدراهم الزيدية أقل وزناً ، وهذا يعود كما يبدو لشحة الإمكانات في الدولة الزيدية بعد الصراع الطويل الذي مرت به قبل قيام الإمام المهدي علي بن محمد .

ولعل أهم ما يجب أن ننوه عليه عند الحديث عن هذه الدراهم أنها سكت في صنعاء ، وخلال سنوات متفاوتة (٧٥٤ هـ ، ٧٧٢ هـ / ١٣٥٤ م ، ١٣٧١ م) ^(٤) مع أن صنعاء خلال هذه السنوات لم تكن تحت سيطرة الإمام المهدي ، بل كانت تحت سيطرة الأمراء من بني عبد الله ^(٥) ، وهم من نسل الإمام المؤيد يحيى بن حمزة ، وهذا يدل أن مكان سك العملة لا يعني بالضرورة السيطرة السياسية عليه ، إلا إذا كانت هذه السيطرة من النوع الشكلي الذي يدين صاحبه بالولاء الاسمي فقط ، دون أن يكون للإمام أي سلطة فعلية على تلك المناطق ، وهذا على ما يظهر ما أملتته الأوضاع السياسية آنذاك على الإمام المهدي ، فاكتمى من الأشراف من بني عبد الله بالولاء الاسمي حتى يتفرغ لقتال الأشراف الحمزيين الذين بدأ شرهم يستفحل في صعدة والظاهر ^(٦) ، في محاولة منهم لاستعادة أمجادهم القديمة على حساب الأشراف من آل الهادي ، وعلى رأسهم الإمام المهدي علي بن محمد .

والشيء الآخر أن الدراهم الثقيلة التي سكت في سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م ، هي في حقيقة الأمر من سك الناصر صلاح الدين محمد بن علي وليست من سك الإمام المهدي ، وذلك أن الإمام المهدي — في ذلك الحين — كان في آخر سنوات حياته التي اعتزل فيها الناس والحكم — معاً — بعد إصابته بمرض الفالج ، وتقويض أمور الحكم والسياسية لولده الناصر ^(٧) الذي كان هو الإمام الفعلي آنذاك ، إلا أنه وفي

^(١) عن هذا الدرهم ومأثورته ، انظر شكل رقم (٢) .

^(٢) Balafier, Mohamed , *Trésors et Collections de Monnaies islamiques des Musées du Yémen* , tome II , p . 574.

^(٣) المرجع نفسه والجزء والصفحة .

^(٤) نفسه ، ص ٥٧٣ — ٥٧٤ .

^(٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١٤ .

^(٦) المصدر نفسه والجزء ، ص ٥١٧ .

^(٧) نفسه والجزء والصفحة .

ظل حياة والده ظل يسك العملة باسمه حتى يُبقى على الشرعية التي يستطيع من خلالها البقاء في الحكم وتسلم الإمامة .

وبعد وفاة الإمام المهدي على بن محمد في سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م ، وانتقال الإمامة إلى ولده الناصر صلاح الدين ، شهدت الدولة الزيدية أزهى عصورها ، وكان لموضوع سك العملة نصيب من ذلك ، فسك الإمام الناصر ، درهم فضة ^(١) يحمل اسمه ، وزنه يقرب من وزن الدرهم المظفري (نصف قفلة) ^(٢) ، (١.٩٨ غرام) ^(٣) من الفضة الخالصة ليس فيه نحاس البتة ^(٤) ، وكان هذا الدرهم أفضل ما سكته الدولة الزيدية في ذلك الحين بعد الدرهم الذي سُك في عهد الإمام الهادي يحيى بن الحسين ، وهذا إن دل ، فإنما يدل على مستوى الازدهار الذي شهدته الدولة الزيدية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد ، وبعده دخلت هذه الدولة في مرحلة أخرى من الصراع بين الأشراف الزيديين على الإمامة من جهة ، ومع مختلف الأطراف من جهة أخرى ، وهي مرحلة لا نظن أنها سمحت للإمام المنصور بالله علي بن صلاح — آنذاك — بسك عملة جديدة تحمل اسمه ، وظل التعامل في تلك المدة بالدرهم الذي سُك في عهد الإمام الناصر أو سُك بعد وفاته وحملَ اسمه ^(٥) .

وبعد استقرار الأوضاع السياسية والعسكرية في الدولة الزيدية ، في النصف الثاني من عهد الإمام المنصور بالله علي بن صلاح (٨٢٠ — ٨٤٠ هـ / ١٤١٨ — ١٤٣٧ م) ، فإنه من المؤكد أن هذا الإمام قام بسك عملة تحمل اسمه ، لأن هذا الموضوع — بالإضافة إلى أهميته الاقتصادية — كان ذا بعد سياسي لا يمكن إغفاله ، ولاسيما بعد الصراع الطويل الذي خاضه الإمام المنصور مع الإمامين أحمد بن يحيى

(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ : ٤٤٥ .

(٣) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ١٤٢ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٨ .

(٥) يؤكد هذا القول ، العثور على دراهم من الفضة تحمل اسم الإمام الناصر ، سُكّت في صنعاء في سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٦ م ، أي في عهد ولده الإمام المنصور بالله علي بن صلاح . انظر : أحمد قائد بركات ، " النقد في اليمن " ضمن كتاب الموسوعة اليمنية ، مؤسسة العفيف الثقافية ، صنعاء ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م ، مج ٤ : ٣٠٣٨ . ويشبه هذا الأمر إلى حد كبير الدراهم المنصورية التي ظلت تُسك باسم الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة حتى بعد وفاته .

المرتضى ، و علي بن المؤيد الهادي ، والاعتراضات التي أثرت من بعض العلماء حول إمامته ، ولعل ما يؤكد ذلك ، أن الإمام الناصر بن محمد ، وهو حفيد للإمام المنصور ، على حداثة سنه ، وتفرد المملوك قاسم بن سنقر بالأمر ، إلا أنه لم يغض الطرف عن موضوع السكة ، وإلى ذلك أشار ابن الأنف بقوله : " وأقام - المملوك سنقر - الناصر بن محمد ... وكان الناصر يومئذ لم يبلغ الحلم ، وهو غلام حدث لا احسان له في الأمر ، فجعل للناصر من الأمر ظاهره ، وضربت باسمه السكة من الدرهم الإمامي الذي النحاس أكثره ... " (١) . وتأسيساً على ما تقدم ، فإن الإمام المنصور علي بن صلاح أحرى بأن يحرص على سك العملة باسمه ، وهو الذي استطاع الصمود أمام كل التحديات والأخطار التي واجهت الدولة الزيدية بعد وفاة والده الإمام الناصر صلاح الدين محمد .

أما عن أماكن سك العملة في الدولة الزيدية آنذاك فيتبين من خلال ما ذكرناه آنفاً أنها توزعت بين عدد من المدن والحصون ، ولعل أهم هذه المدن صنعاء ، وصعدة ، والجوف ، ونجران ، وحوث ، وثلا (٢) . وأما الحصون فأهمها ظفار ، والقبعة ، وكحلان ، وعزان ، والجاهلي ، وحلب ، وذروة (٣) . هذا ما تمكنا من رصده من المصادر والمراجع ، وإن كنا لا نستبعد وجود أماكن أخرى للضرب غير التي ذكرناها ، ولا سيما في نمار التي كانت عاصمة للدولة الزيدية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين وولده الإمام المنصور بالله علي .

وختاماً لهذا الموضوع ، لا بد من الإشارة إلى أمرين : الأول : أن تعدد أماكن الضرب يعود إلى الصراع المحتدم الذي شهدته الدولة الزيدية بين الأشراف الحمزيين والأئمة من آل الهادي ، والذي نتج عنه تقاسم المناطق والبلدان والحصون ، فحاول كل منهم أن يثبت سيطرته على هذه المناطق من خلال سك العملة فيها باسمه ، فضرب الأشراف الحمزيون السكة في كل من ظفار ، وصعدة ، والقبعة ، وكحلان ، وحوث ، والجوف ، وعزان (٤) . وسك الإمام المهدي أحمد بن الحسين - على سبيل التمثيل - درهماً في كل من صنعاء ، والظفير ، وثلا ، والجاهلي ، وحلب ،

(١) روضة الأخبار ، ص ٣٣ .

(٢) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ٧٨ ، ٢٢٤ - ٢٣٢ .

(٣) المرجع نفسه والصفحات .

(٤) نفسه ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

ونجران ، وذروة ^(١) . وكذا كان الحال مع من جاء خلفهم مع مراعاة اختلاف الأسماء والأماكن .

الأمر الثاني : أننا حين تحدثنا عن سك العملة في الدولة الزيدية حصرناها بالدرهم الفضة ، وذلك لأنها السمة الغالبة في هذا الشأن ، إلا أن ذلك لا يلغي وجود نوع آخر من السكة ، كالأفلاس من النحاس ^(٢) ، ولكن في إطار ضيق ومحدود ، ويُعزى ذلك إلى نفور الناس عن التعامل بها نظراً لقلّة قيمتها وخفة وزنها .

ثالثاً : المظاهر العمرانية والفنون الزخرفية :

مما لا شك فيه ، أن حالة الحرب المستمرة بين الأشراف الزيديين أنفسهم من جهة ، وبين هؤلاء الأشراف والدولة الرسولية من جهة أخرى ، منذ عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، وحتى قيام الإمام المهدي علي بن محمد ، لم تساعد على القيام بأي مظهر من مظاهر العمارة بمختلف أشكالها الدينية ، والعسكرية ، والمدنية ، والأسباب في ذلك عديدة ، ليس أولها عدم الاستقرار السياسي في الدولة الزيدية ، التي ما أن يُنصب الإمام فيها ، حتى يُقتل أو يُؤسر أو يُكحل ، أو يخوض أتون حرب طويلة مع معارضيّه والمنشقين عنه ، تآكل الأخضر واليابس وتستنزف الموارد المالية للدولة ، التي من المفترض أن تُخصص للنواحي العمرانية ، والمصالح العامة للناس ، ولن يكون آخرها ضعف الموارد المالية للدولة الزيدية ، التي تعد الأساس لأي نهضة عمرانية في أي مكان وزمان ، إذ لا تكفي هذه الموارد — أصلاً — لتغطية نفقات الدولة العسكرية ، وبالتالي لا مجال للقيام بأي مظاهر عمرانية أخرى ، إذا لم تكن للضرورة العسكرية يد فيها .

وباستثناء حالة الاستقرار المؤقت الذي عاشته الدولة الزيدية مع قيام الإمام المهدي علي بن محمد ، وخلال عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، تخلو المصادر التاريخية من ذكر أي مظهر عمراني خلال عهود الأئمة الآخرين .

ونظراً للتطور الذي شهدته الدولة الزيدية في مختلف نواحي الحياة في عهد الإمام الناصر صلاح الدين ، على المستوى السياسي ، والاقتصادي ، والفكري ، والعلمي ، والاجتماعي ، كان من الطبيعي أن يتزامن مع ذلك تطور موازٍ في النواحي

(١) الشميري ، تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً ، ص ١٨٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٧٩ .

العمرائية و الفنون الزخرفية ، ومع أنه لم ترد معلومات كافية ومفصلة عن هذه المظاهر بشكل يوحى بخلو هذا العهد منها أيضاً ، إلا أن ابن الوزير — صاحب كتاب الفضائل — ويحيى بن الحسين ، يعدان الوحيدين اللذين أشارا إلى هذه النهضة العمرائية ، وإن بإشارات مختصرة وخالية من التفاصيل ، بحكم الفارق الزمني المتأخر بين مدتهما وعصر الإمام الناصر صلاح الدين ، وتعرض العديد من هذه المظاهر للتخريب والاندثار .

ويظهر أن ندرة المعلومات القديمة حول هذا الموضوع ، قد سرت إلى مصادرنا الحديثة باستثناء مرجعين أو ثلاثة ، اعتمدت — كما اعتمدنا — على الزيارات الميدانية للمظاهر العمرائية المتبقية إلى يومنا هذا .

أما ابتداء موضوعنا فسيكون مع ما أورده ابن الوزير ، ويحيى بن الحسين عن النواحي العمرائية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد .

ذكر ابن الوزير في هذا الشأن قائلاً : " وله ... البنايات والعمارات في بيوت الله وبيوت المسلمين ، في نمار قصرها ومحاسنها العامة ، وفي صنعاء المسجد المبارك مسجد القبة ... وفيه محاسن لا يوجد في غيره ، ولا يزال — بناؤه — جديداً — يُدعى — فيه لكل صلاة حتى لصلاة الليل ، وله ... أموال عظيمة تقوم به ، وبمن أقام به ، ويزيد على ذلك ... وهو الذي صيرَ الجامع — الكبير — على الحالة التي هو عليها الآن ، وكان فراشه الحصباء ، وأحدث المطاهير الليلية والنهارية ... ومحاسن المدينة كلها من آثاره وآثار زوجته الحرة بنت الأسد بن إبراهيم ، فإن لها العناية في مسجد الأبهـر ، وعمرته ، وهو من محاسن صنعاء ، وأكثر مساجدها سرحاً ، وجعلت له من — الأموال — مثل الذي فعل الإمام بمسجده ... وحدث أكثر المساجد بصنعاء بعنايته ... وله ... في القصر^(١) عمارة أيضاً في أعلاه وأسفله كالمنظرة ... وغيرها من منازل ، وكذا في أبوابه وطرقه ، وكالعمارة بالأحجار المرمر المذاب عليها

(١) عن هذا القصر ، انظر فيما سبق ، ص ٣١٨ .

الرصاص ، وسائر ما فيه من المحاسن ، وله في عمارة المعقلي (١) قصر في حصن ظفار (٢) منزل عظيم لا يوجد مثله ... " (٣) .

أما يحيى بن الحسين فيبدو أنه استقى معلوماته من ابن الوزير وإن اختصرها فقال : " ... وللإمام صلاح الدين ... مآثر ومفاخر ، منها إحداث مطاهير جامع صنعاء الكبير النهارية والليلية ، وفراشه ، وكان فراشه من قبل الحصباء فقط ، ومنها بناء الديوان الكبير في قصر صنعاء ، ورصه بأحجار المرمر المسبوك بالرصاص المذاب . ومن مبانيه العجيبة قصر ظفار الذي ليس له نظير في قطر اليمن ، إلا القصر الذي بناه المؤيد الرسولي في ثعبات (٤) " (٥) .

وبالعودة إلى ما ذكره ابن الوزير نستطيع القول أن عصر الإمام الناصر صلاح الدين شهد نهضة عمرانية في صنعاء ودمار وما حولهما على وجه التحديد ، وكان اهتمام الإمام بهما أمراً طبيعياً ، لأن صنعاء هي عاصمة اليمن عبر العصور ، أما الاهتمام بدمار فبدأ منذ انتقال الإمام المهدي علي بن محمد إليها (٦) بعد تحالفه ومصاهرته لأكرادها ، واستمر مع بقاء الإمام الناصر فيها واتخاذها عاصمة لدولته ومقراً لحكمه ، فكان لا بد له من بناء مركز له فيها ، وكان هذا المركز هو القصر الذي بناه هناك ، ثم كان له في المدينة عمارات عديدة ، لعل أهمها تلك التي كانت بجوار القصر وحوله ، والتي عرفت بالجراجيش (٧) .

ونظراً لتعرض مدينة دمار للتخريب المتعمد من الملك الطاهري ، الظافر عامر بن طاهر في سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م (٨) ، تعرضت معظم البنايات والعمارات

(١) نسبة إلى قصر المعقلي الذي بناه الملك المؤيد الرسولي في مدينة ثعبات . انظر : ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ، ص ٢٥١ . ابن الديبع ، قررة العيون ، ص ٣٤٦ . يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٧ .

(٢) المقصود هنا حصن ظفار الذي يقع في بلاد همدان الشام من أعمال صعدة . الأكرع : إسماعيل ، البلدان اليمانية ، ص ١٩٣ .

(٣) الفضائل ، ق ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٤) ثُعَبَات : مدينة الى الشرق من تعز . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ١٢٠ ، (حاشية المحقق) .

(٥) غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٧ .

(٦) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥١٧ .

(٧) ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ١٥١ .

(٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٩٢ .

التي شيدها الإمام الناصر صلاح الدين فيها للدمار والاندثار ، وهذا ما أكده ابن الأنف حين قال : " ... وأمر الملك الظافر عامر بن طاهر بخراب قصر ذمار ، فأخرب والناصر ^(١) ينظر من هران ^(٢) ، وفي قلبه لذلك لواعج الأحران ، وكذلك أمر بخراب دور المقمحي ^(٣) ... ودور الغز بني الأسد ، فأخرب مبانيها بعد أن انتهب ما فيها ... وكذلك الجراجيش أمر بخرابها بعد أخذ ما فيها وانتهابها " ^(٤) .

ونظراً لحجم الخراب والتدمير الذي لم يترك حجراً على حجر من هذا القصر والبنائيات المجاورة له ، فإن مؤرخاً خبيراً كالأستاذ محمد بن علي الأكوغ - رحمه الله - لم يتمكن من تحديد موقع القصر مكتفياً بالقول : " لا يعرف اليوم قصر ذمار وأين كان محله ، والجراجيش أكبر حي بمدينة ذمار وهي حديثة الاختطاط ^(٥) " ^(٦) . وعلى الرغم من بقاء اسم الجراجيش إلى يومنا هذا على حي من أحياء مدينة ذمار ، فإن بقاء الاسم لم يحافظ على البنائيات التي كانت قائمة فيه ، ولا يعني بقاءها ، ولأننا لا نملك معلومات تفصيلية عن قصر ذمار لا نستطيع وصفه ، ولكن ذلك لا يعني نفي أن يكون هذا المظهر من أهم وأبرز المظاهر العمرانية في الدولة الزيدية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد ، بل إن بعض الإشارات التي ذكرها ابن الوزير ^(٧) تدل على الفخامة والأبهة التي كانت فيه ^(٨) ، ومن ذلك ما نقله عن بعض الأشخاص من أنه دخل على الإمام الناصر بقصره في ذمار ، فإذا بالشموع تزدهر بين يديه ، وأنه أتشده أبياتاً من الشعر ، مدحه فيها ، وأشاد بقصره وجماله ،

^(١) الإمام الناصر بن محمد من أحفاد الإمام الناصر صلاح الدين محمد . انظر فيما سبق ، ص ١٨٢ .

^(٢) يقصد حصن هران الذي يقع الى الشمال من مدينة ذمار . الحمزي ، كنز الأخبار ، ص ٥٨ ، (حاشية المحقق) .

^(٣) آل المقمحي : من الغز الذين حلوا ذمار ، وينتسبون إلى إبراهيم بن يحيى المقمحي ، ولهم بقية إلى يومنا هذا . انظر : ابن الأنف ، روضة الأخبار ، ص ٣١ ، (حاشية المحقق) .

^(٤) روضة الأخبار ، ص ١٥١ .

^(٥) يقصد بالنسبة لذلك الحين .

^(٦) روضة الأخبار ، ص ١٥١ ، (حاشية المحقق) .

^(٧) الفضائل ، ق ٦٨ .

^(٨) من الدلائل التي تشير إلى الفخامة والأبهة التي كانت في قصر ذمار ، أن بناء هذا القصر والأموال التي صرفت من أجل تجهيزه ، كانت من المسائل التي تعرض بسببها الإمام الناصر للانتقاد ، على اعتبار ذلك من قبيل الأسراف والبذخ . انظر : الشرفي ، اللائى ، ج ٢ : ٥١١ .

ثم عقب الراوي على ذلك بالقول : " فرأيته - أي الإمام الناصر - يمتد ورأيت ثيابه كادت تذهب من فوقه من - الارتياح - " (١) .

وإذا كان الحال كما أسلفنا بالنسبة للمباني والعمارات في زمار ، فإن المباني والعمارات في صنعاء كانت أحسن حظاً وأفضل حالاً لعدة أسباب :

١ . بقاء صنعاء تحت سيطرة الأشراف الزيديين من نسل الإمام الناصر صلاح الدين لعشرات السنين بعد وفاته ، ولم تسقط بيد الطاهريين نهائياً ، إلا في سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٥ م (٢) ، وهو ما لم يحدث مع مدينة زمار التي استولى عليها الطاهريون استيلاءً كاملاً في سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م (٣) ، ولذلك تمت المحافظة على المباني والعمارات في صنعاء من الاندثار ، وحتى مع تسليمها المؤقت للطاهريين في سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م ، أو سقوطها النهائي في سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٥ م ، كان الأمر يتم بصورة سلمية ليس فيها للخراب والدمار أي شأن يذكر ، وذلك كون الصراع قد وصل إلى نهايته ، ولا معنى للتخريب والتدمير في ذلك الأوان .

٢ . إن معظم البنايات والعمارات في مدينة صنعاء كانت ذات طابع ديني ، ومن المعلوم أن للعمارة الدينية ولا سيما الجوامع والمساجد قدسية عند كل المسلمين ، كما أن لها حرمة تمنع أي شخص من تخريبها ، مع أن ذلك لم يمنع من اندثار العديد من هذه المظاهر العمرانية نتيجة لعوامل الزمن والإهمال .

واستناداً إلى ما تقدم ، نستطيع إعطاء بعض الأمثلة على المظاهر العمرانية في عهد الإمام الناصر صلاح الدين ، ويأتي في مقدمتها مسجد القبة في صنعاء ، الذي يعرف اليوم بمسجد صلاح الدين ، والذي وصفه الدكتور مصطفى شحبه وصفاً مهنيًا قائلاً : " هذا المسجد من المساجد العامرة في الجهة الشرقية من مدينة صنعاء (٤) ، عمره الإمام صلاح الدين محمد بن الإمام المهدي ، المتوفي عام ٧٩٣ هـ ، ودفن

(١) الفضائل ، ق ٦٨ .

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٦٣٣ .

(٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ٥٩٤ .

(٤) لظفر لوحه رقم (٣٢) .

بجوار مسجده هذا^(١)... يدخل إلى المسجد عن طريق باب في وسط ضلعه الجنوبي^(٢)... أو عن طريق المدخل الثاني في الناحية الشرقية جهة الممر أو الدهليز... ويتكون - المسجد - من سبع بلاطات بواسطة ست بانكات تجري عقودها موازية لجدار القبلة^(٣)، ويتكون كل صف من البانكات من أربعة أعمدة فيما عدا البانكة الأخيرة جهة الجنوب (عمودان فقط) . وتحمل هذه الأعمدة تيجاناً على شكل الناقوس المقلوب^(٤)، وتشبه إلى حد كبير الأعمدة بمسجد الأبهري بصنعاء^(٥)، وتقوم على هذه التيجان عقود نصف دائرية واسعة وممتدة، تزين واجهتها إطارات مفصصة^(٦). تستمر أشرطة الكتابات الجصية المذهبة حول جدران المسجد لآيات من القرآن الكريم^(٧)، وبعضها يحمل اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء...

يتوسط جدار القبلة كتلة المحراب من الجص... والواقع أن هذا المحراب غاية في الدقة والإبداع^(٨)، فكتابته النسخية وزخارفه مذهبة، يتوج طاقيته شكل المحارة المشعة حول منطقة زخرفية رئيسة تتوسطها، أسفلها مباشرة منطقة زخرفية على شكل ثماني في الوسط محاطة من الناحيتين بزخرفة وتعرف هذه الزخرفة عند أرباب الصناعات والحرف في اليمن "بالخاتم السليماني" يعلو طاقية المحراب المعقود بعقد نصف دائري شريط من الكتابة النسخية، يُقرأ عليه "لا اله إلا الله محمد رسول الله" كما يعلو تجويف المحراب عقد كبير نصف مستدير يقوم على عمودين صغيرين على جانبي المحراب. ويتوسط العقد زخرفة على هيئة الدرع البارز من الجص على أشكال زخرفية متشابكة وكتابات تقرأ "اقرأ باسم ربك الذي خلق" ويقوم أيضاً على

(١) انظر لوحات رقم (٣٣) ، (٤٨) .

(٢) انظر لوحة رقم (١٨) .

(٣) انظر لوحة رقم (٢٦) .

(٤) انظر اللوحة نفسها .

(٥) كان هذا الأمر قبل سنوات، قبل أن يُرمم المسجد بما فيه الأعمدة، ويتغير شكلها عما كانت عليه سابقاً . انظر لوحة رقم (٢٩) . مع أن الأعمدة في المساحة الإضافية الملحقة بالمسجد والتي تعود لعهد الإمام المنصور بالله الحسين بن الإمام المتوكل على الله المتوفى في سنة ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م، بقيت على حالها وهذا مما يُستغرب منه .

(٦) انظر لوحة رقم (٢٦) .

(٧) انظر لوحة رقم (٢٥) .

(٨) انظر لوحات رقم (٢٢) ، (٥٣) .

هذا العقد عقد آخر مدبب ، على واجهته كتابة نسخية تقرأ : " يا أيها الذي آمنوا اركعوا واسجدوا وابدعوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون " ، كما تتوسطه زخرفة بارزة على هيئة جامعة أو " صرة " بداخلها زخارف متشابكة لأطباق نجمية وزخارف نباتية وهندسية ، هذا بالإضافة إلى وجود آية الكرسي على الإطار الخاص للعقد الآخر من أسفل . يكتف المحراب من الناحيتين ومن أعلى شريطين من الكتابات والزخارف المذهبة والملونة . وتقرأ هذه الكتابات على يسار المحراب " بسم الله الرحمن الرحيم أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل " ويستمر على الشريط العلوي " فتهد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً وقل رب أدخلني " وعلى يمين المحراب " مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً صدق الله العظيم ورسوله النبي الكريم " هذا فضلاً عن أشرطة الكتابات التي تستمر على جدران المسجد الأربعة وهي تحمل بعض الآيات من القرآن الكريم وألقاب واسم المنشئ ... وبعض الألقاب والأدعية " (١) .

ومع أننا قمنا بزيارة هذا المسجد أكثر من مرة ، فأنا لم نستطع أن نوصفه بمثل هذا الوصف الدقيق الذي لم نجد بدأً من الاستعانة به ، والسبب الرئيس في ذلك يعود إلى التجديدات التي طرأت على المسجد في الآونة الأخيرة بما فيه المحراب (٢) ، الأمر الذي يجعل وصفنا لما رأينا بعيد بعض الشيء عن المدة التي نحن بصدد دراستها .

ومن الأمثلة على المظاهر العمرانية في الدولة الزيدية ، القسم الجنوبي الغربي من الجامع الكبير بمدينة ثلا ، الذي يعود تاريخ تأسيسه إلى ما بين سنتي ٧٢١ - ٧٩٦ هـ / ١٣٢١ - ١٣٩٣ م (٣) ، و يعد تحفة معمارية غاية في الدقة والابداع ، وأهم ما يميز هذا القسم فضلاً عن المحراب (٤) والعقود والأعمدة والتيجان ، تلك

(١) مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) انظر لوحات رقم (٢٢) ، (٥٣) .

(٣) جار الله ، ثلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ٢١٩ .

(٤) انظر : جار الله ، ثلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، لوحة رقم (٥٣) . إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن هذا المحراب تعرض منذ عشر سنوات للتجديد ، فلم يعد يحتفظ بالزخارف والكتابات الأصلية . انظر : المرجع نفسه ، ص ١٥٧ . حاله في ذلك حل العديد من المحاريب الأثرية التي تعرضت لنفس الأمر .

القباب الخمس والعشرين ^(١) التي تعلوه ، وتملاً بواطنها الكتابات النسخية وبخط الثلث والزخارف النباتية والهندسية المنفذة بمادة الجص ^(٢).

ولم يقتصر الإبداع في الفنون الزخرفية على محاريب وأعمدة وعقود المساجد والجوامع ، والتي استعمل الجص كمادة رئيسة فيها ، وإنما تعداه إلى العديد من الفنون الزخرفية المنحوتة على الخشب المستعمل في صنع المصنذقات والمنابر والتوابيت ^(٣) والأبواب والنوافذ ، وهي زخارف ليست جديدة على الدولة الزيدية عموماً ، فالزائر لجامع ظفار ذيبين الذي بناه الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة يرى بأعينه بقايا هذه الزخارف الجصية والخشبية ^(٤) . ومما لا شك فيه أن هذا التطور في العمارة والفنون الزخرفية استمر بعد ذلك ، وتبعت الأساليب ذاتها — إن لم نقل تطورت — ولذلك يظن بعض الباحثين في أن من يقوم بعمل هذه الفنون والزخارف هم من أسرة واحدة احترفت هذه المهنة سواء في البناء أم الزخرفة والنحت ، وإلى ذلك أشار الدكتور شيحة حين أكد على تشابه تيجان الأعمدة والعناصر الزخرفية في مسجدي القبة والأبهر ^(٥) — قبل التجديدات — والدكتور ربيع حامد خليفة حين قال وهو يتحدث عن تابوت الإمام المهدي أحمد بن الحسين : " ويزين الجوانب الأربعة للتابوت زخارف كتابية بالخط الكوفي المورق والمزهر على أرضية من التفريعات النباتية المورقة والمزهرة ، وتعتبر كتابات هذا التابوت من أجمل الكتابات الكوفية على الآثار الإسلامية اليمنية ... ونلاحظ تشابهاً بين أسلوبها وأسلوب الكتابات على تابوت — الإمام — عبد الله بن حمزة وتابوت ابنه ، إذ إن قاعدة الكتابة في الخطين واحدة ... مما يجعلنا نرجح أن تكون قد صنعت من قبل صانع واحد أو أسرة واحدة في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) " ^(٦).

^(١) لتفاصيل أوفى عن هذه القباب ، انظر : جار الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٤٢ — ١٥٧ .

^(٢) للإطلاع على بعض من هذه الكتابات والزخارف ، انظر : جار الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، لوحات رقم (١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ...)

^(٣) انظر لوحات رقم (٣٩) ، (٤٠) .

^(٤) الميسري ، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ص ٢١٠ — ٢١٤ .

^(٥) مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية ، ص ٧٧ .

^(٦) الفنون الزخرفية اليمنية ، ص ١٠١ — ١٠٢ . وعن لوحات هذه التوابيت ، انظر : فنستر : بربارة ، تقارير أثرية حول بعض المباني الإسلامية في اليمن ، ترجمة : عبد الفتاح عبد العليم البركاوي =

ولعل أكثر ما أثار دهشتنا عند زيارتنا لضريح الإمام الناصر صلاح الدين محمد ابن علي (١) ، خلوه من أي من هذه العناصر الزخرفية (٢) ، ولا سيما وهو من الأئمة المشهورين في تاريخ الدولة الزيدية في اليمن ، ولعل تعرض الضريح للسرقة من قبل بعض الذين اعتقدوا بأنه يحوي على أموال وكنوز من الذهب والفضة ، استناداً إلى ما عُرِف عن هذا الإمام من الثراء ، فضلاً عما كان يمتلكه من السيوف والدوي والمجامر المذهبة ، سبباً في خلوه من هذه العناصر (٣) .

=المعهد الألماني للآثار بصنعاء ، صنعاء ، ١٩٨٢ م ، ج ١ ، لوحة رقم ٣٧ . الميسري ، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، لوحة رقم (١٢) . خليفة ، الفنون الزخرفية اليمنية ، لوحة رقم (٣٠) .

(١) يعد أمر الدخول إلى هذا الضريح أمراً في غاية الصعوبة ، وهذا ما يفسر عدم تمكن بعض الباحثين المختصين من دخوله . انظر : شيجه ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية ، ص ٧٨ . إلا أننا مع كل ذلك تمكنا من الدخول إليه والنقاط الصور ، بعد أن أقنعنا القائم عليه بذلك .

(٢) انظر لوحات رقم (٤٨) ، (٤٩) .

(٣) بنظرة متفحصة للضريح ، تبدو آثار الفوضى فيه واضحة ، وأهم ما يدل عليها ، ويؤكد ما أشار إليه القائم على الضريح من تعرضه للسرقة ، وجود لوح من الحجر على يمين باب الضريح يعود لتاريخ اليمن القديم عليه كتابات بالخط المسند . انظر لوحة رقم (٤٧) ، وهذا يعني أن بعض من الذين اعتقدوا أن هذا اللوح يعود للضريح المسروق ، قاموا بإعادته إليه ظناً منهم أنه جزء من الألواح الحجرية التي كانت تحيط به ، مع أن أقل الباحثين علماً في مجال التاريخ يستطيع التمييز بين هذا اللوح والألواح الأخرى ، من خلال شكله والكتابات المنحوتة عليه .

ومن الأمور التي تدل على تعرض الضريح للسرقة أيضاً ، وجود ألواح حجرية ضخمة من الرخام محطمة لظفر لوحة رقم (٤٩) ، عليها آيات من القرآن الكريم ، قال القائم على الضريح أنها كانت تحيط بالضريح من الجانبين الشرقي والغربي ، وعلى الرغم من أننا وجدنا على الضريح لوحاً خشبياً عليه زخارف كتابية بخط النسخ لآيات قرآنية نفذت حروفها وأشكالها بالحفر البارز انظر لوحات رقم (٣٩) ، (٤٠) ، فأنا نستبعد أن يكون لهذا اللوح علاقة به ، وذلك لعدة أسباب أهمها : أن القائم على الضريح قال إن الألواح الحجرية من الرخام هي التي كانت تحيط بالضريح — وهذا ما نعتقد صحته — وعليه فكيف يمكن تفسير وجود هذا اللوح الخشبي ؟ إلا إذا كان وضع بعد إبعاد الألواح الرخامية كتعويض عنها ، ولا سيما بعد تحطيمها من قبل اللصوص ، كما أنه لا يمكن أن يحاط الضريح بألواح حجرية وخشبية في آن واحد ، وفي وضع واحد ، ناهيك أن العادة في توابيت وأضرحة الأئمة الزيديين أن يكون التابوت الخشبي المحاط بالضريح مرتفعاً نوعاً ما ، وهذا اللوح أقل من حيث الحرفية والارتفاع عن ما هو متعارف عليه بالنسبة لهؤلاء الأئمة ، ولذلك نرى أن هذا اللوح من ضمن الأشياء التي أقحمت بالضريح ولا علاقة له به ، إلا أن يكون قد وضع على أحد الأضرحة الأخرى المجاورة لضريح الإمام الناصر صلاح الدين ، وبعد تعرضه للسرقة التمس الأمر على القائمين على الضريح فوضعوه على ضريح الإمام الناصر .

ومن الجدير ذكره ، أن هناك أضرحة أخرى ذات مستويات متعددة لأئمة عاصروا فترة الدراسة ، كالإمام المؤيد يحيى بن حمزة ، والإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ^(١) ، إلا أننا لم نستطع تحديد المدة الزمنية التي ترجع إليها هذه التوابيت ، والسبب في ذلك أن التوابيت الأصلية لهؤلاء الأئمة تم استبدالها في وقت من الأوقات بتوابيت جديدة ذات مستويات متعددة ، وهذا النوع من التوابيت لم يكن معروفاً حتى ابتداء القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ^(٢) ، وبالتالي لا يمكننا أن نعددها من المظاهر الزخرفية للعهد الذي نحن بصدد دراسته ، ولا سيما إذا علمنا أن التابوت ذا المستوى الواحد ظل هو السمة البارزة بالنسبة للأئمة الزيديين حتى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ^(٣).

ويبدو أن هذا التطور الذي حققته الدولة الزيدية في مجال الفنون الزخرفية باستعمال الجص أو الخشب لم يكن تلقائياً ، فقد سبقه تطور آخر لا يقل أهمية بالنسبة لهذه الفنون ، وهو رسم الزخارف على أطراف وحواشي أوراق المخطوطات ، والمتصفح لبعضها يلحظ هذا الأمر بوضوح ، وكلما كان الخطاط أو الناسخ متمكناً في عمله ، كان حسه الفني في مجال الزخارف أكثر رقيماً ، وهذا ما يميز بعض المخطوطات عن غيرها ، بغض النظر عن الأهمية العلمية والتاريخية لها .

وفي هذا الخصوص ، يقول القاضي إسماعيل بن علي الأكوح : " ... يوجد في الجامع - الكبير بصنعاء - عدد كبير من المصاحف النفيسة المكتوبة بالخط النسخي المعروف ، على فترات متفاوتة ، وبأحجام مختلفة ، وعلى مستويات في درجات الإبداع في النسخ وحسن التهذيب والتزيين والزخرفة " ^(٤) ، علماً أن تاريخ كتابة هذه المصاحف يقع ما بين القرن الثامن الهجري والعاشر ^(٥) ، وجزء كبير من تاريخ هذه المدة هي من صميم بحثنا .

^(١) عن لوحات هذه التوابيت ، انظر : خليفة ، الفنون الزخرفية ، لوحات رقم (٣٣) ، (٣٧) .

^(٢) خليفة ، الفنون الزخرفية ، ص ١١٥ .

^(٣) انظر على سبيل التمثيل تابوت الإمام محمد المطهر بن المتوكل على الله الإمام شرف الدين

المتوفي في نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بمدينة تلا ، لوحة رقم (٥٤) .

^(٤) نقلاً عن : خليفة ، الفنون الزخرفية ، ص ٢٤٠ .

^(٥) المرجع نفسه والصفحة .

ونكمن مظاهر الصعوبة والإرباك التي واجهناها خلال رحلة بحثنا في المصادر والمراجع التاريخية عن المظاهر العمرانية في الدولة الزيدية في عدم الجزم - جزماً - قاطعاً لا يدع مجالاً للشك والتخمين - في تحديد تاريخ العديد من هذه المظاهر وهويتها ، وكانت معظم المعلومات والآراء المطروحة - ولا سيما في المراجع - تعتمد على الافتراضات أكثر من اعتمادها على الحقائق والوقائع التاريخية ، بل إن العديد من هذه المراجع قد اختلفت وتناقضت مع غيرها انطلاقاً من هذا الأساس ^(١) ، وهذا ما زادنا حيرة وإرباكاً ، ودفعنا إلى القيام بزيارة ميدانية لهذه الشواهد التي لا زال العديد منها قائماً حتى اليوم ، لعلنا نتلمس السبب في ذلك .

وبعد القيام بالعديد من الزيارات ، أدركنا السبب في ذلك ، فالكثير من هذه المظاهر عبارة عن مجموعة من الأعمال لأشخاص مختلفين وعهود مختلفة ، فتجد - على سبيل التمثيل - بعض المساجد يتكون من بيتين للصلاة - كما هو الحال في مسجد صلاح الدين ومسجد الأبهـر والجامع الكبير بثـلا - بل إن للبعض منها أكثر من ذلك - كما هو الحال في الجامع الكبير بصنعاء - وكل بيت من هذه البيوت يعود إلى حقبة تاريخية مختلفة عن الأخرى بعشرات السنين - إن لم نقل بمئات السنين - وتنسب إلى أشخاص أو دول عديدة ، وفي كثير من الأحيان يلتبس الأمر على الباحثين والمؤرخين حول أيهما أقدم من الآخر ؟ ومن هو الأصل ؟! وأين هي الإضافة ؟! هذا من جانب ، ومن جانب آخر تجد العديد من الإضافات الأخرى التي ألحقت بالمسجد الأصلي كالمنارة أو القبة أو الضاحي أو الحملات والمطاهير أو غيرها ، حتى يصير الأمر إلى أن تصبح الإضافات المتعاقبة هي الجزء الأكبر من المسجد ، ويصير معها الأصل جزءاً صغيراً من الإضافات ، ومما يزيد الأمر تعقيداً تعرض هذه المظاهر إلى

^(١) نظر على سبيل التمثيل الاختلاف حول أيهما أقدم من بيتي الصلاة في مسجد الإمام صلاح الدين ، والاختلاف حول تاريخ بناء مئذنة مسجد الأبهـر ، والاختلاف حول تاريخ بناء القبة في مسجد الفليحي بين : الدكتور شـيـحـه ، منـخـل إلى العمارة والفنون الإسلامية ، ص ٧٧ ، علي سعيد سيف ، مآذن مدينة صنعاء حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، دراسة أثرية معمارية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ١٣٧ .

Serjeant and Lewcock , Sanaa and Arabian Islamic City , World of Islam Festival trust London , 1983, p . 369 .

وغيلان حمود غيلان ، محاريب صنعاء حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٧٢ ، ٨٢ ، ١٣٧ .

الترميم والتجديد نظراً لتعرضها للخراب المتعمد أو بسبب الإهمال والزمن ، فتُبدل المنارة بدل المنارة (١) ، والمحراب بغيره (٢) ، والحمامات القديمة (٣) بالحديثة ، فيلتبس الأمر ولا يُعلم أين القديم من الحديث؟! ولا سيما إذا تكررت هذه التجديدات خلال العقود المختلفة وأهمل جانب التاريخ لهذه التجديدات كما حدث في بعض المساجد .

ومع العلم بقدّم هذا المسجد أو ذلك ، وقدم محرابه ومنارته ، إلا أن الزائر يفاجئ بأن بعضها في حالة جيدة توحى بحدائث عمارتها ، ويرى بعض الأعمال الزخرفية على جدران المساجد أو المحاريب قد أُرُخ بتاريخ لاحق لتاريخ بناء المسجد (٤) ، ولكن من قام بها لم يفرق بين ما هو حديث وقديم ، فيصبح الحديث جزءاً من القديم ، والقديم جزءاً من الحديث ، وتضيع القيمة التاريخية والأثرية لهذه الأعمال ، ويزداد الأمر تعقيداً إذا لم تُؤرخ التجديدات والإضافات ، وقد كان الواجب على من قام بهذه التجديدات أن لا يمس القيمة الجمالية والأثرية لهذه المظاهر ، حتى تبقى محافظة على أهميتها وقدمها ، أو كان عليه الإشارة إلى خرابها في سنة كذا ، والتأكيد على سنة ما تم إنجازه على أنقاض القديم ، حتى تتضح الأمور أكثر ، مع العلم أن هذه التجديدات والإضافات لا زالت إلى يومنا هذا ، ونخص بالذكر منها عمليات الطلاء المستمرة للمحاريب من قِبل فاعلي الخير (٥) في كل عام على حساب الألوان الأصلية .

ولا يقف الأمر عند الخلل بين أجزاء المظهر العمراني الواحد قديمه وحديثه ، وإنما يتعداه إلى الالتباس في مؤسس البناء بأكمله ، فيقال — مثلاً — إن من أسسه فلان ، ويقول بعضهم بل إن من أسسه شخص آخر ، وربما ثالث وهكذا ، نذكر —

(١) نذكر على سبيل التمثيل استبدال المنارة الأصلية لمسجد الإمام صلاح الدين بالمنارة الجديدة . انظر : علي سعيد سيف ، مآذن مدينة صنعاء ، ص ١١٥ — ١١٦ .

(٢) انظر لوحات رقم (٥٢) ، (٢٣) لتري الفرق في محراب مسجد الأبهري بين الصورة التي التقطها لها الأستاذ غيلان قبل بضعة سنوات والصورة التي التقطناها نحن في الوقت الحاضر .

(٣) انظر ما تبقى من الحمامات القديمة في مسجد الأبهري في لوحة رقم (٣٠) لتلحظ الفرق بين هذه الحمامات والحمامات المستحدثة اليوم في معظم المساجد .

(٤) انظر على سبيل التمثيل الشريط الزخرفي على يمين المحراب في مسجد صلاح الدين المؤرخ بسنة ١٠٩٧ هـ .

(٥) غيلان ، محاريب صنعاء ، ص ٨٦ .

على سبيل التمثيل لا الحصر - مسجد ابن الحسين الذي يقول الحجري فيه - وهو من المتخصصين القلائل في هذا الأمر - : " ... رأيت بخط القاضي العلامة عبد الملك بن حسين الأنسي في مجموع لدى حفيده القاضي أحمد بن محمد بن عبد الملك أن مسجد ابن الحسين من عمارة الحسين بن سلامة مولى - بني - زياد ملوك زييد في آخر القرن الرابع " (١) ثم يعقب بالقول : " وقيل إنه من محاسن الإمام المهدي أحمد بن الحسين ... ويمكن الجمع بين الروايتين أن يكون الحسين بن سلامة هو الذي أسسه ثم جدد عمارته الإمام أحمد بن الحسين ونسب إليه والله أعلم " (٢) . ومع أن الكتابات الزخرفية على محراب مسجد ابن الحسين - التي تذكر أن علي ولي الله (٣) - تؤكد انتساب المسجد للزيدية ، إلا أننا نميل إلى ما ذكره الحجري وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الأوضاع غير المستقرة التي شهدتها صنعاء خلال عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، والذي لم تمكنه من البقاء فيها سوى سنة وثمانية أشهر على مرحلتين ، وهي مدة لا تسمح بإنشاء المساجد وتعميرها ، ولا سيما في ظل الحروب المستمرة التي خاضها هذا الإمام مع مختلف الأطراف .

ولم يقتصر الالتباس في مؤسسي المساجد على مسجد ابن الحسين فقط ، بل تعداه إلى غيره من المساجد التي يُختلف حولها ، ولذلك كانت مهمة تحديد المظاهر العمرانية سواء كانت بناءً أم تجديداً أم إضافات بالنسبة للدولة الزيدية - موضوع البحث - أمراً في غاية الصعوبة بالنسبة لنا ، ومع ذلك بذلنا كل ما نستطيع في هذا الخصوص .

أما أهم العناصر المعمارية والزخرفية في هذه المظاهر فهي كالآتي :

(١) محمد بن أحمد ، مساجد صنعاء عامرها وموفيتها ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ،

١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٨ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

(٣) نظر لوحات رقم (٤٤) ، (٤٥) .

أ. **العقود**^(١) : وتعد العقود من أكثر العناصر المعمارية استعمالاً في المظاهر العمرانية في الدولة الزيدية بمختلف أشكالها العسكرية والدينية والمدنية ، ويأتي في مقدمة هذه العقود :

• **العقد نصف الدائري**^(٢) : ويستعمل هذا النوع من العقود بين الأعمدة في المساجد وعلى أبواب المدن والحصون ، وله أمثلة عديدة في الدولة الزيدية ، كالتي وجدناها في مسجد الإمام صلاح الدين^(٣) و مسجد الأبهري ومسجد جمال الدين^(٤) ومسجد الأجنم (الوشلي) .

• **العقد المفصص**^(٥) : ولهذا العقد أشكال عديدة تصنف على حسب عدد الفصوص المكونة للعقد^(٦) ، فيقال : عقد ذو ثلاثة فصوص ، أو خمسة ، أو تسعة ... إلا أن أكثرها شيوعاً في الدولة الزيدية العقد ذو الثلاثة عشر فصاً ، وله أمثلة كثيرة ، أبرزها في مسجد الإمام صلاح الدين وقبته المدفون

(١) العقد في اللغة هو الشد والربط والتوثيق والإحكام ، وفي العمارة هو القوس المبني الذي يربط بين طرفين ويشدهما وجمعهما عقود وأعقاد . انظر : الأصبحي : آلاء أحمد محمد ، المدرسة الأشرفية بتعز زمن الدولة الرسولية في اليمن ، دراسة معمارية تحليلية (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨ - ١٤٥٤ م) ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ١٦٥ . غيلان ، محاريب صنعاء ، ص ١٨٧ .

(٢) العقد نصف الدائري : هو العقد الذي يتألف قوسه من نصف دائرة ، لا ديب فيه ، ولا انكسار ، ولا يتجاوز شكله نصف دائرة ، وتكون سعة فتحته تساوي قطر الدائرة وارتفاعه نصف قطرها ، ويتساوى بهذا توزيع الضغط والنقل على كتفيه لأنه ذو مركز واحد . انظر : غيلان ، محاريب صنعاء ، ص ١٨٨ .

(٣) انظر لوحة رقم (٢٧) .

(٤) انظر لوحة رقم (٤٣) .

(٥) العقد المفصص : يتكون من سلسلة من الأقواس الصغيرة أو الكبيرة المتتالية ، ولهذا النوع من العقود وظيفتان: الأولى معمارية وتتمثل في كونها رابطة للأعمدة التي يقوم عليها سقف المسجد أو المنشأة المعمارية ، فتخفف النقل الملقى على هذه الأعمدة وتتقاسمه معها ، والثانية زخرفية ، وذلك لأنها عبارة عن حلقة معمارية زخرفية تزين واجهة العقد الأصلي . انظر : علي سعيد سيف ، مآذن صنعاء ، ص ١٦٣ . آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٦٨ . الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٧٦ .

(٦) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٧٦ - ٣٧٨ .

فيها ^(١) ، أما من الناحية الإنشائية فتتقسم فصوص هذا العقد على قسمين : الأولى بارزة وتُصنع من الجص ^(٢) ، والثانية مرسومة بالألوان ^(٣) .

• **العقد المدبب** ^(٤) : ولهذا العقد أنواع عدة تبعاً للتشكيل في انحناء العقد ، وتختلف انحناءات العقود باختلاف مواقع مراكزها وعددها ، فمنها ذو المركزين ^(٥) وهو أشهرها ، ومنها ذو الأربعة المراكز ، ومنها المنكسر أو الفاطمي ، وجميعها استعملت في المظاهر العمرانية في الدولة الزيدية ، ولا سيما في محاريب المساجد التي يأتي في مقدمتها محراب مسجد الإمام صلاح الدين ^(٦) ، ومحراب مسجد الأبهـر ^(٧) ، ومحراب مسجد ابن الحسين ^(٨) ومحراب المسجد الجديد ، ومحراب قبة الفليحي ^(٩) ، وغيرها من المساجد ، هذا فضلاً عن استعمال هذا النوع من العقود فوق شبائيك المنازل والمنشآت العمرانية الأخرى .

(١) انظر لوحات رقم (٣٥) ، (٣٦) .

(٢) انظر لوحة رقم (٣٦) .

(٣) انظر لوحة رقم (٥٠) .

(٤) يتكون شكل هذا العقد من تداخل قوسين لدائرتين تتحكم مراكزها في شكل العقد ، إذ يؤدي تباعد مركزي الدائرتين إلى ضيق انفراج زاوية الخطين المنحنيين اللذين يشكلان رأس العقد ، فيظهر شكل الدبب أكثر وضوحاً ، والعكس إذا اقتربا ، إذ ينبغي أن يكون ارتفاع العقد أكبر من نصف سعة الفتحة ، ويطلق عليه أحياناً العقد العباسي ؛ لأنه ظهر في فترة حكم الدولة العباسية وتطور وانتشر في مدينة سامراء . انظر : غيلان ، محاريب صنعاء ، ص ١٨٩ . آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٦٧ .

(٥) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٧٣ .

(٦) انظر لوحة رقم (٢٢) .

(٧) غيلان ، محاريب صنعاء ، ص ١٩٠ . وانظر لوحة رقم (٢٣) .

(٨) انظر لوحة رقم (٤٥) .

(٩) انظر لوحة رقم (٥١) .

ب. الأعمدة (١) : وتظهر الأعمدة في المظاهر العمرانية في الدولة الزيدية بشكل كبير ولاسيما في المساجد التي تقوم منذ الأساس على هذه الأعمدة ، والغالب فيها أن تكون دائرية الشكل (٢) ، وبعضها مربعة و سداسية (٣) ، وتختلف أحجامها باختلاف مساحة المسجد ، إلا أن اللآفت للنظر في الأعمدة التي تعود إلى مدة بحثنا هو بناؤها من حجر الحبش الأسود ، وهذا ما شاهناه خلال زيارتنا لعدد من المساجد التي تشابهت الأعمدة فيها إلى حد كبير ، وإن تم إدخال بعض التجديدات على بعضها .

أما تيجان هذه الأعمدة – التي هي العنصر الأبرز فيها – فقد تكون على شكل ناقوس مقلوب أو (الكأس) في بعض المساجد ، وتكون على شكل الوردية في مساجد أخرى ، وقد تخلو من أي زخارف هندسية أو نباتية ، وقد تكون مزخرفة ، وقد تكون هذه الزخارف معمولة بالجص ، وقد تكون مرسومة ، مع أننا لا نستطيع الجزم بحال هذه التيجان في مدة بحثنا ، نظراً لاحتمال أن تكون هذه الزخارف من التجديدات التي أضيفت للمسجد في عهود لاحقة ، إلا أننا نستطيع التأكيد على أن المهمة الأولى والرئيسة للأعمدة في المساجد هي مهمة إنشائية معمارية أكثر منها زخرفية .

ج. القباب (٤) : لعل أهم القباب الضريحية (٥) في الدولة الزيدية موضوع البحث : قبة الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة في الجامع الكبير بزمارة ، وقبة الإمام الناصر

(١) العمود في اللغة هو الاستقامة في الشيء ممتداً أو منتصباً ، سواء أكان من الخشب ، أم الحجر ، أم الآجر ، وجمعه أعمدة ، أما التعريف المعماري له فهو مشتق من العنصر العمودي في البناء ، ووظيفته حمل العناصر الأفقية التي تعلوه ، ونقل أوزانها بصورة رأسية بواسطته إلى القاعدة والأساسات التي يرتكز عليها ، ويتكون العمود من عدد من الأجزاء هي : القاعدة والبدن والوسادة والتاج والحدارة انظر : آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٦١ – ١٦٣ .

(٢) انظر لوحات رقم (٢٧) ، (٣٤) .

(٣) انظر لوحات رقم (٢٩) ، (٤٣) .

(٤) القبة بالمفهوم العام هي بناء دائري المسقط ، مقعر من الداخل ، مقبب من الخارج ، معقودة بالحجارة أو الآجر على هيئة الخيمة ، أما في اللغة فقد عرفت بأنها : قبة ، يقبه ، قباً – بالضم – من البناء ، وجمعها قُبب وقباب ، وقَبَبَ القَبَّة ، أي بناها . والقبة في تكوينها الكتلي مجموعة من أقواس ذي سعة واحدة تتقاطع في مركز واحد عند القمة ويسمى مفتاح القبة . انظر : غيلان ، محاريب صنعاء ، ص ١٩٣ . آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٨٠ .

(٥) عرفت ظاهرة إحقاق القباب الضريحية – أو الأضرحة عموماً – بالمنشآت الدينية منذ أواخر القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، وذلك عندما ألحق قبر الرسول (ﷺ) بمسجده في المدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وزاد الاهتمام بها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر =

صلاح الدين في صنعاء ^(١) ، وقبة الأمير محمد بن الهادي بن الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة في ثلا ^(٢) ، وإذا كانت الأولى والثانية قد خلت من المظاهر الزخرفية باستثناء بعض الحنايا الركنية ^(٣) والعقود المفصصة والمدببة ^(٤) ، فإن الثالثة تعد من أبرز الآثار الإسلامية في اليمن .

تقع هذه القبة على مقربة من الجامع الكبير بثلا ، حيث تطل واجهتها على فناء واسع كبير ومكشوف من الناحية الجنوبية ^(٥) ، وبهذه الواجهة مدخل وحيد على محور المحراب ، يعلوه عقد مستدير الشكل ، وتحتوي هذه القبة على كتابات قرآنية وزخارف نباتية معمولة من الجص ، وتشكل كتلة المحراب ^(٦) المصنوعة من الجص - أيضاً - أهمية عمرانية كبيرة ، فهي تعد وحدة زخرفية معمارية على جانب كبير من الإثقان ^(٧) .

=الميلادي ، وانتشرت خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي في مصر والشام . على أن أقدم مثل لهذه الظاهرة في اليمن يعود إلى أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، عندما قام الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ببناء قبة على ضريح والده بجامع صعدة في مدة إمامته (٣٠١ - ٣٢٥ هـ / ٩١٤ - ٩٣٧ م) ، ثم تلتها العديد من القباب على العديد من الأضرحة لعل أبرزها في اليمن أيضاً قبة ضريح السيدة بنت أحمد (أروى) الموجود في الركن الشمالي الشرقي من بيت الصلاة بمسجدها بمدينة جبلة ، الذي يعود تاريخ إنشائها إلى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م . انظر : جار الله : عبد الرحمن حسن ، ذي السفال مدينة الآثار الإسلامية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ١١٤ . الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

^(١) انظر لوحة رقم (٣٣) .

^(٢) انظر لوحة رقم (٥٥) .

^(٣) انظر لوحة رقم (٣٨) .

^(٤) انظر لوحات رقم (٣٥) ، (٣٦) .

^(٥) انظر لوحة رقم (٥٥) .

^(٦) انظر : جار الله ، ثلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، لوحات رقم (٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦) .

^(٧) اعتمدنا في وصف هذه القبة من الداخل على الدكتور شيهه ، لأن زيارتنا لمدينة ثلا كانت في الصباح الباكر ، وكان علينا لدخول القبة والتقاط الصور الانتظار حتى صلاة الظهر نظراً لغياب القائم على القبة قبل هذا الوقت ، إلا أننا لم ننتظر حتى ذلك الحين ، بسبب الإرهاق الشديد الذي حل بنا بعد الطلوع إلى الحصن (٢٤٠٠ متر فوق سطح البحر) ، والنزول منه ، فآثرنا الرحيل . انظر : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية ، ص ١٩٠ . وللإطلاع عن تفاصيل أكثر دقة عن هذه القبة . انظر : جار الله ، ثلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٦٥ - ١٦٩ .

وتتوج تجويف المحراب طاقية على هيئة المحارة ، ويكتنف تجويف المحراب من الناحيتين عمودان ^(١) تعلوهما تيجان صغيرة يرتكز عليها عقد المحراب على شكل نصف مستدير ، ويزدان إطار هذا العقد بكتابات بخط الثلث تحوي أحاديث الرسول (ﷺ) ، ويزخرف عقد المحراب بزخارف هندسية بارزة على شكل مُعينات صغيرة متماسة كشكل هيئة خلايا النحل ^(٢) .

ويعلو تجويف المحراب شريط من الكتابات بخط النسخ ، وعقد آخر كبير مدبب تدبيراً خفيفاً ، ويكتنف المحراب من الناحيتين منطقة زخرفية مستطيلة الشكل ، يتوسط كل منها شكل زخرفي بارز على هيئة مثنى بداخله وردة من ثمانية رؤوس ^(٣) ، تحيطها كتابة نسخية وزخارف نباتية وهندسية موزعة توزيعاً زخرفياً بديعاً ، ويقرأ على الجانب الأيسر والأيمن من المحراب بعض الآيات القرآنية ^(٤) . إضافة إلى بعض الكتابات القرآنية الأخرى في تجويف العقد الرئيس لكتلة المحراب .

د . الحنايا الركنية ^(٥) : ومن أبرز الأمثلة عليها الحنايا الركنية في قبة ضريح الإمام الناصر صلاح الدين ، التي يخلو بعضها من الزخارف ، وبعضها على شكل محارة شمسية ^(٦) .

هـ . القبو ^(٧) : ويظهر القبو في العمارة اليمينية بشكل بارز بعد الفتح الأيوبي لها ، إذ لم يكن هذا النمط من تشكيل الأسقف سائداً قبل ذلك ^(٨) ، وهذا النوع من الأسقف يؤدي

(١) نظر : جاز الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، لوحات رقم (٧٠ ، ٧١) .

(٢) شيحة ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية ، ص ٧٤ .

(٣) نظر : جاز الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، لوحات رقم (٧٢ ، ٧٣) .

(٤) شيحة ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية ، ص ٧٤ .

(٥) الحنايا الركنية : هي شكل معماري يشبه نصف قبة ، تعلو زوايا مربع القبة ، ويبني بهدف تحويل المربع إلى دائرة أو مثنى ترتفع فوقها رقبة القبة . الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٨٨ — ٣٨٩ . آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٧٦ .

(٦) نظر لوحة رقم (٣٨) .

(٧) القبو : معناه تقويس الشيء واجتماع أطرافه بمعنى الانضمام والارتفاع ، واستعمل لفظ القبو في العمارة على الطاق المعقود بعضه على بعض ، والجمع أقبية وأقباء . غيلان ، محاريب صنعاء ، ص ١٩٢ .

(٨) الحداد ، الاستحكامات الحربية ، ص ٣٨٧ .

الوظيفة نفسها التي تؤديها القبة في التخفيف من حرارة الهواء^(١). وأستعمل في الدولة الزيدية بشكل رئيس في أروقة المساجد ومحاربيها .

و . القمريات^(٢) : يظن بعض الباحثين^(٣) أن أقدم قمرية وجدت في اليمن تعود إلى عهد الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، الذي استعملها في بناء جامعته الشهير في ظفار ذيبين ، وعليه فلا غرابة أن ينتشر استعمال مثل هذا العنصر المعماري في مختلف المظاهر العمرانية في الدولة الزيدية لاحقاً . وتوضع القمريات في أعلى النوافذ والأبواب ، وقد تكون جزءاً منها ، أو منفصلة ، وتختلف الأشكال الهندسية التي تزينها ، إلا أن النجوم الرباعية ، أو الخماسية ، أو السداسية ، والأشكال النباتية ، أبرز ما يميز هذه القمريات التي شاهدناها في قبة ضريح الإمام الناصر صلاح الدين ، وداره في صنعاء^(٤) ، والدور المحيطة بها^(٥) ، وكذا الحال في المساجد التي تحتاج لهذه القمريات ، ليس لكونها عنصراً زخرفياً وحسب ، وإنما لتعديل شدة الضوء الداخل إليها^(٦) ، فلا هو قوي يؤذي الأبصار ولا خافت يعيق الرؤية ، كما أن للقمريات ميزة أخرى تتمثل في تعديل درجات الحرارة^(٧) بين المحيط الخارجي والمحيط الداخلي للمنشأة المعمارية ، ناهيك عن العامل النفسي الإيجابي الذي ينتج عن رؤية القمريات نهاراً ، والذي يؤدي دوراً مهماً في التشجيع على الدرس و العبادة .

(١) آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٨٤ .

(٢) القمريات : عنصر معماري وزخرفي أخذ اسمه من شكل القمر ولون ضوئه ، وتصنع هذه القمريات من مادة الجص بشكل رئيس ، وتكون ذات شكل دائري أو نصف دائري أو اسطواني وتزين بالزجاج الملون لإضفاء لمسة جمالية على الضوء المتسرب من خلالها ، فيكتسب لون الزجاج المار من خلاله . انظر : آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٨٩ - ١٩٠ . ونظر لوحات رقم (١٠) ، (٤٢) .

(٣) الحداد ، التاريخ العام لليمن ، ج ٣ : ٢٤٥ . نقلاً عن : آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٩٠ . مع أن البعض ينسبها إلى النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي نظر على سبيل التمثيل ، خليفة ، الفنون الزخرفية ، ص ٢٢١ .

(٤) فنظر لوحة رقم (٤٢) .

(٥) فنظر لوحة رقم (١٠) .

(٦) آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ١٩٤ .

(٧) المرجع نفسه ، ص ١٩٣ .

رابعاً : المظاهر العلمية والفكرية :

١. التدريس :

يعد التدريس من الأعمال الرئيسية التي اهتمت بها الدولة الزيدية ، وكيف لا يكون ذلك ؟ وأئمتها لا يُنصبون إلا بعد بلوغهم الغاية القصوى من العلوم الشرعية ، ووصولهم إلى درجة الاجتهاد . وكما نشأ هؤلاء الأئمة منذ صغرهم بين جدران المساجد ، وحجرات الدرس ، يتلقون علوم القرآن ، والفقه ، والحديث ، على يد المشايخ والعلماء ، فقد أرادوا أن ينتهج غيرهم الطريق نفسه ، إيماناً منهم بأهمية العلوم والعلماء في تاريخ الدول والشعوب .

وإلى ذلك أشار الإمام المهدي أحمد بن الحسين حين قال : " ... فنحن والحمد لله تعالى أعرف الناس بحق العلماء ، وأقوم الناس بأمرهم ، ولا تظمنن قلوبنا إلا إليهم ، ولا نثق في كثير من الأمور إلا بهم ، ولا نأنس إلا بقربهم ... ولهم إن شاء الله تعالى الحكم على ولاءنا وخدامنا ، ومن تحويه دولتنا ... " (١) .

وانطلاقاً مما سبق ، اهتم الأئمة الزيديون بإنشاء المدارس في كل المدن والقرى والحصون ، التي من خلالها يتلقى طلاب المذهب الزيدي أصول مذهبهم ، وتراث أجدادهم ، وما تركه لهم أسلافهم من مؤلفات في شتى صنوف المعرفة .

ولإيجاد نوع من التنظيم الإداري لهذه المدارس ، خصصت كل مدرسة من هذه المدارس لتلقي نوع معين من العلوم ، على أساس العمر بالدرجة الأولى ، ثم أنواع العلوم التي يرغب طالب العلم في تلقيها وتتناسب مع سنه ، يراعى في ذلك توافر العلماء والمدرسين في هذا الأمر . وللتدليل على ما أسلفنا ، نورد بعض المعلومات التي اعتمدنا عليها في قولنا هذا ، من ذلك ما جاء في سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، من أنه تلقى أبجديات العلم منذ صغره في مدرسة مسلت (٢) ، التي كانت

(١) مجموع رسائل ، ص ١٦٧ .

(٢) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٦ ب .

مخصصة — على ما نظن — لتعليم صغار السن ^(١) ؛ لأنه انتقل منها بد بلوغه الثانية عشر من عمره إلى المدرسة المنصورية ^(٢) في حوث ^(٣) ، التي كانت — على ما يفهم — مخصصة لتلقي العلم منذ الثانية عشرة وما فوق ، ويتلقى فيها الدارس أنواعاً أعلى من العلوم ^(٤) ، من حيث المستوى ، مقارنة بتلك التي تعطى في مدرسة مسلت ، ثم

^(١) هذا ما يعرف بـ : (المعلمة) أو (الكتاب) ، وهي أماكن تقوم بتدريس القرآن الكريم للصبيان والصغار ، وتدرس علوماً أخرى إلى جانب القرآن ، كالحساب ونحوه ، ولكن بشكل غير مكثف حتى لا يكون ذلك سبباً في عدم الفهم أو النفور من التعليم ، وطريقة التدريس فيها تعتمد بشكل رئيس على السماع ، أي أن يسمع الطلاب قراءة معلمهم للدرس ثم يعيدون ماسمعه مراراً حتى يحفظوه ، وتسمى هذه الطريقة أيضاً بـ : (التلقين) أو (التكرار) ، ويلى ذلك تعليم الطلاب الكتابة من خلال إعادة ما يكتبه المعلم من آيات القرآن أو الأمثال أو أبيات الشعر على الألواح التي يستعملونها لهذا الغرض ، ويدخل ضمن طريقة السماع — بعد إتقان الطلاب للقراءة والكتابة في المعلمة — " الإملاء " ، وهو أرفع أنواعه ، ويستعمل في مراحل الدراسة اللاحقة للمعلمة ، وذلك بأن يملي المعلم على الطلاب الدرس بصوت عالٍ — من كتاب أو من حفظه — وهم يكتبوه بعده غيباً . انظر : جار الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١١٠ — ١١١ ، ١١٩ . المشرقي : رياض علي سعيد ، التعليم في الدولة الطاهرية من (٨٥٨ — ٩٢٣ هـ / ١٤٥٤ — ١٥١٩ م) ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ١٥٩ — ١٦٣ . فضل محمد صالح ، الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي (عصر الدولة الرسولية) ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م ، ص ٧٦ — ٧٧ .

^(٢) نسبة إلى الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة الذي أنشأ عدداً من المدارس في كل من صنعاء ، وحوث ، وذي مرمر ، وحلمم ، وغيرها من المناطق التي خضعت لحكمه . انظر : الميسري ، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، ص ١١٩ . جار الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٢٠ ، نقلاً عن : الحبشي : عبد الله بن محمد ، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٩٨٠ م ، ص ٧١ .

^(٣) السيد شرف الدين ، سيرة المهدي ، ق ٧ أ

^(٤) كان للمذهب الزيدي مواد علمية الخاصة به ، وإن وجدت بعض المواد المشتركة مع بقية المذاهب الدينية الأخرى الموجودة في اليمن ، مثل اللغة ، والعلوم الاجتماعية ، والطب ، وغيرها من المواد التي لا يمكن تصنيفها مذهبياً ، إلا أن التركيز كان على العلوم الشرعية ، مثل علوم القرآن الكريم ، والفقه ، وعلم الحديث ، وأصول الدين (علم الكلام) ، وعلم الفرائض . انظر : جار الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١١٥ — ١١٧ .

يسعى كل طالب علم للحصول على الإجازات ^(١) من الشيوخ والعلماء كل في مجال تخصصه ^(٢) ، فهناك من العلماء من يعطي إجازة في تفاسير القرآن ، كما يعطي آخرون في رواية الحديث ، وغيرهم في كتب الأئمة المتقدمين أو المتأخرين ، والتي تشمل علوم الفقه ، و الكلام ، وأصول الدين والعقيدة ، وغيرها من العلوم .

ولم يقتصر اهتمام الأئمة الزيديين بالتدريس وإنشاء المدارس وتوفير الرواتب للعلماء والمدرسين وطلبة العلم ^(٣) ، بل تعداه ليقوموا بأنفسهم بدور المدرس في بعض المدارس ، وفي مقدمة هؤلاء الإمام المهدي محمد بن المطهر ، الذي كان كثير التدريس للعلوم ، وتخرج على يديه العديد من مشاهير العلماء ^(٤) ، كذلك كان الأمر مع الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ، والإمام الوائى المطهر بن محمد بن المطهر ، والإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ^(٥) .

إن المنتبغ لتاريخ الأئمة الزيديين في مختلف العهود ، يدرك تلك المكانة التي كانت للعلم والتدريس في نفوس هؤلاء ، حتى في أصعب المواقف ، فهذا الإمام الداعي يحيى بن محمد السراجي يعكف على التدريس في جامع صنعاء ^(٦) لمدة تزيد على ثلاثين سنة ، بعد أن تم كحله من قبل الأمير علم الدين الشعبي ، كل ذلك من حفظه السابق ، وهذا الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى يقوم بالتدريس وهو في السجن ^(٧) ، لحراسه الذين لم يجدوا في نهاية الأمر بداً من إخراجه ، عرفاناً منهم

^(١) الإجازة لغة : مأخوذة من جواز الماء الذي تسفاه الماشية والحرث ، فيقال : منه استجزته فأجازني ، إذا أسفك ماء لماشيتك أو أرضك ، وهي ليست خاصة بالمحدثين ، بل بكل طالب علم له أن يستجيز العالم علمه فيجيزه له . انظر : جار الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١١٧ .
المشركي ، التعليم في الدولة الطاهرية ، ص ١٧٨ . ويكون هذا الأمر بأن يكتب الشيخ أو العالم على الورقة الأولى والأخيرة من مؤلفه (كتابه) الذي تعلمه الطالب على يديه ، شهادة تفيد استيعاب الطالب لهذا الكتاب وتجييز له تدريسه وروايته للآخرين . انظر : فضل محمد صالح ، الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري ، ص ٧٩ . المشركي ، التعليم في الدولة الطاهرية ، ص ١٧٩ .

^(٢) انظر على سبيل التمثيل : إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ٩٠ ، ٣٣٦ ، ج ٢ : ٩٦٨ .

^(٣) ابن الوزير ، الفضائل ، ق ٢٤٣ .

^(٤) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٩٩٧ .

^(٥) المرجع نفسه ، ص ٩٧٢ ، ١٠٤٠ ، ١١٢٤ .

^(٦) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٦٦ .

^(٧) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٥ أ .

بجميله عليهم ، وكذا كان الحال مع الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان ، الذي درّس أبناء القائم على سجنه القرآن ، حتى قام أحدهم بإخراجه منه ، جزاءً له على ذلك ^(١) ، وعدا هؤلاء الأئمة تزخر المصادر والمراجع بأعداد من المدرسين ^(٢) ، حملوا على كاهلهم هذه المهمة ، لعل من أشهرهم :

أ. صفية بنت المرتضى بن المفضل بن منصور : عالمة وفقية ، أدبية وشاعرة من نابغات النساء في منتصف القرن الثامن الهجري ، اشتغلت بالعلم منذ حداثة سنّها ، وتتلّمذت على يد والدها حتى برّزت في الفقه والأصول والعربية والإخباريات ، ثم اشتغلت بالتدريس والتصنيف ، وتصدرت للفتوى ^(٣) .

ب. الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن يعقوب النحوي : عالم الزيدية ، وشيخ شيوخها في نهاية القرن الثامن الهجري ، نبغ في العلوم ، وكان يحضر حلقة تدريسه زهاء ثمانين عالماً ^(٤) .

ج. الفقيه يوسف بن أحمد بن عثمان اليماني الزيدي : العالم الفاضل الورع الكامل ، رأس علماء الزيدية وواسطة عقدهم في النصف الأول من القرن التاسع

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٧٦ .

^(٢) تنقسم المراتب الوظيفية للتدريس في الدولة الزيدية على ثلاثة أقسام رئيسية :

- أ- المُعيد : وهو الذي يقوم بإعادة إلقاء الدرس على الطلاب - مرة أخرى - بعد انتهاء المدرس من إلقائه ، ويكون عادة من الطلبة النجباء الذين يصطفيهم المدرس لهذه المهمة .
- ب- المدرس (الفقيه) : وهو الذي يقوم بتدريس العلوم المختلفة في المدارس ما بعد المعلمة ، ولا سيما منها الملاحقة بالمساجد ، وقد يختص بتدريس علم واحد مثل القرآن ، (وعندها يقل له المدرس المقرئ) ، أو التفسير ، (فيقال له المدرس المفسر) ، أو الحديث ، (فيطلق عليه المدرس المحدث أو المحقق) ، وغيرها من العلوم .

ج - العالم : وهو أرفع المراتب الوظيفية في التدريس ، ويختص بتدريس طلاب التعليم العالي في المدارس النظامية . انظر : جار الله ، ثلاً إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١١٣ - ١١٤ . وهي مراتب تشبه إلى حد كبير ما كان متعارفاً عليه في الدولتين الرسولية والطاهرية . انظر : آلاء الأصبحي ، المدرسة الأشرفية ، ص ٥٠ . فضل محمد صالح ، الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري ، ص ٧٩ - ٨٠ . المشرقي ، التعليم في الدولة الطاهرية ، ص ١٩٥ - ٢٠٠ .

^(٣) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٤٩٥ .

^(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٤١ .

الهجري ، عاصر الإمام الناصر محمد وامتد عمره إلى ولده علي ، استقر بهجرة العين من بلاد ثلا ، وكان يرحل إليه طلبية العلم من جميع أقطار اليمن ، وبلغ من كثرة الطلبة وازدحامهم في مكان التدريس ، أن كانوا يقفون في الخارج ويسمعون من الباب والنوافذ ، وقد تصدر للتدريس في جامع ثلا الكبير ، وكان طلبته يتباهون به على من سواه من فقهاء عصره (١) .

وفضلاً عن هؤلاء العلماء ، نورد أسماء بعض المدرسين الآخرين الذين اسهموا أيضاً في العملية التعليمية في الجدول الآتي :

(١) جار الله ، ثلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٠٥ .

اسم الإمام	اسم المدرس	منطقة التدريس
المهدي أحمد بن الحسين .	محمد بن خليفة بن سالم بن محمد (١) .	حوث .
	سليمان بن محمد بن الزبير الحبشي (٢) .	بنو شاور .
	عطية بن محمد بن أحمد النجراني (٣) .	صعدة .
المهدي محمد بن المطهر .	محمد بن يحيى بن أحمد حنش (٤) .	ظفار .
	المرتضى بن المفضل بن منصور بن العفيف (٥) .	شطب .
	المطهر بن محمد بن حسين الصعدي (٦) .	صعدة .
	أحمد بن محمد بن عثمان (٧) .	ثلا .
	أحمد بن علي بن مرغم البغدادي (٨) .	صنعاء مسجد الخراز .
الناصر صلاح الدين محمد بن علي .	عبد الله بن حسن الدواري (٩) .	صعدة مسجد الهادي .
	صلاح بن الجلال (١٠) .	صعدة مسجد الهادي .
	إسماعيل بن إبراهيم بن عطية النجراني (١١) .	صعدة محروس صعدة .
	داؤد بن يحيى بن الحسين (١٢) .	صعدة مسجد الهادي .
	علي بن محمد بن سليمان النجري (١٣) .	صنعاء (القصر) .

(١) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ٩٦٨ . الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٨٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ : ٤٧٧ . المرجع نفسه ، ص ٤٦٩ .

(٣) نفسه ، ج ٢ : ٦٨٠ . نفسه ، ص ٦٤٧ .

(٤) نفسه والجزء ، ص ١١٠١ . نفسه ، ص ١٠٠٨ .

(٥) نفسه ، ص ١١١٩ . نفسه ، ص ١٠٢٦ .

(٦) نفسه ، ص ١١٣٦ . نفسه ، ص ١٠٣٦ .

(٧) جار الله ، ثلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ١٠٥ .

(٨) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ١٧٠ . الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٥١ .

(٩) المصدر نفسه والجزء ، ص ٥٩١ . المرجع نفسه ، ص ٥٧١ .

(١٠) نفسه ، ص ٥٢٤ . نفسه ، ص ٤٩٩ .

(١١) نفسه ، ص ٢٤٨ . نفسه ، ص ٢٢٤ .

(١٢) نفسه ، ص ٤٣٧ . نفسه ، ص ٤٢٢ .

(١٣) نفسه ، ج ٢ : ٧٨٩ . نفسه ، ص ٧١١ .

اسم الإمام	اسم المدرس	منطقة التدريس
الناصر صلاح الدين محمد بن علي .	محمد بن يحيى بن الحسن القاسمي ^(١) .	هجرة الظهر اوين .
	الناصر بن أحمد بن المطهر بن يحيى ^(٢) .	صنعاء مسجد الأجدم .
	القاسم بن أحمد بن حميد المحلي ^(٣) .	حوث .
المنصور بالله علي بن صلاح	دهماء بنت يحيى بن المرتضى ^(٤) .	ثلا .
	الهادي بن إبراهيم ^(٥) .	صنعاء .
	علي بن محمد بن أبي القاسم ^(٦) .	صنعاء .
	عبد الله بن محمد بن إبراهيم ^(٧) .	صنعاء مسجد الفليحي .
	أحمد بن عبد الله بن الحسن الدواري ^(٨) .	صعدة .
الناصر بن محمد .	عبد الله بن يحيى بن المهدي ^(٩) .	صنعاء .
	يحيى بن أحمد بن علي مظفر ^(١٠) .	هجرة حمدة .
	علي بن زيد بن الحسن الشظي ^(١١) .	صنعاء .
	علي بن محمد بن أحمد بن علي البكري ^(١٢) .	صنعاء .

^(١) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ١١١٠ . الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠١١ .

^(٢) المصدر نفسه والجزء ، ص ١١٦٧ . المرجع نفسه ، ص ١٠٥٧ .

^(٣) نفسه ، ص ٨٥٧ . نفسه ، ص ٧٦٥ .

^(٤) ابن الوزير ، الفضائل ، ق ٣٠٦ . نفسه ، ص ٤٢٣ .

^(٥) المصدر نفسه ، ق ٦٠ . نفسه ، ص ١٠٦٩ .

^(٦) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ٢ : ٧٧٩ . نفسه ، ص ٧١٧ .

^(٧) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٦١٢ .

^(٨) إبراهيم بن القاسم ، الطبقات ، ج ١ : ١٥٩ . الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٣١ .

^(٩) المصدر نفسه ، ج ٢ : ٦٥٢ . المرجع نفسه ، ص ٦٢٩ .

^(١٠) نفسه ، ج ٣ : ١٢٠٦ . نفسه ، ص ١٠٩٢ .

^(١١) نفسه ، ج ٢ : ٧٤٥ . نفسه ، ص ٦٧٩ .

^(١٢) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٧٠٩ .

أما عن المدارس ، فالمرجح أن الإمكانات أدت دوراً في ذلك ، ففي الحين الذي كانت فيه الدولة الزيدية تعاني من مشكلات وأزمات مالية ، اقتصر الأمر على استعمال مجموعة من المنازل المتجاورة غرفاً للدرس ، وهذه المنازل إما أن تكون وقفاً لله تعالى من بعض المحسنين والراغبين في الأجر والثواب ، وإما أن تكون من المنازل المصادرة من أعداء الدولة الزيدية ، وحين تحسنت الأوضاع الاقتصادية للدولة الزيدية ولا سيما في عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي وما بعده قامت الدولة بتخصيص أماكن للدراسة ، تكون في العادة ملحقة ببناء المسجد كمسجد القبة في صنعاء - المعروف اليوم بمسجد صلاح الدين - ^(١) ومسجد قبة الهادي بمدينة ثُلا ^(٢) ، والجامع الكبير بمدينة ثُلا ^(٣) ، الذي خُصص في كلٍّ منها إيوان للتدريس ^(٤) ، ليس ذلك فحسب ، بل وخصصت في المسجد أماكن للإقامة الدائمة لبعض الدارسين وطلبة العلم الوافدين من المناطق البعيدة ^(٥) ، وأعطى كل دارس نفقات إقامته ودراسته ^(٦) حتى إتمامها . ومع أن استعمال المسجد أو الجامع للدرس طريقة قديمة ، وأسلوب متبع منذ عهود ، إلا أن تخصيص أماكن للدرس ، وسكن للدارسين ، وغيرها ، كبناء ملحق بالمسجد ، من الأمور التنظيمية التي لم تعرفها الدولة الزيدية إلا في وقت متأخر من قيامها ؛ لأن الإمكانات المادية لها لم تساعد من قبل على ذلك ، ولا شك أن هذه الطريقة في بناء المدارس الملحقة بالمسجد قد انتشرت في مناطق أخرى غير صنعاء ، وثُلا ، وإن لم تكن لدينا معلومات كافية عنها واللافت للنظر أن هذه الطريقة في البناء ظلت متبعة في اليمن إلى يومنا هذا ^(٧) ، ولا

(١) انظر لوحة رقم (١٨) .

(٢) جار الله ، ثُلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، لوحة رقم (٧٨) .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢١٩ .

(٤) يعود تاريخ إنشاء إيوان التدريس في الجامع الكبير بثُلا إلى سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م . انظر : جار الله ، ثُلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، ص ٢١٩ .

(٥) شيحة ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية ، ص ٧٧ . العروسي : محمد علي قاسم ، العمارة اليمنية في العصر الإسلامي ، مجلة الإكليل ، مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة ، صنعاء ، العدد (٢٧) ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، ص ٦٧ . جار الله ، ثُلا إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي ، لوحات رقم (٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤) .

(٦) يحيى بن حمزة ، مجموع رسائل ، ق ١٨٤ . ابن الوزير ، الفضائل ، ق ٢٤٣ .

(٧) العروسي ، العمارة اليمنية في العصر الإسلامي ، ص ٧٢ .

سيما ما يتعلق بالتعليم الديني غير النظامي في المراكز العلمية المنتشرة في مناطق عديدة في اليمن .

وفي ختام هذا الموضوع لابد من التتويه والتأكيد على الأثر الأيوبي والرسولي في هذا الشأن ، فكما استنقت الدولة الزيدية من هاتين الدولتين بعض النظم والمظاهر السياسية والإدارية والاقتصادية والعسكرية ، كان للنظم والمظاهر العلمية نصيب من ذلك ، ولاسيما فيما يخص شكل المدارس وتصميم بنائها ، وإن اختلفت العلوم التي تدرس في هذه المدارس .

٣. النشاط الأدبي : الشعر والنثر :

شهد النشاط الأدبي في مجال الشعر والنثر تطوراً ملحوظاً في مختلف إغراضه ، وكان لحالة الصراع والحرب المستعرة بين مختلف الأطراف ، أثرها الإيجابي في هذا الشأن .

ومع أننا قد استعنا واستشهدنا بمجموعة من الرسائل والنصوص الشعرية و النثرية في دراستنا هذه ، وتحديدأ فيما يتعلق بالصراع الذي حدث بين الإمام المهدي أحمد بن الحسين والأشراف الحمزيين بقيادة الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة ، وفيما يخص أيضاً العلاقة بين الدولة الزيدية من جانب ، وأهل السنة والباطنية من جانب آخر ، ناهيك عن بعض الموضوعات كمفهوم الوراثة عند الزيدية ، وأثر الحسد والتحاسد في الإمامة . إلا أنه سيظل هناك الكثير مما نود أن نقوله — أو قاله الآخرون — في هذا الخصوص .

ويجدر بنا ونحن نتحدث في هذا الشأن أن نعود لبعض القصائد التي تركت أثراً كبيراً في تاريخ الدولة الزيدية ، وانعكست إيجابياً على الشعر فيها .

يقول الشامي : " في تاريخ اليمن الأدبي قصائد مشهورة تهز المجتمع اليمني سياسياً ، ودينياً ، وطانفياً ... وقصيدة **لعل الليالي** ... لأحمد بن عبد الله بن حمزة ... من قصائد الضجة في تاريخ اليمن ! وقد عارض القصيدة المذكورة شعراء الزيدية بل إن المؤرخين الزيود يتحاشون أن يثبتوها دون القصائد المعارضة لها أو التنديد بها .. نعم لقد هزت قصيدة الأمير الحمزي المجتمع اليمني وانتشرت في أواسطه انتشار النار في الهشيم ، وأحدثت ردود فعل مختلفة ... " (١) .

(١) تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٢٤ - ٢٢٥ .

وحتى نوضح بعض ما جاء في كلام الشامي ، وما كان يقصده ، ننبه إلى أننا قد تناولنا الأثر السياسي والطائفي لهذه القصيدة على مجرى الأحداث في ذلك الحين ، عندما تحدثنا عن الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، إلا أن أهم ما يجدر بنا ذكره الآن ، هو دور الأحداث السياسية آنذاك في نظم هذه القصيدة " الضجة " ، ونتساءل هنا ، هل كان الأمير شمس الدين أحمد سينظم هذه القصيدة في مدح الملك المظفر الرسولي ، إذا لم يكن على خلاف مع الإمام المهدي ؟ وهل ستكون هذه القصيدة بهذا الحس ، وهذا الإبداع الشعري ، لو لم يصل هذا الخلاف إلى طريق اللا عودة ؟ وهل سيسهب الأمير شمس الدين ويبالغ في الإطراء والمدح للملك المظفر ، لو لم يكن في حاجة ماسة له ؟ وهل ستشهد الحياة الشعرية انتعاشاً بكم من القصائد التي نُظمت للرد على هذه القصيدة لو لم تقال ؟ .

والإجابة على كل هذه الأسئلة أنه لو لم يحصل الخلاف بين الإمام المهدي والأمير شمس الدين ، لما كان كل ذلك موجوداً .

لقد استغل كل من الإمام المهدي والأمير شمس الدين إتقانه للغة العربية ليفرغ مكنونات نفسه نظماً ونثراً ، ويؤثر بكل ما أوتي من قوة على العامة في ذلك الحين . وإذا كان الأمير شمس الدين قد استغل قريحته الشعرية لينظم مجموعة من القصائد التي لا تقل جودة أدبية عن قصيدته " **لعل الليلي** " ، ومنها ، " **أعيذك أن تنافسني مطالاً** " ^(١) و " **يا خليلاً مولعاً بالوفاء** " ، وغيرها من القصائد ، فإن الإمام المهدي أبدع بما لا يدع مجالاً للشك نثراً ، ووصل إلى قمة هذا الإبداع بنظمه رسالته حليفة القرآن ، التي تعد من أروع الرسائل التي كتبت ، ليس على مستوى تاريخ الزيدية وحسب ، بل حتى على مستوى التاريخ اليمني ، والتي اشتملت على مختلف صور البلاغة والمحسنات البديعية والاستعارات ، والتشبيهات ، والكنيات ، والسجع ، والجناس ، والطباق ، والاستعانة بالشعر والحديث والآيات القرآنية والأمثال ^(٢) . ولم تختلف باقي رسائله عن حليفة القرآن ، وإن لم تكن بالمستوى نفسه ، وبالعودة إلى قصيدة " **لعل الليلي** " ، نورد منها أهم الأبيات التي لم نسبق وأن استعنا بها في بحثنا ، والتي تعد السبب الرئيس في الضجة التي قال عنها الشامي .

(١) انظر فيما سبق ، ص ٨٢ .

(٢) انظر هذه الرسالة كاملة عند : أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ٩٢ — ١٢١ .

يقول الأمير شمس الدين :

ولما قصدت الملك ذا التاج يوسفاً
دعوت قلباتي فتى لا مزيداً
وألقيت كفي في أنامل لم تخن
أنخنا بك الآمال وهي ركائب
فسوحك مقصود وكفك قاهرٌ
وداويت لابن العم داءاً وجدته
كذا يستعين الحر بالحر واثقاً
إذا أمطرت منا ومنك سحابة

علمت بأن الهم ليس يعود
ملولٌ ولا واهي اليدين بليد
عهوداً ولم تُخلف لهن وعود^(١)
لإرسائها لطف الإله يقود
وجندك منصور وأنت حميد
على الصبر ينمو حظه ويزيد
برب له كل الملوك عبيد
لها الدم مطر والصليل رعود

فرد عليه العديد من شعراء الزيدية ، لهول ما أصابهم عندما سمعوها ، واختاروا من قصيدته أبياتاً كان وقعها في أنفسهم ضرب السيوف ، وردوا عليها بما هو أشد ، فقال أحدهم :

تبدل شمس الدين بعد يقينه
يحن إلى سوح المظفر مولعاً
وحفت به غلف العلوج وحوله
فمن مبلغاً عني الأمير وحرزبه

من الريب مالا يرتضيه مجيد
بتقريضه حتى يقال " لبيد " ^(٢)
دنانٌ وأوتارٌ ترن وغيد
لقد سار درباً ما اقتفاه رشيد .

وكما شهد الشعر والنثر نشاطاً محموماً بسبب الصراع بين الأطراف المختلفة ، شهد أيضاً نشاطاً من نوع آخر ، بسبب الرغبة في العطايا والهبات ، مصحوبة بالتعصب الذي وصل إلى حد الغلو ، ومع أنه ليس في نيتنا التركيز على مسألة الغلو ، إلا أنه يجدر بنا ألا نغفل دور المدح للأئمة خاصة أو ما يعرف بـ : " الشعر التكسبي "

(١) في هذا البيت تشهير واضح بالإمام المهدي أحمد بن الحسين ، بأنه يخون العهد ويخلف الوعد . وللإطلاع على هذه القصيدة كاملة ، انظر : ابن حاتم ، السمط ، ص ٣١٢ - ٣١٦ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١١٦ - ١١٨ . ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ، ج ١ : ١٢٨ - ١٢٩ . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) لعل هذا البيت أشد ما جاء وقعاً في هذه القصيدة على الأمير شمس الدين ، ولذلك أشار الشامي حين قال : " لا شك أن الشاعر القارس ابن الإمام قد عض سن الندامة ! " . انظر : تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٢٨ . وللإطلاع على بقية القصيدة ، انظر : أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ٥٤ - ٥٧ . ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ، ج ١ : ١٢٩ - ١٣١ . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٢٦ - ٢٢٧ .

في ازدهار حركة الشعر آنذاك ، ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين تخصصوا في هذا الغرض ، الشاعر القاسم بن علي بن هتميل ، الذي أنتج مجموعة من القصائد لا يتسع المجال لذكرها كاملة ، وإن كنا سنقتصر على ذكر أهمها ، والتي منها في مدح الإمام المهدي أحمد بن الحسين :

أنا من ناظري عليك أغار
يا قضيباً من فضة يُقَطَّفُ النر
عجباً منك تحت برقعك النار
صن محياك بالنقاب وإلا
ومنها :

أ (أحمد) إني شاكر لك حامد
وإنك قد عودتني منك عادة
وكم لك عندي من يد وصنيعة
فإن تولني خيراً فإتك أهله
وإني موعود وإتك واعد
هي اليوم لي في المشرقين عوائد
يقر بها جلدي لو أني جاحد
وإن تكتسب مجداً فإنك ماجد (١)

وقال الفقيه يحيى بن حسن القرشي الصعدي في الإمام الناصر صلاح الدين محمد :

هو المعطي إذا الأنواء ضنت
فتى فاق الورى شرفاً وفضلاً
له كف يقسم في البرايا
وله فيه أيضاً :

بقطعة يُعرف الصمصامة الذكرُ
وبالبسالة حاز الليث مرتبة
قضى لك السعد والأيام شاهدة
وبالضياء والتسامي فضل القمر
على النعاج وفاق الثعلب النمر
فصار يجري على ما تشتهي القدر (٢)

(١) أحمد بن الحسين ، مجموع رسائل ، ص ٥٩ ، (مقدمة المحقق) .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ١٠٢٨ .

(٤) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٠٤٢ - ١٠٤٤ .

ولم يقتصر الشعر التكبسي على الشعراء الزيديين فقط ، وإنما تعداه إلى غيرهم من الشعراء ، فهذا ابن حمير^(١) — وهو من الشافعية — يمدح الإمام المهدي أحمد بن الحسين قائلاً :

سُرْتُ بدولتك الدنيا وساكنها حتى السموات أحصى اللوح والقلمُ
أما الملوك فحارت في توصلها إلى مداك وقد أعطيت ما حُرِّموا
ما زلت أكرمهم جداً ، وألزمهم عهداً ، وأعظمهم مجداً ، وإن عظموا
ولا ملامة إن فروا ولا حرجٌ لا يزار الليث إلا فرق الغنم^(٢) .

ومن أغراض الشعر التي اشتهرت في ذلك الحين ، الهجاء والتشفي ، كما هو الحال في الهجاء لقتلة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، والتشفي بمقتله .

أما الهجاء لقتلته ، فوصلت إلينا أبيات يقول مطلعها :

الويل كل الويل للرصاص ولحزبه الداني معاً والقاصي !
يا ويلهم يوم القيامة من لظي من شد أغلالٍ وسفع نواصي^(٣) .

وأما التشفي لمقتله ، فأول من ابتدعه الأمير شمس الدين حين قال :

وأبلج ذي تاج أصابت رماحنا بمعترك بين الفوارس أقتما
هوى بين أيدي الخيل إذ فتكت به صدور العوالي ينضح المسك والدماء^(٤) .

كذلك كان للثناء نصيب من هذا التطور ، وإلى ذلك أشار الشامي حين قال :
" ... وقد ناح شعراء اليمن على الإمام — المهدي أحمد بن الحسين — وبكوه بكثير من القصائد ، ولو جمعت كل المراثي التي قيلت فيه ، وفي التنديد بقاتليه والخارجين عليه لكونت ديواناً ضخماً " ^(٥) .

ثم أورد أبياتاً لابن هتيمل قيلت بعد مقتل الإمام المهدي قال فيها :

^(١) للإطلاع على ترجمة وافية عن هذا الشاعر ، انظر : ابن حمير : أبو عبد الله جمال الدين محمد بن حمير ، ديوان ابن حمير ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥ م ، ص ٢٢ — ٤٣ ، (مقدمة المحقق) . الشامي ، تاريخ اليمن الفكري ، ج ٤ : ٩١ — ١١٧ .

^(٢) ابن حمير ، ديوان ابن حمير ، ص ٨٠ . وللإطلاع على القصيدة كاملة ، انظر : المصدر نفسه ، ص ٧٨ — ٨١ .

^(٣) ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ، ج ١ : ٢٣٨ .

^(٤) ابن حاتم ، السمط ، ص ٣٣١ . الخزرجي ، العقود ، ج ١ : ١٢٥ .

^(٥) تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٠٨ .

أقسمتُ أحلف صادقاً وأنا الذي
 إن الشجاعة والسماحة والندى
 ما قط أحلفُ حاتناً بيمينى
 حلت بقبر في ربا ذيبين^(١) .

وإذا كان النشاط الأدبي في الشعر و النثر قد شهد تطوراً ملحوظاً في عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، فإن هذا التطور لم يتوقف ولم يقتصر على هذه المدة وإذا كنا قد ركزنا عليها – على وجه التحديد – فإن ذلك من قبيل إعطاء أتمودج أو مثال على ما نود تأكيده ، ولا ينفي استمرارية التطور الأدبي للشعر و النثر في الفترات اللاحقة لهذا العهد .

وقد انتجت في هذه الفترة عدداً من القصائد والنصوص الأدبية ، ولعل من أشهرها : قصائد الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين التي نظمها وهو في سجن الملك المظفر الرسولي ، والتي تضمنت وصف لأحواله في معركة أفق ، وكيفية أسره ، ومعاملة الملك المظفر له^(٢) ، كما تضمنت إحدى قصائده رثاء لبعض من له معرفة بهم^(٣) . كذلك وردت بعض المساجلات الشعرية بين الملك المؤيد الرسولي والإمام المهدي محمد بن المطهر^(٤) ، ومساجلات ذات طابع مذهبي بين بعض الشعراء الرسوليين وشعراء الدولة الزيدية ، والتي سبق وأشرنا إليها خلال تناولنا للعلاقة بين الأئمة الزيدية وأهل السنة^(٥) ، ولم يختلف الوضع كثيراً عند الحديث عن القصائد التي نظمت للتحريض على الباطنية ، ولا يخلو الأمر من القصائد التي تنظم في مدح الأئمة الزيديين في مختلف عهودهم وفي رثائهم بعد موتهم .

(١) تاريخ اليمن الفكري ، ج ٣ : ٢٠٨ .

(٢) للإطلاع على هذه القصيدة كاملة . انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٠٤ – ٩٠٨ .

(٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ٩٠٩ – ٩١٢ .

(٤) لعل أشهر هذه المساجلات ما نسب إلى الملك المؤيد يوم قال :

رويدك لا تعجل فما أنت بعلمها
 رويدك لا تعجل فما أنت بعلمها
 وإن كنت ذا عزم فلا تضح هارباً
 وإن كنت ذا عزم فلا تضح هارباً
 وسأل جبال اللوز عنا وعنكم
 وسأل جبال اللوز عنا وعنكم
 فأفضلكم ولى وخلفكم نهبا .
 فأفضلكم ولى وخلفكم نهبا .

فرد عليه الإمام المهدي بقوله :

رويدك إن الله قد شاء حربكم
 رويدك إن الله قد شاء حربكم
 تأخر عن الدست الذي أتت صدره
 تأخر عن الدست الذي أتت صدره
 وصيرنا الرحمن في ملككم حزبا
 وصيرنا الرحمن في ملككم حزبا
 وعد عن الملك الذي نلته غصبا .
 وعد عن الملك الذي نلته غصبا .

انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٤٣ – ٩٤٤ .

(٥) انظر فيما سبق ، ص ٢٣٣ – ٢٣٥ .

ولعل من أهم ملامح تطور الشعر في ذلك الحين هو استعماله في تدوين التاريخ ، كذلك التي قيلت في شرح أحوال الإمام الناصر بن محمد ، وما آل إليه مصيره بعد ذلك (١) .

أما النصوص الأدبية النثرية فيكفي أن يعود الباحث إلى دعوات الأئمة التي استهلوا بها إمامتهم (٢) ، ورسائل بعضهم للحلفاء والأعداء ، للولاة والأمراء ، وقد ورد في بعض المصادر بعض الدعوات ، وحُفظت لعدد من الأئمة مجموعة رسائل تدل على تطور النثر في ذلك الحين ، لعل أبرزها الرسالة التي وجهها الإمام الواثق بالله المطهر بن محمد بن المطهر بعد اعتزاله الإمامة إلى الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، والتي حوت العديد من أشكال البيان والمعاني والبديع (٣) .

٣. التآليف :

إن المتأمل في الكم الكبير من المخطوطات التي يعود تأليفها إلى مدة موضوع البحث ، والتي اشتملت على العديد من المواضيع كالسير ، والتراجم ، والمؤلفات في الفقه ، والأصول ، وعلم الكلام ، والفرائض ، واللغة ، وغيرها من المؤلفات ، يدرك حجم ذلك النشاط والحركة التي شهدتها الدولة الزيدية آنذاك في مجال التأليف . ولأن المؤلفات التي ألفت في تلك المدة كثيرة جداً ، نأخذ بعض النماذج التي قد يكون في ذكرها كفاية وإيفاء بالغرض المقصود .

أ . الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة :

قد لا تكون حالة الضعف التي عانت منها الدولة الزيدية بسبب قوة ونفوذ الدولة الرسولية زاخرة بالتصانيف والمؤلفات ، إلا أن هذا الوضع بدأ في التغيير مع جهود الإمام المهدي محمد بن المطهر في إحياء الإمامة الزيدية .

ومهما يكن من أمر الاختلاف ، والانقسام ، والصراع الذي عانت منه الدولة الزيدية بعد وفاة الإمام المهدي محمد ، وما تمخض عنه من تعارض الأئمة الأربعة ، إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور حركة نشطة للتأليف ، قادها الإمام المؤيد يحيى بن حمزة ، الذي لم يجد جدوى تذكر من الاستمرار في الصراع مع الآخرين على الإمامة

(١) انظر : ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١١٦٩ - ١١٧٥ .

(٢) انظر على سبيل التمثيل ، المصدر نفسه ، ج ٢ : ٩٢٥ - ٩٣٠ .

(٣) انظر المصدر نفسه والجزء ، ص ٩٩٤ - ٩٩٩ .

وآثرَ الاعتزال والتفرغ لما هو أهم من وجهة نظره ، وكما كان الصراع سبباً في إضعاف الدولة الزيدية ، إلا أن اعتزال الكثيرين له ولا سيما من العلماء والفقهاء ، وتفرغهم للتدريس والتأليف ، أسهم في تصنيف العديد من المؤلفات التي لم تكن لتُصنف لولا هذه الحالة .

ولذلك تشير بعض المصادر المراجع عند ذكر بعض هؤلاء بالقول : " وعكف على التدريس والتأليف " (١) ، والعكوف هو الملازمة للشيء والتفرغ له . ولأننا قد اتخذنا الإمام المؤيد يحيى بن حمزة أنموذجاً في هذا الخصوص ، نذكر عدداً من المؤلفات التي ألفها ، والتي ذكر المؤرخون (٢) إنها أكثر من مئة مجلد :

* في أصول الدين :

- المعالم الدينية في العقائد الإلهية .
- التمهيد في علوم العدل والتوحيد ، ويسمى التمهيد لأدلة مسائل التوحيد .
- النهاية في الوصول إلى علم حقائق علم الأصول (ثلاثة أجزاء) .
- الشامل لحقائق الأدلة العقلية وأصول المسائل الدينية (أربعة مجلدات) .
- مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار .
- الإفحام في أفئدة الباطنية الطغام .
- التحقيق في الإكفار والتفسيق .

* في أصول الفقه :

- المعيار لقرائح القطار في شرح حقائق الأدلة الفقهية وتقرير القواعد القياسية .
- القسطاس (جزءان) .
- الحاوي لحقائق الأدلة الفقهية وتقرير القواعد السياسية .

* في الفقه :

- العمدة في مذاهب الأئمة في الفقه (ستة مجلدات) .
- الانتصار الجامع لمذاهب الأمصار (١٨ مجلد) .

(١) فطر على سبيل التمثيل : الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ١٠٢٦ ، ١٠٣٦ .

(٢) ابن الهادي ، النبذة اليسيرة ، ق ٥ أ - ٦ ب . ابن فند ، مآثر ، ج ٢ : ٩٧٣ - ٩٧٤ . الشوكاني : محمد بن علي ، البدر الطالع بمحاسن القرن السابع ، تح : حسين بن عبد الله العمري ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، ص ٨٥٠ - ٨٥١ .

* في النحو :

- الاقتصار في النحو .
- الحاصر في شرح مقدمة طاهر .
- المنهاج الجلي في شرح جمل الزجاجي (مجلدان) .
- المحصل في كشف أسرار المفصل للزمخشري (أربعة مجلدات) .
- الأزهار الصافية في مقدمة الكافية (مجلدان) .

* في المعاني والبيان :

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز (ثلاثة مجلدات) .
- الأنوار المضيئة في شرح الأربعين الحديث السليبية .
- الديباج الوضي في الكشف عن أسرار كلام الوصي (ثلاثة مجلدات) .

* في علم الفرائض :

- الإيضاح لمعاني المفتاح .
- تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب .

ب . الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى :

وفي حالة مشابهة إلى حد كبير لحالة الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ، كان لمسألة التعارض على الإمامة والصراع من أجلها ، ثم الانسحاب من هذا الصراع واعتزاله ، دور كبير في ظهور عدد من المؤلفات التي صنفها الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ، وقد كان تأليفه لبعضها في سجن الإمام المنصور بالله علي بن صلاح^(١) ، الذي دام سبع سنوات ، والعدد المتبقي ألف في ثلا ، ومسور ، وحراز ، وظفير حجة ، بعد أن اعتزل الحياة السياسية وانزوى هناك^(٢) ، وأهم هذه المؤلفات^(٣) :

* في أصول الدين :

- القلائد في تصحيح العقائد .
- الملل والنحل .

(١) المرتضى ، كنز الحكماء ، ق ٦٥ . ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١٠٨٤ .

(٢) الوجيه ، أعلام المؤلفين الزيدية ، ص ٢٠٦ .

(٣) ابن فند ، مآثر ، ج ٣ : ١٠٨٣ - ١٠٨٧ . ابن المظفر ، الترجمان ، ق ١٦١ . إبراهيم بن القاسم ،

الطبقات ، ج ١ : ٢٣٠ - ٢٣١ .

- المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل .
- رياضة الإقهام في لطيف الكلام .
- دماغ الأوهام في شرح رياضة الإقهام .

* في أصول الفقه :

- فائقة الفصول في ضبط معاني جوهرة الأصول .
- معيار العقول في علم الأصول .
- منهاج الأصول في معرفة معاني شرح معيار العقول .

* في اللغة :

- الكوكب الزاهر في شرح مقدمة طاهر .
- الشافية في شرح معاني الكافية .
- المكلل .
- تاج علوم الأدب وقانون كلام العرب .
- إكليل التاج وجوهرة الوهاج .

* في الفقه :

- الأزهار في فقه الأئمة الأطهار .
- البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار .
- الغيث المدرار المفتاح لكلمات الأزهار .
- الأحكام المتضمنة لفقه أئمة الإسلام .
- الانتقاد للآيات المعتبرة في الاجتهاد .

* في علم الفرائض :

- القاموس الفرائض في علم الفرائض .
- الفرائض من الفرائض .

* في المنطق :

- القسطاس المستقيم في علم الحد والبرهان القويم .
- وغيرها من المؤلفات التي لا يتسع المجال لذكرها .

ومع أننا قد نكون أعطينا انطباعاتاً بأن النشاط الذي شهدته حركة التأليف تزامن مع حالات الصراع على الإمامة ، واعتزال الكثيرون هذا الصراع وتفرغهم للعلم والتأليف ، إلا أن هذه الحركة لم تتوقف وتتنحصر على هذه الأدوار ، بل إن النشاط الحقيقي لهذه الحركة كان مع القوة والاستقرار الذي تمتعت به الدولة الزيدية خلال عهد الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي ، الذي رُوِيَ أنه كان كثير التشجيع للعلم والعلماء ^(١) ، ولعل ذلك ما يفسر الكم المهول من المؤلفات ^(٢) التي صنفت في عهده ، من قبل العديد من العلماء الذين كانت لهم المكانة الرفيعة عند الإمام الناصر ، كالقاضي عبد الله بن حسن الدواري ، والسيد الهادي بن إبراهيم الوزير ، والسيد داود بن يحيى بن الحسين ، والسيد صلاح بن الجلال ، والشيخ إسماعيل بن عطية النجراني ، والذين خلفوا العشرات من المؤلفات في مختلف العلوم ، ولا سيما منها الفقهية واللغوية ، والتي لم تكن لتُصنّف لولا الدعم الذي حظوا به من هذا الإمام ، والأجواء التي هيأها لهم للقيام بها .

^(١) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ : ٥٣٧ .

^(٢) عن هذه المؤلفات ، انظر ترجمة هؤلاء العلماء والشيوخ في طبقات الزيدية الكبرى لإبراهيم بن القاسم ، وأعلام المؤلفين الزيدية لعبد السلام الوجيه .

الخاتمة

لا يختلف الكثيرون في أن وفاة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة في سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م ، شكلت مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الدولة الزيدية في اليمن ، فما أن توفي هذا الإمام حتى حل الضعف والانشقاق بهذه الدولة ، نظراً لذلك الصراع الذي خاضه أبناؤه (عز الدين محمد ، وشمس الدين أحمد) مع الإمام الشرعي المستحق للإمامة المعتضد بالله يحيى بن المحسن .

ولأنه لا يمكن للزيدية الاستمرار بدون إمام شرعي ، ولا سيما بعد وفاة الإمام المعتضد بالله ، وافتقار آل الإمام عبد الله بن حمزة لشروط الإمامة ، تمت مبايعة الإمام المهدي أحمد بن الحسين .

ولما لم تسر الأوضاع كما أريد لها من قبل الأمراء الحمزيين ، ولا سيما بعد محاولات الأمير شمس الدين أحمد المتكررة التفاهم مع الإمام المهدي أحمد بن الحسين لم يبق أمامهم سوى التحالف العسكري مع الرسوليين وعلى رأسهم في ذلك الحين الملك المظفر يوسف بن عمر ،

ومع هذا الحالف الجديد ، كانت بداية النهاية بالنسبة للإمام المهدي ، فهزم في معركة نقيل الحصبات وأخرج من صنعاء ، ثم كان مقتله في غيل شوابة وهو يدافع عن زرعهما في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م .

ونظراً لسياسة الاحتواء التي حاول الملك المظفر تطبيقها مع الأشراف الحمزيين ، واستشعارهم لها ، بدأت حلقات العقد الذي جمع بينهما تنفرط ، وأيقن هؤلاء الأشراف أن الأمل الوحيد الذي سيخرجهم من هذا المأزق ، هو التنازل عن بعض السلطات والنفوذ والتحالف مع بقية الأشراف الزيديين لإحياء الإمامة . إلا أن إدراكهم لهذا الأمر كان متأخراً ، واستطاع الملك المظفر بماله استيعابهم ، ودفعهم للتخلي عن إمامهم الجديد المهدي إبراهيم بن تاج الدين في معركة أفق سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م .

إن تغير الأوضاع السياسية من وضع إلى آخر مع كل عهد جديد لملك من ملوك الدولة الرسولية ، أو إمام من أئمة الدولة الزيدية ، جعل العلاقة بينهما في تبدل مستمر ، فبعد وفاة الملك المظفر في سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م ، استغل الإمام المهدي محمد بن المطهر بن يحيى المرتضى قلة خبرة الملك المؤيد داود بن يوسف ، وحدثت

سن ولده الملك المجاهد علي بن داؤد ، ليعيد التوازن للدولة الزيدية المنهارة ولتبسط سلطانها على معظم مناطق اليمن الأعلى ، حتى تمكنت من السيطرة على صنعاء في سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م ، ومع أن الأشراف الزيديين خاضوا أتون حروب طويلة بعد وفاة الإمام المهدي محمد بن المطهر على الإمامة ، إلا أن الرسوليين لم يستفيدوا من هذه الأوضاع ويعيدوا سلطانهم إليها مجدداً .

ولما كانت الدولة الرسولية ما تزال مشغلة بترتيب أوضاعها الداخلية ، استغل الإمام المهدي علي بن محمد ، و من بعده ولده الناصر هذه الأوضاع لينطلقا بالدولة الزيدية نحو أفق أرحب ، لم يوقفه إلا وفاة الأخير في سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م ، وعودة الصراع على الإمامة مرة أخرى بين ولده المنصور بالله علي بن صلاح والمهدي أحمد بن يحيى المرتضى .

واستغلالاً لهذا الصراع تألب أعداء الدولة الزيدية للقضاء عليها ، وعلى الرغم من كل تلك المحاولات التي بذلت من أجل هذا الأمر ، فإن الإمام المنصور علي بن صلاح تمكن من الصمود أمامها .

ومع وفاة الإمام المنصور علي بن صلاح وولده محمد بسبب الطاعون الذي عم اليمن الأعلى والأسفل في سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م ، عاد الضعف والانقسام للدولة مرة أخرى ، بسبب تدخل الشريفة فاطمة بنت الحسن ، ومملوك – زوجها – قاسم بن سنقر في الإمامة ، فتقاتل نتيجة لذلك ثلاثة من الأئمة ، ولم ينته هذا الصراع – وصولاً إلى السنة التي توقفنا فيها – إلا بعد أن تمكن الإمام الناصر بن محمد من التخلص من خصومه ، بقتله للمملوك سنقر ، وأسرته للإمامين المهدي صلاح الدين بن علي ، والمتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان ، وعزله للشريفة فاطمة .

إن النقلب في الأحوال الذي مرت به الدولة الزيدية من قوة إلى ضعف وانقسام إلى قوة إلى ضعف وصراع ، وهلم جره ، جعلنا نتساءل عن الأسباب التي أدت إلى هذه الأمور ، كما أن ازدهار الدولة الزيدية في بعض مراحلها أوجب علينا أن لا نهمل الجوانب الحضارية في هذه الدولة ، ولذلك فصلنا بين الأمرين واستنتجنا بعض الأسباب التي نعتقد أنها وراء هذا الضعف والانقسام ، ففي الجانب السياسي ، تحول النظام القائم على العقد والاختيار في الإمامة إلى نظام وراثي في كثير من المراحل ، لا فرق بينه وبين النظام الملكي الذي نشأت الفرقة الزيدية على أساس الثورة عليه ، كما أن عدم الالتزام بشروط وأصول الإمامة في كثير من الأحيان من قِبل القائمين على مهمة

اختيار الإمام ، جعل الإمامة خاضعة للأهواء والمصالح الشخصية ، ناهيك عن غياب آلية محددة تنظم عملية انتقال الإمامة من شخص إلى آخر بسلام واستقرار ، وعدم وجود الضمانات الكافية لتحقيق هذا الانتقال دون مشاكل .

أما في الجانب الاقتصادي ، فكان الفرق في الإمكانيات المادية بين الدولتين الرسولية والزيدية من أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الإمامة الزيدية ، فقد استطاعت الأولى — بهذه الإمكانيات — أن تشتري الحصون و تجهز الحملات العسكرية و تدعم المنشقين عن الدولة الزيدية . بينما عجزت الثانية عن توفير كل ما تحتاجه الدولة من نفقات عسكرية وغيرها ، فلجأت إلى فرض المزيد من الأعباء المادية على العامة ، مما أدى لتفاقم الأوضاع أكثر .

وساهم التشدد — المذهبي — عند بعض الأئمة في هذا الضعف ، وكان سبباً في حدوث الاختلاف والصراع مع المذاهب الأخرى في اليمن ، كأهل السنة الشافعيين ، والباطنية الاسماعيليين ، فضلاً عن ما أحدثه من انقسام داخل الصف الزيدي ، بعد وصوله إلى حد التكفير بالموالاة لمعتقدي المذهب الزيدي نفسه .

وكأسباب مكملة لما أسلفنا ، كان للجانب الاجتماعي دور في هذا الضعف نظراً للتحاسد على الإمامة بين الأشراف الزيديين ، وفشلهم — قبل ذلك — في الاندماج مع شرائح المجتمع الأخرى ، ونظرتهم الدونية لها ، وممارستهم لنظام الرهائن مع القبائل لضمان الطاعة ، مما أدى إلى التمرد على الدولة كلما تهيأت الأوضاع لذلك .

وعلى الرغم من كل ما ذكر ، فأنا لا نستطيع أن نغفل الجوانب الحضارية التي اتسمت بها الدولة الزيدية في فترات استقرارها ، فكما كان لها من السليبات ما أسلفنا ، كان لها من الإيجابيات ما سنورد ، ففي الجانب السياسي ، كان لهذه الدولة نظام هرمي يقف الإمام على رأسه يساعده في ذلك فريق من الوزراء والأمراء والحجاب والولاة والمحتسبين والمقطعين والقضاة ، ومجموعة من الدواوين التي تنظم العمل السياسي والإداري .

وفي الجانب الاقتصادي ، قامت الدولة بعدد لا بأس به من الخطوات بغية النهوض بالاقتصاد ، كسك العملة وتشجيع التجارة والصناعة ، وتنويع وتجديد الموارد المالية للدولة — بغض النظر عن مشروعيتها — لتستوعب نفقاتها .

أما بالنسبة للجانب العمراني ، فتشهد العديد من المنجزات المعمارية ، والفنون الزخرفية التي لا يزال البعض منها ماثلاً حتى اليوم على الحس الحضاري لهذه الدولة

التي لم تقف الإمكانيات المادية الشحيحة عقبة أمام طموحاتها وتطلعاتها للحاق بركب الدول التي عاصرتها ، فعمرت العشرات من المساجد والحصون والقصور والدور وجددت ورممت غيرها من المباني .

وأخيراً تزامن مع ذلك كله نشاط علمي وفكري بتشجيع ودعم من الأئمة ، كان نتاجه المئات بل الألوف من المؤلفات الفقهية والأدبية والفكرية والعلمية ، وهذا لم يكن ليأتي من فراغ ، وإنما كان نتيجة طبيعية لسياسية الحث على التعلم والتدريس والعمل الدؤب الذي قامت به الدولة الزيدية في هذا المضمار .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

أ - المصادر المخطوطة :

- ابن أبي الرجال : أحمد (ت : ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م)
- ١ - مطلع البدور ومجمع البحور ، ج ١ ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي صنعاء ، برقم (٢) (تراجم) .
- أحمد بن يحيى المرتضى (الإمام المهدي) (ت : ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م)
- ٢ - البحر الزخار الجامع لمذهب علماء الأمصار ، ج ٣ ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٢) .
- ابن الأنف : عماد الدين إدريس بن الحسين (ت : ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م)
- ٣ - نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام في اليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار ، مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، برقم (١٢٥٣) (تاريخ) .
- الجنداري : أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن (ت : ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م)
- ٤ - الجامع الوجيز بذكر وفيات العلماء نوي التبريز من هجرة النبي إلى سنة ١٣٠٥ هـ ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٢) (تاريخ وتراجم) .
- الحبسي : يحيى بن علي بن محمد (ت : ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م)
- ٥ - تتمة الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (١) (مجاميع) .
- السيد شرف الدين : يحيى بن القاسم بن يحيى (ت : ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م)
- ٦ - سيرة الإمام المهدي أحمد بن الحسين ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٤) (سير وتراجم) .

- الشرفي : أحمد بن محمد بن صلاح (ت : ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م)
- ٧ - اللآلئ المضيئة في أخبار أئمة الزيدية ، ج ٢ ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٤) (تاريخ) .
- عز الدين بن الحسن بن علي (الإمام الهادي) (ت : ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م)
- ٨ - العناية التامة بتحقيق مسائل الإمامة ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) (علم كلام) .
- القاسمي : عبد الله بن الحسن بن يحيى (ت : ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م)
- ٩ - الجواهر المضيئة في تراجم رجال الحديث الزيدية ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٥) (تراجم) .
- المحلي : سليمان بن محمد (من رجال القرن السابع الهجري)
- ١٠ - البرهان الرائق المخلص من ورط المضائق ، مخطوط ، مكتبة الأوقاف بالجامع الكبير ، صنعاء ، برقم (٧٦٣) .
- المرتضى : الحسن بن أحمد بن يحيى (ت : ٨٤٠ هـ / ١٤٣٧ م)
- ١١ - سيرة الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى المسماة : كنز الحكماء وروضة العلماء ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) (سير وتراجم) .
- ابن المظفر : محمد بن أحمد بن يحيى (ت : ٩٢٦ هـ / ١٥١٩ م)
- ١٢ - الترجمان المفتوح لثمرات كمام البستان ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (١) (تاريخ) .
- ابن الهادي : عبد الله بن يحيى بن حمزة (ت : ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م)
- ١٣ - النبذة اليسيرة من سيرة الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٢) (سير وتراجم) .
- الوزير : الهادي بن إبراهيم (ت : ٨٢٢ هـ / ١٤٢٠ م)
- ١٤ - كاشفة الغمة عن حسن سيرة إمام الأئمة ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) (سير وتراجم) .

- ابن الوزير : أحمد بن عبد الله (ت : ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م)
- ١٥ - تاريخ السادات العلماء الكُمل من بني الوزير المسمى : " الفضائل " ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (١) (تراجم) .
- يحيى بن الحسين (الإمام الناطق بالحق) (ت : ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م)
- ١٦ - الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ، مخطوط ميكرو فيلم ، المكتبة الوطنية ، عدن ، برقم (٢٢٥) .
- يحيى بن حمزة (الإمام المؤيد بالله) (ت : ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م)
- ١٧ - النهاية في الوصول إلى علم حقائق الأصول ، ج ٢ ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) .
- ١٨ - مشكاة الأنوار للسالكين مسالك الأبرار ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٤) (ضمن مجموع كتب و رسائل) .
- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت : ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م)
- ١٩ - أنباء الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوط مصور ، دار الإمام زيد بن علي ، صنعاء ، برقم (٣) (تاريخ) .

ب - المصادر المطبوعة :

- إبراهيم بن القاسم بن الإمام المؤيد بالله محمد (ت : ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م)
- ٢٠ - طبقات الزيدية الكبرى (القسم الثالث ، ثلاثة أجزاء) ، ويسمى : " بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد " ، تح : عبد السلام بن عباس الوجيه ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .
- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت : ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)
- ٢١ - الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، تح : مكتب التراث ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
- أحمد بن الحسين (الإمام المهدي) (ت : ٦٥٦ هـ / ١٢٥٩ م)
- ٢٢ - مجموع رسائل ، تح : عبد الكريم أحمد جدبان ، منشورات مكتبة التراث الإسلامي ، صعدة ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

- أحمد بن يحيى بن الحسين (الإمام الناصر لدين الله) (ت : ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م)
- ٢٣ - كتاب النجاة ، تح : فيل فرد ماد يلونغ ، دار النشر فرانز شتاينر ، فيسبان ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- الأشعري : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت : ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م)
- ٢٤ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ج ٢ ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .
- الأطروش : الحسن بن علي (الإمام الناصر للحق) (ت : ٣٠٤ هـ / ٩١٧ م)
- ٢٥ - الاحتساب ، تح : عبد الكريم أحمد جدبان ، مكتبة التراث الإسلامي ، صعدة ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
- ابن الأنف : عماد الدين إدريس بن الحسين (ت : ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م)
- ٢٦ - روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار والحصون والأمصار ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، منشورات الهيئة العامة اليمنية للكتاب ، صنعاء ، ١٩٩٥ م .
- بافقيه : محمد بن عمر الطيب (توفي بعد سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٢٩ م)
- ٢٧ - تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر ، تح : عبد الله الحبشي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٩ م / ١٩٩٩ م .
- بامخرمة : أبو محمد عبد الله الطيب (ت : ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م)
- ٢٨ - تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ، تح : أوسكار لوفجرين ، دار التتوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .
- ٢٩ - قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، ج ٣ ، ، تح : محمد يسلم عبد النور ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت : ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م)
- ٣٠ - الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه ، ج ١ ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م . المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م . ج ٢ ، تح : محب

- الدين الخطيب وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- البريهي : عبد الوهاب بن عبد الرحمن (ت : ٩٠٤ هـ / ١٤٩٩ م)
 - ٣١ - طبقات صلحاء اليمن المعروف بـ : تاريخ البريهي ، تح : عبد الله محمد الحبشي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
 - البغدادي : عبد القاهر بن طاهر (ت : ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م)
 - ٣٢ - الفرق بين الفرق ، دار الآفاق ، الجديدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٣٩ هـ / ١٩٧٣ م .
 - البكري : عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)
 - ٣٣ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ج ١ ، تح : مصطفى السقا ، مكتبة عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ م .
 - الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى (ت : ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م)
 - ٣٤ - الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ، ج ٤ ، تح : كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت . تح : إبراهيم عطوه عوض ، دار الحديث ، القاهرة ، د . ت .
 - ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت : ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)
 - ٣٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٢ ، ج ٦ ، قدم له وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢ م .
 - ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم (ت : ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م)
 - ٣٦ - الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، تح : إبراهيم رمضان ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ م .
 - ابن الجزري : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م)
 - ٣٧ - المختار من تاريخ ابن الجزري المسمى : حوادث الزمان وأنباؤه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ، تح : خضير عباس محمد خليفة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

- الجعدي : عمر بن سمرة (ت : ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م)
- ٣٨ - طبقات فقهاء اليمن ، تح : فؤاد سيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- الجالين : محمد بن أحمد وعبد الرحمن بن أبي بكر (ت : ٨٦٤ هـ ، ٩١١ هـ)
- ٣٩ - تفسير الجالين ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- الجندي : أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف (ت : ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م)
- ٤٠ - السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ج ٢ ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
- ابن حاتم : بدر الدين محمد بن حاتم الهمداني (ت : بعد ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م)
- ٤١ - السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن ، تح : ركس سمث ، كمبردج ، ١٩٧٤ م .
- ابن حجر : أحمد بن علي (ت : ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م)
- ٤٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج ١٥ ، تح : عبد العزيز بن عبد الله ابن باز ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .
- ابن حزم : أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد (ت : ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م)
- ٤٣ - جمهرة أنساب العرب ، ج ٣ ، راجع النسخة : لجنة من العلماء بإشراف محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ م .
- ٤٤ - الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- الحسين بن أحمد بن يعقوب (ت : ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م)
- ٤٥ - سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني ، تح : عبد الله محمد الحبشي ، دار الحكمة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
- الحسيني : الحسن بن علي الشريف (ت : بعد ٨١٥ هـ / ١٤٥٠ م)
- ٤٦ - نبذ من كتاب ملخص الفطن والألباب ومصباح الهدى للكتاب ، تح : طلال جميل الرفاعي ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

- الحكمي : نجم الدين عمارة بن علي (ت : ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م)
- ٤٧ - تاريخ اليمن المسمى : المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، المكتبة اليمنية ، صنعاء ، ط ٣ ، ١٩٨٥ م .
- الحمادي : محمد بن مالك بن أبي القبائل (ت : ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م)
- ٤٨ - كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .
- الحمزي : عماد الدين إدريس بن علي (ت : ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م)
- ٤٩ - كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار ، تح : عبد المحسن مدعج المدعج ، مؤسسة الشراع العربي ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٩٢ م .
- الحميري : نشوان بن سعيد (٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م)
- ٥٠ - منتخبات في أخبار اليمن ، عني بتصحيحه : عظيم الدين أحمد ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٦ م .
- ٥١ - الحور العين ، تح : كمال مصطفى ، دار أزال ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٥ م .
- ٥٢ - ملوك حمير وأقيال اليمن ، تح : علي بن إسماعيل المؤيد ، إسماعيل بن أحمد الجرافي ، دار الكلمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .
- ابن حمير : أبو عبد الله جمال الدين محمد بن حمير (ت : ٦٥١ هـ / ١٢٥٤ م)
- ٥٣ - ديوان ابن حمير ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .
- الخزرجي : موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن (ت : ٨٠٢ هـ / ١٤١٠ م)
- ٥٤ - العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، عني بتصحيحه : محمد بسيوني عسل ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م .
- ٥٥ - المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطوط مصور ، وزارة الإعلام والثقافة ، مشروع الكتاب ٦ / ١ ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت : ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م)
- ٥٦ - المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١ م .
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت : ٦٨٢ هـ / ١٢٨٢ م)
- ٥٧ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج ٢ ، تح : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩ م .
- ابن دعثم : أبو فراس بن دعثم الصنعاني (من رجال القرن السابع الهجري)
- ٥٨ - السيرة المنصورية سيرة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (٥٩٣ - ٦١٤ هـ) ، تح : عبد الغني محمود عبد العاطي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
- ابن الديبع : أبو الضياء وجيه الدين عبد الرحمن بن علي (ت : ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م)
- ٥٩ - بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد وبذيله كتاب : الفضل المزيد على بغية المستفيد ، تح : يوسف شلحد ، مركز الدراسات والبحوث ، صنعاء ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
- ٦٠ - قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، المكتبة اليمنية ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .
- الديلمي : محمد بن الحسن (ت : ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م)
- ٦١ - بيان مذهب الباطنية وبطلانه منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد ، عني بتصحيحه : ر . شر . وطمان ، النشرات الإسلامية (١١) ، مطبعة الدولة ، استانبول ، ١٩٣٨ م .
- الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داؤد (ت : ٢٨٢ هـ / ٨٩٦ م)
- ٦٢ - الأخبار الطوال ، تح : عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٠ م .
- الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت : بعد سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م)
- ٦٣ - ترتيب مختار الصحاح ، تح : شهاب الدين أبو عمر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

- الزبيدي : محب الدين محمد بن محمد مرتضى (ت : ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م)
- ٦٤ - تاج العروس من جواهر القاموس ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٠٦ هـ .
- ٦٥ - إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، ج ٧ ، د . ت .
- السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت : ٩٠٢ هـ / ١٤٩٥ م)
- ٦٦ - الضوء اللامع وأهل القرن التاسع ، ج ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
- السويدي : أبو الفوز محمد أمين البغدادي (ت : ١٢٤٦ هـ / ١٨٣١ م)
- ٦٧ - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٩ م
- شرف الدين : عيسى بن لطف الله بن المطهر (١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م)
- ٦٨ - روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط مصور ، وزارة الإعلام والثقافة ، مشروع الكتاب ٧ / ١ ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت : ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م)
- ٦٩ - الملل والنحل ، ج ١ ، مطبعة صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .
- الشوكاني : محمد بن علي (ت : ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م)
- ٧٠ - البدر الطالع بمحاسن القرن السابع ، تح : حسين بن عبد الله العمري ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
- صاحب بن عباد (ت : ٣٨٥ هـ / ٩٩٦ م)
- ٧١ - الزيدية ، تح : ناجي حسن ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦ م .
- الطبراني : أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت : ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م)
- ٧٢ - المعجم الكبير ، ج ٢٢ ، حققه وخرج أحاديثه : حمدي عبد المجيد السلفي ، مطبعة الزهراء ، الموصل ، ط ٢ ، ١٩٨٣ م .

- العامري : يحيى بن أبي بكر محمد (ت : ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م)
- ٧٣ - غربال الزمان في وفيات الأعيان ، صححه وعلق عليه : محمد ناجي زغبى العمر ، دار الخير ، دمشق ، ١٩٨٥ م .
- ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله (ت : ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)
- ٧٤ - الألباءة على قبائل الرواة ، تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- عبد الجبار بن أحمد (ت : ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م)
- ٧٥ - شرح الأصول الخمسة ، تعليق : أحمد بن الحسين بن أبي هاشم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
- عبد الله بن حمزة (الإمام المنصور بالله) (ت : ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)
- ٧٦ - الشافي ، ج ١ ، تح : مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي ، مكتبة اليمن الكبرى ، صنعاء ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- ٧٧ - مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، تح : عبد السلام بن عباس الوجيه ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .
- ٧٨ - العقد الثمين في أحكام الأئمة الهاديين ، تح : عبد السلام بن عباس الوجيه ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .
- ابن عبد المجيد : تاج الدين عبد الباقي (ت : ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م)
- ٧٩ - بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تح : عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني ، دار الحكمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- العلوي : علي بن محمد العباسي (من رجال القرن الثالث الهجري)
- ٨٠ - سيرة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، تح : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي (ت : ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م)
- ٨١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٤ ، منشورات مكتبة المقدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .

- ابن فند : محمد بن علي الزحيف (ت : ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م)
- ٨٢ - مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار ، ج ٢ ، ج ٣ ، ويسمى :
الواحق الندية بالحدائق الوردية (شرح بسامة السيد صارم الدين الوزير) ،
تح : عبد السلام بن عباس الوجيه وخالد قاسم محمد المتوكل ، مؤسسة
الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .
- الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت : ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م)
- ٨٣ - القاموس المحيط ، تح : مؤسسة الرسالة بإشراف : محمد نعيم العرقسوسي ،
بيروت ، ط ٦ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
- الفلقشندي : أحمد بن علي بن أحمد (ت : ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
- ٨٤ - صبح الأعشى في صناعة الإنشأ ، ج ٤ ، ج ٥ ، شرحه وعلق عليه : محمد
حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
- الكتبي : محمد بن شاکر (ت : ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م)
- ٨٥ - فوات الوفيات ، ج ٢ ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
- ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت : ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)
- ٨٦ - البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٢ ، ج ١٣ ، دار النقوى ، شبرا الخيمة ،
ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
- ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت : ٢٧٥ هـ / ٨٨٩ م)
- ٨٧ - سنن ابن ماجه ، ج ٢ ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ،
١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
- مالك : أبو عبد الله مالك بن أنس الإمام (ت : ١٧٩ هـ / ٧٩٦ م)
- ٨٨ - الموطأ ، تح : عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار القلم ، بيروت ، ط ١ ، د . ت .
- الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت : ٤٥٠ هـ / ١٠٥٩ م)
- ٨٩ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .

- ابن المجاور : جمال الدين يوسف بن يعقوب (ت : ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م)
 ٩٠ - صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر ، ج ١ ، اعتنى بتصحيحه : أوسكر لوفجرين ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .
- المحلي : حميد بن أحمد (ت : ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م)
 ٩١ - الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية ، ج ٢ ، تح : المرتضى بن زيد الحسني ، مطبوعات مكتبة مركز بدر العلمي والثقافي ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦ هـ / ٩٥٨ م)
 ٩٢ - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٣ ، شرحه : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- المقرئزي : تقي الدين أحمد بن عبد القادر (ت : ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م)
 ٩٣ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ج ٣ ، صححه ووضع حواشيه : محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٦ م .
- ٩٤ - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، تح : أيمن فؤاد سيد ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن ، ١٩٩٥ م .
- الملك الأشرف : إسماعيل بن العباس (ت : ٨٠٣ هـ / ١٤١١ م)
 ٩٥ - العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، ج ١ ، تح : شاکر محمود عبد المنعم ، دار التراث الإسلامي ، بيروت ، دار البيان ، بغداد ، ١٩٧٠ م .
- الملك الأشرف : عمر بن علي بن رسول (ت : ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م)
 ٩٦ - طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تح : ك . و . سترسين ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .

- الملك الأفضل : العباس بن علي بن داؤد بن يوسف (ت : ٧٧٨ هـ / ١٣٧٧ م)
 ٩٧ - العطايا السنوية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ، تح : عبد الواحد عبد الله
 الخامري ، إصدارت وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ /
 ٢٠٠٤ م .
- الملك المظفر : يوسف بن عمر (ت : ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م)
 ٩٨ - المخترع في فنون من الصنع ، تح : محمد عيسى صالحية ، مؤسسة الشراع
 العربي ، الكويت ، ١٩٨٩ م .
- ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت : ٧١١ هـ / ١٣١١ م)
 ٩٩ - لسان العرب ، ج ١٠ ، اعتنى بتصحيحه : أمين محمد عبد الوهاب ومحمد
 الصاوي العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٧ م .
- المهلا : شرف الدين الحسين بن ناصر (ت : ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م)
 ١٠٠ - مطمح الآمال في إيقاظ جهلة العمال من سنة الضلال ، تح : عبد الله بن
 عبد الله بن أحمد الحوثي ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ،
 ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٠ م .
- مؤلف مجهول
 ١٠١ - تاريخ الدولة الرسولية ، تح : عبد الله محمد الحبشي ، دار الكاتب العربي ،
 دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م .
- مؤلف مجهول
 ١٠٢ - نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف ،
 ج ١ ، تح : محمد عبد الرحيم جازم ، المعهد الفرنسي للأثار والعلوم
 الاجتماعية ، صنعاء ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م .
- النوبختي : أبو محمد الحسن بن موسى (ت : ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م)
 ١٠٣ - فرق الشيعة ، منشورات دار الأضواء ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ /
 ١٩٨٤ م .

- النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف الدين (ت : ٦٧٦ هـ / ١٢٧٨ م)
 ١٠٤ - رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، أوضح معاني أحاديثه : مصطفى محمد عمارة ، رقمه وعلق عليه : محمد سعيد كوكي ، بيروت ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .
- الهمداني : الحسن بن أحمد (ت : ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م)
 ١٠٥ - الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء الذهب والفضة ، تح : محمد بن محمد الشعبي ، دار الكتاب ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٣ م .
- ١٠٦ - الإكليل ، ج ١ ، ٢ ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .
- ١٠٧ - الإكليل ، ج ١٠ ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، مكتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
- ١٠٨ - صفة الجزيرة العربية ، تح : محمد بن علي الأكوغ ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت : ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م)
 ١٠٩ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ٢ ، ج ٣ ، تح : جمال الدين الشيال ، دار العلم ، القاهرة ، د . ت .
- ابن الوردي : زين الدين عمر بن مظفر (ت : ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)
 ١١٠ - تنمة المختصر من أخبار البشر المعروف بـ : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، د . ت .
- ابن الوزير : عبدالله بن علي (ت : ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م)
 ١١١ - اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري (١٠٤٥ - ١٠٩٠ هـ) ، المسمى : طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى ، تح : محمد عبد الرحيم جازم ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

- الوصابي : وجيه الدين عبد الرحمن بن عمر (ت : ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م)
- ١١٢ - تاريخ وصاب الاعتبار في التواريخ والآثار ، تح : عبد الله محمد الحبشي ، مركز الدراسات اليمانية ، صنعاء ، ١٩٧٩ م .
- يحيى بن الحسين (الإمام الهادي إلى الحق) (ت : ٢٩٨ هـ / ٩١١ م)
- ١١٣ - المجموعة الفاخرة مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي إلى الحق ، تح : علي أحمد محمد الرازحي ، دار الحكمة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م
- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت : ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م)
- ١١٤ - غاية الأمتي في أخبار القطر اليماني ، تح : سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- اليعقوبي : أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر (ت : ٢٨٤ هـ / ٨٩٨ م)
- ١١٥ - تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، علق عليه ووضع حواشيه : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .
- أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم (ت : ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م)
- ١١٦ - الخراج ، تح : محمود الباجي ، دار أبو سلامة للطباعة والنشر ، تونس ، ط ١ ، ١٩٨٤ م .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة :

أ - الكتب :

- إبراهيم مصطفى وآخرون
- ١١٧ - المعجم الوسيط ، المكتبة الإسلامية ، تركيا ، د . ت .
- أحمد أمين
- ١١٨ - ظهر الإسلام ، ج ٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٥ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- ١١٩ - ضحى الإسلام ، ج ٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١٠ ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

- أحمد حسين شرف الدين
- ١٢٠ - تاريخ اليمن الثقافي ، ج ٤ ، مطبعة الكيلاني الصغير ، القاهرة ، ط ١٠ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ١٢١ - تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن ، مطبعة الكيلاني الصغير ، القاهرة ، ط ١٠ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- أحمد قائد بركات
- ١٢٢ - " النقد في اليمن " ضمن كتاب الموسوعة اليمنية ، مج ٤ ، مؤسسة العفيف الثقافية ، صنعاء ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م .
- أشواق أحمد مهدي
- ١٢٣ - التجديد في فكر الإمامة عند الزيدية في اليمن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
- الأصبحي : آلاء أحمد محمد
- ١٢٤ - المدرسة الأشرفية بتعز زمن الدولة الرسولية في اليمن ، دراسة معمارية تحليلية (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨ - ١٤٥٤ م) ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- الأكوع : إسماعيل بن علي
- ١٢٥ - البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- ١٢٦ - هجر العلم ومعاقله في اليمن ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
- ١٢٧ - الزيدية نشأتها ومعتقداتها ، ط ٣ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .
- ١٢٨ - الدولة الرسولية في اليمن (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨ - ١٤٥٤ م) ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .

- الأكوغ : محمد بن علي
- ١٢٩ - اليمن الخضراء مهد الحضارة ، مكتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، ط ٢ ،
١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- أيمن فؤاد سيد
- ١٣٠ - مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية
بالقاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ١٣١ - تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري ،
الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- الباشا : حسن
- ١٣٢ - الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .
- البستاني : بطرس
- ١٣٣ - محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٧ م .
- تول : كرستوفر
- ١٣٤ - " مصطلحات عربية في المعايير والأوزان من كتاب الجوهرتين العتيقتين
للهمداني " ضمن كتاب " أوراق في تاريخ اليمن وآثاره - بحوث ومقالات ،
ترجمة : يوسف محمد عبد الله ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ٢ ،
١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .
- جار الله : عبد الرحمن حسن
- ١٣٥ - ثلأ إحدى حواضر اليمن في العصر الإسلامي تاريخها وآثارها ، إصدارات
وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- ١٣٦ - ذي السفال مدينة الآثار الإسلامية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ،
صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- الجرافي : عبد الله بن عبد الكريم
- ١٣٧ - المقتطف من تاريخ اليمن ، منشورات العصر الحديث ، بيروت ، ط ٢ ،
١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

- جميل حرب محمود
- ١٣٨ – الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، مطبع سحر ، جدة ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .
- الحجري : محمد بن أحمد
- ١٣٩ – مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تح : إسماعيل بن علي الأكوع ، دار الحكمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
- ١٤٠ – مساجد صنعاء عامرها وموفيتها ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- الحداد : محمد يحيى
- ١٤١ – التاريخ العام لليمن ، ج ٣ ، (اليمن في موكب الإسلام) ، دار التنوير ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .
- الحداد : عبد الله عبد السلام صالح
- ١٤٢ – الاستحكامات الحربية بمدينة زبيد منذ نشأتها وحتى نهاية الدولة الطاهرية (٢٠٤ – ٩٢٣ هـ / ٨١٩ – ١٥١٧ م) دراسة أثرية ومعمارية ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- حسن خضير أحمد
- ١٤٣ – قيام الدولة الزيدية في اليمن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٦ م .
- حسين عبد الله
- ١٤٤ – اليعفريون ، الموسوعة اليمنية ، ج ٤ ، مؤسسة العفيف الثقافية ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م .
- حميد الدين : عبد الله بن محمد بن إسماعيل
- ١٤٥ – الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات ، مركز الرائد للدراسات والبحوث ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م .
- خالد محمد خالد
- ١٤٦ – رجال حول الرسول ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، د . ت .
- الخطيب : مصطفى عبد الكريم
- ١٤٧ – معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٦ م .

- خليفه : ربيع حامد
١٤٨ - الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي ، الدار المصرية اللبنانية ،
القاهرة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
- دهمان : محمد أحمد
١٤٩ - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ،
دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
- زامبور : ادوارد فون
١٥٠ - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة : زكي
محمد حسن بك وحسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ،
١٩٥١ م .
- الزبيدي : أحمد بن عبد اللطيف
١٥١ - مختصر صحيح البخاري ، دار السلام ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ /
١٩٩٦ م .
- أبو زهرة : محمد
١٥٢ - الإمام زيد حياته وعصره - آرائه وفقهه ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،
ط ٢ ، ١٩٧٤ م .
- السروري : محمد عبده محمد
١٥٣ - الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد الدويلات المستقلة
من سنة (٤٢٩ - ٦٢٦ هـ / ١٠٣٧ - ١٢٢٨ م) ، ط ١ ، ١٩٩٧ م .
- سلطان ناجي
١٥٤ - التاريخ العسكري لليمن (١٨٣٩ - ١٩٦٧ م) ، دار العودة ، بيروت ،
ط ٢ ، ١٩٨٨ م .
- السلطان : عبد العزيز محمد
١٥٥ - مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ، الرياض ،
ط ١٣ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

- السيد عبد العزيز سالم
- ١٥٦ - تاريخ الدولة العربية (تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية) ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
- الشامي : أحمد بن محمد
- ١٥٧ - تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، ج ٣ ، منشورات العصر الحديث ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- الشجاع : عبد الرحمن عبد الواحد
- ١٥٨ - النظم الإسلامية في اليمن ميلاداً ونشأة ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .
- الشرجي : قائد نعمان
- ١٥٩ - القرية والدولة في المجتمع اليمني ، دار التضامن ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م .
- الشماحي : عبد الله عبد الوهاب المجاهد
- ١٦٠ - اليمن الإنسان والحضارة ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٢ م .
- شمسان : إيمان أحمد
- ١٦١ - اليمن في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٠٣ هـ) ، دار الثقافة العربية ، الشارقة ، جامعة عدن ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- الشميري : فؤاد عبد الغني محمد
- ١٦٢ - تاريخ اليمن سياسياً وإعلامياً من خلال النقود العربية الإسلامية للفترة ما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين / التاسع والخامس عشر الميلاديين ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- شيعه : مصطفى عبد الله
- ١٦٣ - مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية العربية اليمنية ، وكالة أسكرين للدعاية والتجهيز الفني ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

- صبحي : أحمد محمود
- ١٦٤ - الزيدية ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- صبحي الصالح
- ١٦٥ - النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٥ م .
- ضومط : أنطوان خليل
- ١٦٦ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري (١٢٩٠ - ١٤٢٢ م) ، دار الحدائق ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠ م .
- العبادي : أحمد مختار
- ١٦٧ - قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، مؤسسة شباب الإسكندرية ، ١٩٨٨ م .
- ١٦٨ - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د . ت .
- عبده علي عبد الله
- ١٦٩ - الدر النضيد في تحديد معالم وآثار مدينة زبيد ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- ابن عثيمين : محمد بن صالح
- ١٧٠ - شرح الأصول الثلاثة ، دار البصيرة ، الإسكندرية ، د.ت .
- ١٧١ - القواعد المثلى في أسماء الله وصفاته الحسنی ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .
- العرشي : حسين بن أحمد
- ١٧٢ - بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام ، عني بنشره : الأب أنستاس ماري الكرملی ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٣٩ م .

- العسيري : محمد بن علي
- ١٧٣ - الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩ - ٦٢٦ هـ) ، دار المدني ، جدة ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- علي إبراهيم حسن
- ١٧٤ - التاريخ الإسلامي العام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- علي بيومي
- ١٧٥ - قيام الدولة الأيوبية في مصر ، دار الفكر الحديث ، القاهرة ، ١٩٥٢ م .
- علي سعيد سيف
- ١٧٦ - مآذن مدينة صنعاء حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي دراسة أثرية معمارية ، إصدارت وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- علي عبد الحلیم محمود
- ١٧٧ - الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ، دار عكاظ ، جدة ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م
- علي محمد زيد
- ١٧٨ - معتزلة اليمن دولة الهادي وفكره ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، دار العودة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١ م .
- ١٧٩ - تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري ، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٩٧ م .
- العمرجي : أحمد شوقي إبراهيم ،
- ١٨٠ - الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي (١٣٢ - ٣٦٥ هـ) ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م .
- عواجي : غالب بن علي
- ١٨١ - فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها ، ج ١ ، دار لينة ، دمنهور ، ط ٣ ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

- الغالبي : سلوى سعد سليمان
- ١٨٢ – الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم ودوره في توحيد اليمن
(١٠٥٤ – ١٠٨٧ م) ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- أبو غانم : فضل علي أحمد
- ١٨٣ – البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغيير ، مطبعة الكاتب العربي ،
دمشق ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- غيلان حمود غيلان
- ١٨٤ – محاريب صنعاء حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر
الميلادي ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ /
٢٠٠٤ م .
- الفضيل : يحيى بن عبد الكريم
- ١٨٥ – من هم الزيدية ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، صنعاء ، ط ١ ،
١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .
- الفقي : عصام الدين عبد الرؤوف
- ١٨٦ – اليمن في ظل الإسلام منذ فجره وحتى قيام دولة بني رسول ، دار الفكر
العربي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٢ م .
- الفيصلي : محمد أحمد مقبل
- ١٨٧ – تاريخ الدولة الطاهرية (٨٥٨ – ٩٤٥ هـ) ، إصدارات وزارة الثقافة
والسياحة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .
- الفيافي : محمد بن يحيى
- ١٨٨ – الدولة الرسولية في اليمن دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية
(٨٠٣ هـ – ٨٢٧ هـ / ١٤٠٠ م – ١٤٢٤ م) الدار العربية
للموسوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م .
- الكبسي : محمد بن إسماعيل
- ١٨٩ – اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ،
١٩٨٤ م .

- كحالة : عمر رضا
- ١٩٠ – معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
- الكرمللي : أنستاس ماري
- ١٩١ – النقود العربية وعلم النميات – رسائل في النقود للبلاذني والمقريزي والذهبي ، مطبعة إلياس الحديثة ، القاهرة ، ١٩٣٩ م .
- لقمان : حمزة علي
- ١٩٢ – معارك حاسمة في تاريخ اليمن ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٩٧٨ م .
- لويس معلوف
- ١٩٣ – المنجد في اللغة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط ١٨ ، د . ت .
- المباركفوري : صفي الرحمن
- ١٩٤ – الرحيق المختوم بحث في السيرة النبوية ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر ، ط ٤ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
- محمد الخضر
- ١٩٥ – نظرة الإمامية الأثنا عشرية إلى الزيدية بين حقيقة الأمس وتقية اليوم ، تقديم : محمد بن محمد المهدي ، مركز الإيمان ، إب ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .
- محمد سيد نصر وآخرون
- ١٩٦ – أطلس العالم ، مكتبة لبنان ، بيروت ، د . ت .
- محمد عبد العال أحمد
- ١٩٧ – الأيوبيون في اليمن مع مدخل في تاريخ اليمن الإسلامي إلى عصرهم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨٠ م .
- ١٩٨ – بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (٦٢٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢١٣ – ١٥١٧ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨٠ م .

- محمد فؤاد عبد الباقي
- ١٩٩ – اللؤلؤ والمرجان فيما أتفق عليه الشيخان ، ج ٢ ، دار الحديث ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
- المسند : صالح علي
- ٢٠٠ – كتاب صفات الله عز وجل ، دار المنني ، جدة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .
- المشرقي : رياض علي سعيد
- ٢٠١ – التعليم في الدولة الطاهرية من (٨٥٨ – ٩٢٣ هـ / ١٤٥٤ – ١٥١٩ م) ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- المقحفي : إبراهيم بن أحمد
- ٢٠٢ – معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .
- مؤلف مجهول
- ٢٠٣ – صفحات مجهولة من تاريخ اليمن ، تح : حسين أحمد السياغي ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- المؤيدي : مجد الدين بن محمد
- ٢٠٤ – التحف شرح الزلف ، مكتبة بدر ، صنعاء ، ط ٣ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
- النونو : يحيى بن الحسين ،
- ٢٠٥ – نظام الحسبة عند الزيدية ، مركز عبدي ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .
- الهمذاني : حسين بن فيض الله
- ٢٠٦ – الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (٢٦٨ – ٦٢٦ هـ) ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .
- الواسعي : عبد الواسع بن يحيى
- ٢٠٧ – تاريخ اليمن المسمى : فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٤٦ هـ

- الوجيه ، عبد السلام بن عباس
- ٢٠٨ – أعلام المؤلفين الزيدية ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
- الويسي : حسين بن علي
- ٢٠٩ – اليمن الكبرى كتاب جغرافي جيولوجي تاريخي ، مطبعة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .
- ب – الرسائل العلمية :
- البيضاني : إيمان محمد عوض
- ٢١٠ – الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في اليمن في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٢ م .
- العراشي : عبد الحكيم محمد ثابت
- ٢١١ – الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر الأول يوسف بن عمر (٦٤٧ – ٦٩٤ هـ) دراسة سياسية وحضارية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .
- عليان : محمد عبد الفتاح
- ٢١٢ – الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد بني رسول باليمن ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- فضل محمد صالح محمد
- ٢١٣ – الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي (عصر الدولة الرسولية) ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .
- الميسري : محمد عبد الله سعيد
- ٢١٤ – الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ودوره في إحياء الدولة الزيدية في اليمن ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م .

- هديل : طه حسين عوض
- ٢١٥ - التمردات القبلية في عهد الدولة الرسولية وأثرها على الحياة العامة في اليمن ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
- ج - البحوث والدوريات :
- بلعفير : محمد بن صالح
- ٢١٦ - الكنز ، مجلة سبا ، مجلة تاريخية حولية تصدر عن قسم التاريخ كلية الآداب ، جامعة عدن ، العدد العاشر ، ديسمبر ، ٢٠٠١ م ، ص ٢٠ .
- الحوثي ، بدر الدين بن أمير الدين
- ٢١٧ - المطرفية ، مركز العدل والتوحيد للدراسات والبحوث ، صعدة ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
- شائف عبده سعيد
- ٢١٨ - الصراع الاجتماعي في اليمن في عهد الأيوبيين والرسوليين ، مجلة سبا ، العدد السابع ، دار جامعة عدن ، عدن ، ١٩٩٨ م ، (ص ٨٧ - ١٢٠) .
- شرويد : عبد الرحمن أحمد أحسن
- ٢١٩ - نسمات العبير من حياة الإمام أبي طير أحمد بن الحسين ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .
- عبد الغني محمود عبد العاطي
- ٢٢٠ - أبو فراس بن دعثم وكتابه السيرة المنصورية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، العدد العاشر ، ١٩٨٩ م ، (ص ٢٢٤ - ٢٦٣) .
- العروسي : محمد علي قاسم
- ٢٢١ - العمارة اليمنية في العصر الإسلامي ، مجلة الإكليل ، مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة ، صنعاء ، العدد (٢٧) ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، ص ٦٧ .

- فنستر : بربارة
- ٢٢٢ - تقارير أثرية حول بعض المباني الإسلامية في اليمن ، ج ١ ، ترجمة : عبد الفتاح عبد العليم البركاوي ، المعهد الألماني للآثار ، صنعاء ، ١٩٨٢ م .
- المهرّم : مصلح ضيف الله يحيى علي
- ٢٢٣ - قبسات من سيرة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان ، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .
- ابن الوزير : زيد بن علي وآخرون
- ٢٢٤ - حوار عن المطرفية الفكر والمأساة ، كتاب المسار ، العدد الأول ، مركز التراث والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

د - المراجع الاجنبية :

- **Balafier, Mohamed .**
225 - *Trésors et Collections de Monnaies islamiques des Musées du Yémen*, Thèse de Doctorat , Université de Paris - Sorbonne (Paris IV), 1994 .
- **Lowick . N . M .**
226 - *The Mansuri and the Mahdawi Dirham* , N . C , The Royal Numismatic Society , 1983.
- **Nützel , Heinrich .**
227 - *Münzen der Rasuliden Nebst Einem Abriss der Geschichte Dieser Jemenischen Dynastie / Coins of the Rasulids Comprising A Synopsis of The History of The Yemenite Dynasty* ,Translated by Dr . Alferd Kinzelbach , Mainz , 1987 .
- **Serjeant and Lewcock ,**
228 - *Sanaa and Arabian Islamic City* , World of Islam Festival trust London , 1983 .

ABSTRACT

This thesis discusses the history of the Zeidi State in Yemen during the period between 626 – 858 A.H / 1229 – 1454 . The research includes the political and civilized aspects .

As I started my trip with the Zeidi State in my M A . and specifically during the era of Al- Imam Al Mansoor Billah Abdulla bin Hamza 583 – 614 A.H / 1188 – 1218, I was allured by the opinion of continuing this trip to embrace the period that followed the era as no one wrote about it . What drew my attention to this mater , is the struggle waged by the sons of this Imam with Al Imam Al Mahdi Ahmed bin Al Hussein for keeping up the power among them as if they have been overlooked or pretended to forget that Al Imama Al Zeidia is a system standing on the principle of contract and selection and not on inheritance and that it has conditions and basics to be available in the person seeking it until it led them to assassinate him Shawabah battle in the syear 656 A.H / 1259 .

In view of the presence of king Al Mudaffer Yousuf bin Omer on the head of Al Rasooliyah State , the Zeidi nonbility suffered a lot from his political experience and good management , and the power of his economical and military force . They could not get up at all during the era of his sons Al Ashraf and Al Mo'ayed after him who got most power of that era .

Between the two era of Al Rasoolya power represented by Imam Al Nasser Salahuddin Mohamed bin Ali, the positions of the two sides fluctuated as King Mudaffar died and his death affected Al Rasooliyah State which lost its domination of the upper Yemen gradually until Sana'a , symbol of power and domination .

Al though it was thought that Al Ashraf Alzeidiyeen ought to exploit this matter for their interest to bring back the glory of their devastated State , but with the exception of Al Imam Al Mahdi

Mohamed bin Al Muthhar 701 – 728 A.H / 1302 - 1328 , they entered into a struggle between them to take Imamate. But had it not been for Al Rasooliyah State which was suffering restlessness in the lower Yemen, Al Zeidiyah State would have been overcome at that time .

In the 750 A.H / 1350 Al Ashraf Al Zeidyeen realized that they cannot follow this course until the end and that would be their end. They decided erection of Al Imam Al Mahdi Ali bin Mohamed who had the prestige to what Al Zeidyah State arrived at of development lately After he paved the way for his son Al Imam Al Naser Salahuddin so that Al Zeidyah State witnessed development in various political and civilized , civil and military aspects as he was considered as one of the few Zeidiyeen Imams who formed a real threat to Al Rasooliyah State when his army reached to the walls of Zabid Town, a thing which Al Rasoolyeen were not accustomed to it.

Hence the civilized renaissance that occurred during the era of Al Imam Al Naser Salahuddin 773 - 793 A.H / 1372 - 1391 is attached to stabilized period founded by his father Al Imam Al Mahdi during his era, and with the power of Al Imam Al Naser personality who defeated the enemy and subdued the tribes. This was not by coincidence as the material probabilities available, assisted in this renaissance .

It is inevitable to assign the stages of weakness, division and strife which the Imammate and Zeidees State both suffered, the research concluded some of the political, economical and social reasons for this point .